

تاليف: تريقور برايس ترجمة: رفعت السيدعلي

المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر

رسائیل عطوا الملوك نه اشرة الأدنى القديم

المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر

تالین، تربی**قور** برایس ترجمة، رفعتالسیدعلی



حار العلوء للنشر والتوزيع

تليم فون: ۲۰۲۱۵ (۲۰۲)

فساكسى ، ٥٧٩٩٩٠٧

إدارة البيعات، ١٠١٦٣٦١٩٢٠

برید الیکترونی: daralaloom@hotmail.com

المراسكالات: ص.ب٢٠٢ محمد فريد - ١١٥١٨ القاهرة

الكتــــاب: رسائل عظماء العلوك في الشرق الأدني القديم المراسلات المكية في العصر البرونزي المتأخر

الكاتب، تريقوربرايس

التسرجسمسة، رفعت السيد على

رقهم الإيسداع: ١٦٩٩/٢٠٠٧

الترقيم الدولي: 5-977-380-977

التسدقسيق: الحسيني عمران

التنفسيسن، شركة الأمل للطباعة والنشرت ٢٩٠٤٠٩٦

الطبعة الأولى 2001 جميع الحقوق محفوظة

رسائل عظماء الهلوك

فس الشيرق الأدنس القديم المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر



دعوة مفتوحة للدفاع عن التاريخ القديم، تهدف للتعريف بالثقافة المضادة وترجمة نصوصها، ونشر الردود عليها في سبيل المساهمة في إحياء حركة تنوير فكرية/تاريخية تعتمد العلم والأصالة والجدية.

المسرف العسام
رضا الطويا
مستشار التحرير
كسمال رمازي
مديرا التحرير
رفعت السيد على
مسحسمود الطويل
سكرتير التحرير



تضم المنطقة التي نشير إليها باسم الشرق الأدنى - وهي تسعية غير دقيقة إلى حد كبير - دولاً كثيرة تعتد من تركيا في الغرب حتى العراق في الشرق، وتعتد باتجاه الجنوب من سوريا إلي لبنان وإسرائيل والأردن الشرق الشرقية لشبه جزيرة سيناء. وتعتد دراستنا عن الشرق الأدنى القديم الشرقية لشبه جزيرة سيناء. وتعتد دراستنا عن الشرق الأدنى القديم لتشمل مصر أيضاً، فقد كانت للمملكة التي نهضت على ضفاف النيل علاقات سياسية وتجارية وثيقة بعمالك الشرق الأدنى القديمة، كما كان لها تأثيرها القرى ونفوذها الفعال على تلك المالك خلال الألف الثاني قبل الميلاد. كما لعبت جزيرة قبرص أيضاً دوراً في شئون الشرق الأدنى القديم، في الوقت الذي لم تلعب فيه اليونان ومنطقة ميسينيا إلا دوراً هامشياً غير محسوس، غير أنها من العناصر التي لا يمكن إهمالها عند دراسة العلاقات الدولية، في المرحلة التاريخية التي يمكن إهمالها عند دراسة العلاقات الدولية، في المرحلة التاريخية التي

والعصر الذي نتناوله في هذه الدراسة على وجه التحديد هو ما يطلق عليه العصر البرونزي المتأخر الذي يغطى على وجه التقريب خمسمائه عام، تمتد من بدايات القرن السابع عشر إلى بدايات القرن الثاني عشر، وقد شهد ذلك العصر صبعود عدد من الإمبراطوريات العظمى، اقتسم حكامها السيطرة على المنطقة فيما بينهم، ولم تكن سيطرة أي من تلك الإمبراطوريات على مناطق نفونها تتم بسهولة ويسر، وبالقدر نفسه لم يكن بإمكانها المفاظ عليها دون عناء.

وحتى في عصرنا الحالى بكل ما يحمله ويقدمه من مزايا الاتصالات الحديثة وترسانات الأسلحة الفتاكة، من الصبعب على أية قوة عظمى السيطرة الدائمة على أية منطقة من مناطق الشرق الأدنى شديدة التعقيد،

وقد كانت الصعوبة في المرحلة الزمنية التي نتحدث عنها أكبر كثيرًا أو أشد تعقيدًا.

وخلال العصر البرونزي، كانت الحاجة شديدة إلى وسائل فعالة من الاتصال والتواصل، للحفاظ على الهيمنة السياسية والعسكرية على مناطق بعينها، كما كانت ضرورية ولازمة للروابط التجارية الدولية التي يعتمد عليها ليس مجرد رضاء الدول، بل بقاؤها ذاته. كان التواصل الفعال يعتمد بالدرجة الأولى على سهولة الانتقال بلا عائق براً وبحراً. كانت مخاطر ذلك الانتقال عبر أرجاء الشرق القديم مخيفة ومحبطة. كانت الانتقالات عبر مسافات طويلة بالمقاييس القديمة، سواء التي يقوم بها التجار، أو مبعوثر الملوك، أو البعثات الدبلوماسية، أو الجيوش في حملاتها العسكرية، تنطوي على المرور بمناطق وعرة شحيحة الماء أو سلوك طرق موبوءة بالعصابات وقطاع الطرق، وأحياناً عبر مناطق يصعب اجتيازها بسبب أحوال المناخ الموسمية، وكان الانتقال البحري لا يقل خطراً إن لم يزد، مع احتمالات هبوب العواصف الشديدة أو هجوم قراصنة البحر، مع يزد، مع احتمالات هبوب العواصف الشديدة أو هجوم قراصنة البحر، مع تقة عدد المرافئ الأمنة على طول سواحل البحر المتوسط.

كما أضافت تعقيدات الأصول العرقية السياسية اشعوب الشرق الأدنى القديم تحدياتها ومشاكلها الخاصة، التي واجهت كبار ملوك تلك المرحلة. كانت المنطقة تضم كثيراً من الممالك الصغيرة المتباينة الأعراق، وقبائل بدوية وتجمعات شبه بدوية، ومجتمعات مستقلة وقبائل جبلية شديدة العدوانية— أعراق كثيرة ولغات ولهجات لا حصر لها، إلا أن أربعة رجال فقط تمكنوا من السيطرة على أقوام تلك المنطقة خلال العصر البرونزى المتأخر، وتقاسموا النفوذ والسيطرة على كل تلك الأخلاط، فكيف تسنى لهم تحقيق ذلك؟

أحد العناصر الهامة التي يسرت تحقيق ذلك نجاحهم في تحقيق نظم من التواصل الدائم فيما بينهم، وقدرتهم على التعاون على حل كل القضايا التي تطرأ بالطرق الوبية الدبلوماسية، أكثر من لجوئهم إلى

حسمها عن طريق الحرب والقوة، ونشأت ممالك وإمبراطوريات عظمى فى منطقة ما بين النهرين، فى الألف الثالث وبدايات الألف الثاني قبل الميلاد (أى في العصر البرونزى المبكر والوسيط) إلا أنها كانت قصيرة العمر، فقد فشل قادتها فى استيعاب وفهم تعقيدات إدارة مناطق واسعة كسبوها بحد السيف دون وجود إدارات قوية، تتفهم كيفية التنسيق مع حكام القوى المنافسة الطامحة هى الأخرى إلى بسط نفوذها فى المنطقة. كانت إمكانية تحقيق تعايش سلمى تعتمد على التوصل إلى تسويات، عن طريق التفاوض بين اثنين أو أكثر من كبار الملوك، والتوافق على تقسيم مناطق النفوذ فى المناطق الخاضعة لهم، وهو ما لم يتم أبدًا قبل العصر البرونزى المتأخر.

نهضت خمس ممالك عظمى في ذلك العصر البرونزي المتأخر:

- ممكلة الحثينيين وكان موطنها الأساسى فى منطقة وسط الأناضول،
- والمملكة الحورانية الميتانيين فى أعالى ما بين النهرين وشمال سوريا،
- ومملكة أشور فى شمال ما بين النهرين، ونهضت المرة الثانية بعد انهيار الإمبراطورية الميتانية فى القرن الرابع عشر، والمملكة البابلية القسيطية فى جنوب منطقة ما بين النهرين، والمملكة المصرية التى نهضت مرة أخرى تحت حكم سلالة من أبنائها بعد طرد الهكسوس، وعلى مدى المصر البرونزى المتأخر اقتسمت ممالك أربعة الهيمنة والسيطرة على مناطق الشرق الأدنى، وحات أشور محل الميتانيين في النصف الثانى من مناطق الشرق.

كون حكام ثلك المالك ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً نادى النخبة (1) فقد اكتسب كل منهم وضع وصفة «ملك عظيم»، ووجه كل منهم الخطاب إلى الآخر بصفته «أضاه الملك»، وحافظوا علي التواصل الدبلوماسى المنتظم مع بعضهم. وكانوا في بعض النواحى أفضل كثيراً من كونهم مجرد أمراء حروب، إلا أن الحروب كانت تنشب بينهم من أن لآخر خلال ذلك العصر البرونزي المتأخر. غير أن السياسات الوبية الفعالة كانت لها

اليد العيا على التطلعات العسكرية ضيقة الأفق. أيقن كبار ملوك تلك الحقبة أنه بالإمكان تحقيق مكاسب أكبر على مستوى النفوذ الشخصى للملوك وعلى مستوى الرضاء والانتعاش لممالكهم، بالتوافق والتحالف مع الخصم أكثر مما يمكن تحقيقه باللجوء إلى حد السيف.

كانت المنطقة على اتساع يكفى التحقيق التطلعات والطعوحات للجميع، كما كان للتفاهم السلمى بين الأنداد فوائد جمة، زادت من الفرص التجارية والحصول على المواد المطلوبة لكل منها من بلاد أخرى، فضالاً عن ذلك، استفاد كل الملوك من الاستقرار الذي ساد المنطقة، نتيجة للمعاهدات التى أبرموها فيما بينهم (وهناك المزيد من التفاصيل عن ذلك الجانب في الفصل الثاني).

اعتمدت علاقات الملوك بيعضهم في المقام الأساسي والجوهري على التواصل الودي الدبلوماسي فيما بينهم، ويدرجة أكبر على الرسائل التي كانوا يتباداونها، ومن خلال تلك الرسائل -على وجه التخصيص- تتبدى الأشكال الدبلوماسية التي سادت علاقات الشرق الأدني في تلك للرحلة في أجلى مسورها، إلا أن الأمس لم يخل من بعض المواقف المدهشسة، وأحيانًا خبيبة الأمل التي كانت تنتج عن بعض المواقف. والقراءة الأولى للرسائل لا تقدم الكثير، وتبدو في أحيان كثيرة وكأنها تصريحات رسمية، وتبدو في أحيان أخرى وكأن لاهم لن كتبوها إلا التشكي بسبب أمور تافهة، مثل قلة قيمة الهدايا المرسلة، وعدم إظهار الاحترام والترحيب بمبعوث ملكي، أو التفاعس عن إرسال رسالة تعاطف لأخ ملكي، حين ألمت به وعكة صحية. وقد تبدو مثل تلك الشكاوي تافهة ومثيرة للشفقة، على الأقل بمسترى تفكيرنا المامس وأكن، كما سنتين، كانت لها أيعادها التي تتجاوز الشفقة؛ لأنها تلقى الضوء على أنماط من القيم والمبادئ والرسميات التي يتبين بعد ملاحظتها بدقة أنها كانت مهمة ولازمة، لنجاح الإتفاقات التي يدور حولها تفاوض، وعلى استمرار الوفاق والتحالف في عالم الدبلوماسية الدولية لتلك المرحلة التاريخية. كما تنير لنا الرسائل بعض جوانب المكونات الشخصية لأولئك الذين كان مصير عالم الشرق الأدنى القديم بين أيديهم، والرسائل توضح جوانب لم تكن أبدًا لتظهر على تماثيلهم ولا في وثائقهم. وتأخذنا الرسائل أيضا إلي الاقتراب اقترابًا حثيثًا من العصور التي عاش فيها من كتبوا تلك الرسائل من إعادة رؤية تلك الرسائل. والأهم من ذلك كله، تمكننا الرسائل من إعادة رؤية تلك المرحلة كما كان يراها ممن عاشوها، من خلال إدراكهم المواقف وردود أفعالهم عليها.

حين كنت مازلت طالبًا جامعيًا كلفت بقراءة بعض أعمال سيشرو، كمادة مرجعية لإعداد دراسة عن العقود الأخيرة للجمهورية الرومانية. وكانت خطب رجل الدولة، الرومانية مصدرًا قيمًا للمعلومات عن تلك مرحلة من تاريخ روما، إلا أن قراءة الرسائل التي كتبها سيشرو إلي أصدقائه ورفاقه من رجال الدولة، والرسائل التي تلقاها منهم، جعلتني أحديث مع حالة انسمت بوضوح رؤية للمناخ السياسي في روما، في تلك المرحلة التي شهدت تقلبات واضعطرابات سياسية عنيفة، فقراءة أحداث روما كما كانت تحدث وكما ستجلها ورأها من صنعوها وعاشوها ويخلق الإحساس لدي القارئ أنه يعايش الأحداث كما وقعت، أكثر بكثير مما يحصل عليه المره من مجرد قراءة الخطب السياسية.

وبالمثل، تمكننا الرسائل المنتمية إلي العصير البروبزي المتأخر من إعادة معايشة أحداث الشرق الأدني القديم، وفي بعض المالات نجد أنفسنا نعيش تلك الأحداث وهي في مرحلة المسنع، ومثل ذلك الاقتراب من الأحداث القديمة أكثر قيمة من مجرد قرامة وسرد الأحداث، كما كتبها طرف ثالث بأثر رجعي، وأحيانًا تكتب الأحداث بعد فسرات طويلة من خفوت أصدائها.

وبالطبع، لا تعدو الخطابات كونها أحد مصادر المعلومات التي نعتمد عليها في إعادة تركيب أحداث تاريخ الشرق الأبني القديم، ولابد لنا أن نستخلص كل ما يمكن استخلاصه من مختلف المسادر، إن كان لنا أن نقدم صورة متوازنه، يمكن الاعتماد عليها بقدر الإمكان لمختلف الممالك التي كانت تكون ذلك العالم، وهو المنهج الذى التزمت به في التاريخ الذي قدمته عن المملكة الحشينية (2)، إلا أننى أثناء ذلك زاد اهتمامي بتخصيص كتاب مستقل للرسائل المتبادلة في العالم الذي عاشت فيه الإمبراطورية الحثينية. وهناك قصيص شيقة تظهر من خلال تلك الرسائل ولسوء الحظ فإن محتوى الرسائل يمكن ذكره بطريقة عارضة في مجرى السياق العام للتاريخ لذي لابد له أن يعتمد علي مدى واسع من المصادر المختلفة، دون أن يعطى لأحد تلك المصادر أهمية خاصة على حساب باقي المصادر. ومن فنا وانتنى فكرة تقديم هذا الكتاب.

لقد تناولت قبل ذلك يعض تلك الرسائل وقدمتها في تاريخ الدولة الحثيثية، كما قدمت بعضها الآخر في كتاب آخر عن المجتمع احثيثي(3)، وسوف أعيد عرضها مرة أخرى في هذا الكتاب، إلا أنها تقدم هنا بمعالجة تقصيلية كاملة، مع الحرص على إيرادها في المضع الصحيح لها، في سياق أحداث الشرق الأدني القديم بوجه عام، وفي موضعها. المنحيح من ترتيب مراسلات الملوك بوجه خاص، ويعد من وجه التعميم أن نطلق عليها مراسلات ملكية؛ إذ أن يعضها كانت مرسلة أو واردة من ملك إلى أحد أضراد أسترته، أو المكس، أو إلى ومن بعض كيار رجال الدولة ، وكل الرسبائل التي ظلت باقبة حتى عصرنا وتم العشور عليها مستوعة من ألواح الطين، ومنقوش عليها تصوص الرسائل قبل جِفَافِها، وجِدير بِالذِكر أنْ نقرر أنْ مِنْ كَانُوا قادِرينَ على القراءة والكتابة من خارج موظفي الدولة قلة نادرة. إن ما عثر عليه في مواقع دور حفظ الرسائل بعد نموذجًا لكل الراسلات التي تبويلت في تلك الحقبة، ومهما كان هجم وكم الرسائل التي عثر عليها، إلا أنها لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من الحجم والكم الحقيقي والفعلى الذي كتب بالفعل. ولحسن الحظ، تمكُّنا من معرفة تصويص رسائل مفقودة من خلال نقل أهم فقراتها في رسائل الرد عليها، وهي عادة كانت شائعة في ذلك العصر، وسنورد تفاصيل أكثر

عن ذلك في القصل الثالث.

وهناك ملحوظتان أخريان عن النصوص التي عثر عليها حتى الآن:

- أولهما أن الرسائل المتبادلة بين البلاطين، الحثيني والمصرى من أبرز النصوص التي نتناولها في هذا الكتاب ويرجع ذلك إلى أنها انعكاس المصادر التي عثر فيها علي تلك الرسائل، فأغلب الرسائل المعروفة لنا عن تلك الرحلة التاريخية عثر عليها في دور حفظ رسائل مصر وتركيا، وأيضًا في دار حفظ مملكة أصغر هي أوجاريت والتي كانت ترتبط بعلاقات وثيقة مع مصر والحثينين، عدا ذلك، لا يوجد شك في أنه خلال النصف الثاني من العصر البرونزي المتأخر، في المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها أغلب الرسائل، هيمنت مصر والمملكة الحثينية على المشهد العالمي، اذلك لا يدهشنا أن نجد أنهما لعبا الدور الأكبر في شبكة الاتصال الدولي، وفي التواصل الدبلوماسي أكثر من الممالك الكبري الأخرى، التي تشاركهما نظريًا في الهيمنة على شئون ذلك العالم.

- ثانيهما: هناك احتمالات قرية بظهور مواقع دور حفظ أخرى والكشف عنها في الأعوام المقبلة. ويعد العثور على أماكن دور الحفظ في مواقع مثل أوجاريت وإيمار، وداخل البلاد الحثينية في مواقع ماسات (الحالية)، وأورتاكوى وكوزاكل 1 من الموامل التي تعطى أمالاً قوية أن مزيداً من البحث والتنقيب في أرجاء الشرق الأدنى سيظهر للوجود دور حفظ أخرى مازالت مطمورة. إلا أنه حتي هذه اللحظة، فإن أهم مجموعة مراسلات تم الكشف عنها على الإطلاق، مجموعة مراسلات تل العمارة اليها التي ظهرت للوجود في مصر عام 1887. وعلى ضوء تكرار الإشارة إليها في كل الكتاب وأهميتها القصوى في عرض الدبلوماسية العالمية التي سادت العصر البرونزى المتكفر، أضفت ملخصاً مختصراً عن طبيعتها ومحتواها في آخر الكتاب كملحق مستقل.

وهناك أكثر من منهج يمكن اتباعه عند تناول مراسلات كبار ملوك العصر البرونزي المتأخر في الشرق الأدنى. واتبم كوهين وويستبروك

المنهج التصنيفي على أساس المفاهيم، في سلسلة عظيمة من المقالات وجمعت بتحريرهما عام 2000. أما المنهج الذي اتبعته فهو الاقتراب من كاتبى تلك الرسائل، ومن القصص والمواضيع التي تحتويها.

هناك رسائل مازات بانتظار نشر نصوصها، ومنها ذلك العدد الهائل الذي يصل إلى 3000 رسالة، والتي عثر عليها في موقع سابينوا في الأناضول (أورتاكوي حاليًا)، داخل البلاد الحثيثية، وسوف يشار إلى تلك الرسائل التي لم تنشر نصوصها باختصار.

إبريل 2003 تريفور برايس باحث استشاري، وعضو شرقي في جامعة كوينزلاند باستراليا وزميل الأكاديمية الأسترالية للعلوم الإنسانية.

الجزء الأول

إعادة بناء المشهد

فضلت استعمال المصطلح «بابل»، الذي يستعمل حالبًا للإشارة إلى الملكة التي كانت مدينة بابل تفرض هيمنتها عليها، بأن استخدم اسم المدينة في الإشارة إلى كليهما بالاسم ذاته، أي المدينة والمملكة، إلا أنه بالدرجة الأولى اسم يشير إلى مساحة جغرافية للمنطقة بأجمعها، التي كانت تشكل المملكة.



الخمس ممالك الكبرس

يقدم لنا العصر البرونزي المتأخر صورة معقدة، إلا أنها كانت دائمة التبدل والتباين في الوقت ذاته، وهو صورة للتوازنات التي كانت دائمة التغير بين للمالك العظمي، من اميتداد النفوذ وتقلصه، ومن تغير الولاء وتبدله، وتغير التحالفات وتحولها في صراع وتنافس عظماء ملوك تلك المالك الخمس، وفي تعاونهم معًا في بعض الأحيان، وفي تأمين نجبيبهم من المنطقة طبقًا لقوة كل منهم، ومن بحثنا في مراسلات ذلك العصير، سنجد أنفسنا مضطرين للانتقال مابين ملوك تابعين إلى عاصمة مملكة كبرى، ومن بلاط ملك عظيم، إلى بلاط ملك عظيم آخر. وهو ما ينطوي على التحدي، ويبعث التعقيد الميز في المشهد الدولي في العصر البرونزي المُتَأْخُرِ الحيرة لدى القارئ غير الملم بمعرفة كافية عن التطورات التاريخية لذلك العصر، والتركيبات السياسية التي سادت ذلك العصر، وهكذا، وقبل انتقالنا إلى نصوص المراسلات ذاتها، لابد أن نولي العلاقات التاريخية والسبياسية التي تبودلت فيها تلك الرسائل بعض الاهتمام، وهذا ما سنقدمه في أول فصلين، مركَّزين اهتمامنا قبل أي شيء آخر على صبعويا وانحدار الخمس ممالك الكبرى، التي مارس ملوكها هيمنتهم على الشرق الأدنى خلال مدى زمني يقراوح من مائتي إلى خمسمانة عام، وهي ممالك أشور، بابل، والملكة المسرية، والمثينية والمتانية.(1)

مملكة أشور2

تبرز الملكة الأشورية بوضوح في المراسلات المبكرة للنصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، كجماعات من التجار الناجدين الذين أسسوا سلسلة من مستعمرات تجارية قوية، على طول الطرق البرية، التي كانت تربط عاصمتهم أشور بمدن وممالك شرق ووسط الأناضول.

ونعلم عن أنشطتهم من خلال 15000 اوح استخرج أغلبهم من منطقة كانش (نيسا) وهي المنطقة التي كانت تعد مركز الالتقاء التجاري ومحور الانشطة التجارية.

كانت كانش تقع عند منجنى النهر الذي أطلق عليه الحثينيون اسم مارسانيتا، وألذى تحول في العصور التالية إلى نهر ماليس (ثم كيزيل ايزمال حاليًا)، بلغت المستعمرات الأشورية شئنًا عظيمًا ومتقدمًا في التعاون الدولي بين الأشوريين وشعوب الأناضول، واعتمد نشاط التبادل التجارى على التبادل السلعي المطلوب من منتجات شعوب لشعوب أخرى. كانت السلعة الرئيسية من جانب الأشوريين هي المنسوجات والقصدير المستخدم في صناعة الأواني، مقابل الذهب والفضية المستخرج من الاناضول.

وهناك رسائل عديدة من بين الرسائل التجارية تعد شهادة لا تقبل الشك عن الكفاءة العائية التي أظهرها التجار الأشوريون في معاملاتهم التجارية، بالرغم من التوبّرات التي لم يكن من المكن تجنبها والتي ظهرت من خلال تلك الرسائل. مرت عمليات التبادل التجاري بمرحلتين في سياق تطورها، بدأت الأولى من الربع الأخير للقرن العشرين قبل الميلاد، حتى منتصف القرن التاسع عشسر قبل الميالاد، (أي من بدأية حكم الملك الأشوري ارشوم الأول حتى حكم بوزور – أشور الثاني)، في حين بدأت المرحلة الثانية من أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد، حتى النصف الأول للقرن الثامن عشر قبل الميلاد.

كانت الحروب والصراعات بين ممالك الأناضول هى السبب الرئيسى المؤكد لترقف النشاط التجارى في نهاية المرحلة الأولى، وفي إنهائها كليًا عند نهاية المرحلة الثانية.3

وارتبطت مرحلة تبادل الرسائل يرجل من سلالة العموريين الذي ترك

بصمة واضحة على التاريخ الأشوري كأحد أعظم الملوك الأشوريين المبكرين، وكأحد أقوى الشخصيات في منطقة الشرق الأدني في زمانه. والرجل الذي نقصده هو شمشي عدد (1813 -1871).4

فبعد أن احتل مدينة إيكالاتوم علي نهر دجلة، أصبحت العاصمة الأسورية وهي مدينة أشور، التي كانت تقع على الضفة المقابلة للنهر تحت رحمت، ثم اتجه بقواته إلى الغرب. كان أول أهدافه الاستراتيجية هي غزو مملكة مارى ذات الموقع المتعيز استراتيجيًا، وكان يحكمها في ذلك الوقت ملك يدعى يحدون – ليم، وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر الغرات، كانت أيضًا لمملكة ماري تطلعاتها الإمبريالية الخاصة بها، وكانت تلك التطلعات تعارض مع التطلع الاشورى للتوسع غربًا، وقام شمشى – عدد بمواجهة ذلك التحدي علي الفور، فهاجم قوات يحدون – ليم، واشتبك معهم في معركة، وهزمهم هزيمة حاسمة، وبعد ذلك بفترة قصيرة، اغتيل يحدون معركة، وهزمهم هزيمة حاسمة، وبعد ذلك بفترة قصيرة، اغتيل يحدون مملكة مارى لنفسه، وبعد تخلصه من أهم منافس له، انفتح الطريق أمامه لتحقيق طموحاته التوسعية، وخضعت له كل منطقة أعلى ما بين النهرين.

كانت الاعتبارات التجارية على وجه التقريب من أول وأهم أهداف شمشي - عدد وحملاته العسكرية الفازية، وعن طريق نجاح حملاته العسكرية وتوسيع مناطق نفوذه أصبح يهيمن على أهم طرق التجارة التي تربط بين أشور وسوريا، وكذلك الطرق المؤدية إلى شرق ووسط الأناضول،

واستقر شمشى – عدد في العاصمة الجديدة التي شيدها باسم شوبات إنليل، وعمد إلي تعيين ابنيه إشمى – داجان، ويسماح – عدو كنواب له على إيكالاتوم ومارى، لتسهيل إدارة شئون البلاد، وخول لهما التعامل مع الممالك الأخرى على قدم المساواة، ولا يخضعان لأى أحد إلاه. كان من الضرورى لأمن وسلامة مملكة شمشى – عدد أن تتم الهيمنة والسيطرة القوية على الحدود، بتأمين وتقوية المدينتين اللتين عهد بهما إلى ابنيه (5). وتظهر الرسائل اللهجية الكثيرة التي اكتشفت في مارى

المراسلات التي تمت بين شمشي -- عدد وابنه الأصغر يسمع -- عدو الكثير من شئون الملكة وأعمالها الإدارية، كما تظهر أيضًا من خلال تلك الرسائل جوانب كثيرة من علاقة الأب بابنه(6). كان الابن عرضه التأنيب والتوبيخ من أبيه واتهامه بالتراخي والكسل والتقاعس والتساهل والفشل في النهوض بالأعباء الملكية، كما ينبغي له أن ينهض بها، إلا أنه يتضح من الرسائل أن كلا الابنين ظلا عنى ولائهما وإخلاصهما لأبيهما، ولايمكن لومهما ولا اعتبارهما مسئولين عن الانهيار السريع للمملكة بعد موت أبيهما،

وكما في كل حالات إمبراطوريات الشرق الأدنى، كان تحقيق استمرار ومواصلة السيطرة لأماد زمنية طويلة على المناطق الواسعة التي تم إخضاعها بالقوة المسكرية صعبًا وعسيرًا وفوق قدرة القوة الغازية، وكانت الموارد والمقوة اللازمة للدفاع الكف، وإدارة إمبراطورية تتوقف إلى حد كبير على شعوب مغلوبة لا يمكن للغازى فرض قوته عليه، كل الوقت، كانت الإمبراطورية التي أقامها شمشى - عدد تحت تهديد مستمر وتحديات دائمة من القوى الأخرى المعاصرة لها، وكذلك من الأقوام والشعوب التي فرض هيمنتها عليها. وهناك رسالة شهيرة كتبت في وقت متأخر نسبيًا، وكتبها مسئول في مملكة مارى، تبرز انطباعًا جيدًا عن أحد أطراف تنافس القوى، الذي كان سمة بارزة في عالم الشرق الأدنى، في القرون المبكرة للألف الثانى قبل الميلاد. يقول نص الرسالة:

«لا يوجد ملك قرى بغضل قوته وحدها، فقد حكم عشرة أو خمسة عشر ملك لارسا، عشر ملكًا من بعد حدورابي ملك بابل، وكذلك بعد رم— سن، ملك لارسا، وكذلك بعد إيبائسل ملك اشتوبًا، وبعد اميوتبييل ملك قطنا، كما تلى عشرون ملكا ياريم— ليم، ملك يمحاد (حلب)»(7). وسرعان ما انهارت مملكة شمشى— عدد مباشرة بعد موته، واستقلت من جديد ممالك صغرى كثيرة كان قد فرض عليها هيمنته حوالى عام 1760، خضع ما تبقى من مملكته تحت حكم الملك البابلى حمورابى، وبعد حمورابى بحوالى 170

عامًا خضعت بابل لحكم الحثينين، وأدى غزو الحثينيين لبابل إلى بعث جديد للأشوريين، فالنطقة التي هيمن عايها شمشي - عدد في عصور سابقة استوات عليها مملكة الحورانيتين، التي تزعمها للبتانيين، وفيما بعد أدنى وأضعف أوقات التاريخ الأشوريء لجتاح ملك الميتانيين شاوشتاتار العاصمة التقليبية العظيمة مبيئة أشورا واختفت الإمبراطورية الأشورية كليًا على وجه التقريب من على مسرح أحداث منطقة الشرق الأدنى، ولكن كان ذلك إلى هين . ظلت القوة الأشورية نائمة، وبالرغم من أنها فقدت استقلالها، إلا أن المناصر الرئيسية والجوهرية للملكة ظلت موجودة، بما فيها السلالة الحاكمة. وكان وجود السلالة الحاكمة كافيًا لبعث القوة الأشورية من جديد، والتي جمعت قواها بالكاد بعد وهن الميتانيين وتدمير إمبراطوريتهم على أيدي المثينين، وظهر ملك أشوري جديد في مشهد القوى الدولي وهو الملك أشور أوباليت (1353 – 1318)، وبانهيار الميتانيين أمام قوة جيوش المثينين، تمكن أشور أوباليت من تحقيق استقلاله، بل وبدأ في السيطرة على أجزاء من الإسبراطورية الميتانية المنهارة. بل إنه راح يتطلع ويسعى إلى تدعيم قوته في ميزان القوى الدولي في ذلك الوقت بتبادل المراسلات مع فرعون مصر، بصفته ملكًا عظيمًا براسل ملكًا عظيمًا، لا يقل عنه قوة ومنزله.

وراح ملك المشيئين سوبيليوليوما يتابع تلك التطورات بانزعاج بعد أن تمكن من تدمير الميتانيين، وسعى بكل جهده لمنع أو على الأقل تحجيم أو منع نمو القوة الأشورية في شرق القرات، بتنصبيب شاتيوازا ابن عدوه المقهور توشراتا كملك على بقايا إمبراطورية الميتانيين المنهارة، وراحت بابل ثراقب ذلك البعث الآشوري بفزع، كانت هناك عداوة تقليدية وتاريخية بين الملكتين الجارتين. وفي الوقت الذي استولى فيه الحوريون على كل بين الملكتين النهرين، شعر البابليون بالراحة ولم يعودوا يشعرون بأي شمال ما بين النهرين، شعر البابليون بالراحة ولم يعودوا يشعرون بأي تهديد حقيقي من الأشوريين المهزومين، إلا أن الهيمنة الحورية انتهت على أيدى الحثينيين، ويدأت قوة الأشوريين في التنامي من جديد. وعبر ملك

بابل بورنابورياش الثاني (1359 -1323) عن مخاوفه وعن تلك التطورات الجديدة في رسالة منه إلى فرعون مصر(8)، إلا أن التوتر بين المملكتين وصل إلى تهدئة مؤقته بزواج ابنة أشور أوباليت، الأميرة موباليتات سيروا من ابن بورنا بورياش الأمير كاراينداسن. ولسوء الحظ، لم يرض القادة العسكريون لبابل عن ذلك الزواج والذين لم يكن ليسعدهم أو ليلقى ترحيبهم فكرة أن يحمل حكامهم القادمون بماء أشورية في عروقهم. لذلك حين جاء الوقت الذي يحق فيه لكاراهارداسن ابن الزواج الأسوري البابلي أن يعتلى المرش، اغتاله المتعصبون البابليون من الجيش، وملكوا شخصاً مجهولاً يدعى ناصيبو جاش، لمجرد أن دمه بابلى نقى، وغضب أشور أوباليت لتلك التطورات وثارت ثائرته، فقام بغزو مملكة بابل وأعدم من نصبوه ملكاً عليها.

وهدأ التوبر التقليدي بين أشور وبابل، ولكن إلى حين، حتى وقع الجانبان اتفاقية ترضية بين كل من ملك أشور عدد - نيراري الأول (1295-1264) ونظيره البابلي؛ لترسيم العدود بين الإمبراطرريتين في الفترة ذاتها، أحرز الآشوريون نجاحاً كبيراً في الاستيلاء على أراضي الفترة ذاتها، أحرز الآشوريون نجاحاً كبيراً في الاستيلاء على أراضي الملكة الميتانية وتشديد قبضتهم عليها شرق نهر الفرات. كان استيلاؤهم على منطقة الميتانيين المتحالفين مع الحثينيين سببًا في إثارة ضيق الحثينيين، إلا أنه لم يصل إلى حد المعارضة. وتلقى الحثينيون بعد ذلك الملمة أقسى وأشد وطأة، حين منيت جيوشهم بهزيمة مهينة على يد أحد، خلفاء عدد نيراري، وهو توكولتي نينيورتا الأول (1233-1197)، الذي هزم جيوش الحثينيين هزيمة حاسمة في معركة نهريا، (ويحتمل أن ذلك جيوش الحثينيين في المترتبة على الغزو الآشوري الناجع للراضي الخاضعة للحثينيين في المتربة على الغزو الآشوري الناجع للراضي الخاضعة للحثينيين في موريا بالغة الأهمية، فلا يوجد أي شك أن الآشوريين كانت لهم تطلعاتهم من أزمان قديمة في السيطرة المياشرة على المنطقة الواقعة من نهر الفرات حتى ساحل البحر المتوسط، وأصبحوا في وضع بعد تلك المعركة وكأن كل

تلك المنطقة المشار إليها قد أصبحت في قبضتهم.

إلا أنه وعلى عكس ذلك، وهو ما بعث الارتياح الشديد في نفوس الحثينيين حول توكولتي— نينورتا اهتمامه فجأة إلى الجنوب— إلى بابل. وربما كان ما دفعه إلى ذلك مهاجمة الملك البابلي كاشتبياش الرابع للحدود الفاصلة بينهما، مما اعتبره خرقًا للاتفاقية التي أبرمها سلفه عدد –نيراري مع البابليين، ويحتمل جدًا أن توكولتي نينورتا تبني وجهه نظر— وهي وجهة نظر معقولة جدًا— أن من الأفضل تأمين حدوده الجنوبية قبل الإقدام على مخاطرة كبري بقوته العسكرية ضد الحثينيين في أخر مناطقهم في سوريا، وبكل المقاييس، حققت حملته ضد البابليين نجاحًا باهرًا، حتى إنه ضم كل مملكة بابل، وساق خصمه كاشنيلياش في القيود والأصفاد إلى عاصمته أشور.

إلا أن حكم الأشوريين لبابل لم يدم طويلاً. كان عبء تأمين الإمداد للقوات العسكرية اللازمة لفرض هيمنة الأشوريين على المملكة البابلية تشكل عبثًا باهظًا، حتى إنها استنفنت طاقة الأشوريين، حتى إنهم حولوا كل الإمدادات الأخرى اللازمة لحماية باقى حدودهم، وأصبحت الحملة العسكرية العظمى التي كان ينوى أن يسيرها لتعبر الفرات لمهاجمة الحثينيين في الشمال بعيدة حتى عن التغيل. وبدأت قوات توكولتي نينورتا تعانى من هزائم متتالية، مما أدى إلى اغتيال الملك. ولم تكد تمضى خمسة عشر عامًا على وفاته، حتى قام ملك بابلي يدعي عدد شو موصر خمسة عشر عامًا على وفاته، حتى قام الملك بابلي يدعي عدد شو موصر بتجرير كل مملكة بابل من الحكم الأشوري، وفي أثناء تلك المعارك تمكن من أسر الملك الإشوري الليل كودوروصر (1187 -1183) وفي أشور من أسر الملك الإشوري الليل كودوروصر (1187 -1183) وفي أشور على العاصمة اشتد الصراع والتناحر على العرش، فتتابع عدد من الملوك على عرش أشور افترات قصيرة لكل منهم.

إلا أن أشور كانت تثبت على الدوام أنها أحد أهم الممالك العظمى التي تعاود النهوش في العصر البرونزي، فبعد عقود من زوال المملكة

الجثينية، وحين فقدت مصر الأبد وضعها كقوة عالمية عظمى، وفي الوقت الذي كانت فيه بابل تحكم من قبل سلالات وأسر غير متميزة وأصبح فيه الميتانيون في غيوم الذكريات المتلاشية، ظل الأشوريون قوة عظمى في الشرق الأدنى. وفي عهد ملكها تيجلات بيلصر الأول (1114 - 1076) كان الأشوريون مازالوا يسيطرون علي جانب كبير من منطقة مابين النهرين. ومن ذلك الوقت ظلت قوتها تتزايد، حتى أصبحت في وقت ما، في عصر يطلق عليه عصر المملكة الأشورية الصديثة، أقوى وأقسى وأعنف إمبراطورية شهدها عالم الشرق الأرنى القديم.

مملكة بابل

حين بسط ملوك سومر نفوذهم على منطقة جنوب بلاد عابين النهرين في الألف الثالثة قبل الميلاد، لم يكن بإمكان أي إنسان أن يتنبأ بأن تلك المدينة الصغيرة الواقعة بشرق الفرات ستصبح ذات يوم مركزًا لأهم حضارة، ومركزًا لنفوذ طاغ في حضارات الشرق الأبنى القديمة، في عصور كانت تهدم وتتداعى على يد أعدائها، وفي عصور أخرى لم تكن لتبدو إلا مدينة تابعة لا قيمة لها لجيرانها الأقوياء. إلا أنها في تلك المنطقة التي شهدت صعود وانهيار حضارات كثيرة، وبزوغ واختفاء ممالك كثيرة عظمى، صعدت وبقيت ودامت مدينة بابل. وهين استوى بنوخذ نصر على عرشها عام 605 قبل الميلاد، اعتلى عرش الملكة في عاصمة كان عمرها على ألفى عام، وهو أطول عمر لمدينة خارج مصر في منطقة قد ربى على ألفى عام، وهو أطول عمر لمدينة خارج مصر في منطقة الشرق الأدنى بأجمعها.

على مدى بضعة قرون ظلت مدينة بابل بعد ظهورها بلا قيمة ولا تأثير، بالرغم من أنها كانت المركز الإدارى لسلالة وأسرة أور الثالث (2112 -2104). ومنا تعنيه بعندم تميزها عندم تأثرها بكوارث الفنو الخارجي الذي أطاح بالسلالة الحاكمة ، ولا يدخولها في تنافس عسكري

مع مملكتى إسين ولارسا، المتنافستين على الهيمنة على جنوب ما بين النهرين. وبالرغم من ذلك، فإنه في الفترة التي يطلق عليها تاريخيًا مرحلة إسين – لارسا (2017-1763) يبرز تطور هام في تاريخ المدينة مع تأسيس حكم أسرة من الملوك العموريين (حوالي 1844) كان أولئك العموريون، الذين أطلق عليهم اسم المارتو – في النصوص المسجلة من القرن الثالث قبل الميلاد في الأصل من القبائل السامية، وربما هبطوا في الأصل إلى سهول ما بين النهرين سعيًا ويحتًّا عن أرض معشبة لقطعان أغنامهم ومواشيهم، ولما ازداد عددهم بدوا يستقرون، وبدوا يشكلون تهديدًا متزايدًا للممائك المجاورة، وعلى ممائك المدن القريبة. وبالفعل، قبل فترة وجيزة من السقوط النهائي لملكة أور الثالث، كان أحد زعماء تلك القبائل وجيزة من السقوط النهائي لملكة أور الثالث، كان أحد زعماء تلك القبائل على مسافة 40 كيلو مترًا فقط شمال مدينة أور.

وظلت مملكة بابل تحت حكم أول خمسة ملوك عموريين، والذين غطى حكمهم حوالى مائة عام، مجرد مملكة من بين ممالك كثيرة صغيرة الحجم والشأن، بل وكانت تحت هيمنة تمارس عليها من خصومها في مملكتي إسين ولارسا، ولكن في عام 1792 حدث صعود مفاجئ وتطور سريع، وحدث ذلك مع صعود الملك العموري السادس، وهو ملك يدعى حمورابي وحدث ذلك مع صعود الملك العموري السادس، وهو ملك يدعى حمورابي المتنون الخارجية أي اهتمام، بل عكف في أول شمانية وعشرين عامًا من حكمه على تنظيم الشئون الداخلية العملكة، بما فيها سن القوانين المنظمة لعلاقت المجتمع، وكذا إصلاح الأحوال الاجتماعية لشعبه.

إلا أنه بداية من العام التاسع والعشرين من حكمه بدأ في التحول إلى تبنى سياسة عسكرية أكثر عدوانية. وبرر ذلك الميل بتجمع قوات متحالفة من الممالك المجاورة ضد مملكته من العيلاميين والجوتيين والأشوريين، ومن شعوب إشنونا (تل اسمر الحالية)، مما كان يهدد استقرار بابل، وربما كان على حق في ذلك، فكلما حقق حمورابي نجاحًا في تنظيم شئون

مملكته إدرايًا واجتماعيًا، وتحويله إلى مجتمع رخاء متماسك، لفت إليه أنظار عدم الرضى من جيرانه، وبادر بالتوجه إلى أعدائه، واشتبك معهم واحدًا بعد أضر، فهرم على التوالى مملكة لارسا (1763)، واشتبك معهم (1761)، ونتج عن تلك المعارك أن أصبحت كل منطقة جنوب ووسط ما بين النهرين تحت هيمنة بابل. بعد ذلك، هاجم حمورابى مملكة جارى (1761)، والتي كانت قد حققت بعد استقلالها عن الأشوريين بقيادة قائدها النشط زيمرى - ليم (1776 -1761) منزلة وضعتها في مصاء اقوى المالك في الشرق الأدنى في عصرها، وانتصر حمورابي على مملكة مارى، واستولى عليها وضمها إلى مملكته، وأخيرًا، في العام الثالث والسنين من اعتلاء عمورابي عرش بابل، سقط آخر ما تبقى من الملكة الأشورية، التي كانت حمورابي عرش بابل، سقط آخر ما تبقى من الملكة الأشورية، التي كانت

أدى ذلك إلى توحد كل منطقة ما بين النهرين تحت إدارة حكم واحد، قبل نصف قرن من نهوض المملكة الحثينية في وسط الأناضول. إلا أنه في الوقت الذي حققت فيه بابل تلك المكانة الرفيعة كان حمورابي قد أصبح ملاعنًا في السن، ومات بعد إتمامه مهمته ببضعة أعوام، بعد حكم دام ما يربو على أربعة عقود. وتحت حكم ابنه سامو- ليونا (1749 -1712)، بدأت الإمبراطورية في الانكماش. ويرجع ذلك جزئيًا إلى بزوغ أسرة خصوم جدد تسمى سالالة «أرض المستنقعات»، والتي نشئت في مناطق المستنقعات الجنوبية، وتمكنوا من اقتطاع جزء من إمبراطورية بابل من الجنوب حتى مدينة نبور (10). ولكن، بالرغم من انكماش رقمة الملكة، الجنوب حتى مدينة نبور (10). ولكن، بالرغم من انكماش رقمة الملكة، حافظ خلفاء حمورابي على قوتهم وفرض هيمنتهم على الملكة علي مدى عمل إلى 150 عامًا من بعد موت حمورابي، وأخيرا أثناء حكم الملك الذي يصل الى كون آخر تلك السلالة من الملوك، وهو سمسو- دينانا، وصلت السلاة مع الملكة - إلى نهايتها، عندما اجتاح الملك الحثيني مورسيلي الأول مملكة بابل (1595) وفرض سيطرته عليها، ولا تتوفر انا أبة مطومات عن الفوضي التي سادت بابل بعد تلك الغزوة، فبمجرد أن انتهي مطومات عن الفوضي التي سادت بابل بعد تلك الغزوة، فبمجرد أن انتهي

مورسيلي من نهب المدينة، لم يشعر أية أهمية لها، وعلى القور بدأ رحلة عودته الطويلة إلى موطنه، وكان المستفيد الأكبر من انهيار مملكة سلالة حموراني مجموعة بطلق عليها اسم القسيط. كان القسيط مهاجرين استقروا في جنوب ما من النهرين، وريما أو يعتقد أن موطنهم الأصلي الذي قدموا منه جبال زاجيرو (في منطقة عيلام)(11)، وكان أول ظهور لهم على مسترح التاريخ أثناء حكم حمورابي، ويعتقد أنه قد وقعت صدامات وعداوات بين القادمين الجبد والمقيمين في المنطقة الذين حلوا عليهم رغمًا عنهم، ويبدو أن القسيط مالوا إلى الدعة وتجنب الصدامات في المنطقة التي استقروا بها، كرعاة في مواسم الرعي وعمال حرفيين في مواسم العمل، عاشوا حياة شبه قبلية، إلا أنه كان من بينهم من اعتاد بسرعة حياة المُدِن وأنماط معيشتها المستقرة، ولما حل الوقت الذي انهارت فيه بابل على أبدى مورسيلي الحثيني كانت جماعات من القسيط قد بدأت في تنظيم أنفسها كقرة سياسية لها ورنها في جميع أنحاء مملكة بابل. وهكذاء تمكنوا من حصياد ما تبقي من مملكة سيلالة همورابي المنهارة، فحين كانت الفزوة المثينية لبابل في بدايتها كانت جماعات القسيط بالقرب من ذروة السلطة في بابل ، وبعد أن قناموا بغيرُو منطقة أرض المستنقعات في الجنوب، تبوأت، تلك السلالة مكانتها وفرضت هيمنتها على كل أرجاء مملكة بابل، بعد انسحاب مورسيلي المثيني، وظل حكمهم لبابل مستمرًا بلا انقطاع، حتى آخر العصر البرونزي المتأخر(12)،

كانت إنجازات القسيطيين باهرة وملموسة في كثير من الأوجه، تعيزوا قبل أي شيء، في حقيقة أنهم حكام أجانب، كانوا حتى عهود قريبة مازالوا بدواً قبليين يعيشون على الرعى، وبالرغم من ذلك نجحوا في السيطرة والهيمنة علي إمبراطورية متقدمة، ونجحوا في الحفاظ علي تلك السيطرة لأماد زمنية، لم يضارعهم أحد في مداها في أية حقبة من حقب التاريخ لأي سلالة أخرى حاكمة، ويلفت النظر أيضاً أن القسيطيين كانوا في غاية الكفاءة في الوصول ببابل مرة أخرى إلى مركز إحدى القوى

الدولية العظمى في العصر البرونزي المتأخر، في المجالين السياسي والتجارى. إلا أن أهم إنجازاتهم وأعظمها كان في المجال الثقافي والفكري والمعرفي، لم ينحصر جهدهم وإنجازهم فقط في المحافظة على فكر وثقافة حمورابي وسلالته وتغنيتها، بل كان لهم إنجازاتهم الخاصة الثقافية والفكرية والمعرفية. فتحت حكم ورعاية الملوك القسيطيين انتعشت الفنون والأداب والعلوم وبلغت شائنًا لم تبلغه من قبل، كما تجولت اللغة الأكادية في شكلها البابلي، لتصبح لغة دولية للمعاملات بين كل ممالك المنطقة ولغة العلاقات الدبلوماسية بينها، واستخدمت علي نطاق واسع في المختصيين من أهل بابل في المجالات التي تتطلب مهارة عالية، مثل الطب والنحت والحكمة والتنبئ وفنون النقش والكتابة والغطوط، وكان الطلب عليها شديدًا من المالك المجاورة لبابل.

كل ذلك. يضاف إلى الأنشطة التجارية الكثيفة لبابل، جعل مدينة بابل والمنطقة الجغرافية التي تحمل اسم بابل تتبع مكانة مرموقة وضعتها في مصاف البلاد العظمى، ومما أضفى على ملوكها الصفة اللائقة بهم بصفتهم من عظماء ملوك الشرق الأدنى في عصورهم.

أما المعلومات عن الملوك القسيطيين كأفراد فهى شحيحة. ففى الغالب لم يصل إلينا الآن إلا بعض الأسماء. وحين نعثر علي بعض التفاصيل عن ملوك قسيطيين معنيين وأفراد أسرهم، وأحيانًا بعض المعلومات عن بعض كبار موظفى ألدولة من القسيطيين، فإن تلك المعلومات تتوفر بطريق غير مباشر، أى عن طريقه ما توفر من معلومات وتسجيلات من حضارات أخرى ومصادر أجنبية غير بابلية. وهكذا، نعرف عن طريق الملك الحثينى مورسيلي الثانى عن زواج أبيه سوييللو ليوما من أميرة بابلية، وهى ابنة بورنابورياش الثانى. وسجل مورسيلى الثانى استبداد تلك الملكة البابلية الجديدة، وإسرافها، وتبذيرها، وإدخالها عادات جديدة غير مالوفة فى البلاط الحثينى. وانتهى الأمر باتهامها بالتامر لقتل الزوجة الأثيرة

لمورسيلى الثانى، وكان مصيرها النقى من العاصمة الصنينية. وكما لاحظنا، ارتبط بورنابورياش بزواج لم يكلل بالنجاح، كمصاهرة سياسية من ابنة منافسية الأشبورى آشبور أو باليت، وهو الزواج الذى وصلت معلوماته إلينا عن طريق المراسلات المتبادلة بينه وبين الفرعون المصرى أخناتون، تلك المراسلات من أهم المصيادر المتوفرة عن بورنابورياش الإنسان لا الحاكم، وطبيعة علاقته بالبلاط المصرى، وكذلك أيضنا تبدو أهمية المراسلات المتبادلة بين أبيه كاداش مان— إنليل الأول (1374 -1360 ق.م) وفرعون مصر أمنحوتيب الثالث، وفيما يخص مرحلة تلك المراسلات، لا تقدم لنا تلك الرسائل بأي حال مزيداً من المعرفة عن التاريخ البابلي المتسم بشبعة المعلومات المتوفرة عنه في تلك المرحلة، أي في العقود الوسطى للقرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ومعا يتسم بصفة خاصة في هذا الشأن تلك الرسالة الخطولة والكاملة والواخسحة التي بعث بها الملك الحثيني حتوسيلي الثالث لملك بابل كاداش مان إنليل الثاني (1263 -1255) بعد فترة قصيرة من ارتقاء الأخير لعرش بابل، وتحتوى الرسالة على بعض النقاط التاريخية الهامة عن الموقف السياسي في بابل، في الوقت الذي اعتلى فيه كاداش مان انليل عرش بابل، وعن علاقات أبيله كاداش مان تورجو (1281 -1264) لكل من المحتينيين والمصريين في الفترة الزمنية السابقة. ونظم أيضًا من تلك الرسالة عن وصول قبائل أرامية للمنطقة، مما يزودنا بواحد من أول المراجع التاريخية عن ذلك المرق البشري الذي سيلعب بوراً هامًا وبارزاً في منطقة سوريا – فلسطين، في القرون الأولى للألف الأولى قبل الميلاد.

وبمصطلحات عسكرية، لعبت الإمبراطورية البابلية في عصور حكم القسيطيين دوراً محدوداً جداً في الشئون الدولية في تلك العصور. لم تسم المملكة البابلية في تلك العصور بأي شكل إلى توسيع رقعتها البغرافية إلى الغرب من نهر الفرات أو شرقه، أما ادعاء الاشوريين أن البابليين يسعون إلى التوسع شرق الفرات، فقد كان ادعاء مبالغًا فيه،

كانت القوى العظمي في تلك العصور ترى بايل كمملكة ذات شان، وعاملوا ملوكها وأضغوا عليهم صفاته ووضع معاثل لصنفاتهم وأوضباع إمبراطورياتهم، وربما كان السبب في ذلك بعود إلى القوائد المادية التي كان يمكن الاستفادة منها، عن طريق العلاقات الودية الحميمة مع بابل. إلا أن ذلك لا يتعارض مع احتمال نظر المالك الأخرى إلى بابل كحليف عسكري له وزنه وقب منته الصريبة، وبدأ ذلك عند صبراع الصفينيين والميتانيين، ومسراع الحثينيين مع مصر، وكذلك حين هاجعت مصر بلاد الحثينيين، وكان لحتمال قيام بابل بتقييم عون عسكري مباشر وملموس لأي حليف لها أثناء الحروب في منطقة القرات، أو يوجه أكثر تعميماً في منطقة سورياء احتمالاً مستيعياً تمامًا. كانت بابل تقدم لطيفها موقفًا متعادلًا هياديًا يضمن لحملة جيش الملك- الأخ (ودا) أن يخوض حرويه ضد أعدائه شرق أو غرب القرات، وهو مطمئن أنه لن يجد عداءً أو تدخلا من جيش بابل. وكانت التحالفات عن طريق الزواج والمصاهرة من التوجهات الحكيمة التي تضمن لبابل بقامها على الحياد، وقد كان ذلك ما دفع سبيللوليوما الزواج من الأميرة البابلية، واعتبارها زوجة مفضلة قبل إقدامه على تسبير حملته المسكرية للقضاء على البيتانيين إلى الشمال من بابل، ربما كانت هناك أيضاً اعتبارات استراتيجية من بين عناصر أخرى بفعت حاترسيلي الثالث إلى السمى لتجديد مماهدات التحالف المثينية البابلية في بدأية عهد كاداش مان- إنليل الثاني، فوق كل ذلك، كانت العدوانية العسكرية الشمساعدة للأشوريين تبدو تهديدا مستنقلأ لكلا الإسبراطوريتين، بالرغم من المجهودات الجادة الملك الحثيني لتأسيس علاقات ودية مم الملك الأشوري عدد- نيراري الأول. ولا نعلم إن كانت رسالة حاترسيلي التي بعث بها إلى كانشمان- إنليل قد نجم عنها بالفعل علاقات أقوى بين الحثينيين وبابل أم لا. إلا أن التهديد الأشوري ظل قائمًا، فقد ظلت تلك الإمبراطورية الصناعدة تتوسيع وتمتد في منطقة الفرات وفي اتجاه الشمال أيضاء لم تكن إلا مسألة وقت فقط قبل أن تدير.

الإمبراطورية الأشورية عينها إلى اتجاهات أخرى أيضا. إلى غرب الفرات، أو إلى الجنوب، كانت بابل تحت وطأة تهديد خطير. وكما رأينا بعد ذلك، تحول التهديد إلى خطر حقيقى واقعى، على يد الملك الأشورى توكولتى نينيورتا الأول. فيعد أن هزم قوات الحثينيين فى موقعة نهريا، حول توكولتى وجهة قواته إلى الجنوب، واجتاز الحدود الفاصلة لجيرانه الجنوبيين، ثم سحق قوات الملك البابلى كاشتيلياش، واقتحم مدينة بابل كسيد جديد لها. كان نصراً هائلاً، إلا أنه كان نصراً قصير العمر. كان توكولتى نينورتا قد مد خطوط تموينه إلى مسافات بعيدة عن موطنه بصورة خطيرة تهدده وتهدد قواته، وكان مرغمًا على التخلى عن تلك بصورة خطيرة تهدده وتهدد قواته، وكان مرغمًا على التخلى عن تلك

وهكذا، استعادت الأسرة القسيطية استقلالها عن أشور، رغم خسارتهم المسكرية، وظلت تحكم بابل بمأمن تام من التدخل الأجنبى الخارجي، وكانت تعانى على وجه الخصوص من تهديد العيلاميين إلى الشرق منها. إلا أن بابل خلال تلك العقود الأخيرة التى انحدرت فيها سلاله القسيطيين الحاكمة لم تحرم من بعض الفترات القصيرة من الثبات والانتعاش وأثرخاء، إلا أنها خلال تلك المقود لم تعد تنعم بصفة القوة الإقليمية العظمى، وانتهى نظام حكم السلالة القسيطية بفترة حكم قصيرة لأخر ملوكها إنئيل نادين— أهى (1157 -1155)، وبعد موته خضعت بابل إلى سلسلة من الحكام غير المتميزين من سلالات غير معروفة، حتى انتصد الأشوريون عليهم مرة أخرى، ويحلول القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت ولاية تابعة للإمبراطورية الأشورية المبيدة.

المملكة المصرية (13)

كان على مصر أن تتعلم درساً قاسياً. وبالرغم من انعزالها الجغرافي النسبى عن الشرق الأدنى القديم إلا أنها أيضًا كانت عرضة للفزو الأجنبي مثل كل الممالك الأخرى في العالم، خاصة حين انقسمت مصر

على نفسها. فبعد حكم ملوك المملكة المصرية المتوسطة الذي استمر لأربعة قرون نعمت فيها البلاد بالتوحد والاستقرار (2055-1650)، تعرضت مصر للتمزق السياسي من جديد، متلما حدث فيما يطلق عليه الفترة الفاصلة الأولى (2160-2055) ومرة أخرى في الفترة الفاصلة الثانية (1650-1550)، نتابع على عرشها عدد من الملوك الضعفاء الذين كانوا يختفون بمجرد ظهورهم. ولم يكن لدى أي منهم- ممن ادعوا بأحقيتهم بعرش مصر- القدرة ولا الدعم الكافي اللازم لتوحيد المملكة تحت سلطة قوية واحدة، لتضع حدًا للانهيار المتواصل لقواتها العسكرية وقدراتها الاقصادية، وبذلك كان الوضع مواتيًا لانتهازه.

كانت هجرات شعرب كنعان خلال عصور الملكة المترسطة تستقر بشكل نهائي في دلتا مصير ويأعداد كبيرة لا حصير لها(14)، وبالفعل، اعتبر بعض الباحثين أن أوائك المهاجرين، كانوا سبيًّا في انهيار السيطرة السياسية التي ومبلت بالحكم إلى انهيار (15)، وربما كانوا بالفعل عنصراً هاماً من العناصر التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية المصرية بعد حكم أسر الملكة المتوسطة، ومن بين شعوب كنعان نهضت جماعة قوية، من بين شعوب فلسطين المنتمية للحقبة الثالثة من العصير البرونزي الوسيط، والذين هيمنوا على الملكة المسرية ما يقرب من قرن كامل، من بين قادتهم، والذين يشار إليهم بوجه عام باسم الهكسوس، ظهرت سلالة من الملوك، الذين بعد أن حكموا مصبر لفترة من مدينة ممفيس، نقلوا مركز حكمهم إلى مدينة حواريس (مكان تل الضبعة الحالية) في شرق الدلتا. وفي سياق هيمنتهم على الملكة المبرية شموات سلالة ملوك مصر المنتمين إلى الأسرة الثالثة عشرة إلى مجرد ملوك ضعفاء، تابعين للوك الهكسوس وخاضعين لهم، وكانت الأسرة الرابعة عشرة مجرد فرع من سلالة الأسرة الثالثة عشرة، واستقرت في الدلتا خاضعة للهكسوس وتحت هيمنتهم. وهكذا، أصبحت الأسرة الخامسة عشرة التي تحكم مصر مكرنة من أربعة ملوك أجانب على التتابع أو أكثر تليلا. إلا أن درجة نفوذ الأسرة الخامسة

عشرة وتأثيرها كان محدوداً جداً، فبالرغم من صعودها المثير السلطة والحكم، إلا أنهم لم ينجحوا أبداً في فرض سيطرتهم على كل أرجاء مصر خاصة الجنوب، لم تملك أبداً الموارد ولا القدرة والإمكانيات الإدارية لتحقيق ذلك. وحتى في المناطق التي فرضوا سيطرتهم عليها، كانوا يفرضونها من خلال نواب لهم، وهم جماعة من أمراء أسيا (وهم ما أطلق عليهم اسم الأسرة السادسة عشرة) على شمال معمر ومن خلال الأمراء المصريين الخاضعين في جنوب معمر.

وفي أغلب مرحلة حكم الهكسوس المسر، لم يقابلوا بأي قدر من المقاومة أو التحدي من شعب مصر الأصلى. إلا أن طبية في الجنوب بدأت في التصول لتصبح مركز المقاومة المصرية. كانت بطبية سلالة من الأفراد امتدت بعيدًا عن الأسرة الثالثة عشرة، التي ضم الهكسوس ملوكها إليهم، وامتدت تلك السلالة في الجنوب، وحكموه تحت هيمنة الهكسوس، ليكونوا بعد ذلك الأسرة السابعة عشرة المصرية. وياعترافهم أن الهكسوس هم سادتهم كانوا يتجنبون إظهار أية عداوة للحكام الأجانب المقيميين في حواريس، حتى وصل أخر ملوك تلك الأسرة لحكم الجنوب وهو كاموس خواريس، حتى وصل أخر ملوك تلك الأسرة لحكم الجنوب وهو كاموس في أقصى جنوب مصدر، وكان ملوك كوش متحالفين مع ملوك الهكسوس، في ألوقت نفسه خطرًا على مملكة الجنوب المصرية في طيبة، بدأ كاموس بعدما مباشرة في شن الهجمات على الهكسوس ذاتهم، وانتزع من قبضتهم كل المناطق المصرية جنوب ممفيس، ثم شن حملة مباغتة على من قبضتهم كل المناطق المصرية جنوب ممفيس، ثم شن حملة مباغتة على مواريس ذاتها، وهي قلب مركز المكم الأجنبي المسر.

وكان ذلك بمثابة تمهيد الطريق لأخية أحمس، واستطاع ملك طيبة الجديد أن يستولى على حواريس، طاردًا الهكسوس إلى البلاد التى وفد منها أسلافهم، وتمكن من إلحاق هزائم متكررة بهم خارج مصر، كما تمكن من توحيد كل أرجاء مصر وإخضاعها لهيمنته وسيطرته (1529).

وكانت نجاحاته بمثابة علامة على بداية عصر جديد في التاريخ

المصدى، وهو العهد الذى دام على مدى عهود الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وهى الأسرات التى تغطى الرحلة التى اصطلح على تسميتها باسم الملكة الحديثة (1550-1069). وأصبح أحمس مؤسس أول تلك الأسرات، وهى الأسرة الثامنة عشرة، واتخذ من طيبة عاصمة إدارية المملكة وحاضرة الدولة، بعد أن كانت المركز الذى بدأ منه مقاومته الهكسوس. وكان حتى قبل اعتلائه المعرش قد خطى الخطوات الأولى نصو تحرير وتوحيد البلاد، وأدى ذلك - بالإضافة إلى علاقة الإخرة بأخية كأموس الذى سبقه فى حكم طيبة، أى انتمائه إلى سلالة حاكمة - إلى اكتسابه شرعية قبلها الجميع، إلا أن سياساته ومشروعاته كانت كلها موجهة إلى إرساء بداية تاريخية جديدة لمصر. كان تطلعه إلى الماضى وتحت قيادته وإشرافه، ومدفوعًا بتطلعاته أسس الركائز التي شيّد عليها إمبراطورية مصرية، وبدأت مصر تستعيد مكانتها كقوة دواية عظمى فى تلك العصور.

وقاد أوائل ملوك الأسرة 18 كثيرًا من العملات العسكرية في النوبة في النوبة في أقصى الجنوب وإلى الشمال باتجاه سوريا وفلسطين. ففي الجنوب قام أحمس وأول ملكين تلياه على العرش، وهما أمونحتيب الأول وتحتمس الأول، بتوسع رقعة الإمبراطورية في الجنوب، والتي كان قد بدأها كاموس من قبلهم جميعًا، فأخضعوا النوبة العليا والقصوى تحت هيمنة التاج المصرى مباشرة. وكانت النوبة العليا، التي أطلق عليها المصريون اسم (واوات) تغطى المساحة المغرافية المتدة من جنوب أسوان والواقعة بين الشيلالات الأولى والثانية لنهر النيل. أما النوبة القصوى فقد كانت تمتد من الشيلات الثانية حتى الشيلالات الرابعة. وبسبب الثروات المعدنية (18) والأرض الزراعية التي تتميز بها بلاد النوبة، أصبحت النوبة من أثمن ممتلكات الإمبراطورية المصرية.

إلا أن تحسّمس الأول (1504 -1492) كان أول من وضع مصدر في مصاف القوة العالمية الأولى، بعد أن حقق انتصارات عسكرية متتالية في

سوريا حتى وصل إلي نهر الفرات. وبمصطلحات عسكرية بحتة، كانت إنجازاته الحربية مبهرة. ولكن بالنظر إلى التداعيات التي ترتبت على تلك الانتصارات المسكرية التي أحرزها، نجد أنه قد هيمن على مناطق، هو ومن تلوه، أكثر مما يستطيعون هضمه، وتحت حكم الأرملة حتشبسوت (1479 -1458) أرملة تحتمس الثاني، ابن تحتمس الأول، بدأ النفوذ المصرى في سوريا يتقلص ويتداعي، فقدت حتشبسوت أغلب الأراضي التي غزاها حموها تحتمس الأول، ولم يتبق تحت الهيمنة المصرية إلا الجزء الجنوبي من فلسطين، ومن المحتمل إلى حد كديير، أن قدرارها بتقليص رقعة نفوذ التاج المصرى له علاقة بزيادة نفوذ وأثر الميتانيين على الشؤون السورية.

ومعا لا شك فيه أن حتشبسوت آثرت وفضلت تبنى استراتيجية الحوار، والتوافق السلمى، والاحتواء كحلول أفضل من هيمنة القوة، كأفضل وسيلة في التعامل مع العدوانية المتزايدة والجوع العسكرى لقوة مملكة الحوريين الصاعدة والمتنامية في شمال سوريا، وفي جميع الأحوال كانت مهتمة بصفة أساسية بدعم رخاء مملكتها الاقتصادى، وتذمية علاقات تجارية دواية، أكثر من اهتمامها بمشروعات الغزو العسكرى وتوسيع رقعة الملكة. ولا تظهر النقوش النصية التي دونت في عصرها أية انتصارات عسكرية بقدر ما تظهر أخبار البعثات التجارية التي كانت ترسلها إلى فينيقيا لجلب الأخشاب، وإلى شبه جزيرة سيناء لجلب الأخشاب، وإلى شبه جزيرة سيناء لجلب الريتريا لجلب المهيئة المهيئة.

أما ابن زوجها وولى عهدها تحتمس الثالث (1479-1425) (19) فقد كانت توجهاته أكثر صرامة وعدوانية، فيمجرد أن استوى على عرش البلاد تم إعادة صياغة العقيدة العسكرية المصرية، ومرة أخرى عادت إلى الظهور شخصية الفرعون المسرى قاهر الآسيويين، وبرزت إلى طليعة صنفات فرعون مصر، وكانت سبع عشرة حملة عسكرية على غرب آسيا،

كفيلة بتأسيس شهرة تاريخية لتحتمس الثالث كأعظم قائد عسكري في عصره. ومن أشهر المارك التي خاصهاء معركة محين التي انتصر فيها على تحالف من شعوب سوريا الخاضعان للمنتائدين (1457)، وغنم منها غَدْتُم كَثِيرة، منها ما لا يقل عن 924 عجلة حربية، وبعد انتصاره في تلك المعركة الحاسمة، أصبح الطريق ممهدًا أمامه لاقتحام أرض المتانيين ذاتها. كنت بالكاد قد مرت مائة عام منذ أخر مرة انحنى فيها جاكم مصري أو ركم أمام الآسيويين. كان اتجاه الد العسكري قد تغير كلبًا، وانتمير تجتمس الثالث في قلب البلاد التي غزا أهلها مصر، وتحوُّل الغزاة إلى خاضبعين، وأصبح كام آسيا يرسلون إليه الهدايا والترضيات والجزية، طمعًا في كسب وده وتحالفه معهم. وتبين بعد ذلك أن بعش مكاسب تعتمس الثالث العسكرية كانت سريعة الزوال، مثلما حدث مع كثير من المكاسب العسكرية لسميَّه تحتمس الأول، وكان العنمير المؤثِّر في ذلك العامل الميتاني. فقد زوت مملكة الحوريين وعانت من اضمحلال مؤقت، تحت وطأة هيمنة تحتمس الثالث على سوريا. إلا أنه بمجرد أن تولى الحكم عليهم الملك الحازم شوشتاتار، بدأت المملكة المبتانية في الانتهاش من جديد واستردت طموحاتها، ومرة أشرى لجأت إلى عقد المعاهدات والمصالحات كأفضل وسيلة، للتعامل مم المملكة المصرية التي يمكن أن تكون حليفًا مفيدًا الهاء كما كان يمكن أن تكون بكل يقين عدوًا خطيراً . في عهد تحتمس الرابع، تم توقيع مماهدة بين القوتين، سلَّمت فيها مصر بحقوق المتانيين في شمال سوريا، بينما سلِّم الميتانيون بحق مصير في الهيمنة على جزء من ساحل سوريا وكل جنوب سوريا. وعلى اليابسة، كان خط النفوذ الفاصل بين الملكتين يقم بالكاد شمال مدينة قادش الواقعة على نهر المامسي،

وربما كانت تلك المعاهدة والتحالف بين مصدر والميتانيين هي السبب الرئيس في فترة السلام والازدهار التي تمتعت بها الملكة المصرية في عهد خليفة تحتمس الرابع، وهو الملك أمونحتيب الثالث (20) ويسيادة

الأمن والسلام نتسجة المعاهدة التي عقدت مع الميتانيين، ظلت مصر غير مهدرة بأنة حروب عُسكرية طوال عهد أموندتيب الثالث، وتمتعت الملكة في عهده بفترة غير مسبوقة من السلام واستتباب الأمن والرخاء والانتعاش والازدهان طول فترة حكمه واعتلائه عرش البلاد. وعلى عكس ذلك تمامًا، كان ذلك العصر هو العصر الذي كان فيه الحثيثيون على شفا الهلاك والفناء، بعد تعرضها للفزو من جميع أرجاء هدودها، واستغل أمونجتيب الفرصة يسعيه إلى التحالف مع مملكةٌ غرب الأناضول، مملكة أرزاوا، بعد أن أيقن أنها ستصبيح قوة عظمي في ثلك المنطقة. إلا أن المثينيين غيبوا توقعاته، فقد استعادوا قوتهم، وتعافوا بعد المبراع الطويل الذي خاضوه ضب الميتانيين، حافظ فرعون مصبر خلاله على علاقات رسمية محايدة مع كلا الجانبين. كان يؤمن أنه لا يوجد أي سبب يدفعه للتورط في حروب عظمي، كان اقتصاد مصبر مزدهرًا، كما كانت الدولة تتمتم بإدارة مستقرة وثابتة، وكانت خزائن البلاد مليئة ومكتظة بالكنوز، وكان أهل مصر يعيشون حقبة غير مسبوقة من الرفاهية، وانعكست هالة الرفاهية وانتعاش الفنون على عدد كبير من النشبات المعارية، التي شيدت في ذلك العصر،

ثم حل عصر ثورة العمارنة

ويبدو أنه أن تكون هناك أبداً نهاية الجدل المعط بشخصية الفرعون أمونحتيب الرابع (1352 -1336) (21)، والذي عكس اسبعه الجديد أخناتون تكريس نفسه كليًا هو وأسرته لعبادة إله الشمس أتون. فتحت أي وصف يمكن تصنيف أخناتون؟ وكيف يمكن تقييمه؟ وأي تقييم يصدق عليه؟ هل كان نبيًا دينيًا عظيمًا؟ هل يمكن اعتباره أو اعتماده كأول داع للتوحيد في التاريخ البشري؟ أم يمكن اعتباره كافرًا مرتدًا، دفع بلاده إلى حافة الدمار والانهيار؟ أم كان ناسكًا منعزلاً بذاته ومنغمسًا فيها، والذي ترك الفساد يتفشى في الأجهزة الإدارية المملكة، وخاطر بالمكانة الدولية

المرموقة البلاده؟ أم كان ذا ضمير حى عميق، ولكن بضف في الشخصية مما دفع التقليديين المحافظين الذين فقنوا نفوذهم وخسروا امتيازاتهم بسبب دعوته إلى التجمع ضده للقضاء عليه والتخلص منه؟

لدينا الكثير مما يمكن ذكره عن أخناتون. لو أخذنا في الاعتبار أن المضم الذي شيد فيه عاصمته الجديدة أخيتاتون (تل العمارنه حاليًا) قب عثر فيه على أهم وأخطر دار المحفوظات التي تجمع للراسلات الدولية والتي وصلت إلينا سائمة من عصر أخناتون، وأهمية ودلالات تلك الرسائل لا يمكن تجاوزها من قبل أي دارس أو باحث يتعرض لتقييم عهد ذلك الفرعون،

ما يبرز بوضوح من خلال مراسلات العمارنة أن الملوك الأجانبخاصة ملوك المثينيين، والميتانيين، والأشوريين، والبابليين- كانوا يسعون
بكل جهد إلى الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية جيدة مع مصر طوال عهد
العمارنة، وكانوا يسعون حقًا إلي تقوية أواصر تلك العلاقة أو التحالف مع
مصر عن طريق زواج التحالف، ولو كان الإخوة الملوك قد أحسوا أن
مصر تمر بفترة اضمحلال في قوتها وانهيار في أجهزتها وأنها تفقد
مركزها الدولي، إلا أنهم بالتأكيد لم يظهروا أيًا من ذلك في رسائلهم
سبيللوليوما كان حريصًا على التأكيد لفرعون معدر أنه صديق له، وأنه
بحترم مناطق النفوذ المصرى، ويبدى رغبته في المحافظة على السلام بين
بلاده ومصر، في الوقت الذي كان فيه على قدم وساق في سبيل القضاء

فضلاً عن ذلك، تظهر ملفات الرسائل التي بقيت حتى الأن، التي تم تبادلها بين أخناتون وحكام الولايات التابعين للتاج المصري في سوريا وفلسطين، بمالا يدع مجالاً للشك أن فرعون مصر أخناتون ظل على اتصال منتظم لمتابعة الأنشطة المختلفة في الأقاليم التابعة للتاج المصري، بالرغم من الادعاءات أنه في الغالب لم يكن ليستجيب لأغلب الشكاوي الواردة من حكام الولايات ولا لطلباتهم. فلو كان أخناتون ملكاً أهمل بشكل خطير شئون مملكته، أو ملكاً مسئولاً عن انحدار مملكته وتدهور تصدرها القوى الدولية في عصره، فإنه من اللافت جداً النظر أن الرسائل الواردة إليه والصادرة منه في آخر أعوام، تتميز بكونها من أثرى مصادرنا عن عالم العصر البرونزي المتاخر. من اللافت النظر أيضاً أن الملك الذي استحوذت عليه رؤية دينية المتاخر. من اللافت النظر أيضاً أن الملك الذي استحوذت عليه رؤية دينية مختلفة لم يسجل أية إشارة عن معتقداته الدينية في أي من رسائله، التي بعث بها إلى الحكام التابعين لهيمنة التاح المصري.

ويموت أخناتون، كانت الأسرة الثامنة عشرة تكاد تعمل إلى نهاستها، أما فترة المكم المابر التي اعتلى فيها الملك- المدبي ترت عنخ أمون عرش البلاد (1336 -1327)، وهو آخر السلالة، فإنها لم تكن لتستحق إلا ذكرًا عابرًا في صفحات تاريخ مصر، لولا اكتشاف مقبرته كاملة دون أن تمس- والظروف التي أحاطت باكتشافها، ولا يثير الدهشة أن الفرعون الذي فرض عليه أن يكون ملكًا وهو في سن التاسعة، والذي مات بعدها بتسعة أعوام، لم يكن له أية إنجازات تذكر خلال فترة حكمه في سني مراهقته، إلا أن تلك الأصوام شهدت هجر وتدمير مدينة أخناتون، واستعادة المجتمع الممرى لكثير من عاداته ومعتقداته السابقة على أخناتون، واستعادة رجال الدين لقوتهم ونفوذهم، والمودة إلى ترتيب قوى المجتمع السابقة على أخناتون. كما نجع أيضًا في إثارة غضب وعداوة وحنق أقوى ملك بلا منازع في الشرق الأدني. فبلا أي سبب واضبح، أمر توت عنخ أمون بشن هجوم على مدينة قادش، التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للحثينين. وقيل ذلك الهجوم غير البيرر، كان سبيللوليوما يولي أهمية كبيرة رعناية فائقة إلى تجنب إثارة أية عداوة مم الجارة الجنوبية، أي الملكة المصرية، ووجد فجأة أن ذلك الجار يسلك سلوكًا عدوانيًا : مفاجئًا وغير مبرر، وكان رد الفعل سريعًا، وسحق الحثيثيون الجيش

المصرى المهاجم القادش، وظل غضب سبيللوايوما مستعراً، حتى بعد المرت المفاجئ الفرعون الصغير بعد ذلك بفترة قصيرة.

ولا يمكننا إلا تخمين الأسباب التي حدت بترت عنخ آمون الهجوم على الحثينيين، ربما كان يسعى إلى تجسيد صورة جديدة لـ «قاهر الأسيويين» على غرار ونمط أسلافه، إلا أنه جازف مجازفة خطيرة، وخانه قياس قوته قياساً صحيحًا، وبالتالي بالغ في تقديره لنجاح الحملة، إلا أنه مهما كانت الدوافع، فإن تلك المجازفة غير المحسوبة ألقت بظلالها على ما تلى ذلك من أحداث، وظهر ذلك من خلال نص رسالة، ولجنة عليا لتقصى الحقائق، وعمل من أعمال خرق المواثيق الذي يصل لدرجة الخيانة، والتي وضعت مصر والحثينيين في صدام لا يمكن التراجع عنه أو إصلاحه، وسوف نعود لشرح ذلك فيما بعد.

وكان الحكم القصير لأى (1327-1323) الذى خلف توت عنغ آمون على عرش مصر، والحكم الأطول نسبيًا والأكثر حيويه لحورمحب (1328-1295)، واللذان غطيا معًا ما يزيد عن ثلاثين عامًا فى حكم مصر وهى الفترة التي شهدت تلاشى واضعملال الأسرة 18 ومولا الأسرة 19. كانت مدينة أخناتون قد هجرت بعد موت أو اختفاء منشؤها مباشرة، وتم تدمير وتحطيم وإخفاء كل ما يدل عليها، وحرم الحديث عنها أو ذكر اسم صاحبها، كما وضعت نصوص جديدة تصفّر وتحط من شأن أخناتون المارق أو الكافر الأعظم وكل عهده وكل ما يمت إليه بصلة. وحتى يومنا هذا فإن الدعاية السيئة التى أحاطت بتلك الشخصية العظيمة، والتى قادها توت عنغ أمون (أو مستشاريه) ثم حورمحب من بعده، ظلت تؤثر وتلقى بظلالها على الرأى العام وعلى آراء الباحثين عن ذلك الملك الذى وتلقى بظلالها على الرأى العام وعلى آراء الباحثين عن ذلك الملك الذى ممارسة عقائدها التقليدية السابقة عليه. وعادت الطبقة الارستقراطية ممارسة عقائدها التقليدية السابقة عليه. وعادت الطبقة الارستقراطية التحتل مكانتها في طيبة، كما عادت سلطة الكهنة والمؤسسة الدينية إلى سابق قرتها ونفوذها. وعادت الملكة المصرية من جديد إلى تبوءً مكانتها سابق قرتها ونفوذها. وعادت الملكة المصرية من جديد إلى تبوءً مكانتها

كقوة عظمي على المشهد السياسي الدولي في تلك المرحلة، وكان المسرح مهيئًا تمامًا لظهور أسرة حاكمة جديدة،

في تلك المرحلة ظهرت شخصية جبيدة على مسرح الأحداث لرجل يدعي براميسيس. كان براميسيس ممن ينطيق عليهم وصف بلاد ما بين النهرين لشخصيات مماثلة نطلق عليها «ابن المجهول»، فبالرغم من أن يراميسيس كان ينتمي لطبقة النبلاء، إلا أن عائلته لم تكن تتميز عن غيرها من المائلات النبيلة العربقة للأسر المصرية من الطبقة العليا، وكانت عائلته تعيش في منطقة نائية من مناطق الدلتا، لم تكن لدى الأسرة أية أسباب تؤدى بأحد أبنائها إلى إحراز أعلى مراتب العظمة في الإمبراطورية المدرية، إلا أن براميسيس لفت وهو في ريمان شبابه نظر حورمجب الذي لم ينجب وليًّا للمهد. وتأثَّر حورمحب بالمعفات اللافتة للنظر في شخصية براميسيس، ورأى فيه المقومات التي تجعل منه وليًا محتملاً للمهد، ويحتمل أنه أنفق أعوامًا عديدة في إعداده وتدريبه لتولى ذلك المنصب العظيم، وحدث ما حدث، فنحين واقت المنية حور منص، اعتلى براسيسنيس عرش منصبر باسم رمسنيس الأول (1295-1294). وكان صعودة للعرش بداية عهد الأسرة 19، وهي الأسرة التي اشتهرت في التاريخ باسم الرعامسة، والتي فرض ملوكها هيمنتهم على الإمبراطورية المسرية، طوال أزهى عصورها وأكثرها رخاءً ماديًا وعطاءً فكريًا وثقافيًا. ولسوء العظاء لم تتوفر لرمسيس الأول أية فرصة لإنجاز أي شيء آلا فرصة وضم الأسرة على طريق لللوك، فقد مات رمسيس الأول بعد عام أو نحر ذلك من اعتلائه عرش مصر. كل ما فعله قبل موته أن جعل من ابنه سيتي الأول (1294-1279) وليًا للعهد، ويعد أنّ اعتلى العرش انطلق سبيتي الأرل لإنجاز مهمة استعادة مصر لكامل ومطلق هيمنتها السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدني(24). وسير حملات عسكرية منتابعة على كنعان وفلسطين، حتى هيمنت مصير عليها هيمنة مطلقة، وتلتها حملات عسكرية على جنوب سورياء وأصبح المشهد معدا للصدام بالحثينيين، وتصاعد التوتر بين الدولتين لأول مرة منذ موت توت عنخ أمون، أصبح لمصر قائد وحاكم قوى، وموارد تمكّنه من تحدى قوة الحثينيين، الذين كان يحكمهم فى ذلك الوقت مواتاللى الثانى، ويقدر ما يمكننا استخلاصه من حقائق من خلال النص البلاغي المسجل على نصب النصر التذكارى لسيتى الأول فى معبد الكرنك بالأقصر، نجد أن سيتى الأول قد أحرز نصراً حاسماً على الحثينيين فى معركة حربية، وقعت الأول قد أحرز نصراً حاسماً على الحثينيين فى معركة حربية، وقعت بسبب النزاع على الحدود ومناطق النفوذ في بلاد العموريين ومدينة قادش، وأصبحت المنطقة من قادش باتجاه الجنوب والجزء الساحلي إلى الشمال، من العموريين بما فيها كل منطقة العموريين بسوريا، تحت هيمنة الشمال، من العموريين بما فيها كل منطقة العموريين بسوريا، تحت هيمنة وسلطة التاج الإمبراطوري المصرى.

واستمر السلام غير المستقر بين الإمبراطوريتين، إلا أنه لم يدم طويلاً حتى وقع صدام عظيم بين مواتاللي وابن سيتي الأول، الذي اعتلى العرش بعد موت أبيه، الملك رمسيس الثاني (1279 -1213)(24) وكان ذلك في مدينة قادش بعد موت سيتي الأول بخمسة أعوام.

ومعا لاشك فيه أن الشجاعة التي أظهرها رمسيس الثاني في تلك المعركة، بعد الهجوم المفاجئ الذي شنّه العثينيون على فرق جيشه المتباعدة، حمت جيشه من الدمار الكلي والشامل، بل ربما كانت السبب في نجاته هو من الموت، وانتهى ذلك اليوم وقد حقق رمسيس التوازن الذي يصل إلى درجة التعادل لقواته، التي لم تكن قد تجمعت بعد، وتفصل بين فرقها مساحات شاسعة، حين شنّ الحثينيون هجومهم المفاجئ على الفرقة التي يقودها رمسيس الثاني بنفسه، وفي اليوم التالي لم يكن أمامه إلا التقهقر بقرأته باتجاه الجنوب ومن خلفه جيش العثينيين، الذي راح يظارده، ولم يكن لدى رمسيس الثاني أي خيار غير أن يتخلى لمواتاللي الثاني عن منطقة أويي أو أبينا وكل ما يقع شمالاً، والتي كانت تضم منينة دمشق. ولا يدهشنا، رأى فرعون مصر بعد انتهاء المعركة المسيرية في تسجيلاته التي سجلها عن تلك المعركة، والتي صورها في نقوشه في تسجيلاته التي سجلها عن تلك المعركة، والتي صورها في نقوشه

ونصوصه كنصر شخصى حققه بذاته على الحثينيين المنحطين، ومجَّد رؤيته لتلك الأحداث بالكلمة والصورة على جدران ما لا يقل عن خمسة معايد مصرية هائلة.

ومهما كانت الصورة التي حاول رمسيس الثاني أن يصورها عن نفسه كقائد عسكري عظيم، إلا أنه في واقع الأمر لم يكن عقلية عسكرية فذة. لم يكن السبب في نجاح الهجوم الصاعق المباغت الذي شنه المثينيون في قادش عائدًا إلى مهارة المثينيين بقدر ما كان بسبب ضعف التخطيط الاستراتيجي للحملة العسكرية المسرية، وعدم كفاءة فرق الاستطلام وضعف جهاز الاستخبارات العسكرية.

وحيث إن رمسيس كان القائد الأعلى للجيش المصرى، فقد كان يتعمل مسئولية ذلك الفشل، وكذلك كان مسئولاً عن النتيجة التي وصلت إليها تلك الحملة العسكرية وما ترتب عليها، وكان لذلك المشهد المهين لقوات الفرعون وهي تفر متراجعة والقوات الحثينية من ورائها تطاردها تداعياته التي ترتبت عليه بعد ذلك، فعلى مدى عامين بعد تلك المحلة، ظل رمسيس يحاول وضع حد لتمرد المكام المحليين الضاضعين للتاج المصرى في كنعان وفلسطين، والذين تشجعوا على رفع راية العصيان بعد فشل حملة رمسيس على قادش، وراهوا يسعون لنيل الاستقلال والفروج عن طاعة الفرعون، ولم يضيع رمسيس وقتًا في التصدى لذلك المصيان الذي التشر في كثير من المدن التابعة، فقام بسلسلة من الحملات العسكرية المكتلفة والحازقة، حتى تمكن من استعادة السيطرة على المتصردين وإخضاع كل المناطق التي رفعت راية العصيان.

كانت هناك تهديدات أخرى توجب عليه التصدى لها بحزم، وكانت أقرب إلى قلب مصر من تلك التى وقعت أحداثها بالشمال الشرقى. كانت أكثر تلك التهديدات خطورة تأتى من أرض ليبيا المتاخمة لصحراء مصر الغربية، كانت قبائل ليبيا قد هاجمت مصر من الغرب في عصر أبيه سيتى الأول، وكانت تصل إلى قلب الدلتا لتستقر بأرضها الفصية. وبنى

رمسيس الحصون العسكرية المتدة من غرب الداتا حتى منطقة العلمين الحالية؛ ليجبر خصومه على الدفاع بدلاً من الهجوم، إلا أن تلك الحصون لم تكن ضماناً مستديماً لأمن الحدود الغربية ضد هجمات تلك القبائل، وعاد التهديد الليبي ليزداد من جديد في عهود خلفاء رمسيس الذين حكموا من بعده.

وبالرغم من عدم اختفاء التهديدات الذارجية، إلا أن مصر طوال الستة والستين عامًا التي حكم فيها رمسيس الثاني تمتعت باستقرار ورجًاء طوال عهده، فيعد معركة قادش قلُّص رمسيس الدور العسكري إلى أبعد جد منكن، وقضي الهندسين المسريون جل عصيره في تشبيب منشئته المعمارية التنكارية؛ لتخليد أسمه، وفي أنعاش الاقتصاد وتكوين الثروات عن طريق التجارة، واستغلال الثروات المعينية ومشروعات استخلامتها أكثر من اهتمامهم بالشروعات العسكرية التوسعية، وسواء كان رمسيس واعيًا بذلك أم لا، فقد كان أقرب إلى نموذج ونمط أمونحتيب الثالث منه إلى تحتمس الثالث. كان بانيًا ومشيدًا أكثر منه سيدًا للحرب، وكان رجل دولة عالمي أكثر منه قائدًا عسكريًا يثير الفزع والخوف وطبع، بمنمته كعاهل دولي على معامنزيه، ولذلك حظى باحترام وتقدير أنداده من الملوك المعاصرين له، كما حاز إعجاب رعايا أنداده من الملوك، وكان ذلك انعكاساً واضحًا ومباشرًا لمواقفه في السياسة الدولية في عصره، والوسائل الدبلوماسية التي اتبعها في عالمه الذي عاش فيه. كان في ذلك العالم من أهم الشخصيات التي تعظي بالاحترام والتقدير. وشهد عصره أيضًا استتباب السلام بشكل نهائي مع المثينيين(25). وهناك نسخة باللغة الأكادية من نص معاهدة السلام التي وقعها مع الملك الصنيني حاتوسيليس الثالث تعتلى مدخل مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة بنيويورك. وظلت كثير من المراسلات المكثفة التي تبودات قبل توقيع تلك المعاهدة وبعدهة بين رمسيس الثاني وحاتوسيليس الثالث محفوظة حتى وقيتنا الحالي. تلك المراسلات، كما سنرى لاحقًا، لا تلقى فقط أضواء كاشفة على مجال العلاقات الدولية في ذلك العصر، بل تمدنا برؤى عميقة عن تفاصيل حياة من تيادلونها ومكوناتهم الشخصية.

وكحقيقة عملية فإن معاهدة السلام والتحالف بين المصريين والحثينين لم يكن لها تأثير عملى مباشر على مقدرة كل منهم على درء الأخطار الخارجية والقوى المتصاعدة التى تشكل خطراً وتهديداً لأى منهم. فقد واجه ابن رمسيس الثاني وخليفته ، ميرنيتاح (1213 -1203) تحديات جديدة من ليبيا، والتى أصبحت أشد خطورة بعد تحالف القبائل الليبية للهاجمة بقيادة زعيمها ميريرى مع تحالف آخر مكون من شعوب كانت تسمى شعوب البحر، ووافدة من شمال البحر المتوسط للهجوم على مصر واحتلالها. ونجح ميرنيتاح في صد غزو الحلفاء وطردهم، كما عاد لوأد تمرد بلاد النوية، والواضح أنه ترتب على انشيغاله بالتصدى للغزاة القادمين من الغرب، وتمكن من القضاء على ذلك التصرد بنجاح، إلا أن الأسؤ كان مازال في طي الغيب.

بموت ميرنبتاح وصلت الأسرة التاسعة عشرة إلى نهايتها، وتلتها سلسلة من الأسر الحاكمة التي لم تدم طويلاً. وكان من المهام الشاقة التي تولاها رمسيس الثالث (1184 -1153) استعادة الأمن والانضباط. كان رمسيس الثالث هو المؤسس الفعلي للأسرة العشرين، والذي احتفظ لنفسه باسم سلفه الذائع الصيت رمسيس الثاني، وفعل الشيء ذاته ثمانية ملوك ممن تلوه على عرش مصير، إلا أن رمسيس الثالث لم يكد يتهيأ له فسحة من وقت بعد اعتلائه العرش، قبل أن يجد نفسه مواجها بتحديات خطيرة لا قبل له بها، وتهديدات غزو من الأرض والبحر، ومن جديد تجمعت جحافل شعوب البحر القادمة من شمال المتوسط متجهين إلى جنوبه قاصدين مصر، عبر الطريق البحر على الساحل الشرقي للبحر المتوسط وعبر فلسطين، وكذلك عن طريق البحر مباشرة حتى سواحل مصر على وبر فلسطين، وكذلك عن طريق البحر مباشرة حتى سواحل مصر على والثامن من حكم رمسيس. ومرة أخرى نجحت مصر في هدد الغزاة

وطردهم، وتمكنت من صد تجمعات شعوب البحر القادمة براً عن طريق الساحل الشرقى للمتوسط على حدود مصر في چاهر (منطقة فينيقيا بعد ذلك)، وهزمت تجمعات شعوب البحر الفازية بعد معركة شرسة، وتم تصوير وقائعها على جدران معبد رمسيس الثالث في مدينة هابو، كما تمكن من صد الليبيين وردهم على أعقابهم.

ولرمسيس الثالث فضل عظيم في تلك الانتصارات على المحن التي تجمعت على مصر في عهده، وهيئت تلك الانتصارات لن خلفوه من الأسرة العشرين التي أسسها الاستمرار في حكم مصر لقرن كامل على الأقل من بعده، أي بعد زمن طويل من انتهاء حكم الأسر التي تزامنت مم المرحلة الأخيارة من العصير البرونزي، إلا أن مصير كانت قد أنهكت وضبعفت إلى حد بعيد، ولم يعد بإمكانها الادعاء أنها من الاول والقوى العالمية العظمي أكثر من ذلك. وظهرت قوتان دوليتان جديدتان مع بدايات الألف الأول قبل الميلاد، بالرغم من استمرار وجود أسماء قديمة كانت مازالت تهيمن على شئون العالم القديم، كما نهضت الإمبراطوريتان الأشورية والبابئية من جديد. واستمرت مصر متمتعة باستقلالها على مدى القرون الأولى للألفية الأولى، وكان ذلك يرجع إلى حد ما إلى موقعها الجغرافي الغريد، إلا أن بُعد المسافة النسبي وكذلك الصحراء المحيطة بها لم يضف عليها نرعًا من الجماية الكاملة. فأخيرًا سقطت في يد الحاكم الأشوري (إزار حدون) في القرن السابع قبل الميلاد، وأصبحت مثل بابل، ليست إلا ولاية تابعة، ضمن كثير من الولايات التابعة للإمبراطورية الأشورية.

مملكة الاثينيين (26)

دكان هناك ملك عنليم في الأيام الغالية يدعي لابارنا. كانت بلده التي يحكمها صفيرة، ورغم صفر بلده كان كلما خرج على رأس صحله مسكرية ضد بلد آخر، يغزرها بقدرته ويخضمها لسيطرته، واستمر في تدمير البائد الأخرى، قاضيًا على قوتهم، حتى وصل إلى البحر

الذي أمنيح حنودهم

كانت الفقرة السابقة مما سجله الملك تيليبيو في القرن السادس عشر قبل الميلاد، عن أمجاد سلف عظيم له يدعى لابارنا سبقه على عرش الحثينين. كان الملك الأسطوري لابارنا قد حول مملكته من بلد صغيره إلى مملكة كبيرة، امتدت على الجانب الشرقي من سهول الأناضول، ووصلت هدودها الجنوبية هتي سواحل البحر المتوسط. كانت الإنجازات الأسطورية للملك لابارنا بعثابة الإلهام والمثل الأعلى الكل ملوك الحثينيين من بعده، وتحول اسم لابارنا ليكتسب تبجيلاً وقداسة، حتى أصبح مقطعًا من مقاطع أسماء الملوك الذين تلوه على عرش العثينيين. ويبدأ التاريخ المعروف للحثينيين بالملك لابارنا، أي في بدايات القرن السابع عشر قبل الميلاد.

كانت ممالك سابقة قد قامت في الألف الثالث قبل الميلاد في قلب الأناضول وفي شرقها، وكان من أبرز تلك المالك المملكة التي نشأت في قلب الأناضول وسميت باسم المثينية. كانت تقع في المنطقة التي يحدها نهر كان يطلق عليه الحثينيون اسم مارسانتيا، وكان مقر الحكم في مدينة تسمى حاتوس، كان سكان تلك المنطقة، في أغلبهم من سكان محليين، يسمون (لحثينيون). إلا أن هناك جماعات أخرى كانت تعيش أيضنًا في المنطقة نفسها، من المتحدثين بالهند أوربية، كانوا قد وفدوا إلى قلب منطقة الأناضول من مناطق تقع إلى شمال البحر الأسود (ومازالت تلك الفرضية موضع جدل)، وبحلول نهاية الألف الثالث قبل الميلاد كانوا قد استقروا في مناطق من شرق الأناضول ووسطه، ثم امتدوا إلى مناطق بغرب الأناضول بعد ذلك.

وفي بدايات الآلف قبل الميلاد، وهي الحقبة الزمنية التي أسس فيها الأشوريون قواعد تجارية في وسط وشرق الأتاضول، كان الحثينيون والهند أوربيون المقيمون في المنطقة ذاتها قد انصهرا في شعب واحد. وبالرغم من ذلك، كانت هناك بعض المناطق التي ظلت مشغولة بشعوب

هند أوربية صدرفة أو بجماعات حثينية صرفة. ونشأت أسرة قوية ويحتمل أنها من أصول هند أوربية في شرق الأناضول في مدينة تسمى كوسارا، وانتقلت إلى قاعدة حكم جديدة في مدينة قريبة تدعى بنسا، وتعرف أيضاً باسم كانيش، وكانت تقع على الالتفاف الجنوبي لنهر مارسانتيا، وكانت تجاورها إدارة المستعمرات الأشورية التجارية. ومن مدينة نيسا، شن الملك أنيتا بن الملك بيتانا سلسلة حروب إلى شمال النهر وجنوبه، حتى تمكن من تأسيس إمبراطورية الأناضول الشرقية، وفي مجرى تلك المعارك كان قد دمر مدينة حاتوس، وترك الأعشاب تنمو فوقها وأعلن أنه ان يسمح لتلك المدنية أن تبني من جديد.

كانت الإمبراطورية التي شيدها أنيتا قصيرة العمر، فلم تدم لأكثر من جيل واحد بعد سلسلة الصروب التي شنها، وزامن انهيارها سبعب الأشوريين لأنشطتهم التجارية من الأناضول، حوالي منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد، كان التجار الأشوريون يخشون العمل في مناطق غير مستقرة، ففككوا مستعمراتهم التجارية وانسحبوا من الأناضول، ولا نتوفر لدينا معلومات عن النصف قرن الذي تلي ذلك، فمع رحيل المحطات التجارية الأشورية لم تعد توجد سجلات مكتوبة في تلك المنطقة، أصبحت الدلائل الأثارية المنتمية إلي تلك الفترة نادرة إن لم تكن منعدمة، والبحث عن أدلة أو وثائق عن ذلك الزمن يماثل البحث عن أدلة له صمسر مظلم مصفر.

إلا أن بداية القرن السابع عشر قبل الميلاد شهد بداية عهد جديد في تاريخ الأناضول. فعلى مدى القرون الخمس التالية سيطر الحثينيون على الأناضول وهيمنوا عليه كليًا، وأصبحت تعرف باسم المملكة الحثينية. وقد أشرنا فيما سبق إلى العصر المبكر للمملكة تحت حكم المؤسس العظيم لابارنا، الذي كان سببًا في تحول المملكة إلى أكبر قوة في كل منطقة الأناضول. والمرجح جدًا أن حفيده قد تلاه مباشرة على عرش المملكة، وهو الملك حاتوسيلى الأول (1650-1620) ومن شبه المؤكد أن حاتوسيلى الأول

من أعاد إعمار مدينة حاتوسا، لاغيًّا بذلك حكم الملك أنيتا على تلك المدينة ألا تقوم لها قائمة أبدًا، واتخذ منها عاصمة للمملكة ومقرًا لعرشه. ولم يكن ذلك إلا استهلالاً لعهده كملك، فبعد ذلك لم يكتف بمجرد منافسة جده فيما أنجزه، بل سعى إلى التقوق عليه. كانت أول خطوة له السعى لتعزيز نتائج غزوات جده لابارياء وفي طريقه لإنجاز ذلك قضي على كثير من التمردات في مناطق مختلفة من الملكة، وحين أنجِز تلك المهمة بنجاح واتته في لعظة تاريخية فكرة التوجه بالجيش إلى سوريا. ومهما كان السبب الخفى خلف توجهه بقواته إلى سورياء إلا أنه اعتاد بعد ذلك الخروج بحميلات عسكرية ضد سيورياء وفي واحدة من تلك المصلات الناجمة تمكن من العبور بقواته نهر الفرات، مدمرًا وغانمًا كل المدن التي كانت في طريقه، وأدت تلك الحملات السورية إلى ستمية بشوله في سروب ضد مملكة شبعيال سنوريا القنوية، وكنانت تسبعي مملكة بمجد، وبثين حاتوسيلي عدة حروب على عاصمتها حاب، ولكن، بالرغم من أن الحروب المتكررة أنهكت قوى مملكة شمال سورياء إلا أن ملك المثينيين لم يتمكن أبدًا من اقتجام عاصمتها حلب. وحين وافته المنية، كانت حلب مازالت سليمة لم تمس.

وصلت إلينا أخبار حمالات حاتوسيلى على سوريا من السجلات المكتوبة بالمسعارية على ألواح طينية، اكتشفت مدفونة في موقع سجلات العاصمة الحثينية، وتوجد ألواح بذلك الأرشيف مسجلة بثماني لغات، إلا أنه من الثابت أن اللغة الرسمية للحثينيين كانت اللغة الهندأوربية وهي ما كان الحثينيون يطلقون عليها اسم نيسيت، والاسم مشتق من اسم مدينة نيسا، التي كانت مقر عرش الملك أنيتا أثناء تواجد المراكز التجارية الآشورية بالأناضول، وقد يشير ذلك إلي بروز نفوذ المتحدثين باللغة النيسيتية الهند أوربية في مجال الشئون السياسية والاجتماعية بالملكة، غير أننا لابد أن نسقط مفهوم أن ذلك يعنى بالضرورة أن من بدءوا المملكة، غير أننا لابد أن نسقط مفهوم أن ذلك يعنى بالضرورة أن من بدءوا المملكة الحثينية وشيدوها لابد أن يكونوا من

عبرق هند أوروبى خالص تمكن من التغلب على السكان المحليين من الحشينيين. فقد كان سكان منطقة وسط الأناضول، من بدايات الألف الثانى قبل الميلاد بما فيها أرض الحثينين، مختلطين تمامًا بما فيهم من الحثينين وحوريين وكذلك الهند أوربيين.

لم يتبين وجود أى حس عرقى بين الحثينين. كانوا، مثل المصريين، خليطًا من أصول عرقية متباينة. لم يكن لهم اسم خاص يميزهم كبشر أو عرق بشرى، لذلك أسموا شعوبهم باسم الأرض التى عاشوا عليها، أى شعب الأرض الحثينية باستخدم اسم حثين قديم، كان مستعملاً من قرون، بل ألف عام من قبل قيام الملكة الحثينية. ولابد أن نعرف أن اسم حثين اسم حديث نسبيًا، أى ظهر تحت تأثير (وهذا غير دقيق بدرجة ما) الإشارة إلى الحثينين في التوراة.

وتلى حاتوسيلى على العرش حقيدة مورسيلى الأول (1620 -1590)، والذى اتبع بشكل حرفى كل سلوكيات جده، ظم يسع فقط إلى تحقيق إنهازات مساوية لما أحرزه جده، بل سعى إلى التفوق عليه وبوسائل غير مسبوقة ومدوية. قاد قوات الحثينيين المسكرية من جديد صوب سوريا، وضرب حصاراً حول حلب حتى أسقطها ودمرها، وكان ذلك نهاية مملكة يعجد بشمال سوريا، ولم يُمض وقتًا طويلاً في الاستمتاع بذلك النصر، وكانت جمرات حلب المحترقة مازالت ساخنة حين تحرك بقواته شرقًا باتجاه نهر الفرات، ثم سار بمحازاة النهر متجهًا إلى بابل، وفي عمل سيظل مدويًا في التقاليد الحثينية كأعظم إنجاز للإمبراطورية الحثينية الوليدة، اجتاح مورسيلى مدينة بابل كالإعصار، ونهب كنوزها ودمرها.

وبالرغم من ذلك الانتصار المدوى والمشهود إلا أنه كان بلا قيمة للملك الحثيني ولا للمملكة، وبعد أعوام من عودته إلى حاتوسا عاصمة ملكه، اغتاله حانتيلي شقيق زوجته. وكان ذلك العمل العنيف بداية لسلسلة من الانحدار في مستقبل المملكة، وكان لابد لحانتيلي أن يلقى نفس مصير ضحيته. وكان ذلك بداية عهد جديد، لعب فيه التأمر والاغتيال الدور

الرئيسى في تحديد شاغل كرسي العرش ولدى زمنى طويل. ففي حالة الضعف والانقسام الذي انحدرت إليه المملكة الحثينية، أصبحت صيداً سهلاً للحوريين الذين اخترقوا حدودها من الجنوب الشرقي، وراحوا ينهبون ويدمرون كل ما يصادفهم بحرية مطلقة كلما أرادوا ذلك، كذلك تمردت كل الجماعات المحلية داخل المملكة مستغلين حالة ضعف الحاكم وانشغاله بالصراعات المحلية والمؤمرات، وخرجوا عن طاعة الملك ولم يبق من المملكة إلا الأرض المحيطة بالعاصمة. ولم يتوقف الأمر عند ذلك البلاء، بل حلت فوقه موجة طويلة من الجفاف دامت لأعوام طويلة، مما أوصل الملكة إلى شفا الانهبار.

وكان اعتلاء ملك يسمى تيليبينو (1525 -1500) بمثابة ثبات وهدوء نسبى للمملكة، وتم وضع قواعد جديدة تنظم وراثة العرش، وتم تكوين هيئات إشرافية وتنظيمية، لضمان تنفيذ تلك القواعد التى وضعها تيليبينو. كما نجع ذلك الملك في استعادة بعض الأرض التي فقدتها المملكة. إلا أنه كان واقعيًا، فقد كان يدرك أن استعادة السيطرة على كل الشعب ومناطقه عملية خطيرة وباهظة الثمن، وحالة المملكة الفعلية لا تتيع له ذلك، فسعى الى تحقيق ذلك الهدف بطرق سلمية، فعقد معاهدة مع إزبوهتاشو، ملك منطقة كيزووادنا في جنوب شرق الأناضول، والتي كانت خاضعة للمملكة الكبرى قبل ذلك. وتحول ذلك العمل السلمي الدبلوماسي بعد ذلك ليصبح أحد الأدوات الرئيسية في تعاملات العثينين، بعد ذلك في منطقة الشرق الأدني القديم استعمل علوك الحثينيين أسلوب المعاهدات؛ لتقنين روابطهم بالأمراء والملوك المطيين الخاضعين لهيمنتهم، ولتحديد حقوقهم وواجباتهم بالأمراء والملوك المطيين القوي الكبرى في عصرهم في منطقة الشرق في علاقتهم بعظماء ملوك القوي الكبرى في عصرهم في منطقة الشرق في علاقتهم بعظماء ملوك القوي الكبرى في عصرهم في منطقة الشرق

نجح تيليبينو في تحقيق بعض الاستقرار للعرش الحثيني وللمملكة على النطاق الأكبر، وظلت تقع بعض الانقلابات الداخلية الجديدة، بالرغم من قلتها مقارنة بما كان يحدث قبل حكم تيليبينو، وظل اهتمام وتأثير

الحثينيين محصوراً في منطقة شرق الأناضول على مدى القرن التالى بأجمعه. وتركت سوريا لهيمنة القوى العظمى في ذلك العصر، وهما الميتانيون والمصريون. ولم تصل إلى عصرنا أية معلومات عن الحكام الستة الذين تلوا تيليبينوا على عرش الحثينيين، فالذي تلاه على العرش وهو تاهور وايلي كان دخيلاً على نظام وراثة العرش، واستولى على الحكم من زوج ابنة تيليبينو، الو وامنا أما آخر السقة المجهولين، ميرواتاللي الأول، فيبدو أنه أيضًا كان دخيلاً على وراثة العرش، ووصل إلى العرش عن طريق الاغتيالات، حتى تم اغتياله هو الآخر.

ويبدو أن مغتاليه اتفقوا على تتويج ملك جديد يدعى تود حاليا (حوالى 1400 ق.م)، وكان اعتلاؤه العرش بمثابة عهد جديد في تاريخ العثينين، وتعيز ذلك العهد الجديد بإعادة إحياء مشاريع الغزو العسكرى خارج الحدود الحثينية – باتجاه الغرب الأقصى للأناضول ومن جديد باتجاه سوريا، وتتيجة لذلك، تحول العثينيون في ذلك العهد الجديد ليصبحوا في قمة ما استطاعوا تحقيقه، وأصبحوا في القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد، أعظم قوة في الشرق الأدنى القديم، ويمكن أن نشير إلى مملكة الحثينيين في ذلكما القرنين باسم المملكة الحديثة، وأحيانًا يطلق عليها الإمبراطورية المثينية التي استمرت على مدى قرنين (حوالي 1400 -1200ق.م)، تبوأت خلالها المملكة الوضع الذي هيأ لها اتصالات مكثفة وواسعة مع الممالك العظمي المعامرة في الشرق الأدني

وعلى الرغم من ذلك تراوح مصير الملكة وتنبذب كثيرًا بين مد وجزر، فانتصارات تود حاليا العسكرية في سوريا وغرب الأناضول أعاد المملكة إلى تبوتبوء وضعها وسمعتها كقوة عظمى في المنطقة، إلا أن للتركيب البنائي للمملكة ظل هشًا وغير محكم البناء. ففي عهد أرنوواندا الذي تلاه في الحكم بعد أن كان وليًا للعهد، كانت الأزمات تنشب في مواضع

متباينة من الملكة، فوق ذلك، كان تحالف المصريين والميتانيين يهدد بقوة أية استعادة لنفوذ الحثيثيين على سوريا، وهو النفوذ الذي استعادوه بعد الغزوات التي قام بها تود حاليا على سوريا.

ووصل الموقف إلى حالة خطيرة من التدهور في عهد تودحاليا الثالث (1375? -1350)، والذي كان له من سوء حظه أن يشهد غزو مملكته في عصره من جميع الاتجاهات، من قبائل مجموعات كثيرة متباينة من قوى الأعداء الذين أطلق عليهم بوجه عام الفروات المحلية أو الداخلية. وتم اختراق قلب البلاد، واضطر تود حاليا الثالث إلى الفرار إلى مدينة تسمى ساموها على المدود الشرقية للبلاد، حيث كون بها بلاط المنفي. أما العاصمة فقد احتات واجتاحتها القوى الفازية. في تلك الأيام المظلمة من بدايات القرن الرابع عشر حتى منتصفه، وصل تاريخ الحثينيين تقريبًا إلى بهايته.

وبالرغم من اعتلال صحته وإصابته بكثير من الأمراض، قاد تود حاليا حروبًا متصلة، ليحرر عاصمته ويعود إلى عرشه، وبعد إصرار ودأب، نجح في استعادة المملكة، وطرد قوى الأعداء، وطارد بعضهم حتى أعادهم إلى الأماكن التي قدموا منها، ثم دمر بلادهم وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وربما يعود أغلب النجاح الذي حققه في استعادة بلاده إلى المهارات العسكرية البارزة والمتميزة، التي كان يتمتع بها ابنه وقائد جيوشه سبيللوليوما، والذي اعتلى العرش من بعده (1350 -1322).

كان سبيللو ليوما بالفعل هو مهندس العمليات العسكرية لناهجة التي مكنت أباه من استعادة الملكة واسترداد عاصدمته وعرشه، وبحمله عسكرية قادها ببراعة مشبهودة على سوريا، قرر أن يغزو الميتانيين في عقر دارهم، فعبر القرات، وتمكن من غزو عاصدمتهم واشو جنى، ثم استدار وغزا كل المالك الصغرى السورية التي كانت خاضعة للميتانيين. وبذلك ضعفت قوة الميتانيين الدولية ووصلت إلى نهايتها، إلا أن اثنى عشر عاماً أخرى مرت قبل أن تصقط قرقميش، آخر مدينة حصينة للميتانيين في

قبضة الحثينيين.

وقيما يخص غرب الأتاضول، راح سبيللوليوما يرسل البعثات المسكرية إلى داخل أرض أرزاوا. واستقرت قبضة الحثينيين على منطقة غيرب الأناضيول في عبهت متورستيلي الثنائي (1321-1295) ابن سببللوليوما، الذي قاد في عامن متتالين حملتين عسكريتين في العامين الثالث و لرابع من حكمه. وأدت تلك الحملة الطويلة إلى إنهاء تمرد، وتفريغ المنطقية من سكانها، بعد أن كانت أشيد المناطق تمردًا أو عصيباناً واستعمياءً على الترويض من بين جميم أنحاء مملكة أرزاوا، وإلى فرش الهيمنة على باقى الممالك المعلية المنفري في غرب الأناضول. وجاء من بعد مورسيلي الثاني ابنه ميوا تاللي الثاني (1295 -1272) ليعزز تثبيت سيطرتهم على غرب الأناضول بعزيد من إجراءات تشديد القبضة عليهاء قبل أن يركن انتباهه على التهديد الذي بدأ يلرح من أقصى الجنوب من الفرعون رمسيس الثاني، والتقي الجيشان على نهر العاصبي، وكما ذكرنا قبل ذلك، انتهى اليوم الأول من الصدام دون إحراز نصر حاسم لأي طرف، إلا أن المثينيين يعدون منتصرين على الدي البعيد، طبقًا لما ترتب عنى تلك المعركة من نتائج وانحسار النفوذ المسرى عن أغلب سوريا وانتقاله إلى المثنيين كنتيجة مترتبة على ثلك المركة.

وتلى ميواتاللي على العرش ابنه أورحى- تيشوب (1272 -1267)، الذي حظى في بداية حكمه بدعم وتأييد عممه (أو هكذا بدا الأمبر) حاتوسيلي، إلا أن خلافًا نشب بينهما، وحين حاول أورحى- تيشوبي أن يعزل عمه عن كل مناصبه الهامة، سارع عمه إلى حمل السلاح وجمع الأتباع، وهزمه واستولى على عرشه وأبعده إلى سوريا، وهكذا، بدأ عهد حكم حاتوسيلي الثالث (1267 -1237). وأصدر أورحى- تيشوب على استعادة عرشه، وبعد محاولات كثيرة فاشلة لاكتساب دعمًا أجنبيًا خارجيًا يعينه على عمه، فر من مكان منفاه، ولجأ ابعض الوقت إلى بلاط رمسيس الثاني فرعون مصر، وترتب على ذلك توتر شديد في العلاقات بين

الحثينيين والمصريين، بعد أن كانت العلاقات قد أصبحت ودية بعد معركة قادش. أما رمسيس الثاني فقد أعلن اعترافه الكامل والواضيع بحاتوسيلي الثالث كملك شرعي للحثينيين، إلا أنه رد على مطالب حاتوسيلي الثالث المتكررة بطرد أورحي يتشوب من مصر، بأن أورحي يتشوب غير موجود بمصر أو لم يعد موجوداً بها على الإطلاق.

وفيما عدا ذلك الاستثناء، ظلت العارقة بين البلاط الملكى الحثيني وبلاط رمسيس الثاني في مصر تتسم بالود والحرارة، بعد إبرامهما معاهدة السلام الشهيرة (1258) والتي أنهت كل العداوات السابقة بين الملكتين، وتوثقت العلاقات بين الملكتين بالصاهرات التحالفية، أي عن طريق الزواج،

وخلف حاتوسيلى بعد موته ابنه توداليا الرابع (1237 -1209). ومن جديد، يرث ملك حثينى جديد تلالاً من المشاكل التي كانت خليطًا من مشاكل الداخل وصراعاته، ومشاكل الخارج من أعداء متربصين. وكانت أهم المشاكل الخارجية التي واجهت ترداليا الرابع نهوض الاشوريين من جديد وتنامى قوتهم باضطراد، كانت قوتهم تتزايد ونفوذهم يتمدد في شرق نهر الفرات، وكانت قوتهم المهددة لجيرانهم قد بدأت في النمو، بعد الدمار الذي حاق بالميتانيين. وفي محاولة منه لكبح جماح تلك القوة المساعدة المهددة، جمع توداليا الجيوش ويدأ صراعه مع الملك الأشوري المعاصر له وهو توكولتي نينورتا الأول وحاقت بقوات توداليا هزيمة المعاصر له وهو توكولتي نينورتا الأول وحاقت بقوات توداليا هزيمة قد انقضي إلا زمن قصير، حين واجه كارثة أخرى من الداخل على شكل انقلاب داخلي، أدى إلى فقدانه للعرش لبعض الزمن، بعد أن استولى عليه ابن عمه كورونتا. إلا أنه تمكن من استعادة العرش بعد ذلك، وبدأ في مارجهة الاضطرابات الأمنية والتعرد الذي انتشر في أرجاء مختلفة من مملكة.

إلا أن النهاية كانت قد باتت وشيكة، فأخر ملك حثيني معروف كان ابن توداليا، وهو سبيللوليوما الثاني (أو سبيللولياما) (1207)، والذي قام بتسجيل أنباء بعض المعارك التي خاضها ضد أعدائه، بما فيها معركة

بحرية أمام سواحل قبرص. وبالرغم من تمكنه من إحراز بعض النجاحات العسكرية، إلا أن مملكته وعصره وصلا إلى نهاية مفاجئة، وحلت تلك النهاية خلال أعوام قليلة من اعتلاته العرش، أما أسباب ذلك الانهيار النهائي في البدايات المبكرة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد، فمازالت قيد البحث والتنقيب وموضع جدل ونقاش. إلا أن الثابت الذي لاشك فيه أن حاتوسا العاصمة حاق بها دمار شامل، وما لبثت أن اختفت من الوجود ولم تعد بها حياة. وبسقوطها، كانت نهاية مملكة المثينيين التي انتمت إلى العصر البرونزي.

مملكة الهيتانيين (29)

خيلال القرون الأخيرة من الألف الثالثة قبل الميلاد، ظهرت أول تسجيلات تتحدث عن مجموعات سكانية متباينة، عرفوا باسم الحوريين في الشرق الأدنى القديم، أما موطنهم الأصلى الذي قدموا منه فغير معروف على وجه اليقين حتى الآن، ويميل بعض الباحثين إلى أنهم قدموا من منطقة كورا – أراكسيز عبر القرقاز، بينما يميل باحثون أخرون إلى ترجيح أن أصلهم من منطقة شرق الأناضول. إلا أنه مهما كان الموطن الأصلى الذي قدموا منه، فقد اندمجوا معًا اندماجًا تأمًا – سياسيًا، وعسكريًا وتقافيًا – في تلك المنطقة التي استقروا بها، أو في خارجها مع الشعوب التوسع عن طريق العرب، ودل على وجودهم وانتشارهم انتشار الأسماء المورية والمكونات الثقافية الفاصة بهم في شمال منطقة ما بين النهرين، وشمال سوريا وشرق منطقة الأناضول. ومن الثابت، أنه حتى بعد أن الحوريين السياسية بزمن طويل، ظلت المكونات الثقافية المناطق التي تمكنوا يومًا من اختراقها للحوريين مؤثرة وسائدة في المناطق التي تمكنوا يومًا من اختراقها والسيطرة عليها.

ومن الشابت لدينا الآن وجود الدولة الصورانية من القرن الشالك

والعشرين قبل الميالا، من التسجيلات التي تظهر اشتباكهم مع الدولة الأكادية في حروب قادها نارام- سن (2254-2258)، إلا أن الدولة الأكادية كانت قصيرة العمر، ووصلت الإمبراطورية الأكادية إلى نهايتها المفاجئة بعد ذلك بعدة عقود (2193)، ويسبب الفراغ السياسي الذي ترتب على سقوط الإمبراطورية الأكادية، احتلت الشعوب المتحدثة اللغة الحورية أجزاء من شمال ما بين النهرين وشرقها، وأسسوا دويلات في تلك المنطقة، وظلوا على مدى قرن أو نحو ذلك بمناي عن أي خطر خارجي أو تدخل أجنبي في شئونهم، حتى عهد أسرة أور الثالث، ويبدر أن مؤسس تلك الأسرة الحاكمة أور – نامو (2112 -2095) بدأ في الهجوم على تلك الدويلات الحورية، إلا أن الموقف تحول بعد تولى خليفة أور – نامو وهو القائد العسكري شولچي (2047 -2094)، فبعد معارك كثيرة مظفرة في شمال وشرق مملكته، تمكن شولچي من الانتصبار على كل تلك الدويلات المورية، وأخذ أعداداً عظيمة من سكانها كاسري حرب.

وفى القسرون التى تلت تلاشسى وزوال أسسرة أور الشالث (حسوالى 2000 ق.م)، أصبحت المعلومات المتوفرة عن الحوريين شذرات بسيطة ونادرة. إلا أنه بحلول نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد توحدت كثير من الولايات المعفرى، والتى كان الحوريون يشكلون أغلبيتها السكانية في دولة واحدة أكبر، أصبح أسمها مملكة الميتانيين، أما سبب ذلك الاتحاد أو من كان خلفه فما زال سؤالا مفتوحًا يبحث عن إجابة. بعض الباحثين عزى ذلك الاتحاد إلى أسرة هند – آرية، أو هند – إيرانية حاكمة دخيلة على تلك الدويلات، وتوصلوا إلى ذلك الاستنتاج بسبب ظهور أسماء هند إيرانية للحكام والملوك الميتانيين، وكذلك ظهور أسماء آلهة هند – إيرانية بين مجمع الآلهة الميتانية. ويالطبع لا تبدو فكرة دخول طبقة غريبة حاكمة تفرض هيمنتها وسيطرتها على مجتمعات قائمة قبل وصولهم، ليست غريبة بأى حال وليست نادرة، بل هناك أمثلة غيرها، مثل القسيطيون غريبة بأى حال وليست نادرة، بل هناك أمثلة غيرها، مثل القسيطيون

الذين حكموا بابل وكانوا من خارجها، وكذلك النورمانديون الذين حكموا إنجلترا، وهناك حالات أخرى مازالت قيد البحث والدراسة. ولقد أشربا قبل ذلك إلى الافتراض شبه المؤكد والمتفق عليه من أن الملكة الحثينية قد تكونت بفضل أسرة هند أوروبية، حاكمة دخيلة على الشعوب التي كانت تقطن منطقة وسط الأناضول. وفي حالة الميتانيين، فإن نظرية النخية الهند- إيرانية الحاكمة الدخيلة أصبحت مؤخرًا غير مؤكدة، وأقل احتمالاً عن ذي قبل، بعد ظهور أسباب جديدة تتناقض معها (30). أما ظهور أسماء هند- إيرانية للوك وآلهة في قمة المجتمع الميتاني، فهو إشكالية شعناج إلى مزيد من البحث.

ومن العجيب أن تلك الصفارة - التي كان لها ذلك التأثير الثقافي العميق الذي ترك بصماته المميزة على عالم الشرق الأدنى القديم - لم يصل عنها إلا تسجيلات نادرة ونصوص قليلة. بل إن المواقع الحقيقية لعاصمتى الميتانيين، وهما واشوجاني وتايد، غير معروفة حتى الآن. وكل ما يمكن تخمينه عن تلكما العاصمتين أنهما كانتا إما في شمال ما بين النهرين أو في شمال سوريا، وهو أقرب ما يمكن التوصل إليه من تخمينات(31)، ومن جهة أخرى، فإن الإشارات النصية إلى المملكة المذكورة في نصوص الممالك الأخرى المعاصرة للميتانيين، والتي تذكر مملكة الميتانيين باسم الحوريين، أو الميتانية أو هانيجالبات، أما المصريون والكنعانيون فقد كانوا يطلقون عليها الاسم السامي العربي وهو نهارينا أو نهاريما. أما اسم ماتياني والذي تحول بعد ذلك إلى ميتائي (أو ميتائي) كان يستخدم من قبل المواطنين الميتانيين أنفسهم، فقد تم التيقن منه من خلال جزء من نص منقوش، يحتمل أن تاريضه يرجع إلى عصمر منه من خصر من قبص منقوش، يحتمل أن تاريضه يرجع إلى عصمر الفرعون تحتمس الأول(32).

وبمجرد اكتمال تكون الملكة الميتانية، بسطت نفوذها بسرعة على شمال مابين النهرين وعلى شمال سوريا حتى شرق الأذضول، ودعم الامتداد العسكرى ترسيخ الميتانيين لوجودهم وهيمنتهم على دويلات

شمال سوريا، التى أصبحت ولايات محلية منضمة تحت سيطرة الميتانيين، ولايات محلية تابعة للإمبراطورية الفنية سريعة النصو، إلا أن التطلعات الإمبريالية الميتانية التوسعية لم تصل أبداً إلى درجة التشبع، كانت هناك تطلعات إلى مغانم أعظم تقع خلف جبال توروس وما يقابلها من أراضى. وفي جنوب شرق الأناضول، كان الميتانيون قد قهروا مملكة كيزر وادنا وسيطروا عليها، ويحتمل أن ذلك قد وقع بدون حرب، عن طريق الضغوط الدبلوماسية أكثر منه بالقوة العسكرية (انظر ما يلي). ولم تكن إلا مسألة وقت، بل وقت قصير، حتى أصبحت القوات العسكرية الميتانية تشكل غطراً ماحقًا على الإمبراطورية الحثينية في وسط وغرب الأناضول، ولم يكن التهديد للحدود الحثينية فقط، بل على قلب الإمبراطورية الحثينية في عقر دارها، واستغرق نلك الصراع المرير بضعة عقود من الأعوام بين عقر دارها، واستغرق نلك الصراع المرير بضعة عقود من الأعوام بين المثينيين والميتانيين، للهيمنة على المناطق التي راح كل طرف يدعى أنها المشينيين والميتانيين، للهيمنة على المناطق التي راح كل طرف يدعى أنها المسلمية التفاوضية، ولم يعد هناك أي أمل لإنهاء الصراع إلا بالدمار الكامل النهائي لأحد طرفه.

وهناك إشارات عديدة في التسبجيلات الحثينية المبكرة إلى العداء المزمن بين الحثينيين والحوريين، ويذكر نص قديم منقوش أن حاتوسيلي الأول وهو أحد عظماء ملوك الحشينيين اضطر إلى المعودة من حملة عسكرية كان قد بدأها على منطقة أرزاوان بسبب بدء الحوريين في غزو بلاده، وهو الغزو الذي نجم عنه اشتعال التمرد والانشقاق في البلاد التي كانت تحت سيطرة الحثينيين، ويختمل أن ذلك الهجوم كان ردا انتقامياً على هجوم حاتوسيلي قبل ذلك على بلاد خاضعة لهيمنة الحوريين (مثل أرسو، التي كانت هدفًا للحثينيين، وحاصروها حصاراً فاشكر) خلال حملته على مناطق شمال سوريا، واشتعلت العداوة من جديد في عهد مورسيلي الذي خلف حاتوسيلي على عرش الحثينيين، وقام الحوريون مورسيلي الذي خلف حاتوسيلي على عرش الحثينيين، وقام الحوريون

واشتعل الصراع مرة أخرى في عهد قاتل مورسيلي والمستولى على عرشه حانتيلي الأول، فقد قام الحوريون بغزو أرض الحثينيين، فراحوا يعيثون فيها فسادًا ويجمعون غنائمها، وواجههم حانتيلي وتمكن من إخراجهم من بلاده، إلا أنه لم يتمكن من استرجاع زوجه حاراتسيلي وولديه، الذين وقعوا في أسر الحوريين.

وسبق أن عرفنا بظهور مملكة كيروادانا في المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية الفائقة جنوب شرق الأناضول، وكانت قبل ذلك من المناطق الفاضعة للحثينين، ويحتمل أن ظهور مملكة كيروادانا المستقلة عن المعينين قد قامت ونشأت بدعم من الحوريين، الذين حلوا بعد ذلك في تلك المنطقة بأعداد كبيرة. ثم نشأ تحالف بين إيدريمي، وهو حاكم محلى خاضع لنفوذ باراتارنا ملك الميتانيين وبيليا حاكم كيروادانا، مما زاد من حدة اختراق الحوريين للأناضول عير حدودها الجنوبية الشرقية، مما ضاعف من التهديد الموري، أو بوجه أدق التهديد الميتاني الحثينيين، ولم يكن التهديد الأمن وسلامة البلاد والمناطق الشرقية الخاضعة للحثينيين فلم فقط، بل كان التهديد موجهًا ضد قلب بلاد الحثينيين ذاتها، والتي ظهر من قبل عدو شديد التصميم على ذلك، ويتميز بقدر كبيرمن العدوانية.

إلا أن هناك خصمًا آخر كان على الميتانيين مواجهته. فقد شكات العملات العسكرية الناجحة على شمال سوريا، التي قادها الفرعون المصري تحتمس الأول، تحديًا مباشرًا للإمبراطورية الميتانية النامية. إلا أن فشل خلفاء الفرعون المباشرين – وهما تحتمس الثاني وحتشبسوت في انتهاج نهج تحتمس الأول، في دعم العملات العسكرية وترسيخ وتأمين المناطق التي غزاها في شمال سوريا أتاح الفرصة للميتانيين للتحرك بحرية لاستكمال هيمنتهم على شمال سوريا وشرق الأناضول.

وبتجدد النشاط العسكرى للصبرى على شمال سوريا في عهد تحتمس الثالث، تعرضت المناطق التي خضعت الهيمنة الميتانية مرة أخرى التهديد،

ولا يوجد أى شك فى أن الحثينيين والأشوريين والبابليين رأوا فى تحتمس الثالث محرراً لهم من الطغيان الميتانى، وسارعوا جميعًا إلى توثيق أواصر العلاقات معه، بل إنهم بدءوا فى إرسال الهدليا والجزية له. إلا أن غزواته كانت مثل غزوات تحتمس الأول بلا أثر دائم فى إرساء وترسيخ النفوذ المصرى فى شعال سوريا. فقد ثبت أن هناك تحديات خطيرة تواجهه وتواجه نفوذه الشخصى فى المناطق التى غزاها، من خلال حملته السابعة عشرة والأخيرة، والتى كان دافعه إليها القضاء على التمرد فى مدينة تونيب بوسط سوريا وقادش بشمالها الشرقى، وفى بلاد الميتانيين كان الملك شوشراتار القوى قد استوى على العرش (حوالى -1420 كان الملك شعمر كان يعظى بدعمه، وتحت قيادة شوشراتار القوى النشط كان الميتانيون فى سبيلهم بدعمه، وتحت قيادة شوشراتار القوى النشط كان الميتانيون فى سبيلهم بدعمه، وتحت قيادة شوشراتار القوى النشط كان الميتانيون فى سبيلهم

وبعد أن تحرر شوشراتار من الغوف من أى تدخل مصرى جديد في برامجه التوسعية، بدأ بغزو أشور، فاجتاح عاصمتها أشور وحصد كل ما توصل إليه من غنائم، ثم استكمل حملته غربًا عبر نهر الفرات، فأخضع كل ممالك شمال سوريا، حتى وصل بقواته إلى ساحل البحر المتوسط، وربما كان يتطلع إلى مد نفوذه إلى الجنوب حتى فلسطين، إلا أن أغلب مناطق جنوب سوريا كانت مازالت تحت النفوذ والهيمنة المصرية. كان شوشراتار بلا أدنى شك منجنبًا إلى طموحات إخضاع كل المنطقة، بما فيها منطقة فلسطين، التى كانت توجد بها جاليات حورية كبيرة، إلا أن أى تحرك بذلك الاتجاه كان لابد أن يخضع لحسابات دقيقة، تأخذ في اعتبارها قبل أى شيء حتمية الصدام المباشر مع مصر، حيث كانت كل مناطق جنوب سوريا وفلسطين تحت الهيمنة المصرية المباشرة في عهد خلفاء تحتمس الثالث. كانت آفاق النجاحات العسكرية الأولية للميتانيين ضد العسكرية المصرية المصرية في شمال سوريا جيدة للغاية، إلا أن المخاطر ضد العسكرية المصرية في شمال سوريا جيدة للغاية، إلا أن المخاطر

بعيدة المدى كانت مما لا يمكن تجنبه.

لم تواجه شوشراتار موانع جمة أو خطيرة في توسعه السريع في شمال سوريا، ولم يشكل الآشوريون ولا القسيطيون البابليون أي خطر مذكر على توسعاته غرب الفرات. كانت الملكة الوحيدة التي يمكن أن تشكل خطرًا عليه هي مملكة المثينين. إلا أن الملكة العثينية لم تكن حتى ذلك الرقت قد استعادت مكانتها كقوة دولية عظمي، كانت بالكاد قد تمكنت في ذلك الوقت من استعبادة هيمنتها على كثير من مناطق الأناضول، التي فقدتها في فترة الاضطرابات التي ثلت اغتمال ملكها مورسيلي، إلا أنها كانت لا تزال تفتقد القدرة على استعادة قدرتها العسكرية على الغيزي، والتي مكنت ملوكها الأوائل من غيزو المناطق السورية. إلا أن المثينيين اثبتوا أنهم يتمتمون بالقدرة على استمادة قرتهم في مراجهة عدوان خارجي، لم تكن إلا مسألة وقت حتى عادت بهمة جديدة لإعادة تأسيس وجودها ونفوذها في شمال سوريا، وكان ذلك يعني حتمية الصراع مم الميتانيين، وأو كان الميتانيون في ذلك الوقت مشتبكين في صبراع ضيد مصر، لكانوا قد وقعوا بين عدوين قويين وقادرين، فيمجرد أن وجِّه الحثينيون اهتمامهم لاستهادة نفرنهم في شمال سوريا، تخلى الميتانيون عن تطلعاتهم في الجنوب.

كل تلك الاعتبارات شغلت الملك الميتاني ارتاتاما الأول، خليفة وربعا ابن شوشراتار، مما بفعه إلي السمى إلي التفاوض مع فرعون مصر آمونحتب الثاني للتحالف معه، ومن الواضح أن التوصل إلى تحقيق مثل ذلك التحالف، كان لابد أن يسبقه الاتفاق بين المملكتين على حدود مناطق النفوذ التي تخص كلاً منهما، كان ذلك يعنى للميتانيين تخليبهم عن تطلعاتهم إلى بسط نفوذهم على جنوب سوريا، وكانت مصر تضمن بذلك سيادة بلا تحديات تذكر على تلك المناطق، بينما تتخلى مصر للميتانيين عن كل المناطق التي كان قد غزاها كل من: تحتمس الأول وتحتمس الثالث قبل ذلك في شمال سوريا، ومن الواضح أنه كان هناك عدد من النقاط قبل ذلك في شمال سوريا، ومن الواضح أنه كان هناك عدد من النقاط

الشبائكة في المقاوضات، قدم المصريون عدوضًا وشروطًا بديلة بخصوصها لتلك التي قدمها الميتانيون. ولا يوجد أي شك في أن كل المفاوضات قد بطنتها الشكوك المتبادلة وعدم ثقة كل طرف في نوايا الأخر، واستمر الحال على ذلك حتى اعتلى تحتمس الرابع عرش مصر وتم التصديق على الاتفاق مع ارتاناما ملك الميتانيين، وتوجو) الاتفاق بزواج تجالف(33). ويموجب ذلك الاتفاق رسمت حدود مناطق النفوذ بين المملكتين، بسيطرة مصر على المناطق التي تقع شمال مصر حتى قادش على نهر العامى، ومنطقة العموريين حتى مدينة أوجاريت على ساحل البحر المتربين تغير على ساحل البحر المتربين المناطق التي تلي ذلك إلى نفوذ وهيمنة الميتانيين،

مكنت تلك المعاهدة أرتاتاما ملك الميتانيين من إحكام قبضته على شمال سوريا، مع احتمالات ضعيلة بوجود مخاطر من الحثينيين، فقد كان الحثينيون مشغولين تمامًا بتأمين بلدهم ذاتها من مخاطر غزوهم في عقر دارهم، فكما ذكرنا من قبل، تصاعد التهديد حتى تحول إلى غزو وانشقاق داخلي في عهد تودهاليا الثالث الحثيني. ووفر ذلك الميتانيين حرية الحركة في شمال سوريا وبسط نفوذهم عليها في تلك المرحلة. إلا أن استعادة الحثينيين لقراهم في عهد ابن تودحاليا وخليفته سبيللوليوما أعاد انعاش العداوة التاريخية بين المثينيين والميتانيين. كان التطلع إلى بسط النفوذ من الجانبين على المناطق ذاتها تقضي على أي احتصال التوصل إلى تسوية سلمية، مثل تلك التي أمكن التوصل إليها بين الميتانيين والمصريين. أصبح المثينيون والمصريين.

ولسوء حظ المينانيين - عدا مواجهتهم اواحد من أشد ملوك الحثينين هزمًا وضراوة - دخلت الصفوة الحاكمة الميتانيين في نزاعات وانشقاقات خطيرة بين تكتبلات الأسرة الحاكمة في صبراع على السلطة، وخلف ارتاتاما على عرش الميتانيين ابنه شوتارنا الثاني، الذي وسع من مناطق نفوذ الميتانيين حتى أقصى منطقة في الشمال تسمى ليسووا، إلا أنه بعد فترة قصيرة من موته واعتلاء ابنه ارتاشومارا العرش تعرض ابنه

للاغتيال، مما مهد السبيل لاعتلاء شقيقه الأصغر توشراتا العرش، إلا أنه كان هناك مطالب آخر بالعرش، ارتاتاما آخر كان يحظى بدعم وتأييد الشعب الميتاني، وبالقعل أعلن نفسه ملكًا.

ورأى سبلليوليوما ملك الحثينيين أن تلك الظروف مواتية، ولايد له من استغلالها، كان قد لقي قبل ذلك هزيمة عسكرية على بدي توشيراتا، مما يعنى أنه كان يواجه عدواً قوياً، وأن النجاح في مواجهة الميتانيين يتطلب نشاطًا ديلوماسيًا سلميًا، كما يتطلب تحقيق نجاح في ساحة الحرب. ويذلك بدأ التفاوض مع أرتاتاما. ويعوجب اتفاقهما (الذي لا أثر له حتى الأن)، يعترف سببللوليوما ملك الحثينيين بأرتاتاما كملك شرعي عظيم الميتانين، ويقدم له الدعم اللازم، حتى يتمكن من الانفراد بعرش المتانيين بعد هزيمة توشراتا، ومن غير المعروف ما هو نوع الدعم أو الوعود التي وعد أربّاتاما سبيللوليوما بتحقيقها له في المقابل، ولا الإنجازات أو المكاسب التي يمكن أن يحققها الحثينيون من وراء ذلك الاتفاق للوصول إلى نصر محقق، إلا أن الحملة العسكرية الناجحة والتي استعرت عامًا كاملاً وقادها سبيللوانوما على شيمال سوريا مهدت الطريق لتحقيق انتبصباره النهائي، بالرغم من تمكن توشيراتا من الفيرار حين بدء سبيللوليوما في التوجه إلى عاصمة اليشانيين اللكية، وكلف التدمير النهائي للميتانيين المثينيين اثني عشر عامًا أخرى من المعارك، وحلت نهاية البيتانيين بغزو الحثينيين لقرةميش، أخر معقل حصين للميتانيين، وباغتيال توشراتا على بد أحد أبنائه.

وترك الدمار النهائى للإمبراطورية الميتانية فراغًا سياسيًا في شرق الفرات، سارع الأشرريون الذين كانوا خاضعين الميتانيين لملك بقيادة ملكهم أشور أوباليت. وتدفقت القوات الأشورية وقوات مملكة آلش واجتاحوا ما تبقى من المملكة الميتانية، واقتسموا منطقة الشمال فيما بينهم. وكان ذلك سببًا لانزعاج سبيللوليوما، لما قد يترتب على انتصاره على الميتانيين وقضائه عليهم قضاءً نهائيًا. فيتدميره أحد أعداء الحثينيين،

إنما أتاح الفرصة الملائمة لنمو وظهور عدو جديد، والذي سيثبت على مدى زمنى قصدير أنه لا يقل خطورة، وربما ورد إلى ذهن سبيللوليوما بعض الاحتمالات عن الأخطار المتوقعة على مصالح الحثيثيين خاصة في سوريا إذا استعاد الأشوريون قوتهم القديمة.

وانته فكرة أنه بالإمكان تجنب ذلك الخطر بصنع ملك مجتاني جديد تحت هيمنتهم ويجاسوه على عرش ما تبقى من بلاد الميتانيين، ايتكفل لتحجيم القوة الأشورية الناهضة، وعقد معاهدة مم أرتاتاما لدعم للوصول إلى العرش هو أو خليفته، بمجرد إقصاء توشرانا عن العرش، إلا أن ارتاتاما وولده شوتارنا الثالث أظهرا بعد ذلك مبالاً غرببًا للأشورين. فقد دعموا القوات الأشورية في اجتياحهم وتدميرهم للعاصمة المتانية واشوجاني ومدن ميتانية أخرى، بعد انتصار المثينيين على الميتانيين، ثم راهوا يرسلون إلى المك الأشوري بالهدايا الثمينة، بما فيها الغنائم الثمينة، والتي كان سلفهم شوشتاتار الأول قد غنمها من الأشوريين من ستين عامًا سابقة. آخر ما كان يقبله سبيللوليوما أو يريده سبيللوليوما هو وجود حاكم أو ملك موال للأشوريين على العرش، الذي أقصوا توشراتا عنه، وإن سقط ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية في أيدي الأشوريين أن في نطاق نفوذهم، فإن المناطق الشاهيمة الجشينيين في غرب الفرات، خاصة مدينة قرقميش ومنطقتها، والتي أصبحت مملكة تابعة للحثينين، ستصبح معرضة لخطر دائم وتهديد مستمر من الأشوريين، لذلك ارتد سبيللوليوما عن الاتفاق الذي توصل إليه مع أبي شوتارنا، بدلاً من ذلك، عاد إلى دعم ابن توشراتا، ويبدو أن كيلي- تيشوب بن توشراتا كان هو السنول عن مصرع أبيه، وهرب بعدها إلى بابل. إلا أن البابليين رفضوا منحه حق اللجوء إليها، فاضطر إلى الرجوع إلى الشمال، ولجأ إلى عدو أبيه سبيللوليوما، وبعد أن تأكد سبيللوليوما، من ولاء كيلي- تيشوب، رُوِّجِه مِنْ إحدى بِنَاتِه، ثم بِعِث بِهِ إلى قرقبيش للإعداد لغزوة مشتركة عبر الفرات مع الأمير الحثيني شاري- كوشوه، الملك المعين على قرقميش، ولم

تلق تلك الغزوة إلا مقاومة ضئيلة. وتم تنتصيب كيلى - تيشوب، الذي ارتبط عن طريق الزواج بالحثينيين ملكًا على ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية تحت الهيمنة الحثينية، واكتسب اسم شانيواذا. وكما يمكن أن نتوقع، أدى ذلك الانقلاب والتحول من سبيللوليوما باحتجاجات شديدة من شوتارنا، الذي اتهم سبيللوليوما بخرق الاتفاق والمعاهدة التي عقدها من قبل مع أبيه آرتاتاما. فطبقًا لذلك الاتفاق، توقع شوتارنا الدعم الكامل من سبيللوليوما حتى يتمكن من اعتلاء عرش الميتانيين وكان محقًا في ذلك. وبدلاً من ذلك دعم سبيللوليوما بن توشراتا عدوهما المشترك السابق، إلا شوتارنا مع الاشوريين وميله إليهم يعد خرقًا من جانبه، للاتفاق المعقود مع أبيه، ويجعله باطلاً. وبغض النظر عن تلك الصجة، لم يكن سبيللوليوما من ذلك الصنف الذي يلتزم بمعاهدة أو دواعي الشرف، أو الإضلاص، أو من ذلك الصنف الذي يلتزم بمعاهدة أو دواعي الشرف، أو الإضلاص، أو التعامل بعدل يقف حائلاً في طريق تحقيقه لأهدافه.

ولم تعد الإمبراطورية الميتانية التي انهارت تصنف في مصاف القوى العظمى، وحلت محلها قوة الأشوريين التي راحت تتنامى بعد انهيارهم،

وكان نمو القوة الأشورية من جديد من النواتج الثانوية المترتبة على نجاح سبيلوليوما في تدمير الإمبراطورية الميتانية. أما بقايا الإمبراطورية المنهارة والذي أصبح بشار إليه باسم مملكة هانيجالبات، فقد راحت تسقط بمرور الزمن تحت الهيمنة الأشورية المطلقة، وخلال حكم خليفة شاتيوازا وهو شاتيوازا الأول تضاطت مملكة هانيجالبات، حتى أصبحت إمارة تابعة للأشوريين، وراحت علاقتها تتذبذب مع الأشوريين بحلول نهاية العصر البرونزي، بدءاً من التمرد الذي قاده ابن شاتيوارا وخليفته وازاشاتا، ولم تعد تتمتع بأي دعم، أو على الأقل أي عون يعتد به من الحثينيين في محاولتها لتأكيد استقلالها عن الأشوريين وهيمنتهم. وتخلّى الملوك الحثينيون المتخرون عن أي ادعاء بحقوق لهم على الحكم على ما تبقى، مما كانت في يوم ما الإمبراطورية الميتانية العظمي.

2

التفاعلات المتبادلة بين القوم: الإدارة الإمبريالية والعلاقات الدولية

إدارة البلاد الخاضعة

فى كل لحظة على وجه التقريب خلال العصر البرونزى المتأخر، خضعت مناطق بدءً بالأناضول، مروراً ببلاد ما بين النهرين، وسوريا، وفلسطين، حتى مصر، إلى هيمنة واحدة أو أكثر عن الممالك العظمى، كما كانت هناك كثير من أوجه الشبه فى الوسائل التى استخدمها كبار الملوك، لفرض سيطرتهم وهيمنتهم على البلاد الخاضعة لنفوذهم، إلا أنه كانت هناك أيضاً أوجه اختلاف بين تلك الوسائل، تباينت من إمبراطورية لأخرى،

كانت لكل مملكة عظمى مساحتها الجغرافية الأصلية التى نشأت عليها، وهى المساحة الجغرافية التى تقع بها عاصمة تلك المملكة، وكان سكان وأهل تلك المساحة الجغرافية يعتون رعايا مباشرين لتلك المملكة، ويغذون الجيش بالأفراد المحاربين، والذين كانوا يرون في أنفسهم، على مختلف مستويات طبقات المجتمع، أعلى مستوى من أبناء البلاد الخاضعة بالغزو، وأحق بالتميز.

كان لكل مملكة عظمى لغتها الخاصة الرسمية، بالرغم من أن تلك اللغة المختارة لم تكن إلا واحدة من لغات متعددة يتحدث بها أبناء الملكة، ولم تكن بالضرورة أكثر تلك اللغات لنتشاراً بين أبناء وشعب الملكة.

كذلك ثم يكن الانتماء العرقي للنخب الماكمة ينتمى إلى العرق الأوسع انتشاراً بين أبناء الملكة.

كانت بابل في العصر البروتزي المتأخر محكومة بالملوك القسيطيين، وهم من أصل أجنبي غير بابلي.

كذلك كانت السلالة التي حكمت المثينين، فمن المحتمل أنها كانت تنتمي إلى أعراق أجنبية عن المنطقة، ويحتمل أيضًا أنه لم يكن العرق

الأرسع انتشاراً في بلاد الحثينيين.

كذلك كانت النخبة الحاكمة للإمبراطورية الميتانية تنتمى إلى عرق أجنبى يختلف عن العرق الذى ينتمى إليه أغلب أبناء شعب الإمبراطورية، الذى كان يقطن أرجاها المختلفة (1).

وخارج المناطق الأصلية لكل إميراطورية، كان كل ملك بفرض هيمنته على بلاد أخرى خاضعة، وغالبًا ما كان خضوعها في الأغلب الأعدر إجعًا. إلى غزوها عسكريًا. كانت تلك البلاد تتكون من بلاد وممالك نابعة للمملكة العظمي، وكانت تحكم في الأغلب بملوك محليين، بافتراض أنهم يوفون بالتزاماتهم التي يفرضها عليهم خضوعهم لملكة أكبر أو إمبراطورية أقوى، وكانوا بوجه عام أصبحاب صلاحيات واسعة في إدارة ممالكهم المنفرى أو مدنهم التي يحكمونها، ونجد في الاتفاقات والمعاهدات التي عقدها المثينيون مع الممالك التابعة تحديدًا وأضحًا للالتزامات المتبادلة بين الطرفين. كانت تلك المعاهدات تتخذ شكل العقود الشخصية ، لا بين مملكتين أو حكومتين، بل بين فردين الملك: الأعظم والجاكم المجلى الخاضيم له. كان من أهم التزامات الحاكم المعلى تجاء الملك الأعظم الذي يخضع له دعمه بالقوات العسكرية عند الماجة ودقع الجزية السنوية. مقابل ذلك كان من حق الملك الخاضع أن يحظى بدعم الملك الأعظم إذا تعرضت بلاده لمُفاطر الغزو من طرف ثالث، أو إذا تعرض وضعه كحاكم للتهديد من أية جماعة داخلية أو خارجية. كذلك يضمن له اللك الأعظم أن يظل اعتلاء عرش تلك المنطقة مقصورًا على سلالة ذلك الحاكم المحلى(2).

أما غراعنة مصبر العظام، فمن غير المعروف إن كانوا قد عقدوا اتفاقات مماثلة مع حكام وملوك المناطق المحلية والبلاد التي غزوها أم لا؟ فلم يعثر حتى الآن على وثائق تثبت ذلك(3).

من الثابت أن كيار المسئولين المسريين كانوا يتدخلون بشكل أعمق من السئولين الحثينيين في شئون إدارة البلاد الخاضعة لنفوذ أي منهما. (انظر ما يلي)، مما قلل من أهمية الحكام المحليين. غير أن عدم وجود

عقود رسمية تحدد التزامات الخاضع تجاه الفرعون والدعم المقابل من الفرعون له من المكن أن ينتج عنه كثير من سوء الفهم بين الملك الأعظم والملك الخاضم.

وربما يفسر ذلك عديدًا من الشكاوي والتذمر التي تحتوي عليها رسائل تل العمارنة من قبل الملوك الخاضعين، يعبرون فيها عن خيبة أملهم وإحساسهم بالإحباط، بعد أن فشلوا في الحصول من الفرعون على المعونات المادية والدعم العسكري عندما احتاجوا إليها، لم تكن تلك الشكاوي يتم تجاهلها بلا رد من الإدارة الفرعونية، بل كان يرد عليها بردود غاضبة من الملك الفرعون، يؤنبهم فيها على مداومة إزعاجهم له، وعلى فشلهم في حل المشاكل بأنفسهم، وعدم تحملهم مسنولياتهم في شئون مناطقهم وبلادهم التي يحكمونها، كما يؤنبهم على عدم التزامهم بالأوامر التي وجهت إليهم قبل ذلك كان من المفيد كتابة اتفاقات رسمية تنص على الالتزامات والحقوق المتبادلة بين الملك الأعظم والملك المحلي الخاضع أهيمنته.

واختلفت درجة تدخل الملك الأعظم في شدون الملوك الضاضعين من معلكة إلى أخرى، وأحيانًا كانت تختلف بين مملكة خاضعة وأخرى داخل الإمبراطورية ذاتها. كان من النادر أن يتدخل علوك الحثينيين في الشئون المعلية للممالك الصغرى الضاضعة لهم، كانوا يتدخلون فقط في شئون تأمين التواصل والطرق بانفسهم لا في الشئون الداخلية لتلك المناطق. أحيانًا كانوا ينشئون هاميات عسكرية أو حصوباً في بعض الممالك أخيانًا كانوا ينشئون هاميات عسكرية أو حصوباً في بعض الممالك المناطق لعوامل عدم استقرار، أو أن تكون تلك المملكة للحلية الفاضعة المناطق لعوامل عدم استقرار، أو أن تكون تلك المملكة للحلية الفاضعة أفراد الجيوش – وشدة الاحتياج إلى توفير كل الموارد العسكرية، جاهزة أفراد الجيوش – وشدة الاحتياج إلى توفير كل الموارد العسكرية، جاهزة تحت الطلب المحملات العسكرية الكبرى الموجهة للخارج أو لحماية أرض الدولة ذاتها – لا يسمح للحثينيين بنشر قوات عسكرية دائمة في الممالك الدولة ذاتها – لا يسمح للحثينيين بنشر قوات عسكرية دائمة في الممالك

الصغرى، ولم ير الحثينيون أية ضرورة لاتخاذ مثل ثلك القرارات.

أما البلاد والممالك والمناطق الخاصعة للهيمنة المصرية في سوريا-فلسطين فقد كانت تقسم، لأسباب إدارية، إلى عدد من الولايات (4)، وكان المسئولون المصريون، سواء عسكريين أو مدنيين، يتنخلون بشكل أعمق في الشئون المحلية وإدارتها في تلك الولايات. إلا أن الملوك والبيوت الملكية المحلية في تلك المناطق استمرت في سدة الحكم وممارسة سلطتها، كما تركت هيئات الحكم المحلية ونظم الإدارة الهيكلية المحلية والمؤسسات السياسية تمارس أعمالها دون تدخل (5).

إلا أن مجمل الإدارة المحلية للولايات والمناطق والممالك الخاضعة ظلت خاضعة للإشراف من قبل مسئولين من لدن الفرعون، كان يطلق عليهم اسم المفوض أو المندوب الملكي (بالأكادية rabisu، وبالكنعانية sokinu)، والذين كانت مهامهم الإشراف على جمع الجزية والضرائب من المكام المحليين، كان بعض أولئك المندوبين أو المفوضين ينت مون إلى أصول كنعانية، إلا أن الأغلبية العظمي كانوا مصريين، وخلال مرحئة العمارنة، قام المفوضون بدورهم كمفوضين جوالين، بسلطات مضولة إليهم من المرعون مباشرة، وعلى عدد من المدن في منطقة معينة من المناطق الفاضعة للنفوذ المصري. كانت المسؤلية العليا لاستمرار الهيمنة المصرية على سوريا وفلسطين من مهام موظف كبير معين من الفرعون مباشرة ويحمل لقب: «المشوق العام على بالاد الشمال (الأجنبية)».

وكان من سلطاته كممثل شخصى للفرعون في المنطقة المعين عليها، الإشراف على الحكام والملوك المحليين كأحد أهم مسئولياته.(6)

وكان حكام مصريون مقيمون، يعينون على المدن المصينة الكبرى مثل غزة، وكرميدى (تم التعرف على موقعها في منطقة كامنة اللوز في وادى البقاع بجنوب لبنان)، وفي سومور (سيميرا باليونانية)، ومجدو، وبيت شان (وتقع كلتاهما في وادى يزرعيل شمال فلسطين)، وكانت تلك المدن العسكرية الحصينة تستخدم كمناطق قيادة للحكام المعينين من قبل

الفرعون، الإشراف على المن المحلية الواقعة في نطاق كل منها، وكانت صلاحياتهم تتضمن القيام بالإدارة المدنية والعسكرية معًا، بالرغم من أن الإدارة العسكرية المحضدة كانت موكلة إلى ضباط عسكريين مصريين في تلك المناطق، ويصحبة كل منهم فصائل من راكبي العجالات الحربية والمشاة وفصائل من الرماة بالنبال تحت قيادتهم المباشرة (7). وكان من مسئوليات الحاكم أو الملك المحلي أن يهتم يتفسه بإمداد تلك القوات بالغذاء الجيد وما يحتاجون إليه، وقد كتب أكيزي ملك قطنه إلي أغناتون فرعون مصر في إحدى رسائله: هجين وصلت القوات العسكرية والعجلات الصربية من عند صولاي، قدمنا لهم الطعام والشراب الجيد، والثيران، والأغنام والماعز والعجلات القوات العسكرية والعجلات

ولا تتوفر معلومات يقينية حتى الآن عن حجم ذلك القوات، والمدى الزمنى الذي كانت تتواجده في تلك المناطق الخاضعة. إلا أننا نعتقد أن تلك القوات لم تكن لتوجد بالمناطق الخاضعة إلا في حالة حدوث توترات بين مسسئولي الإدارة المسرية والحكام المحليين ورعايا تلك المناطق الخاضعة، وقد ظهر من نصوص رسائل تل العمارنة في مرات عديدة حدوث مثل تلك الاضطرابات. من جهة أخرى، كانت هناك مناسبات يطلب فيها الملك المحلي من الفرعون أن يوفر له حامية من القوات المسرية لفرض الأمن والمحافظة على السلم، أو لحماية حدود مملكته أو إمارته من عدوان جيرانه الطامعين.

ولا يوجد أى شك في أن الحكم المصرى للمناطق الفاضعة لم يغل من ميزايا وقوائد انتك المناطق، ولكن حين كانت توجد بعض المسالك بالفة الصغر مستقلة في سوريا فلسطين فقد كانت تترك لصغر شائها، إلا أن الفرعون كان يؤكد ويصر على خضوعهم لنقوذ كبار موظفيه، وكان الحكام المحليون لتلك المدن يشار إليهم باللؤنة الأكادية أنهم مجرد bagannu أى «محافظين». ويعلق البروفيسور ريدقورد على ذلك أنهم إنما بذلك كانت تخفض مراتبهم ومنازلهم لتماثل رتب محافظي المدن في مصر، وكانت

وكانت تفرض عليهم الضرائب والخدمات مثل تلك التي تفرض على المدن والمحافظات المصرية الماثلة (و).

ريما يعود ذلك إلى أن القرعون كان يرى أن أمراء المقاطعيات والاقطاعيات الصغيرة الأسبوبين لا يستحقون أكثر من تلك النزلة. وطبقًا لتسجيلات تحتمس الثالث، لم نقل عبد الأمراء الأسبويان، وجلهم من الفلسطينين الذين حاربوه في موقعة مجدو عن 300 أمير، ويمجرد أن خضعوا للحكم للصرى بعد المعركة، أجير أولئك الأمراء على إرسال أولادهم إلى مصر، بعجة تعليمهم تعليمًا لائقًا بهم كابناء أمراء، وتعويدهم على أسلوب ونمط وثقافة العياة المصرية، ولإعدادهم إعدادًا ملائمًا لتولى المكم بعد أبائهم على المقاطعات التي وفدوا منها. كانت إقامة أبناء أولئك الأمراء في كنف البلاط المسرى، يعد في حقيقة الأمر بمثابة اتخاذهم أسرى بشكل مهذب ولائق، فقد كانوا تحت به الفرعون بمثابة ضمان لمسن سلوك أبائهم. وبدأ أتباع ذلك النهج في عهد تحتمس الثالث، وسنجل تعتمس عن ذلك: «جلبت أبناء زعماء المناطق، ليكرنوا أسرى في مصدر، وإذا منات أي واحد من زعمناء المناطق يرسل ابنه ليشبوأ مكان أبيه»، غيس أن بعض العكام التابعين تبوأوا مكانة مرموقة لدى بعض عظماء ملوك العصير البرونزي المتأخر، وسمح لهم بممارسة مبلاحيات أرسع من تلك المنوحة لفيرهم، أولئك النين كان بإمكانهم الاضطلاع بدور حيوى في حماية مناطقهم بأنفسهم، بل والتوسع الجغرافي لصالح الملك الأعظم في المناطق التي يحكم ونهاء والثال البارز على ذلك الملك إيدريمي (11)، الذي كبان خلفًا لأبيه على مملكة طب، ووقع تمرد على حكمه أجبره على القرار، ويقى سبعة أعوام في المنفي، ولما أضغم الميتانيون مملكة حلب تحت هيمنهتم بقيادة باراتارنا ملك الميتانيين، أعاد إبدريمي الملك المنفي إلى بالاده، ويعمه، وأبده، وبوأه عرش حلب، وعقد معه اتفاقًا بذاك، ولكن تقلص حجم الملكة إلى حد كبير، وأصيح مركز العرش الجديد في منينة الإله (تل أسانا حاليًا). ولم يهدر إيدريمي الوقت لإثبات جدارته بثقة باراتارنا، فيعد أن قام بغزو سبع مدن على أطراف مملكته كانت خاضعة لنفوذ الحثينيين، وقع معاهدة مع بيليًا، ملك الملكة ذات الموقع الاستراتيجي الهام، وهي مملكة كيزوادنا الواقعة جنوب شرق الأناضول. وقام بكل ذلك بمباركة من سميده الأعلى باراتارنا ملك الميتانيين، كما وقع المعاهدة بعدما حصل على موافقته على توقيعها. وزاد ذلك من خطورة الميتانيين على المملكة الحثينية، ولا يوجد شك في أن ذلك كان أحد أهداف إيدريمي الرئيسية. ورأى باراتارنا بجلاء أن أحد أتباعه كان عاملاً رئيسيًا في توسيع رقعة نفوذه في الأناضول، لذلك لم يتردد أبدًا في دعم توجهات إدريمي وكل ما يقوم بفعله. وفي حقيقة الأمر كان هو الذي أوحى إليه بتلك التوجهات.

كذلك دعم سبيللوليوما الأول الأمير الميتاني اللاجئ إليه كيلي-تينشون، والذي اكتسب بعد ذلك اسم شناتيوازا، ابن الملك المهزوم توشراتا، وزوده بالدعم العسكري اللازم لاستعادة عرش أبيه من خصم أبيه والمدعوم من الأشوريين شوتارنا. وأصبحت بقايا الإمبراطورية المتانية «كويروانا Kuirwana»، أي مجرد «محمية» تابعة للحثينيين. تلك الصالة السياسية والتي نادرًا ما أضفيت على مملكة صغروة، أظهرت اعتراف الحثينيين بأهمية «شاتموازا» في حماية مصالحهم في تلك المنطقة في مواجهة التهديدات الأشورية. ذلك الاعتراف ارتفع بالحاكم التابع إلى مرتبة أعلى من مجرد حاكم تابم، وظهر ذلك الاعتراف بتلك المنزلة في مراسم الاستقبال الاحتفائية بـ «شاتيوازا»، حين كان يقوم بزيارة للعاصمة المثينية، كما كان يظهر بصورة عملية في توفير وتقديم امتيازات خاصة لم تكن تقدم لغيره من الملوك والإمراء الخاضمين لهيمنة الإمبراطورية الحثينية. كالإعقاء من نقع الجزية، والسماح له في بعض الأحيان بضم المناطق التي غزاها إلى هيمنته المباشرة. إلا أنه في أغلب الأحرال كان حاكم مثل، ثلك الولاية التابعة، لا يحظى باستقلال يزيد عن ذلك، عدا ذلك يكون له الحق في تحقيق أو ممارسة علاقات مستقلة مع أية قوى عظمى أخرى، وبذلك لم يكن ليزد بأي حال عن كونه دمية في يد الملك الحثني.

اكتسبت كيزواننا هي الأخرى صفة «كويروانا Kurwana»، أي «محمية» تابعة للمملكة الحثينية. ومثلها مثل البلاد الأخرى الواقعة في نطاق الهيمنة، مرت بمختلف مراحل التطور السياسي والعسكري، كانت جزءًا من الإمبراطورية الحثينية القديمة، ثم حققت استقلالها عن الحثينيين، ثم دخلت في تحالفات في أزمنة مختلفة مع كل من الميتانيين والحثينيين، ثم خضعت للنفوذ الحثيني كولاية تحت الحماية Kuirwana ، ثم ضمها أخيرًا إلى مناطق النفوذ الحيوى الحثيني، ثم خضعت للحكم الماشر للمثينين.

وعبر نهر الفرات، خضعت هانيجالبات (وهو اسم ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية) للتطور السياسى نفسه، من ولاية مستقلة نظريًا وداخلة تحت الهيمنة والنفوذ الآشورى، ثم مع سقوطها التدريجى تحت النفوذ الآشورى تحول ملكها إلى ملك تابع في عهد الملك الآشورى عدد-نيرارى الأول، بعدما شن ملكها شاتوارا الأول هجومًا غير مبرر، وقدر له الفشل سلفًا على الدولة الآشورية. ثم قام ابنه وخليفته وأزاشاتا بالتمرد على الأشوريين، وقام الملك الآشورى عدد-نيرارى بسحقه، ووجد في تلك المناسبة الفرصة السائحة الضم هانيجالبات ضمًا نهائيًا للإمبراطورية الأشورية، بل إنه جعل من عاصمتها تايدى أحد المقار الملكية المخصصة الدولة.

النموذج ذاته من صراع ثم غزو يتلوه ضم يمكن تبينه أيضاً في وادى النيل. فقد أدت الفارات التي شنها كاموس، آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة على بلاد كوش (النوية)، والذين كانوا متحالفين مع الهكسوس في ذلك الوقت، إلي تمهيد الطريق إلى شن مزيد من الحملات العسكرية من بعده، والتي قادها الفراعنة الأوائل للأسرة الثامنة عشرة، أي أمنحتيب الأول، وضحوا كل المناطق التي غروها إلى الأرض

المصرية، حتى أصبحت كل منطقة النوية من بدايات المملكة الحديثة أرضاً مصدرية، وتحكم حكمًا مباشرًا من فرعون مصدر. وكان ذلك الضم العضوي يختلف عن الولايات الآسيوية الخاضعة للهيمنة والنفوذ المصرى، والتي كانت تحكم كما ذكرنا بحكامها المحليين، واحتفظت بقدر كبير من شكل الحكم الذاتي(12).

أما مناطق مصر الجنوبية فقد وضعت تحت الحكم الملكى المباشر عن طريق نائب ملك، مصنول أمام الملك مباشرة، حتى إنه عرف باسم ابن الملك حاكم كوش، أو المشرف العام على بلاد الجنوب. كانت المنطقة المكلف بالإشراف عليها تمتد جنوباً من الولاية الثالثة في صعيد مصر حتى كورجوس، الواقعة عند شيلالات النيل الرابعة، وكانت تلك المنطقة تضم النوبة العليا والدنيا وظهر منصب نائب الملك أيضًا في الإمبراطورية الحثينية من عهد سبيللوليوما الأول، وامتد في عهود من تلوه من ملوك المثينيين، فبعد أن دمر سبيللوليوما إمبراطورية توشراتا (الميتانية)، عين سبيللوليوما اثنين من أبنائه كنائبين له على قرقميش وطب. وكانت تلك الخطوة بمثابة تطور هام في السياسة الخارجية للحثينيين، فلأول مرة في تاريخهم يمتد حكمهم المباشر إلى بلاد تقع خارج حدود الإمبراطورية ومن بين أولئك النواب، كان كثير منهم من نسل كبار الملوك، ومارسوا في سوريا أدواراً سياسية وقضائية وعسكرية هامة، كما كانوا يتعاملون مع الحكام المحليين نيابة عن الإمبراطور ذاته.

قبل ذلك بأربعمائة عام قام الملك الأشورى شمسى عدد هو الأخر بتعيين ابنيه (إشمى - داجان ويسمع - عدد) في منصبين كنائبين له على إيكالاتوم وسارى، وكبانتا من أهم المدن الصيوية في الملكة، كانت تلك التعيينات في مناصب نواب الملك في السياسة الحثينية والأشورية إنعكاسًا لما تمثله المدن الاستراتيجية التي يتعين عليها نواب الملك، كما مثلوا لسكان المدن ذاتها علامة واضحة جلية على أهمية مدنهم، ووضعها المتميز، كان ذلك التميز يضعهم في مرتبة أعلى من مراتب المدن المجاورة لهم، وكان يمثل لهم في المستقبل تأكيداً الأهمية مدنهم كمراكز للقوة الاقلىمية.

كانت بابل أهم الكتل الجغرافية المتماسكة من بين الإمبراطوريات العظمى في تلك المرحلة. فتحت حكم القسيطيين تم تقسيم المملكة إلى عدد من المناطق الإدارية أو الولايات، على رأس كل منها حاكم محلى، يقيم في قلب أكبر مراكزها الحضرية، وكان يخضع مباشرة الملك، ومن أهم مسئولياته جمع الضرائب على شكل محاصيل، وحيوانات حية، وسلع أخرى مثل الأخشاب من المناطق الريفية، كان مسئولاً أيضاً عن توفير الإقامة والغذاء القوات العسكرية، وعن المشاريع العامة المتى تقام في منطقته، بما فيها إقامة المعابر والقناطر وأسوار المدن وصيانة قنوات الري وتطهيرها.

وتدل النقوش المسجلة على علامات الحدود للأراضى، والتى كانت تسمى كودوراس، أن الأسر القسيطية الحاكمة للإمبراطورية البابلية أدخلت إلى الإمبراطورية نظام الاقطاعيات الزراعية التى كانت تمنع لكبار موظفي الدولة، بمن فيهم رجال البلاط، والكهنة، وكبار قادة الجيش، وأحيانًا لأعضاء من الأسر الحاكمة، كما تبنى ملوك الحثينيين سياسة مماثلة في منح الاقطاعيات الزراعية. كانت تلك الاقطاعيات الزراعية المنوحة بمثابة مكافأة لأولئك الذين يخدمون الملك بإخلاص في المجالات المختلفة، وكانت تعد دافعًا لمن يحظون بها على المداومة على إخلاصهم وولائهم التاج، كما كانت تضمن المصول على أقصى إنتاج يمكن تحقيقه يوضع تحت تصرف الملك، مما يؤدى إلى زيادة العوائد والغمرائب التي تبخل الخزائن الملكية، إلا إذا كانت بعض الاقطاعيات تسمتشي من تلك الضرائب.

انتعشت بابل تحت ذاك الحكم المركزي الذي مارسه الملوك القسيطين. وكان انتعاشها يعود إلى حد كبير إلى تماسكها، وإلى انعدام تطلع قادتها إلى توسيع رقعة الملكة، وإذاك لم تواجه إلا قليلاً من المشاكل التي كانت

تواجه الإمبراطوريات الأخرى المعاصرة لها، في محاولاتها فرض سيطرتها الدائمة على المناطق البعيدة عنها التي غزتها وأخضعتها لهيمنتها. كما نَعمَ قادة بابل بالفوائد التي ترتيت على اعتراف «الإخوة اللوك العظماء» بهم، دون أن يجهدوا أنفسهم عسكريًا لاكتساب ذلك الاعتراف بحد السيف. وبالرغم من أن نهوض وبعث جيرانهم الأشوريين أدى إلى زيادة التوتر والمصادمات العابرة بين المملكتين المتجاورتين، إلا أن ذلك لم يكن له أي تأثير يذكر على استقرار الإمبراطورية البابلية، ولا على رخاء أهلها حتى العقود الأخيرة من العصر البرويزي المتأخر.

إدارة العلاقات الدولية

تبين لنا أنه على طول العصير البرونزي المتأخر كانت أغلب مناطق الشرق الأدنى القديم تحت هيمنة قوة أو أكثر من القوى العظمى التي ظهرت وتكونت خلال تلك المرحلة. وهكذا نجد أنه في قمة النجاح المصري العسكري في عهد تحتمس الثالث، امتدت الهيمنة المسرية لتحتري رقعة واسعة من البلاد من النوبة العليا حتى فلسطين وسوريا، وحتى التخوم الغربية لمنطقة ما بين النهرين، بعد ذلك بفترة قصيرة، وصلت الملكة المِتانية إلى قمة قوتها، وأصبحت قوة عظمى في شمال ما بين النهرين وسورياء وشكلت تهديدًا خطيرًا على المسالح المشينية في شرق الأناضول، وبعد أن دمر سبيللوليوما الملكة الميتانية وتنضى على استقلالها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أصبح الحثينيون- بلا أي منازع - من أقدوى المسالك العظمي، وفي عنهند متورسلي الثنائي بن سبيللوليوما امتدت البلاد الخاضعة لهيمنة ذلك المك العثيني العظيم من ساحل بحر إيجه إلى الشرق عبر كل منطقة الأناضول (13)، وعبر كل لمنطقة التي كانت تشغلها الملكة الميتانية شمال ما بين النهرين وسورياء حيث أصبحت مدينة قرقميش المتانية تابعة للحثينيين، وعلى عرشها نائب من نواب الملك المشيني، وحل الأشوريون محل الميشانيين بكونهم الخطر.

الجديد الذي يشكل تهديدًا على الحثينيين، استولى الأشوريون على ما تبقى من المملكة الميتانية شرق الفرات، وراحوا يتطلعون إلى الجانب الآخر الذي استولى عليه الحثينيون من المملكة الميتانية الواقع غرب الفرات حتى ساحل البحر المتوسط، إلا أن النزاع الذي نشب بينهم وبين بابل جارتهم الجنوبية أدى بالملك الأشورى تيكولتى - نينورتا الأول إلى تغيير وجهته إلى بابل، ونجع لفترة محدودة في ضم مملكة بابل إلى مملكته.

من الواضح إذن، أنه بمصطلح القوى العظمي عن «مناطق النفوذ»، كان مشهد الجغرافيا السياسية دائم التبدل والتحول والتغير، وأو أخذنا مشاهد خاطفة للمنطقة كل بضعة أعوام لوجدنا تلك المشاهد متباينة ومختلفة على النوام بشكل جنري. كانت أكثر الفترات ثباتًا واستقرارًا هي تلك التي تلت توقيم معاهدة السلام الشهيرة بين مصر والمثينين في منتصف القرن الثالث عشر قبل المالان. في تلك الفترة، كانت عضوبة الملكة الميتانية في نادي القرى العظمي قد انتهت، وكان الأعضاء الأربعة، بما فيهم الملك الأشوري عدد- نبراري الأول، مشتبكين في علاقبات يبلوماسية متيادلة. كانت الملكة المصرية والملكة الحثينية أقوى أعضاء نادي الكبار بلا منازع، وكانت العلاقات بين الفرعون رمسيس والملك حاتوسيلي تمر بأزمات من أن لآخر حتى بعد معاهدة السلام. إلا أنه على المدى القصير على الأقل لم يكن هناك احتمال نشوب حرب شاملة بينهما. الأهم من كل ذلك أنه كان قد تم التوصل إلى اتفاق يحدد مناطق نفوذ كل منهما، وكانت المنطقتان اللتان طال النزاع حولهما وهما: منطقة قادش ومنطقة عمورو قد تخلي عنهما رمسيس المثينيين، مقابل ذلك، احتفظت مصير بهيمنتها على أغلب فلسطين القديمة، مم شريط ساحلي على البحر التوسط يمند شمالاً حتى السامرة، أما في عمق اليابسة فقد احتفظت مصر بنفوذها علن منطقة بمشق وما في جنوبها حتى فلسطين، واعترف كلُّ من الطرفين بمناطق وحدود نفوذ الطرف الآخر واحترامها،

وحتى خلال القرون السابقة على إبرام المعاهدة، كانت الصروب

الشاملة بين القوى العظمى ظاهرة نادرة نسبيًا، كان ذلك في عالم تعد فيه الحروب ظاهرة متوطنة، حيث كان السلام، لا الحرب، استثناءً القاعدة.

كان المتوقع والمنتظر من عظماء الملوك إظهار قدراتهم العسكرية في ميادين القتال، وانتزاع الغنائم من ثروات وماشية وأسرى من الأعداء يعملون في خدمة الجيش، وتقديمهم كقرابين شكر يضحى بهم على مذابح الهتهم، وكان الحصول على الغنائم يمثل أهمية خاصة الله خزائن الملكة، وإنعاش المقاشمات الزراعية، وتوسيع رقعتها، وسد النقص في قرة العمل.

كان من المفاهيم الثابتة لدى كل ملك أن عليه منافسة من سبقه في إنجازاته والتفوق عليه. كانت الحروب تخاض لتوسيم رقع الممالك لزيادة عوائدها وتكريس نفوذها وهيمنتها، وأحيانًا ما كانت المروب تخاض لأسباب عدوانية إمبريالية بمتة بلا دوافع معقولة، كما كانت تخاض في أحوال أخرى للهيمنة على طرق تجارية هامة، وفي حالات أخرى للدفاع عن حدودها أو متاطق زراعية هامة منتجة للغلال، ضد عدو طامع للاستيلاء عليها.

إلا أن العالات التي حارب فيها عظماء الملوك بعضهم بعضاً تعد قليلة. والاستثناء المنحوظ اذلك هي حالة العرب الدائمة التي استمرت بين ملوك العثينيين والميتانيين، والتي انتهت بالثهمير النهائي المملكة الميتانية بانتصار سببللوليوما علي توشرانا. باستثناء تلك الحالة، نجد صدامين وقعا في قادش، وقع أولهما بين ميواتاللي الثاني الحثيني والفرعون المصرى سيتى الأول وخليفته. كذلك أيضا الهزيمة المروعة التي أنزلها الملك الاشوري توكولتي- نينورتا الأول بقوات الملك العثيني تودحاليا الرابع في معركة نهريا، بالتأكيد كانت هناك مناوشات من أن الأخر بين القوى العظمى، وعمليات عسكرية من أن الآخر يقودها أحد أولئك الملوك العظام على مناطق خاضعة لنفوذ ملك آخر. وفي آخر عقود العصر البرونزي المتأخر اشتعلت العداوة في عدة مناسبات بين الأشوريين والبابليين. غير أنه في عالم اعتاد الصراع الحربي والعسكري، ويعدد لم

يقل عن أربعة من عظماء الملوك والإمبراطوريات الكبرى في أية مرحلة زمنية يتطلع كل منهم إلى ترسيخ سلطته والمحافظة على نفوذه وهيمنته على بلاد أخرى خاضعة له، وتشكل أهمية خاصة، وكانت غالبًا تقع في مناطق جغرافية فاصلة بين تلك المالك، نجد أنه من الملافت للنظر بشكل واضح أن الصدامات الكبرى بين أولئك الملوك في كل عصر كانت نادرة الحدوث، فكيف يمكن تفسير ذاك؟

في أواخر الألفية الثالثة وباكورة الألفية الثانية قبل المبلاد، كان عالم الشبرق الأدنى القديم قد شبهد قينام إمبىراطوريات عظمي مالت إلى التوسع، بدءًا من الإمبراطورية التي أسسها الملك الأكادي سارجون، تبعتها بعد انهيارها بمائة عام الإمبراطورية التي أسسها في شمال ما بين النهرين أور- نامو، مؤسس أسرة أور الثالثة، وفي بدايات الألفية الثانية قبل الميلاد نهضت عدة إميراطوريات، تنافست فيما بينها لتحقيق الهيمنة والسيطرة على مناطق شمال ما بين النهرين وسوريا، إلا أنها سرعان ما تلاشت واضمحات. حتى إن أقوى أولئك الملوك مثل شمسى-عبدد الأشبوري، وحبمبورايي البابلي، ويمجد في حلب- انتبعبشت إمبراطورياتهم وتوهجت لتنطفئ سريعنا وتسقط وتنهاره وظلت ذكري الممالك العظمي وكبار المكام باقية في أذهان الأجيال التي تلتها، واضمة في أثرها على الممالك التي تلتها، كان اللك المثيني جاتوسيلي الأولى يقيس إنجازاته على إنجازات سارجون الأكادي العظيم، وإنجازات نارام- سن بن سارجون وخليفته، وترسخ كل ذلك في فولكلور الشعوب، وترك أثاره ويصنمانه عليه، كما كان لانتصار الملك المثنني مورسيلي الأول على مملكة حلب وعلى بابل وتدميره لهما معًا أثره في تبوء مورسيلي الأول مكانة مرموقة في التاريخ الحثيثي العسكري، كذلك كان للإنتصارات الكبرى غير السبوقة التي أحرزها تحتمس الثالث في حملاته العسكرية على سوريا، أثرها في أن يصبح تحتمس الثالث نمونجًا يحتذي به لكل الفراعنة المقاتلين الذين تلوه

غير أن كل أوائك الملوك الذين أعجبوا بأسلافهم والذين روادتهم فكرة منافستهم والتفوق عليهم كانوا أيضا على وعى ويقين بسرعة زوال منجزات أسلافهم. زالت سريعًا كل إنجازاتهم وضاعت، أحيانًا بمجرد انتهاء عهودهم. وكانت الرسالة واضحة للأجيال التالية من الملوك.

فالنجاح في ميادين المعارك بغض النظر عن تحقيقها نصراً جزئياً، أو حاسماً - ليست ضمانًا في حد ذاتها لتحقيق أسس ثابتة لاستمرار الهيمنة على بلاد جديدة تم غزوها عسكرياً. اقد سقطت المالك السابقة؛ لافتقادها لمسادر ثروات دائمة ومستمرة، والخبرة والخبراء الضروريين لترسيخ استمرار الهيمنة والسيطرة على المناطق التي غزوها على مدي زمني معين. كما كانت تنقصهم المهارات وريما أيضًا الإدارة للتفاوض مع القوى الكبرى المجاورة حول المناطق المتنازع عليها، كانت المفاوضات السلمية بين القوى المتطلعة للهيمنة والنفوذ في منطقة واحدة بمثابة الدعم الذي يحقق استقراراً أطول لكل من تلك المالك.

واستفاد خلفاؤهم من ملوك العصر البرونزي المتأخر من إدراك ما حدث لأسلافهم. ولم تكن تطلعات ملوك تلك المرحلة للوصول إلى مرتبة القوى العظمى تقل عن ذلك، ولكن، ألم تكن هناك وسائل أمام أي ملك عظيم لإشباع تطلعاته الشخصية، وتأمين مصالح معلكته ونفوذها في المناطق الخاضعة لهيمنته خارج حدود مملكته، دون صراع عسكري مع أنداده من ممالك عظمى أخرى؟ كانت الوسائل السياسية والدبلوماسية من المكن أن تحقق مثل ما تمققه القوة العسكرية إن ثم تزد عنها، وبتكلفة تقل كثيرًا عن تكاليف الحروب. أكثر من ذلك، بالرغم من إعجاب المسريين التالين لتحتمس بإنجازاته العسكرية، سيدرك الفراعنة المصريون التالون له أن أفضل عصور الانتعاش الاقتصادي كانت تلك العصور التي اتسمت وتميزت بأقل نشاط عسكري، مثل عهد حتشبسوت وأمينحوتيب الثالث، وهي العصور التي تعيزت بكثرة آثارها، وأرقاها فنيًا وأمينحوتيب الثالث، وهي العصور التي تعيزت بكثرة آثارها، وأرقاها فنيًا

كانت المواقع الجغرافية للمصالك العظمي ذات تأثير أيضًا على العلاقات بينهما. كانت بلاد الفراعنة تبعد كثيرًا عن الإمبراطوريات الكبري الأخرى المعاصرة لها، كان لمصر والميتانيين اهتمامًا كبيرًا بالنطقة الكبري سوريا- فلسطان، وهي المنطقة الجغرافية التي كانت تفصيلهما عن بعضهما، وأدى ذلك الاهتمام من كلا الطرفين بالمنطقة ذاتها إلى نشوب صراع مسلح بينهما، إلا أن الصراع أدى إلى التفاوش والتوصل إلى اتفاق، حين أدرك الطرفان أن المنطقة المتنازع عليها كانت من الاتساع، بحيث يمكن اقتسامها فيما بينهماء مما يسمح لكل طرف بضم مناطق واسعة إلى مجال نفوذه، والأهم، فرص السيطرة على مناطق غنية بالموارد لكل منهما على ساحل البحر المتوسط، وحل الحثينيون محل الميتانيين كشركاء في الهيمنة على سوريا، إلا أن الحثينيين لم يكن لديهم تطلعات تذكر في الخناطق الواقعة جنوب دمشق، وبعد عهد تحتمس الثالث لم يمنيح أدى مصر تطلعات إلى المناطق الواقعة شمال دمشق، وعلى مدى رُمني معين أصبحت منطقتا عمورو وقايش من مناطق النزاع الساخنة، وكنائت مناطق فناصلة بين الملكتين العظميين، إلا أنه بعيد أن تخلى رمسيس الثاني عن المنطقتين للحثينين، أزال آخر عائق في طريق التوصل إلى اتفاق مع أخية الحثيني. والذي انعكس على «الاتفاق الأبدي»، كما أطلقوا عليه، والذي كان مُرْضِيًّا لتطلعات الملكتين الصغيرافية والاستراتيجية والاقتصادية.

كذلك قصرت بابل، في عهد حكامها القسيطيين، تطلعاتها علي منطقة ما بين النهرين، وبالرغم من وجود الإمبراطورية الأشورية التي كانت قد البعثت من جديد، واستعادت قوتها، التي كانت تمثل تهديداً حقيقياً على الرلايات السورية الخاضعة للحثينيين، وكذلك علي مناطق النفوذ المصرية في سوريا، إلا أنها لم توجه أية حملة عسكرية (في ذلك العهد) لتوسيع رقعتها باتجاه غرب الفرات.

بوجه عام، تمكنت الممالك العظمي في العصر البرونزي المتأخر من

المحافظة على علاقات سلمية وعلاقات تعاون وتشارك مصالح، باستثناء كما لاحظنا حالة صراع الحثينيين والميتانيين. فمن البدايات الأولى المملكتين ظلا في صراع عسكرى لم يتوقف. كان الميتانيون قد تمكنوا من تكرين تحالف مع ولايات تابعة وولايات مستقلة، تمتد من شسال ما بين النهرين وشمال سوريا حتى منطقة شرق الأناضول. وذلك حرم الحثينيين من أية فرصة تواجد في منطقة سوريا، مما كان له أثر سيئ عليها كقوة عظمى من قوى الشرق الأدنى القديم، والأخطر، كان ذلك الامتداد الغربي الميتانيين يشكل تهديدًا خطيرًا لقلب بلاد الحثينيين ذاتها، بعد أن أصبحوا قريبين منها إلى حد الخطر، وكان الحديون متواجدين من فترات وعهود أقدم في شرق الأناضول. وعرف من عهد حاتوسيلي الأول الحثيني عن تعرض بلاده لهجمات خطيرة من الحدييين، والتي راحت الحثيني عن تعرض بلاده لهجمات خطيرة من الحدييين، والتي راحت المثيني مدى عهود من خلفوه، وام يكن الحثينيون ليشعروا بالأمان اتكرر على مدى عهود من خلفوه، وام يكن الحثينيون ليشعروا بالأمان ابدًا، طالًا بقي الموريون على أعتاب بلادهم.

من جهة أخرى، لم يكن الميتانيون ليتخلوا عن مناطق يعدونها من هميم حقوقهم، وجزءً لا يتجزأ من بلادهم. لم يكن من المكن أن يقبلوا طائعين بإرادتهم وجود قوة دخيلة في منطقة شمال سوريا، والتي كان سكان مناطق منها من الحوريين، والنين كانوا إضافة حقيقية لقوة المملكة الميتانية وأمانها ورخائها، ولكن، في الجانب الحثيني، أظهر حاتوسيلي الأول وخليفته مورسيلي الأول أن الحثينيين لا يمكن أن يقبلوا أية هيمنة أجنبية على شمال سوريا؛ لأن ذلك يفلق تمامًا في وجوههم أية مساهمة أو وجود فعال في كن هناك أدنى فرصة للتحمالح، وبالتالي لم يكن هناك أي، مجال لمناورات دبلوماسية سلمية، خاصة حين وبالتالي لم يكن هناك أي، مجال لمناورات دبلوماسية سلمية، خاصة حين كان يشغل العرش الميتاني ملك يكن مشاعر شديدة العداء للحثينيين. وكانت النتيجة صراعًا طويلاً بلا هوادة بين الملكتين الكبيرتين، والذي انتهى بانتصار الحثينيين، واختفاء الملكة الميتانية من بين نخبة المالك النظمى في ذلك القصر.

كانت للموامل الجفرافية أثر واضح على تشكيل العلاقات بين القوى العظمي في ثلك المرحلة. إلا أنه كانت هناك عوامل أخرى غيرها، فكما لاحظنا كان عظماء الملوك بكرسون أغلب وقتهم وجهدهم للإعداد للحملات العسكرية، كانت بلك الجملات تكرس في الأغلب شيد قوى عدائية محلية تهدد البلاد ذاتها أو الناطق الخاضعة لهيمنتها، أو ضد المتعربين من سكان البلاد الخاضعة، كان فرعون مصر يسيِّر الحملات العسكرية إلى بلاد النوبة، (بالرغم من أن تلك المنطقة كانت في الأغلب في حالة هدوء تحت حكم نائب الفرعون)، أو توجه الجمالات ضد متمردين في المناطق الأسيوبة الغاضعة للنفوذ المسرى، إلا أن أغطر مشكلة كان عليه مواجهتها في الدفاع عن بلاده هي ذلك التهديد المستمر الذي شكلته القبائل الليبية غرب مصر. كان عليه أيضًا أن يصحى السواحل البحرية الشمالية من خطر قراصنة البحر، والذين لم يكونوا إلا بدايات لمحافل بعرية، ممن أطلق عليهم اسم شعوب البعر الذين هاجموا سواحل مصر الشمالية في عهدي ميرنيتاج ورمسيس الثالث. قاد اللوك الحثيثيون أنضًّا حملات عسكرية عديدة ضد متمردي المناطق الغاضعة لنفوذهم وحلفائهم في غرب الأناضول (على وجه التخصيص)، وأحيانًا ضد متمردي الولايات السورية الخاهيمة لهم. إلا أنهم بدورهم واجهوا مشكلة مزمنة تمثلت في الهجوم على بلادهم بجمافل القبائل القوقازية القادمة من الشمال، خاصة من منطقة البحر الأسود. كانت تلك القبائل القرقازية سريمة في انتهاز فرصية أية اشتطرابات في بالاد المثينيين أو أية مناسبة تكون فيها الملكة تعانى من وطأة إرسال جيوشها إلى مناطق معارك بعيدة، وتنتهز الفرصة للهجوم من الشمال. كانت الانتصارات على المتمريين والأعداء المطيين بتكفي في الغالب لإظهار قدرة عظماء الملوك كقادة مسكريين، خاصة حين تترتب على تلك الانتصارات الاستبلاء على غنائم ذات قيمة. ومن جهة أُخْرِي، كَانْتَ الْمُواجِهِةِ مَعْ مَلَكُ عَظِيمٌ أَخْرِ تَوْدِي إِلَى اسْتَنَرَافَ خَطِيرٍ ا للموارد للإعداد لتلك المواجهة (14)، دون أي ضمانات النجاح، وترك الملكة خالية من قوتها الضاربة الحامية، وتعريضها لهجمات أعداء أخرين من مناطق أخرى. كان من الأفضل كثيراً لأى من عظماء ملوك تلك المرحلة التاريخية أن يوفروا تلك الموارد، ليستخدموها عند الضرورة القمسي ضد أعداء يهددون قلب المملكة، وأن يحل بالطرق الوبية السليمة أي نزاع مع ملك عظيم آخر، قبل أن يتصاعد النزاع ويتحول إلى صراع عسكرى، والذي يمكن أن يكون مدمراً لكلا الطرفين.

كانت هذاك أيضًا فوائد مادية بحقة التي تنتج عن الملاقات الودية السليمة بين كبار الملوك، خاصة على صعيد التجارة والتبادل التجاري،

اتسم العصر البرويزي المتأخر بانتعاش التجارة العالمية في منطقة الشرق الأدني، وأزدادت الروابط التجارية بمنطقة بحر إيجه، وانتعشت تجارة منتجات الحضارة المنوانية في جزيرة كريت، ومنتجات العضارة السينية في اليونان، من بين شبكات التجارة العالمية، وظهر ذلك من انتشار مراكز التبادل التجاري على السواحل الشرقية لبحر إيجه والسواحل الشرقية للبحر المتوسط، وكذلك من محتويات حطام السفن التي عثر عليها على السواحل الجنوبية لمنطقة الأناضول، وبما نعرفه عن الأسواق العالمية الكبري التي تواجدت على الساحل الشرقي البحر المتوسط، وبينما انطوت الأنشطة التجارية على عنصر مخاطرة بارز، فإن المتوسط، وبينما انطوت الأنشطة التجارية على عنصر مخاطرة بارز، فإن حجم وتنوع المنتجات التي كان يتم تداولها يعكس بوجه عام ثبات واستقرار التجارة العالمية في تلك المرحلة، والتي لم يكن من المكن أن تتم دون تعاون القرى العظمي، التي هيمنت على عالم الشرق الأدني القديم.

أحد أهم تلك المناصر، بل مفتاح تلك المناصر جميعًا في علاقات كبار ملوك تلك المرحلة هو التواصل. بالرغم من أنه بقدر ما نصرف، لم يكن «الإخوة» الملوك الكبار يلتقون، إلا أنهم تواصلوا بوسائل مختلفة، كتابة أو شفاهة. كانت الرسالة المدونة أحد أهم وسائل الاتصال والتواصل، بل إنها في حقيقة الأمر كانت من الوسائل الرئيسية التي استخدمت لتأسيس وترسيخ العلاقات البلوماسية السلمية بين كبار ملوك تلك المرحلة.

وحتى هذا الموضع كنا نرسم الخلفية التاريخية والسياسية للممالك الكبرى، التى كانت موجودة فى العصر البرونزى المتأخر. وقد أن الأوان أن نتحول إلى مراسلات ملوك تلك المرحلة التاريخية، ودورها الحاسم الذى أدته فى عالم الدبلوماسية الدولية فى ذلك الوقت.

الجزء الثانى المراسلات و مضمونها

3

الرسائل والرسل

الرسائل

الألواح المسمارية

فى مجال نظم الكتابة في عالم الشرق الأدنى القديم، كانت ترسم الرموز، وتنحت، وتطلى بالألوان أو تحفر على مختلف المواد القابلة للصفر. كذلك كانت تنقش النصوص التذكارية على وجه الكتل الصخرية وعلى قواعد التماثيل، وعلى جدران القصور، والمقابر والمعابد. كانت النسخ الأصلية للوثائق الهامة مثل المعاهدات تنقش على رقائق المعادن، مثل البرونز والفضية أو العديد. وكانت رقائق الأخشياب المفصلية شائعة الاستخدام، حيث تحفر أسطحها وتطلى بالشمع، وغير معروف أنواع الوثائق التي كانت تستخدم رقائق الخشب المفصلية في تسجيلها(1).

كانت أوراق البردى شائعة الاستخدام في مصر في الأعمال الإدارية، ولأغراض أخرى متنوعة. وبعد انتهاء العصد البرونزى كانت الوثائق والرسائل رخيصة التكلفة تسجل على رقائق من الرصاص. كذلك كانت جلود الحيوانات من الأدوات الملائمة للكتابة عليها، إلا أنه من البداية المبكرة للتسجيلات المدونة في منطقة ما بين النهرين، كانت الألواح الطينية من أكثر المواد شيوعًا في الكتابة على أسطعها، كان الطين يشكل على هيئة ألواح مستطيلة، وأحيانًا كان سطحها يحدب، إلا أنه كانت توجد أشكال أخرى غير الألواح المستطيلة، بما فيها الشكل القمعي، أو الشكل المستدير، وأشكال أخرى متنوعة.

وبينما كان الطين مازال طريًا، كان يمثل سطحًا ملائمًا النقش عليه في النصوص المسمارية في عالم الشرق الأدني القليم، والتي كانت تنقش رموزها على الطين الطرى بحافة قطعة خشبية مسننة. وبمقارنة طريقة النقش على الألواح الطينية بغيرها من وسائل التسجيل على المواد الأخرى، تبين أن النقش على الألواح الطينية أطول عمراً. وحين كانت تلك الألواح تحرق في النار، سواء بطريق المصادفة أو القصد، تتحول إلى ألواح صلبة يصعب كسرها، وثبتت صحة ذلك خلال قرنين من أعمال الحفر والتنقيب في المواقع الآثارية المختلفة لمنطقة الشرق الأدني، ووصل عدد الألواح المكتشفة في تلك المناطق إلى مشات الآلاف من الألواح المنسية.

كانت الوثائق الرسمية المنقوشة على الألواح الطينية تغزن في مخازن خاصة تعد خاصة داخل القصور، وفي المعابد الكبري، أو في غرف وثائق خاصة تعد كدور السمفوظات، إلا إذا كانت معدة لإرسالها إلي ملك آخر، أو حاكم تابع، أو إداري كبير في أحد الأقاليم. وحين كانت تلك الرسائل ترسل إلي وجهتها، كانت تنقش نسخ منها قبل إرسالها وتودع في الأرشيف؛ للرجوع إليها عند العاجة. كذلك عثر على مسودات رسائل ووثائق في مستودعات تلك الألواح الطينية، ومن تلك المسودات توصلنا إلي نتائج مشيرة عن عملية إعداد النصوص والوثائق، ومراجعتها قبل التوصل إلى كتابة النص النهائي.

لقد كشف البحث والتنقيب عن أنواع عديدة من النصوص والوثائق المسجلة على الألواح الطينية في أنحاء مختلفة من الشرق الأدنى، كان منها نصوص احتفالية، وتراتيل دينية، ومعلوات وابتهالات لآلهة مجسدة، وموجز لقوانين، وحكايات شعبية، وقصعائد شعر، ومعاهدات، ونظم تشريفية، وتعليمات وأوامر لكبار رجال البائط، ونصوص دينية وأدبية، ونصوص قصصية، وإعلانات بيانية ورسائل. واهتمامنا الرئيسي في هذا الكتاب بآخر ألوان وأشكال تلك النصوص، وهي الرسائل. كانت الرسائل هي الوسيلة المعتمدة للتواصل داخل وبين ممالك الشرق الأدنى القديم، فقد تراصل كبار ملوك الشرق الأدنى مع نظرائهم من ملوك عن طريق

الرسائل، وكذلك مع أبنائهم النين كانوا نوابًا لهم في أرجاء المملكة، ومع الملكة الملكة ومع الملكة الملكة ومع الملكة الملكة وفي الخاضعين لهيمنتهم، ومع كبار الموظفين المعينين علي مختلف أقاليم المملكة. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانت الرسائل تتبادل بكثرة بين مختلف أعضاء الأسرة المالكة في كل من الإمبراطوريتين المصرية والحثينية. كان أبناء وبنات وزوجات أحد كبار الملوك يتبادلون الرسائل مع أبناء وبنات وزوجات ملك آخر.

وكان الملوك يتبادارن الرسائل أحيانًا مع زوجات ملوك آخرين وكذلك مع أزواجهم وأبنائهم. كتب الملك الميتاني توشرانا رسائل إلى الملكة تايي، الزوجة الأثيرة لأمونحتيب الثالث وأم أمونحتيب الرابع (أخناتون)، وراسل رمسيس الثاني بانتظام الملكة المشينية بودوهيبا زوجة حاتوسيلي الثالث. كذلك كان كبار الموظفين في المقاطعات يكتبون لكبار الموظفين في المعاصمة، وأحياناً على حاشية رسالة كانت مرسلة من الملك إليهم، كذلك كان الكتبة أنفسهم يرسلون برسائل شخصية قصيرة إلى نظرائهم الكتبة في البلاط الملكي على هوامش الرسائل الملكية(2).

الكتبة

عدا الهثائق، كان الكتبة مسئولين عن نقش الألواح- الرسائل الموجهة إلى ملك معين، وقراءة الرسائل الواردة إلى البلاط كرد على رسائل الملك. كان إتقان ذلك العمل يتطلب غبرة ودراية ودرية طويلة يبدأها من يمارسها وهو صبى في مدارس خاصة ملعقة بالمعبد أو القصر(3). وعرفت تلك المنشآت التعليمية في اللغة السومرية باسم إيدوبا زرويخ، والتي تعنى حرفيًا «بيت الألواح الطينية»، وكان كل من نظامي الكتابة المصرية والمسمارية في غاية التعقيد؛ لاحتوائه على مئات من الرموز، وكان كثير منها، خاصة في الكتابة المسمارية، يميز بصعوبة بالغة عن غيره؛ نظرًا لتشابه وتقارب كثير من تلك الرموز. اذلك نجد مما توصلنا إليه من مصادر في منطقة ما بين النهرين، أن النظام التعليمي المفروض

على صفار الكتبة غآية في الصرامة، بما فيها الضرب البدني في حالة التقصير، أو التمرد، أو التقاعس. كان نظام تعليم القراءة والكتابة في مصر وبين النهرين يعتمد على النسخ المستمر النصوص، مع التدرج والانتقال من النصوص البسيطة السهلة إلى النصوص الاكثر تعقيدًا وصعوبة.

ويما أن قلة نادرة من سكان تلك الممالك كانت علمة بالقراءة والكتابة (يبلغ التقدير في مصر القديمة نسبة 1 بالمائة). كانت مهنة الكتابة مهنة شديدة التخصيص والتشدد في انتقاء من يقومون بها، لذلك اقتصر العمل بها على عائلات معينة، كانوا يتوارثونها من جيل إلى جيل.

اذلك كان المتدربون في بلاد ما بين النهرين ينتقون من بين عائلات النخبة، وكذلك كان الأمر في كل من سوريا وبلاد الأناضول، إلا أنها كانت من طبقات أعرض وأوسع في مصر، كان الكتبة بإمكانهم عن طريق الكد والدأب والاجتهاد تحقيق مراتب عليا، والتوصل إلى تبوء مراكز إدارية عليا في ممالكهم، بل كان يمكن أن يصبح أحد أعضاء الدائرة المحيطة مباشرة بالملك، وأن يصبح من خاصنة ومستشاريه. ولو أخذنا في الاعتبار شدة النظم البيروقراطية التي صبغت إدارة ممالك العصر البرونزي المتأخر، لتأكد لنا شدة الاحتياج لمهنة الكتبة المحترفين. لم يكن عدد الكتبة في المعبد الأكبر لرب المواصف في حاتوسا عاصمة الحثينين يقل عن اثنين وخمسين كاتبًا، وهو ما يزيد عن ربع العدد الإجمالي لكل يقل عن اثنين وخمسين كاتبًا، وهو ما يزيد عن ربع العدد الإجمالي لكل الماملين بالمعبد. وباستثناء الكتبة الذين كانوا يمعلون بالإدارة المركزية، الماملين بالمعبد. وباستثناء الكتبة الذين كانوا يمعلون بالإدارة المركزية، كانت المراكز الحضرية المنتشرة بأنهاء المائك بحاجة أيضاً إلى كتبة، لضدمة مصالح الملكة. وسنتعرف فيما يلي على بعض كتبة الأقاليم. عدا نذك،كان عدد من الكتبة يصحب الملك أثناء حملاته وغزواته العسكرية.

هل كان يمكن تمييز الكتبة عن غيرهم من المتعلمين في المجتمعات التي ينتمون إليها؟ إنه سؤال يصعب التوصل إلى إجابة له، حيث إنه على الأقل بستخدم مصطلح كاتب في بعض جوانبه، للدلالة على أشخاص تتجاوز وظائفهم مجرد الكتابة. فالأطباء، ومقيمو الشعائر الدينية والكهنة، ويحتمل كل أصحاب الوظائف العليا في الإدارة الملكية، كانوا جميعًا على درجة عالية من إجادة القراءة والكتابة – أو على الأقل بما يكفى لاضطلاعهم بأعباء وظائفهم الإدارية. بعض فراعنة مصر أيضًا كانوا غير أميين. وهناك شك كبير في أن يكون نظراؤهم من الملوك الأجانب على تلك الدرجة من المعرفة بالقراءة والكتابة.

كانت مهنة الكتابة بدورها تخضع لهيكل وظيفي هرمي، والأقل وضوحًا مدى الكفاءة الهيكيلة، وإن كانت كذلك، فإلى أي مدى؟ في النصوص الحثينية، كانت هناك درجة عالية من التخصص في تلك المهنة يستدل عليها من وجود مصطلح «كاتب الألواح الغشبية»، إلا أنه دون أن نعرف على وجه التحديد ما الذي كانت تستخدم فيه تلك الألواح الخشبية، لا يمكننا أن ندرك أو نخمن اتساع أو ضيق ذلك النشاط أو مدى الأهمية التي كان عليها، وربما قضى بعض الكتبة جل أعمارهم كموظفين مرتحلين، ينسخون النصوص، ويتلقون النصوص إملاءً، أو يخزنون النصوص في دواوين المفظ، أو يستخرجون منها ما يراد منهم إخراجه.

وحقق أضرون مستويات أعلى فى تلك المهنة، وارتفع بعضهم إلى مراتب أولئك الذين يمارسون نفوذًا وتأثيرًا في شئون الملكة السياسية والإدارية.

ولعب بعض الكتاب الذين حققوا المناصب العليا المرموقة دورًا بارزًا في مجال العلاقات الدولية والنشاط الدبلوماسي. كان لتبني اللغة الأكادية، أن البابلية بمعنى أدق(4) في العصر البرويزي المتأخر – كلغة تواصل دولية ولغة دبلوماسية دولية – ما حتم تعيين كتاب يجيدون لغتين أو ثلاثة، إن لم يكونوا متعددي الألسن في قصور كبار ملوك تلك المرحلة، وسنأخذ في اعتبارنا أعمال الترجمة التي انطوت عليها عملية تبادل الرسائل بين ملكين، لا يتحدث أي منهما اللغة الأكادية، إلا أنها كانت اللغة المعتمدة في كتابة الرسائل. كان أولئك المكلفون بأعمال الترجمة يعينون مع الوفود

الضاهمة فقط، القيام بمهمة ترجمة الرسائل، إلا أنه كانت توكل إليهم أعمال أخرى أيضًا مثل مسح الأميرات الأجنبيات بالزيت المقدس في بلادهن، قبل رحيلهن الزواج بملكهن (5) وكان من الممكن أيضًا أن يمارسوا دور المستشار الملكي، ومراجعة محتوى الرسائل الواردة إليه، ونصحه بالرد الملائم على تلك الرسائل وإعداد مسودة الرد وعرضها عليه، بلغة الملك الوطنية قبل كتابة الصيغة النهائية. كان ذلك يتطلب كفاءة شديدة في تلك المهام لا في المهارات البيلوماسية فقط، بل أيضًا في الدراية والإلمام الواسعين بالشئون الدولية، والتغيرات الدائمة والمستجدات الدراية والإلمام الواسعين بالشئون الدولية، والتغيرات الدائمة والمستجدات

أليات التواصل

قبل إرسال أية رسالة ملكية، كانت تنسخ منها نسخ خاصة، إذا كانت رسالة هامة مثل تلك الرسائل المتبادلة بين بلاطين ملكيين، وتودع النسخ في دار حفظ خاصة؛ لاستعادة النصوص بعد ذلك إذا تطلبت الظروف ذلك. وانطبق ذلك أيضًا على نصوص الوثائق الهامة، مثل المعاهدات التي كانت تبرم مع الملوك التابعين أو الملوك الأجانب، في بعض الأحيان نجد أن بعض النصوص التي سنتعرض لها كانت الأصول المرسلة أو الصادرة إلى المرسل إليه، وفي حالات أخرى نجد أن معدر النص نُسخُ احتفظ بها المرسل.

ولسوء الحظ، لا يمكن أن تتاح لنا الفرصة لمقارنة النسخ بالأصول، إذ يصعب المصول عليهما معًا، وحين نجد عند المرسل نص رسالة كانت مسادرة من عنده، فمن الطبيعي أن نفترض أنها نسخة عن الرسالة الأصلية، وحين تجد نصاً عند المتلقى، فمن الطبيعي أيضاً أن نفترض أنه الأصل. وفي أغلب الأحوال تجد أن ذلك الافتراض صحيح، ولكن، كما سنرى فيما يلي، هناك استثناءات اذلك الافتراض.

ولا يوجد شك أن هناك مناسبات كثيرة حمل فيها الرسول عددًا من

الرسائل من بلاط ملك إلى بلاط ملك آخر، وكان الرسول بمثابة حامل الحقيبة الدبلوماسية، التى تحوى رسائل عديدة إلى عناوين مختلفة من مرسلين عديدين. وينطبق ذلك حرقيًا على رسائل كانت واحدة المحتوى، مرسلة من الفرعون رمسيس الثانى إلى كل من الملك الحثينى حاتوسيلى الثالث، وزوجته بودوهيبا، كما ينطبق على المراسلات المتبادلة بين الأعضاء الأخرين المتمائلين من العائلتين الملكيتين (6) وكان يعهد المكاتب أحيانًا كتابة سلسلة من الرسائل حول موضوع واحد، وترسل في وقت واحد، ومثال لذلك أرسل كاتب حثينى رسالة بالنيابة عن الملك إلى فرعون مصر يطلب فيها إعفاء تجار الاسيا(7) من دفع رسوم الجمارك، ثم بعث برسالة إلى مسئول كبير بالاسيا، الذي أرسل رسالة تحتوي علي الطلب ذاته، ويف المصريين(8).

والرسائل التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة وأحدة من أهم مجموعات الرسائل التي عثرنا عليها من العصر البرونزي المتأخر، وهي الرسائل المتبادلة بين البلاط الملكي المصرى والبلاط الملكي المثيني، أثناء حكم رمسيس الثاني وحاتوسيلي الثالث، (وقد عثر على تلك المجموعة في أرشيف العاصمة العثينية)، ومن ذلك يمكننا استنتاج أن الرسائل التي كانت موجهة إلى البلاط العثيني هي الرسائل الأصلية القادمة من مصر، بينما كانت نصوص الرسائل التي عثر عليها في حاتوسا وموجهة إلى بينما كانت نصوص الرسائل التي عثر عليها في محدر حتى الأن، فعن أعضاء البلاط الملكي المصري ليست إلا نسخًا عن الرسائل الأصلية. وهيث إنه لم يعثر على أصل تلك الرسائل في مصدر حتى الأن، فعن المحتمل أن بعض تلك الرسائل التي يفتدرض أنها نُسخُ ليست إلا أصرلاً لم يتم إرسالها إلى مصر لسبب أو لآخر. وينطبق الاحتمال ذاته أصراً لم يتم إرسائل عثر عليها بأرشيف تل العمارنة بمصر، والتي كانت موجهة من فرعون مصدر إلى ملوك بابل وأرزاوا (وهي مملكة كانت بغرب موجهة من فرعون مصدر إلى ملوك بابل وأرزاوا (وهي مملكة كانت بغرب الأناضول)، وكذلك على رسائل آخرى كانت موجهة إلى الملوك الخاضعين

له في سوريا وفلسطين.

وأحيانًا ما كانت تكتشف رسائل لا هي بأصلية ولا هي بنسخ، بل مجرد مسودة أوأية، ويتصليحات عديدة في النص للتوصل إلى الصياغة النهائية، وسنشير في مناسبات مختلفة إلى واحدة من أكثر الرسائل إثارة وذات دلالات كثيرة، وهي مسودة رسالة، والتي كانت (بشبه يقين) موجهة من الملكة بودوجيبا إلى الملك رمسيس (9)، ولا توجد نسخة من الصياغة النهائية للرسائة، ولا نستطيم أن نؤكد أنها لم تلغ وتتلف أو تم التغاضي عن إرسالها، قبل أن تعبل إلى الحالة النهائية التي توجب عمل نسخة منها، فبعض محتواها كان يحمل توبيخًا مباشرًا. إلا أننا بوجه عام نعول على النسخ أو المسودات التي فقدت أصولها، وكذلك على الأمسول في تجميع صورة العلاقات بين المرسل والمتلقى للرسائل في العصس البرونزي المتأخر، وكذلك المواضيع الكيرى والاهتمامات التي كانت تتناولها تلك الرسائل، ويمكننا أيضبًا أن نخبن مجتوى الرسائل التي فقدت للأبد، وذلك من خلال الردود عليها، وأحيانًا ما كانت ردود الرسائل تحتوي على فقرات منقولة عن الرسالة الواردة، كلمة بكلمة، كما جاءت في الرسالة الواردة، وكمان لتلك العادة في نقل فقرات من الرسائل التي فقدت في الردود عليها فوائد جمة، إذ أنها كانت تنقل من الرسائل التي فقدت فقرة بفقرة والرد الملائم على كل فنقرة منها، وهو منا مكنًّا من إعادة بناء الاستفسارات والطلبات والثعليقات والشكاوي، التي كانت قد سجلت في الرسائل الواردة، والتي لم يعثر عليها.

وتبرز ذلك فقرات مستعدة من مسودة رسالة بودوميبا إلى الملك رمسيس.

دوعن منا كتبته يا أخى لى: دهكذا أرسلت أختى لى: حين سنافر الرسول لزيارة الأميرة للبابلية التى أعطيت (بالزواج) إلى (ملك) مصر، تركوا ينتظرون واقفين بالخارج، وكان ذلك الرسول هو إليل بيل نيش الرسول الخاص للك بابل، وهو من أخيرني بذلك».

وهناك ثلاث رسائل تناولت الموضوع نفسه، ولا يوجد من الشلائة إلا رسالة واحدة، وهي الرسالة الثالثة حسب ترتيبها زمنيًا (والنسخة الموجودة على شكل مسودة) إلا أنه من الممكن التوصل إلى محتوى الرسالتين السابقتين من مضمون الرسالة الثالثة، فتتابع الرسائل حدث كما يلى.

فقى الرسالة الأولى المرسلة من بودوجيبا لقرعون مصر أشارت إلى الإذلال الذي تعرض له المبعوث البابلوني في مهمته لزيارة أميرة بابلية أصبحت إحدى زوجات القرعون، وفي الرسالة الثانية، رد رمسيس علي رسالة ملكة الحثينيين، وقنّد تلك الادعاءات وأنكرها، وردت بودوجيبا على الرسالة بالرسالة الثالثة التي نتناولها، وذكرت فيها أن المعلومات وردت إليها مباشرة من مبعوث ملك بابل بنفسه، وهو صاحب شكوى إهمال البلاط المصرى له.

وتعد تلك الرسالة مثالاً سهلاً ويسيطًا على تبادل الرسائل التي أشرنا إليها. وسنتعرض لأمثلة أكثر تعقيدًا بعد ذلك. إلا أنه من الهام أن نؤكد أن بعض العبارات التي تعزي إلى مرسل رسائل بعينه لم نتوصل إليها من رسائله، بل من خلال نقلها بحرفيتها في الردود الاتية على تلك الرسائل، ومن الواضع أن كثيرًا من مراسلات العصر البرونزي المتأخر قد فقدت، أو قد تكتشف في قادم الأيام. لهذا السبب نشعر بامتنان؛ لأن كتبة الرسائل التي توصلنا إليها كانوا يحرمنون كل الحرص على أن تكون المساكل التي كتبت، أو وردت في رسالة من أخ ملكي أو أحد أعضاء أسرته، قد فهمت على وجهها المنحيح والنقيق، وتوضع موضع الاعتبار، ويرد عليها بدقة، نقطة بعد نقطة وموضوع بعد موضوع، بعد الأعتبار، ويرد عليها بدقة، نقطة بعد نقطة وموضوع بعد موضوع، بعد الأصلي، وإعادة تذكير المرسل بكل النقاط التي أرسلها.

وكان ذلك من الأهمية علي وجه الخصوص في الحالات التي كانت تستخدم فيها اللغة الاكامية كلغة المراسلات المعتمدة، في الوقت الذي كان

- فيه المرسل والمرسل إليه من غير الأكاديين. في مثل ثلك المالات كانت نصوص الرسائل المتبادلة لابد أن ثمر على ما لا يقل عن ست مراحل بدءًا من صبياغة النص الأول حتى تلقى الرد. وعند إعادة بناء تلك الخطوات، سنفترض أن بداية التراسل قد بدأت من البلاط الحثيني:
- ۱- بالتشباور مع الملك يضع الكاتب النص المبدئي باللغة التي يتحدثها الملك، وهي اللغة الحثينية التي كان الحثينيون يسمونها «نيسيت»، وتعد مسودة رسالة الملكة بودوجيها إلى رمسيس مثالاً على ذلك.
- 2- بعد إدخال تعديلات وتصليحات على النص في صورته الأولية، يعطى
 الملك موافقته على النسخة النهائية، ثم تترجم إلى اللغة الأكادية.
- 3- ترسل النسخة الأكادية إلى مصدر، ولا بد أن تترجم في مصدر إلى
 اللغة المصرية، حتى يمكن قراحها على الملك.
- 4- يكتب الرد على الرسالة باللغة المسرية أولاً، ويمر النص بعسلية إصلاح وتعديل حتى يعطى الملك موافقته عليه.
- 5- يقوم مترجم أو مترجمون من الكتبة المصريين بكتابة نص الرسالة التي وافق عليها الفرعون باللغة الأكادية.
- ٥- يرسل الرد المكتوب بالاكادية إلى صائوسا عاصمة المثينيين، حيث
 يترجم إلى المثينية، ثم يقرأ على المرسل إليه.

بمرور نصوص الرسائل بكل تلك المنطوات، يبدو أن احتمال تجاوز معنى، أو صباغة خاطئة لنقطة هامة أو معنى هام، بعيد تمامًا عن احتمال حدوثه، وهكذا، عند إعداد رد على رسالة بعكف الكاتب على استضراج أهم الأمور التي تناولتها الرسالة الواردة، خاصة تلك الجوانب التي تتطلب ردًا مباشرًا وواضحًا. تلك الجوانب والنقاط الهامة كانت تعاد كتابة في الرد كلمة بكلمة، مع الرد على كل مسألة فيها مباشرة، بعد إعادة نقل نصبها الأصلى، وحين يتلقى المرسل ردًا على رسالته، فإن الردود على المبائل تقارن قياسًا على ما ورد بالرسالة الأولى، وكان لذلك أثر كبير في

إجلاء أى سوء فهم، أو على الأقل تحقيق أدنى حد ممكن من إساءة الفهم بين المتراسلين. لتجنب إحساس خاطئ من أي طرف أنه تعرض لإهانة من الطرف الأخر في ثنايا نصوص المراسلات، كان مرسل الرسالة يجد أنه من الضروري أن يدافع عن نفسه ضد ما قد يعتبره اتهامًا ظالمًا له من الطرف الآخر، وهي الاتهامات التي قد تنتج عن سوء فهم أو المبالغة في فهم أحد الأمور التي وردت بالرسالة القادمة.

الرسل

البعثات الدبلوماسية

هين تصبح الرسائل جاهزة لإرسالها، كانت توضع في مغلقات من الطين، وتختم بخاتم المرسل، وتسلم لرسول، ليتوجه بها إلى الوجهة المنشودة، سيراً على الاقدام أو على عربة تجرها الجياد، وأحيانًا على صبهوة جواد، وفي حالات أخرى على قارب بحرى. وتشير الرسائل مرارًا وتكرارًا إلى كلمة الرسول والرسل، بالرغم من أن هذا المصطلح «رسول» وبالأكادية «مارسبرى» (mar sipri) يتضمن وينطوى على دلالات واسعة عيدة، تتراوح من مجرد حامل رسالة لتوصيلها فقط، إلى سفراء بارزين، وعظماء، وكبراء الوزراء، والنين كانوا أحيانًا أفرادًا من الأسرة المالكة الحاكمة، لهم همالاهيات واسعة بالتفاوض مع ملك أجنبي نيابة عن الحاكمة، لهم همالاهيات واسعة بالتفاوض مع ملك أجنبي نيابة عن الموكهم(10). وكانت المجموعة الأغيرة تعمل كوسطاء دائمين بين كبار الملوك، واكتسبت أدوارهم أهمية فائقة، على ضوء أن الملوك الكبار ذاتهم لم يكونوا ليلتقوا أبدًا، وفي هذا السياق كتبت الملكة بودوحيبا إلى رمسيس قائلة: هيالرغم من أننا تعن كبار الملوك تعد إخوة إلا أن أيًا منا لم يكتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي المنتقلها المنابة الرسالة المرسلة من ملك إلى أخيه الملك عادة ما تنقلها المنابة المرسلة من ملك إلى أخيه الملك عادة ما تنقلها المنابة المرسلة من ملك إلى أخيه الملك عادة ما تنقلها

مجموعة منتقاة من البلاط الملكي، فقد كان تسليم مثل تلك الرسائل يتم في شكل مهمة سلوماسية،

وحين تكون العالقات بين كيار الملوك علاقات وبية، كانت البعثات المرسلة من ملك إلى آخر تلقي حفاوة بالغة، وتقابل باحتفالات وطقوس احتفائية (خاصة إذا كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا النفيسة القيمة)، وكانت تقدم لهم كل وسائل الترفية والإقامة المريحة، كل حسب أهميته، كانت رسالة من أحد كبار الملوك إلى أخيه الملك تعد مناسبة احتفائية تتم بمراسم خاصة، كان يسبق تسليم الرسالة كلمة تقديم، يقوم بإعلانها كبير المبعوثين، وهو الذي يتم اختياره التقديم؛ لتمتمه بكفاءة دبلوماسية خاصة، وأحيانًا ما يكون أحد أفراد الأسرة الماكمة، وعند الحاجة كان هناك مترجم جاهن لترجمة كلمة كبير المبعوثين إلى الملك مترجم جاهن لترجمة كلمة كبير المبعوثين إلى الملك مالشرة، قبل تقديم الرسالة.

وحين كان كبير المبعوثين يلقى كلمة التقديم، فإنه كان يقدمها عن لسان ملكه، فيضمنها كلمات التحية المماثلة لتلك الكلمات التي تتصدر الرسائل من أخ ملكي إلى أخيه الملك الأخر، مثل:

«جمیع أحوالی بخیر. أتمنی أن تكرن جمیع أحوالك بخیر. كل شئون بیتك، وزوجاتك، وأبنانك، وكبار رجاك، وخیلك، وعرباتك، وبلادك أتمنی أن يكونوا جمیعًا بخیر. أما أنا فكل أموری بخیر، وكذلك بیتی وزوجاتی وأبنائی، وكبار رجالی، وخیلی، وتواتی العسكریة، كلهم بخیر، وكل بلادی بخیره. (12)

تلك المسياغة شديدة الرسمية التي تعبر عن التحيات الملكية كانت تختلف قليالاً من رسالة إلى أخرى، ويفترض أن الأمر ذاته كان ينطبق على كلمة التقديم التي يوجهها كبير الموفدين إلى الملك قبل تسليم الرسالة، إلا أنها كانت جميعًا تتسم بالرسمية الدبلوماسية، ولا يوجد شك في أن المتحدث الماهر والذي يشعر بأهمية المناسبة كان يلقى كلمته ببلاغة وحسن بيان، في جميع الأحوال كانت تلك الرسميات ضرورية، ويمجرد الانتهاء

منها، كان الطرفان بيدأن النقاش العملي الموضوعي.

دور کبیر الهبعوثین

كان برنامج كبير المبعوثين المثل لمك يحتوى على عدد من الموضوعات والمسائل معدة النقاش مع الملك المرسل إليه (13) إلا أن أغلب تلك المسائل كان يرتبط بمحتوى الرسالة المكلف بتسليمها، ولا يخرج عنه، فيظل ملتزمًا إلي حد بعيد بالنقاط التى وردت في الرسالة، أو بالمسائل التي تنتج عنها وتتفرع منها. ومع أن ملكه كان يسمع له ببعض المسلاحيات، إلا أنه كانت هناك حدود فيما يحق له التكلم بشأته، وأن كلامه يتفق ويتوافق مع ما أوجز في الرسالة، وكان يوجد بالطبع كتبة يحضرون اللقاء ويضاهون ما يذكره كبير المبعوثين شفاهة بما جاء مكتوبًا في الرسالة، وكانت الرسالة بمجرد تسليمها ينزع عنها ما يحفظها، ويزال خاتم التغليف، وتترجم فورًا إلى اللغة المحلية (إن لم تكن الاكادية)، ويقوم بالترجمة مترجمو المتلقي، حتى يدرس محتواها بالجدية الملازمة، وكان الاهتمام ينصب على الفقرات المرضوعية، مثل الوعود أو الطلبات التي اشتمل طيها حديث المبعوث.

وإذا فشلت الرسالة في نقل ما يراد منها، فإن الأمر يتطلب متابعة، وهذا منا أدى بملك أرزاوا تارهوندا رادو إلى الكتنابة إلى ملك منصد أمونحتيب الثالث معربًا عن قلقه من التناقض بين ما ذكره المبعوث شفاعة ومعترى الرسالة الكتوبة التي ارسلها إليه فرعون مصر، قال أرزاوا في رسالته:

«بالنسبة لما نكره (المبعوث) كالبايا لى (نيابة عن القرعون) لنرتبط بعلاقة دم بالمعاهرة، أنا لست على يقين مما ذكره كالبايا في هذا الشأن، فالرسالة لم تزكد هذا المعنى».

كذلك أكد حاتوسيلي الثالث إلي الملك أحياوا أن التوبّر الذي طرأ على علاقتهما (انظر إلى الفصل 12) إنما يرجع إلى سوء أداء الرسل.

كان السوء الأداء أو عدم الكفاءة أو سوء الفهم خاصة في أعلى المستويات النبلوماسية لما كلفه ملكه بنقله، أو لتعمد النقل الخاطئ يؤدى

بمن يقترفه إلى أوخم العواقب، وهذا ما بعث به الملك حاتوسيلي في أمر مماثل:

دابعث يا آخى ولحدًا من رعيتك، وسوف أحاكم أمامه المبعوث الذى أرسلته برسالتى إليك، وسوف يرى أننى سأطيح برأسه أمامه. أما إذا لم ينقل رسوك رسالتك بدقة، سيطاح برأسه هو الآخر»(15).

كان كتابة نص الرد على رسالة ملك يتطلب أيضًا مناقشة مبعوثيه حول دقة مضمون الرسالة. وكانت بعض محتويات الرسائل تتطلب الدقة والإحكام، أو مفاوضات مع المبعوثين والاتفاق على بعض الأمور. وكانت هناك مناسبات كثيرة يجد فيها كبير المبعوثين نفسه في مواقف تتطلب منه المبادرة أو التصرف، للتوصل إلى حلول مع مضيفه ومستشاريه حول أحد المبوانب التي وردت في الرسالة، وربما يجد نفسه في مواقف تتطلب كل المهارة الدبلوماسية في معالجة آثار أية عبارات عدوانية، قد تتضمنها أو تتثيرها إحدى الرسائل.

وتمتلئ كثير من الرسائل بالشكاوى والتأثيب والتوبيخ، وأحيانًا بطلبات غريبة غير معقولة.

وأهيانًا ما كان يستجاب لذلك بكلمات الطمئة. وأهيانًا ما كان أحد كبار الملوك يحتج على ما كتبه أخوه أو أخته الملكة إليه. وهذا ما حدث فعلاً من سبيللوليوما من المتوى الفظ للرسالة التى تلقاها من أنحسن أمون أرملة توت عنخ أمون، والتي أعماها الفضب من رده الذى لم تجده محققًا لما طلبته منه. وأرسلت مرة أخرى مؤكدة على طلبها ولكن بعبارات شديدة ومهينة لكبريائه. وألقت تلك الرسالة عبئا كبيراً على كبير مبعوثيها حانى، الذى كان مسئولاً عن البعثة المصرية الحاملة للرسالة إلى العاسمة حاتوسا، وكان حانى شنهيراً على المستوى الدولى بأنه من أفضل الدبلوماسيين، حتى إنه كان يماثل في عصرنا الحالى من يقال عنه السيد حُلال المشاكل، واستعمل أقصى قدراته لتهدئة الملك سبيللوليوما والإيحاء إليه أن تحريضه على الاستجابة لما طلبته الملكة. وأثبتت الأحداث بعد ذلك

أنه كان من الأفضل ألا يستجيب، وسنذكر تلك الواقعة بتفصيل أوسع في الفصل (11).

وهناك مصادر مستقلة أثبتت أن المبعوث كان يقوم بأداء مهمته بأمانة. كان الموفدون من أجانب، ولنقل مشالاً إلى البلاط المصرى، عادة ما يصاحبهم لدى عومتهم إلى بلادهم وقد من البلاط المصرى من كبار موظفي القصر حتى عومتهم. وكتب رمسيس عن ذلك إلى الملكة بودوحيبا المثينية قائلاً:

«أقول لأختى أن تيلى تيشوپ مبعوث أختى قد وصل إلى هضرتى ومعه رياماشسى مبعوث أختى (16)، ومعهم مبعوثي بارحيناوا وزينابا ومانيا وطمائونى جميعًا عن صحة أبنائه، وسررت أيما سروره(17).

بالإضافة إلي ذلك الاستقبال الرسمى العام المعان في البلاط للوفود الأجنبية حاملة الرسائل، كان الملك يتلقى تقارير مستقلة من موظفيه ورجال بلاطه العائدين من مهمة دبلوماسية لتسليم رسالة، خاصة عن أية لقاءات أو اجتماعات عقدوها مع أخيه الملك. وكانت تقاريرهم تؤكد على ما ورد بالرسائل التي جلبها المبعوث الأجنبي، وكانت تلك التقارير المستقلة التي يقدمها موظفو الملك تزوده بمعلومات مؤكدة تعزز من مصداقية المعلومات التي قدمها مترجمو الرسائل.

في أحيان خاصة واستثنائية كانت كل الرسميات تنحي جانبًا، أو تختصر إلى أبعد حد، إذا أراد الملك أن يرسل في أمر شخصى أو عاجل إلى بلاط ملك أخر، فمشلاً: أرسل رمسيس مبموثه مانيا إلى الملكة بودوميبا برسالة شفاهية عاجلة. وكانت العجلة أو السرعة التي تتطلبها تجعله يشجنب إضاعة الوقت في إعداد الرسالة ثم ترجمتها ومن بعدها كتابتها، إلا أن ذلك استدعى أيضًا الاستعانة بوسائل أخرى للتأكد من صحة الرسالة. وحتى تتيقن الملكة من أن ما نقله مانيا كان نقلاً دقيقًا وصحيحًا لما ذكره ملكه حرفيًا، أعاد الملك مبعوثها ريا ماشى الذي كان لديه في بلاطه ذاكرًا له نقس ما ذكره لمانيا، وأرسله على وجه السرعة إلى

ملكته في حاتوسا بصحبة وقد مصري، وكل ذلك مشروح في عجالة صاحبت كل منهما(18).

المرسلون الأجانب مقيمون ومحتجزون

قد بيدو من النقرة السابقة أنه من قبيل المبايقة كان أحد ميعوثي الملكة المثينية موجوداً بالبلاط المصرى، حين أرسله رمسيس بتأكيدات لرسالته الشفاهية التي يعث مانيا لإبلاغها إلى الملكة الحثينية. ولكن في جقيقة الأمر، خاصة خلال فترة سادها التواصل الودي الديلوماسي بين البيوت المالكة، كان من الشائع جدًا أن يقيم الميعوثون الأجانب ليلاط ملك أزمنة غير محيدة، حتى يكونوا تحت طلب الملك المضيف إذا احتاجهم فجأة لمهمة دبلوماسية عاجلة إلى بلادهم، في كل الأحوال، كان كبار الملوك حن برسلون كيار رجالهم الصاحبة وقد أجنبي عائد إلى بلاده، كانوا أيضًا بمثابة بمثة من بالادهم إلى البلاط الآخر، وكانوا بذلك يعدون علقة من سلسلة التواصل الذي لا ينقطع بين ملكهم وأخيه الملك الأخر، لذلك لابد أن تتوقع أنه في كل لحظة كان مجعورُو ملك يقدمون في بلاط الملك الآخر. وكان إرسال موظفي وكبار رجال البلاط المناحبة بعثة عائدة إلى بلادها، يضيفي على البعثة العائدة إحساسًا بالأمن عند مرورهم في بلاد مضيفهم، وخلال وعبر مناطقها المختلفة، كما يضفي عليهم الحماية ضد أية مضايقات، يمكن أن يتعرضوا لها من المواطنين أو من بيروقراطية حرس العدود والحاميات، أو من الموظفين المعليين.

وكانت مدة البعثة من لحظة حمل الرسالة حتى تسليمها والإقامة في بلاط المضيف تتفاوت إلى حد كبير، كما لم تكن محددة المدة، وكان ذلك يتوقف على عوامل كثيرة. كان من تلك العوامل الأحوال المناخية الموسمية. فإذا أرسلت على سبيل المثال بعثة من المملكة الحثينية إلى مصر في أخر الخريف (ونعرف على الأقل واحدة على وجه اليقين ينطبق عليها ذلك)، فإن الجليد يمنعها من العودة في الشتاء، ولذلك تؤجل عودتها حتى الربيع

التالى. لم يكن ذلك يشكل أية صعوبة أو قارنا شتاء مصر المعتدل بشتاء منطقة الأناضول. وقد تبينا أن عدداً من المبعوثين المبلوماسيين كانوا يستقرون لأوقات غير محددة في المالك الأجنبية، أي «مبعوثين مقيمين»، غير أن هذا لا يقارن بالسفارات المبلوماسية الحالية مهما صغر حجمها(19).

كانت الإقامة الطويلة في يلد أجنبي تتبح لأقراد البعثة فرصبًا جيدة لجمع المعلومات عن شتى المناحى، وكان ذلك سببًا رئيسبًا في حرمان مبعوث ما من العودة إلي بلاده، وكان أي ملك لديه أفراد بعثة أجنبية ويعلم أنهم قاموا ببعثات سابقة إلى ممالك أخرى، كان يسعى إلي استخلاص كل ما يعرفونه من معلومات عن تلك الممالك الأخرى التي ذهبوا إليها، وكان على قمة تلك المعلومات حالة العلاقات بين كبار الملوك الأخرين، فهو الموضوع الذي ظهر بشكل أو بآخر في عدد من مراسلات كار الملوك.

هل كانت العالاقات ودية؟ هل كانت هناك أية أنواع من النزاعات بينهم؟ وكان لا يقل أهمية لديه أن يعرف إن كان أي ملك من أنداده يعظي بمعاملة من ملكهم أفضل مما يلقاء هو.

بتلك الوسائل غلل كبار الملوك على اتصال بكل مجريات الأحداث على المستوى الدبلوماسى الدولي، ولم يكونوا ليترددوا في إظهار أي جانب يضايقهم من الملوك الآخرين في نصوص رسائلهم، من إهانات حقيقية مقصودة أو متخيلة،أو بسبب الاهتمام بملك آخر أكثر من الاهتمام به شخصيًا، أو رداءة وتفاهة وحقارة الهدايا المرسلة إليه من ملك آخر، أو إغفال ذكر صبعود ملك إلى عرش، أو مرض علك، كما أشاروا مرارًا وتكرارًا في رسائلهم إلى منع الملوك الآخرين لمبعوثهم من العودة إلى بلادهم.

كانت هناك مناسبات كثيرة منع قيها المبعوثون من العودة إلي بلادهم رغمًا عنهم، ورغمًا عن ملكهم، اشتكى بارنابورياش الثاني إلى أخناتون

فى إحدى رسائله قائلاً: «أقد احتجزت مبعوثى إليك عندك عامين حتى الآن، وطلب منه إطلاق مسبعوثه في العسال» (20). كسا اتهم سلفه كاداشمان— انثيل الأول امونحتيب الثالث أبا أخناتون بأنه احتجز أحد مبعوثيه إليه لمدة ستة أعوام (21). وفي مناسبة أخرى احتجز رسل أحد الولايات السورية الخاضعة لنفوذ مصر وهي ولاية تونيب، احتجزوا في مصر لما لا يقل عن عشرين عاماً. (22)

كانت هناك أسباب عديدة، كما سنرى فيما يلى، وراء عدم عودة بعض الموفدين إلى بلادهم لأزمان طويلة. ومهما كانت تلك الأسباب، كانت عودة أى مبعوث إلى بلاده متوقفة على موافقة الملك المضيف على عودته. وتضمنت كثير من الرسائل إلى فراعنة مصر طلبًا بعدم حجز الرسول بعد انتهاء مهمته. وكتب الملك الأشورى أشور— أوباليت إلى ملك مصر قائلاً: ولا تؤخر الرسول الذي أرسلته إليك، دعه يقوم بزيارته ثم يعود إلى بلاده. دعه يصرف ويرى ما تريده أن يعرف ويرى من بلادكم، ثم اسمع له بالعودة، (23) دوعلى ذلك أرسلت إليك قبليا كبير وزرائي وتونيب— إبرى، كما كتب الملك الميتاني توشرانا إلى فرعون مصر أمونحتيب الثالث قائلاً: على حسمح أخى لهم بالعودة في المثل، حتى يمكن أن يعودوا إلى سريعًا ع(24).

في حالات كثيرة، لم يكن حجز المبعوثين بمثابة عقاب لهم أو بمثابة عمل عدواني. كانت هناك رسميات لابد من اتباعها قبل أن يسمح للموفدين بالمفادرة، وكان الانتهاء من تلك الرسميات يستلزم بعض الوقت، ولم يكن للموفدين أنفسهم ولا للملوك الذين أوفدوهم أى قدر من السيطرة على طول مدة بقائهم، إذا لم يكن الملك المضيف ذاته مهتمًا بعودتهم. كانت الإقامة الطويلة للموفدين تعود في بعض الأحبان إلى البطء البيروقراطي الوظيفي، أو لعدم إبلاغ المستولين للملك بشأن رجوعهم، حتى يعطى موافقته على عودتهم، أو بيساطة لهوى وغرض في نفس الملك للشنيف. وقد يعود طول الوقت أيضًا إلى طول الزمن الذي قد يستغرقه المضيف. وقد يعود طول الوقت أيضًا إلى طول الزمن الذي قد يستغرقه

إعداد الرد على الرسالة التي أتوا بها، ليعوبوا به إلى ملكهم، أو في إعداد الهدايا التي سنترسل معهم، أو في الانتهاء من وسائل إعداد عروس ملكية تعود معهم إلى ملكهم.

أرسل الفرعون أمونحتيب الثالث مين، أكبر مبعوثيه الدبلوماسيين وأفضلهم إلى الميتانيين، لمصاحبة تابوحيبا ابنة اللك الميتاني توشراتا للقدوم إلى مصر، ليتخذها زوجة، ومر زمن طويل منذ أن غادر المبعوث مين أرض مصر دون أية أنباء منه أو عنه، وبانزعاج شديد، كتب أمونحتيب إلى توشراتا ليعلمه بما يجري، ولدينا رد توشراتا على تلك الرسالة، وشرح في تلك الرسالة أن مين قد استبقى في ميتاني، بسبب الوقت الذي يستغرقه إعداد الأميرة وتهيئتها للسفر إلى مصر، وطمأن ملك مصر ألا يقلق على أمن ورفاه مبعوثه، قال في رده: «إنه ليس مريضًا، إنه لا يلفظ أنفاسه الأخيرة، هو مازال كما هو، لقد قمت بالفعل بمعاملته هو وقوات أخى التي صحبته أقضل معاملة ويحفاوة وتشريف وتميزه (25).

ولا نعلم بدقة المدة الزمنية التي بقى فيها (مين) لدى الميتانيين، حين بعث توشراتا بالرسالة السابقة إلى أمونحتيب الثالث، ولكن توشراتا أخبره أنه مازال أمامهم ستة أشهر أخرى، قبل أن تصبح الأميرة العروس جاهزة للقدوم إلى مصر، بمصاحبة (مين) كبير مبعوثي أمونحتب الثالث.

أحيانًا ما كان احتجاز الرسول يحدث كنوع من العقاب. كان الاحتجاز يوظف لماقبة مرسل على جرم أو سلوك سئ ارتكبه في بلا مضيفه، وسنذكر أمثلة على هذا النوع من الاحتجاز فيما يلى، إلا أنه كان يحدث أحيانًا أن يحتجز الرسول لا لجرم ارتكبه بل لاستياء المضيف من ملك الرسول الشيء فعله أو من شيء لم يفعله، وكان يجب عليه أن يفعله. حتى على مستوى الشجار والنزاع بين الموظفين المحليين في مختلف أنحاء الملكة، وصل إلينا تهديدات موظف لوظف آخر بأنه سيسجن أو يحجز خدمه أو من يمتون إليه بصلة إذا وطأت أقدامهم منطقة نفوذه (ارجع إلى الفصل 10). وأحيانًا ما كان المبعوثون إلى بلاط ما يجدون أنفسهم

يعاقبون، كرد فعل لما فعله ملكهم مع مبعوثي البلاط الأول. كتب توشراتا إلى أخناتون بلهجة احتجاج شديد:

داقد أشرت إلى ذلك قيما سبق لأخى (أخناتون)، سوف أحجز (مين) رسول أخى إلى، حتى يدع أخى رسلى يرحلون من عنده ويعودون إلى، والآن أجد أخى يرفض تمامًا أن يدع رسلى يرحلون من عنده، ووضعهم تحت حراسة مشددة». (26)

على عكس ذلك تماماً ما نجده في عالم الدبلوماسية المعاصر لذا، ففي عالم الدبلوماسية المعاصر لذا، ففي عالم الدبلوماسية الحالى نجد أن دولة ما تقوم بطرد أفراد البعثة الدبلوماسية عند وقوع نزاع شديد لا سجنهم ومعاقبتهم، أو عندما تستاء دولة ما من سلوك أولئك الدبلوماسيين الضارج عن التقاليد والأعراف المراعاة في الدولة التي يمتأون بلادهم فيها، ويتشابه العالم القديم مع المتلاف العالم المعاصر في سرعة رد الفعل تجاه مثل تلك الضروقات مع اختلاف الوسائل.

قام أخناتون بحبس مبعوث مملكة الاسيا، كنوع من الاحتجاج ضد فعل قام به بعض أبناء بلده، إذ أغاروا على ساحل مصرى كعمل من أعمال القرصنة، كان أولئك القراصنة يغيرون على السواحل الشرقية للبحر المتوسط من قاعدة لهم على الشاطئ الجنوبي لمنطقة الأناضول، في منطقة تدعى لوكا في النصوص الحثينية، وكتب أخناتون إلى ملك الاسيا يتهمه هو ورعيته بالضاوع في تلك الاعتداءات، وأنكر ملك الاسيا تلك لتهمة بسخط وغضب، وقال في رده:

«لماذا تتهمنى يا أهى هذا الاتهام؟ أنا لم أفعل شيئًا من ذلك». وعلى عكس ذلك، أعلن كاتب الرسالة أن مملكة ألاسيا ذاتها تعانى من هجمات القراصنة:

«إن رجال أوكا يهلجمون القرى في بلدى عامًا بعد عام (27) ومضى في رسالته مطمئتًا فرعون مصر أن رعيته لا يمكن أن تشارك في مثل تلك الأعمال.

وفى المقيقة، لم تكن ادعاءات الفرعون بلا أسانيد، فبعض الأسرى من القراصنة كان من بينهم رعايا من مملكة الاسيا، إلا أن ملك الاسيا أراد أن يترصل إلى الحقيقة في تلك المشكلة، فقال في رسالته:

دل كان من بين الأسرى رجال من بالادى، أرسلهم إلى وساقوم بما يجب،

ورغم ما ذكره، لم يكن ليمندق أن رعاياه من المكن أن يقوموا بأعمال قرصنة، فأردف:

«أنت بالفعل لا تعرف شيئًا عن رجال بالدى، لا يمكن أن يقوموا بمثل تلك الأعمال».

تُم يواميل رسالته قائلاً:

«إن كان رجال من عندنا قد قاموا بنتك الأعمال فعلاً، فلك الحق أن تقعل ما تراه ملائمًا».

وتمتلئ المفقرة بأجمعها بالتناقض، وتبدو كل جملة وكانها تناقض سابقتها، فمرة يذكر أن رجاله لا يمكن أن يسلكوا ذلك السلوك، ولكن إن كانوا قد فعلوا، فإنه يجب إرسالهم إليه لمعاقبتهم بنفسه، إلا أنه لا يمكن أن يكونوا قد فعلوا ذلك الجرم، تصرف أن يكونوا قد أداه ملائمًا لك.

وتنبئ تلك التناقضات الكثيرة في نض الرسالة بأنها كتبت بتعجل في غياب الفبراء المعنيين بكتابة الرسائل الدبلوماسية، وربما كان المختص بكتابة الرسائل في بلاطه هو المبعوث المحتجز في البلاط المصرى، وأجبر رفض فرعون مصر إطلاق سراح مبعوث ملك الاسيا على القيام بدور المبعوث، وبدا أن ذلك هو جوهر ولب الرسالة، إلا أن البروفيسور موران يعلق على مضمون تلك الرسالة قائلاً: «إن تلك الفقرة تحمل من التضارب والتناقض، حتى إنه يمكن تفسير النص على عدة أوجه»، وهو ما يدل دلالة واضحة أن نص الرسالة قد كتب، دون الاستعانة بالمختصين في مجال الكتابة الدبلوماسية.

وحتى لو كف أحد الملوك عن إرسال مبعوثيه إلى مملكة ما، فإن ذلك كان يعد كعمل من أعمال العدوان، ويبلغ أثر ذلك السلوك مبلغًا قد يؤدى إلى إفساد العلاقات بين الملكتين، أو على الأقل بين الملكين نفسهما. حدث ذلك حين انزعج حاتوسيلى الثالث بعد إرتقاء كاداشمان- إنليل الثانى عرش بابل، وامتنع عن إرسال أى مبعوثين من لدنه إلى البلاط الحثينى. وكتب إليه حاتوسيلى يسأله عن سبب ذلك، ورد كاداشمان على رسالته مختلقًا أعذارًا واهية: «لأن الأحلامو يكتون عداء أنا، فقد أوقفت إرسال المبعوثين. الملك الأشورى يعنع رسلي من المرور عبر بلاده، ورد عليه حاتوسيلى رافضيًا تلك الأعذار المختلفة قائلاً: «هل مملكتك من الصغر حتى يمتع رسلك من المرور، بينما يمضى رسلى جيشة وذهابًا عجر بلاده دون معارضة».

أما السبب المقيقي لامتناع كاداش- إنليل الثاني عن إرسال مبعوثيه، فقد كان يرجع لسبب آخر كما ظن حاتوسيلي. كان السبب يعود إلى المستشار السبئ الملك كاداش- إنليل، وهو إنى- ماردوك- بالاتو، الرجل الذي تركته الآلهة يعيش طويلاً، والذي لا يتوقف لسانه عن ذكر السوء والشر. كان ذلك على الأقل ما رأه حاتوسيلي في وزير كاداش إنليل، والذي كان ينهج نهجًا معاديًا للحثينيين، في الوقت الذي كان يميل فيه كل الميل للأشوريين، وكتب إليه محذرًا:

دانته، لا يتوقف ملكان عن تبادل المبعوثين، إلا إذا كانت بينهما عداوة، (28).

مبعوثون يعاملون بقسوة

كانت معاملة الملوك ليعض المبعوبين سببًا في كثير من الشكاوي، حتى في الحالات التي تكون فيها العلاقات بين ملكين على أفضل ما يراد لها من ود وتقدير متبادل.

فكبار المبعوثين الأجانب لم يكونوا ليثقوا على الدوام في حصولهم على التقدير والاحترام، الذي يكفله لهم وضعهم المتميز. كان من المكن أن يعاملوا بطريقة مهيئة في مملكة أجنبية أو يتم تجاهلهم، وكان ذلك يعود في بعض الأحيان إلى أن الملك المضيف قد ضايقه سلوك ما من ملكهم، أو في أحيان أخرى لاعتبار الملك المضيف أن ملك المبعوث لم يعد صنوا ولا نذا له. وذلك يفسر سلوك رمسيس المزدري لبحوثي بابل الذين سعوا لزيارة أميرة بابلية في مصر، فمما نكرناه قبل ذلك عن مسودة الرسالة التي كانت بودوحيبا قد أرسلتها إلى الملك رمسيس وذكرناها فيما سبق، يتولد لدينا انطباع بأن رمسيس لم يعد يعتبر إن حاكم بأبل يستحق لقب مملك عظيم» (29)، وإن كان قد قز في نفسه هذا الانطباع عن ملك بابل، فإن ذلك يدفعه إلى الملامبالاة بمبعوثيه، وكان فقدان الاعتبار من ذلك الصنف من المكن أن يؤدي إلى قطم العلاقات الودية.

كان معثلى ومبهوث الدول الصنفرى لا يأملون ولا يعنون أنفسهم بمقابلة أحد كبار الملوك، رفض النظر عن مدى إصدارهم والحاحهم على ذلك.

وأحيانًا ما كان الرسل يخاطرون باحتمال تعرضهم إلى مصير سئ في بلاد الملك المضيف، وكان ذلك سببًا في الاعتراض والاحتجاج شديد اللهجة الذي أرسله الملك الأشوري أشور – أو باليت إلى الملك أخناتون، بسبب معاملته السيئة المبعوثين الأشوريين المرسلين للبلاط المصري. كان مسئول المراسم المصريون يتركونهم واقفين اساعات طويلة تحت شمس مصر الحارة، حتى يوشكوا على الهلاك والموت، وتسامل في رسالته: (30)

دلمانا يجبر رسلي على الوقوف تحت أشعة الشمس لفترات طويلة، حتى يتعرضوا الموت من ضرية الشمس».

ثم يضيف:

دإذا كان في وقوف رسولي الأوقات طويلة تحت شمس حامية أي فائدة
 للملك، إذن دعه يظل في الشمس حتى يموت في مكانه من ضرية الشمس،

هذا إذا اقترضنا أن في ذلك قائدة الملك» (31)

والسخرية واضحة في نص الرسالة. إلا أن ذلك يثير تساؤلاً إن كان الفرعون مذنباً في الإساءة عن عمد الضيوفه الأجانب. وقد يكون الأمر على عكس ذلك، إذا أخذنا في الاعتبار تفسير بروفيسور ردفورد بعبداً عن تفسير ذلك السلوك بأنه نوع من العقاب، فإن مبعوثي أشور— أو باليت كانوا مساهمين حتى او كان رغم إرادتهم— في طقوس طويلة لعبادة الشمس، التي كان يمارسها الفرعون المصرى مع كبار رجال الدولة. (32)

والفقرة التى تثير تلك التساؤلات مازالت مطروحة للبحث. ولو كان ردفورد محقًا فيما ذهب إليه، فإن تلك الفقرة تعد المصدر الوحيد (وهو غير مباشر تمامًا) في كل نصوص رسائل تل العمارنة التى تشير إلى ديانة أخناتون وعبادة الشمس، إلا أن ذلك لم يكن ليؤثر على ضيق أشور أو باليت، فمراعاته للمعتقدات الدينية التي يؤمن بها إضوه الملك، وممارساته وطقوسه لم تكن لتحظي باهتمامه كثيرًا بقدر اهتمامه بسلامة وراحة مبعوثيه.

وفي مناسبة تالية لما سبق بعقود كثيرة كتب حاتوسيلي الثالث إلى الملك رمسيس متسائلاً عن الماملة التي لقاها أحد المبعوثين المثينيين إلى مصر، قال في رسالته:

«أرسلت مبعوثي زيروا إليك في مهمة، ليحظى بمقابلة أخى الملك، ويبلغه كلماتي، فلماذا لم تدعه يعداء (33)

ولم يترك الفرعون الأخيه الملك مجالاً للشك عما حدث لمبعوثه، فقرر قائلاً:

دومن يكون ذلك الكلباء

وأخبره أنه أمر بتكبيل ذلك التعس زيووا أيدى وأقدامًا. ولا نعلم ما الذنب الذي اقترفه المبعوث زيووا ليلقى ذلك المصير البائس، إلا أن المؤكد أنه أوقع نفسه في مشاكل خطيرة مع السلطات المصرية. بل بلغت تلك المشكلة حدًا من الخطورة جعلته يواجه احتمال الحكم بإعدامه، فقد سجل

حاتوسيلى: وليس من العدواب قتل ميعوجه، إلا أن رأى رمسيس لم يتغير. إلا أنه طمأن أخاه الملك أن المبعوث الحثيني الآخر الذي كان بمصر في الوقت ذاته (ضاع اسمه ولم يبق منه إلا حرف «أ») سيلقى المعاملة التي تسعد سيده وترضيه، أما موضوع زيووا ومصيره فقد أصبح موضوعا منتهياً. ويبدو أن أسوأ مخاوف ملكه (وبلا شك أسوأ مخاوفه هو أيضاً) قد تحققت،

ويبدو من رفض رمسيس لطلب حاتوسيلي في هذا الشان أن المصانة الابلوماسية لم تكن لتعني شيئًا في عالم العصر البرونزي المتأخر.

ويحتمل أن ذلك لم يكن ليشمل كل المناسبات والظروف المماثلة. ففي عهد حكم أخناتون، سمح لمبعوثين من مبعوثي الميتانيين يدعوان ارتاشويا وعسلى اللذين خالفا القانون، أثناء مهمة لهما بمصر بالعودة إلى بلاهما، وفي وذلك بافتراخي أن ملكهما سيتخذ بنفسه ما يراه ملائمًا لمعاقبتهما، وفي خطاب من الملك الميتاني توشراتا الأخناتون، أكد له أن العدالة ستأخذ مجراها بدقة شديدة في حق المبعوثين المخالفين للقانون المصرى، ومَثُل المذنبان أمام توشراتا مكبلين بالأغلال والأصفاد، وتم نفيهما إلى مدينة حدودية من بلاد الميتانيين، ولم يقدم توشراتا علي إعدامهما، علي الأقل حتى تصله معلومات تفصيلية عن طبيعة الجرم الذي ارتكباه (34).

مزايا ومخاطر العمل الدبلوساس قديبا

انضوى في عالم الدبلوماسية القديمة بعض الأشرار وحثالة البشر، كما سنرى فيما يلى. إلا أن عالم الدبلوماسية القديم ضم أيضًا بين صفوفه كثيرًا من الشرفاء أصحاب المراكز المرموقة، والذين نالوا احترام وثقة الملوك الأجانب، بنفس القدر الذي حظوا به من ملوكهم. وقد قاموا بالفعل بمهام في غاية الأهمية في مجال العلاقات بين كبار الملوك، حتى بلغ الأمر أن أحد الملوك كان يطلب من أخيه الملك أن يوافيه بمبعوث معين بالاسم؛ للاستفادة من خدماته. وهكذا، نجد أن بارنا بورياش الثانى طلب من أخناتون أن يبعث إليه بعظيم القدر حايا، ليرأس الوفد المرافق الأميرة البابلية القادمة من بابل، لتصبح زوجة أو إحدى زوجات فرعون مصدر (35). كذلك أصبح المبسوث المصدى (مين) من أقرب المقربين والمفضل لدى توشيراتا ملك المبتانيين، وذلك أثناء وجوده هناك، أثناء تجهيز ابنة توشراتا، قبل انتقالها إلى مصدر للزواج بالفرعون. وذكر توشراتا عن مين في إحدى رسائله الفرعون (36):

«لا يوجد مثيل له في العالم كله»

وحين كتب توشراتا بعد ذلك إلى آمونحتيب ملك مصر، طالبًا منه إرسال مبعوث مصرى لمساحبة رسله العائدين من مصر إلى بلادهم، لم يترك طلبه دون أن يذكر من يريده على وجه التخصيص:

دهل لأخي أن يرسل (مين)، ليعلم أخي أنه لو أرسل أحدًا غير مين، أنا لا أريده، كلا، لا ترسل سوي مينه(37).

كان المبعوثون يتلقون أيضًا هبات ثمينة من الملوك المرسلين إليهم، كانت الهدايا تأتى في قيمتها في مرتبة تالية الهدأيا المرسلة معهم إلى ملوكهم، وكانت المكافأت والهدايا التي يحصلون عليها تتناسب مع المهام الملقاء على عواتقهم، وياستثناء المهارات السياسية العالية التي تتطلبها مهنتهم، كان نمط الحياة التي يحيونها في خدمة سادتهم يلقي عليهم أعباء بدنية هائلة، وأحيانًا ما كانت تلك المهام تعرضهم الخاطر شديدة، في انتقالهم سيراً على الاقدام أو على عربة تجرها خيول، وكانوا معرضين لاجتياز بلاد ومناطق غير مضمون سلامتهم فيها، حتى أو كانت تصحبهم مراسة عسكرية - (انظر الصفحة التالية). كانت الأحوال البيئية القاسية، والطقس القائظ الحرارة، وشح مصمادر المياه أو انعدامها في بعض المناطق، جانبًا من المخاطر الطبيعية التي يواجهونها، وهو ما ذكره بورنا بورياش لأخناتون في إحدى رسائله إليه (38). عدا ذلك كانوا يواجهون على مخاطر الحيوانات المفترسة، وينفس القدر من الأفراد الخارجين على

القانون، قال بورنا بورياش في رسالته عن المبعوثين:

ويذهب حامل الرميائل إلى بالا، أجنبية، بعد أن يوزع أمالاكه على أينائه، فهو معرض لهجوم الأسود أو هجوم الآسيويين، (39) وكانت السلطات المحلية في الأقاليم تعجز عن حماية المبعوثين، عند مرورهم عبرها من هممات الخارجين على القانون أو جماعات المتمريين، كان الميعوثون بلجأون للتغلب على تلك المخاطر إلى الانضمام إلى جساعات كبيرة مرتجلة في مساره ذاته مثل قوافل التجارة. وبالفعل قام التجار في بعض الأحيان بمهمة المبعوبين من ملوكهم (40). ولكن بالرغم من أن القرافل الكبيرة ذاتها في أحيان كثيرة لم تكن ضمانًا كافيًا للعماية من هجمات الجماهات المتمردة بالجبال مثل عصابات المابيرو (41) وإن أخذنا على محمل الجد شكري أخرى لبورنا بورياش بعث بها إلى فرعون ممير، قان الحكام التابعين لفرعون مصير، مثل حاكم دمشق، لم يكن ليتعفف عن مهاجمة ونهب القوافل التجارية البابلية (42). ومن غير المعروف إن كان أخنائون قد صوب وقوم ثلك السلوكيات أم دفع التعويض الذي طلبه أخوه الملك البابلي؟ ونظن أن كثيرًا من الجرائم من ذلك الصنف قد مرت دون عقاب، وكان ذلك بحد ذاته حافزًا على مزيد من الاعتداء على لعابرين الأجانب، سواء كانوا مبعوثين أو تجاراً.

وسواء كانوا ينتقلون مستقلين أو برفقة قافلة تجارية، كانت الوفود الأجنبية بوجه عام تزود بحماية عسكرية، سواء من بلدهم أو من لدن الملك المضيف، وهم في طريق عودتهم إلى بلادهم. كان حجم فرقة العماية العسكرية يزيد حين تكون بصحبة الوفد كميات كبيرة من الهدايا الثمينة، وعلى وجه الخصوص إذا ضحت البعثة المرتحلة شخصيات مرموقة مثل عروس ملكية تنتقل إلى زوج المستقبل في الدولة المنتقلة إليها.

كان الوقت الذي يستغرقه رسول في الانتقال من بلاط ملكه إلى بلاط الملك المرسل إليه يتوقف على عناصر كثيرة. وتم تقدير المسافة التي يمكن أن يقطعها الرسول في اليوم أنها تتراوح من 27 إلى 37 كيلو متراً، أو 17

إلى 23 ميلاً (43)، ونعرف من إحدى رسائل توشراتا إلى أخناتو أن قطع المسافة بينهما والعودة في ثلاثة أشهر يعد زمنًا قصيرًا (44) ونعرف من تلك الرسالة أيضًا أن الرسول جلب معه عند عوبته إلى عاصمة الميتانيين أربعة أجولة مليئة بالذهب، وكثيرًا من المجوهرات والمشغولات الشمينة كهدية من فرعون مصر إلى توشراتا ملك الميتانيين، ولابد أن نفترض أنه اصطحب معه هدايا لا تقل قيمة إلى فرعون مصر من ملك الميتانيين. ولابد أن اصطحاب هدايا بذلك القدر كان يبطئ من حركة الرسول، بافتراض أن وسائل حماية البعثة متوفرة في الذهاب والعودة في مثل تلك الحالات، وطبقًا لحجم البعثة وحراستها، فإننا نتوقع أن أية رحلة بين بلاط الفرعون المصرى وبلاط أحد كبار الملوك المعاصرين له والعودة ، كانت تستفرق على الأقل بين أربعة وستة أشهر (45).

لقد أشرنا إلى المخاطر البشرية والطبيعية التي كان مبعوش الملوك يتعرضون لها أثناء قيامهم بذلك العمل. كما لم نستثن الموظفين المحليين، الذين كانوا أحيانًا وراء الهجوم على المرتطين من مبعوثين، وحتى لو لم يصل بهم الأمر إلي الهجوم واغتصاب المقتنيات الثمينة المرسلة من أحد الملوك إلي ملك أضر، فقد كانوا يطلبون دفع جعل من المال علي تلك المقتنيات. وكانت البعثات الأجنبية القادمة إلي دولة ما والمسحوبة بممثلين المدولة المضعيفة يستثنون من ذلك. وفي المناسبات كان أحد الملوك يتلقى طلبًا من أخيه الملك أن يؤمن ويضعن سلامة مرور التجار التابعين له، وإعفائهم من دفع ضرائب عند مرورهم في بلاد الملك الأخر (46).

وأحيانًا ما كانت البعثات والوفود الأجنبية تزود بنوع من وثائق السفر مماثل لجواز السفر المالي وصادر عن بلاط ملكي، مثل وثائق السفر التي زرد بها الملك توشراتا مبعوثيه، لتسبهيل سفرهم إلي مصر، وتيسير انتقالهم عبر البلاد الخاضعة لهيمنة الفرعون، ومسجل بتلك الوثائق النص التالي:

مرسالة إلى كل ملوك كنعان، رعايا أشي (ملك مصر). هذا ما يذكره

الملك (الميتاني): «أنا أبعث رسولي أكيا إلى ملك مصر، أخي، في مهمة عاجلة. ممنوع على أي إنسان تعويقه. سهلوا له الوصول الأمن إلى مصر، واصحبوه إلى مستولي الحدود المصريين، وممنوع على أي إنسان مهما كان السبب أن يعسه بأي سوء»(47)

ولا نعلم مدى فاعلية تلك الوثائق في حماية المبعوثين من مضايقات المسئولين المطيين في المناطق الخاضعة. وفي أغلب الأحوال كان الأمر يتوقف على حجم البعثة العسكرية المرافقة للرسل؛ لتأمينهم وحمايتهم، والتأكد من توفير المرور الأمن لهم.

4

الحب الأخوس

كانت المراسلات بين كبار الملوك تفيض بعبارات الحب الأخوى من ملك لأخيه، وإعلان المساعر القلبية، وتمنى أفضل الأحوال المسحية وكامل الرفاء لملكة أخيه بأجمعها، بادئًا بعائلة أخيه الملك، ومنتهيًا إلى كل رجال بلاء، وخيوله، وعرباته، بل وكل البلاد الخاضعة له. وأثناء حقبة تل العمارنة أصبح «الحب» أحد المصطلحات الدبلوماسية الدولية(1).

وأصبح المصطلح الأكادى الذي يعنى «الحب» رامو ramu (ومشتقاته)، يعنى الحب المخلص والتفانى فيه، وراح يذكر بغزارة في المراسلات المتبادلة بين الدولة المصرية والدولة الميتانية. وأثناء الأعوام الأخيرة من حكم آمونحتيب الثالث كان التحالف المصرى الميتانى قد توثق بزواج الفرعون من الأميرة الميتانية «تادوحيبا»، ابنة الملك توشراتا(2). إلا أن لحم وليسمة العسرس المطهى كاد أن يكون جنزاً من وليسمة دفن آمونحوتيب. والمعتقد أن آمونحتيب قد مات بعد فترة قصيرة بعد زواجه من الأميرة الميتانية، وكان الشغل الشاغل لزوجته الأثيرة الأولى والمفضلة (تايي) أن تظل الروابط القوية التي أرساها زوجها الراحل بنفس القوة وجود ملك جديد يعنى التوصيل إلى اتفاقيات جديدة مع الملك الميتاني توشيراتا، وودت الملكة الأم (تايي) أن لا تنقطع العسلاقيات الودية توشيراتا، وودت الملكة الأم (تايي) أن لا تنقطع العسلاقيات الودية والدبلوماسية بين الدولتين.

واستدعت الملكة (تايي) السفير الميتاني (كيليا)، وسلمته رسالة شخصية منها إلى ملكه. وفي تلك الرسالة ذكّرت (تايي) توشراتا بالروابط

القوية التي كانت تربط بين زوجها ووالد توشيراتا الملك شيوتارنا الثاني وهي الروابط التي حافظ عليها توشراتا ذاته بعد موت أبيه، وانعكس ذلك على السفارات التي دأب أمونحتيب على إرسالها إلى البلاط الميتاني.

وطلبت تابي من توشرانا أن يحفظ تلك الروابط قائلة:

«لا تنس حبك لـ «ميميوريا» (أمونحتيب)، وليكن الديك هب أكبر لـ «نافوريا» (أخناتون)، واستمر في إرسال سفاراتك، واحدة بعد أخرى، لا تقطع الاتمال ولا توقف مبعوثيك».

وسرعان ما راح توشراتا يطمئنها قائلاً:

دلن أنسى أبدًا حبي لزوجك، أما ابنك نافوريا، فإن حبى له سيتضاعف عثير مرات» (4).

وأرسل توشراتا رسالة إلي الفرعون الجديد تحمل المعنى نفسه: هيذكر أخى ذلك: بقدر ما أظهرت حبك لأبى ميموريا، فأظهر الآن حبك لى، ويما أن أخي راغب في حبى له، هل لا أرغب أنا في حبه لي؟ في هذه اللحظة ذاتها أنا أظهر لك حبًا يفوق حبى لأبيك عشر مراته (5)

ولو أخذنا في الاعتبار الصدام اللائح في الأفق بين الميتانيين والعثينيين، فلا تدهشنا تلك الاستجابة الحميمة من توشراتا لمبادرة أخناتون وأمه، فتجديد العهود وتقوية التحالف مع مصر ستترتب عليه فوائد استراتيجية كثيرة، قبل وقوع التناطح المصدري بين الميتانيين والحثينين.

وحتي تترافق مواقفه مع ثعبيرات الحب الأخوى والاعتمام بملك عظيم، كانت الأخلاقيات الدبلوماسية تتطلب إظهار الأسى والحزن علي موت ذلك الملك الزميل، فكتب توشراتا إلى أخناتون قائلاً:

دهين علمت بموت أشى تيسموريا(6)، بكيت في ذلك السوم، ولم أذق طعامًا ولا شرابا، وفي غمرة أحزاني قات: ليتني أموت، أو ياليت عشرة ألاف من بلدى أو عشرة آلاف من بلد أخى يموتون ويحيا أخى الذي أحبه والذي أحبني عمرًا مديدًا كالسماء والأرضى(7). ومن الواضع أنه كانت هناك مغالاة في إظهار المساعر، إلا أنها لم تكن لتخلق من حزن حقيقي لموت أخ ملكي، ولو حتى لأسباب نفعية. فقد وجد حاتوسيلي الثالث ملك الحثينيين بعد موت الملك كاداشمان - تورجو الذي كان حليفًا له، أن من خلفه على العرش (كاداشمان - إنليل) - ميلاً أقل من والده للصداقة والتعاون مع حاتوسيلي، على الأقل في البدايات المبكرة لارتقائه العرش، ومن ثم كانت الرغبة في الحفاظ على الاتصال مع ملك جديد للإبقاء على العلاقات القوية التي تم تأسيسها مع الملك الراحل، بل تقويتها إن أمكن، لذلك كتب حاتوسيلي إلى الملك المبتاني الجديد كاداشمان - إنليل قائلاً:

همين أقمنا أنا وأبوك علاقات ودية وأصبحنا أخرين محبين لبعضهما، لم نكن إخرة ليوم واحد فقط، ألم نؤسس علاقة الإخوة لتكون أبدية؟ ثم توصلنا إلى اتفاق فيما بيننا كما يلى: نحن فانون، من يبقى حيًا بعد أخيه سوف يحمى أبناء من يمت أولاء(8).

كانت الاستمرارية هي مفتاح الاستقرار، وكان الحزن على موت ملك راحل تختلط بفرحة صعود ملك جديد من بعده، وإعلان جديد بالثقة أن كل شيء في المستقبل سيطل كما كان فيما مضى، فبعد أن أظهر توشراتا الحزن اللائق بموت أمونحتيب، أريف قائلاً:

«ورمين علمت أن أكبر أبنائه نافوريا(9) أصبح الآن ملكًا منحل أبيه، قلت: لم يمت أخى نيموريا، ابنه الأكبر نافوريا أصبح ملكًا في مكان أبيه، لم يتغير شيء عما كان عليه فيما سبق، (10).

وأخر جملة هي التي تحمل المعني والمغزى المراد قوله، وهو أن: وشيئًا لم يتغير عما كان عليه فيما مميق، إلا أن كل طرف كان يتطلب تطميئًا مستمرًا وتأكيدًا متكررًا لذلك المعنى، لذلك كانت تتكرر الشكوى أن الهدايا المرسلة لأخ ملكى كانت أقل وأرداً من تلك التي كان يرسلها أبوه الراحل، سواء إلى المرسل إليه أو إلى سلفه المتوفى.

وكما لاحظنا من قبل، كانت المشاعر الحميمة ويرجة المحبة الأخوية

تترجم بلا أى خجل، أو تحشم إلى مصطلحات مادية. كانت الهدايا تمثل أسهل طريقة ملموسة لقياس مقدار ذلك الحب. وسنرى عددًا من الأمثلة على ذلك في الفصل التالي.

عامل الجغرافيا

كانت هناك وسائل أخرى لقياس ذلك الحب الأخرى، أو انعدامه المظاهر، فمثل زوج قلق من زواج غير مستقر، يصبح ملك في علاقته بملك أخر على درجة عالية من الحساسية، لأسباب حقيقية أو متخيلة، وهكذا، نجد أن بارنابورياش يشتكي من أن أخناتون لم يظهر أي قدر من المشاعر حين اعتلت صحته:

«منذ أن وصل رسول أخى إلى، كنت مريضًا، استال رسولك وسوف يؤكد لك ذلك، ومازلت في فترة النقاهة من ذلك المرض، ألم يعلم أخى بمرضى الماذا لم ترسل أحد مبعوثيك لريارتى؟» وسعى مبعوث أخناتون إلى طمئنة بورنابورياش من أن ذلك لم يكن متعمدًا، وقال له:

«بالطبع كان أخوكم يبعث برسول إليكم (للاستقسار عن مسمتكم) لو كان قد علم بمرضكم».

وأشار المبعوث إلى بعد المسافة إلي مصدر، وأردف: «من كان بإمكانه أن يخبر أخاكم على الفور بمرضكم حتى يبعث اليكم بتمنياته الطيبة؟» وأبدى بورنا بورياش دهشته من ذلك القول ورد عليه قائلاً.

«إِنْ أَهْى مَكَ عَظِيمِ الشَّالْ، هَلَ تَبِعَدُ عَلِيهِ بِلَّهِ مَا وَتَقْرِبِ إِلَيْهِ بِلَدَ أَهْرِي؟»

وأكد عليه المبعوث المصرى أنه ومبعوث بورنابورياش متأكدان من ذلك الأمر، وأن بإمكانه التحقق من صحة ذلك من مبعوثه، وهذا ما فعله بورنابورياش بالفعل قال:

دهين تحققت من رسولي وأكد لي أن مصر على مسافة بعيدة جدًا، لم يعد بي غضب:(11).

وجهل بورنابورياش الواضح بجغرافية للنطقة لا يمكن قبوله كحقيقة إلا أنه من المُحقق، أنه بعد اندثار أسرة حمورايي، كان حكام بابل نادرًا ما ينتقلون إلى ما هو أبعد من الحدود الجنوبية لملكة ما بين النهرين، وظل ذلك قائمًا -على الأقل- حتى بدأ آخر ملوك بابل القسطيين برسلون الحملات المسكرية لمهاجمة الأشوريين في شمال ما بين النهرين، ولكن لم متجاوز أي منهم أبداً إلى غرب الفرات، ولذلك كانوا- يعكس كثيرٍ من إخوانهم الملوك الذين قادوا حملات عسكرية إلى بلاد تبعد كثيرًا عن موطنهم- لابعرفون كثيرًا من المعلومات الأولية مثل سعة الشرق الأدني وترامى أطرافه، خاصة إذا أضفنا مصير إلى الشرق الأبني القديم. إلا أنهم كانوا مدركين أن المنافات التي تفصلهم عن عواصم المعالك الكبري الأخرى مسافات شاسعة، فعلى سبيل الثال كانت المسافة بين بابل وأخبتاتون حوائي 2000 كيلو متراً ، وحتى الوكان الرسول برحل بأسر م ما يمكنه في رحلة بين بلاط القرعون المصري إلى بلاط أحد الإخوة من كبار الملوك، فإن الرحلة كانت تستغرق من شهرين إلى ثلاثة أشهر، أما البعثات كبيرة العدد كاملة الهيئة، فقد كانت تستغرق وقتًا أطول كثيرًا من ذلك، خاصبة إذا كانت تصطحب معها حمولة كبيرة من الهدايا، كان بورنابورياش بدرك تمامًا المسافة التي يقطمها مجعوثوه، حتى يصلول إلى بلاط فرعون مصدر والزمن الذي قد يستفرقونه في مثل ثلك المهام. كذلك كان يدرك على نحو واضبع أن فرعون مصر أن يقبل للعظة أدعاءه بالجهل بنعد المسافة بنتهماء

فكيف يمكننا أن نفسر إذن ذلك الادعاء بعدم المعرفة؟ طبقًا لتفسير بروفيسور جونسون، كان هناك سبب تكتيكي وراء ذلك الادعاء بالجهل الذي اتضع في نهاية الرسالة، فقد كان بورنابورياش يرسل رسالة ما بين السطور. لم يكن ليشعر بالرضا تجاه فرعون مصر – كان متضايقًا من أمر فعله أو أمر فشل في فعله – وعبر عن ذلك رمزيًا بأن أرسل إليه مدايا تافهة تقل كثيرًا عما هو متوقع، في الوقت ذاته لم يكن يريد لأن يترك

انطباعًا بأنه بخيل أو غير قادر، لذلك استغل ادعاء طول المسافة ومتاعب السفر (وذلك من المعلومات التي ذكرها المبعوث المصري والتي تم مضاهاتها والقاكد من صحتها من مبعوثه)، ليبرر بها عدم إرساله هدايا قيمة وثمينة في تلك المرة (12)، ولو اتبعنا تفسير جونسون، لابد أن نفترض أنه كان لدى بورنا بورياش سبب ما لعدم إظهار السبب الحقيقي، الضيقة من فرعون مصر، بدلاً من إعلان سبب ضيقه، استخدم تلك الوسيلة والتي كان يعلم جيدًا أن فرعون مصر سيدرك مغزاها، فضلاً عن الك أظهر عدم رضاه وهو متأكد من أن هداياه قليلة القيمة ان تعزى إلى عدم كرمه أو عدم قدرته، وكل ذلك ثابت لدى الفرعون، والذي كان ولابد أن يعرف السبب الحقيقي لضيق أخيه الملك.

إلا أن ادعاء بورنابورياش الجهل بعدى المسافة التي تفصل بلاطه عن المبلط المصرى من الممكن أن يكون حقيقة لا ادعاء. كانت الروابط الأخوية نتطلب أن يواظب كل منهما على الاطمئنان على صححة أخيه الملك وسلامته، وأن يرسل إليه بعبارات الود والاهتمام بشئونه إن علم أنه مريض.

إلا أن بورنابورياش لم يجد بين رسائل الاطمئنان التى وردت إليه من المالك الأخرى بعد زيوع نبأ مرضه أية رسالة اطمئنان وتمن بالشفاء من فرعون مصدر. كان أغناتون على وجه اليقين لم تصله أنباء بمرض بورنابورياش في وقت مسرضه ليسرسل له تمنياته بالشفاء، وكان بورنابورياش هو الأخسر على يقين من ذلك. إلا أنه كان من الانسب لبورنابورياش أن يتعامل طبقًا للسبب المقيقي لإنقاذ ماء الوجه، وبقدر ما أظهر باقي الملوك اهتمامهم بمرض بورنابورياش، أظهر فرعون مصد لامبالاته، وكانوا سيبقون على تلك القناعة لو لم ينكر الفرعون تلك التهمة بنقسه، أو على الأقل عن طريق مفوضيه ومبعوثيه.

لقد لعب بورنابورياش تلك اللعبة الدبلوماسية، فقد راح يظهر غضبه من لامبالاة فرعون مصر بمرضه، وحرص على أن يظهر ذلك لمبعوثي الفرعون، وأصدر على أن يقدموا له تفسيراً لذلك، وعلى اعتذار لائق عن لامبالاة سيدهم بنبأ مرضه.

وقام مبعوش الفرعون بما هو متوقع ومنتظر منهم. راح مبعوش فرعون مصر يؤكدون لبورنابورياش أن عدم وصول رسالة اطمئنان على صحته من فرعون مصر لا يعنى أنه لا بيالى به، بل إن ذلك بسبب طول المسافة التي تفصل بين الملكتين، مما يحول دون وصول نبأ مرضه افرعون مصر، حتى يقوم بما يجب ويرسل تمنياته بالشفاء. وهكذا، حصل منهم بورنابورياش على التصريح الذي يريده، وسأل مبعوثيه التأكد من مدى بعد المسافة بين بابل ومصر. كان الادعاء الشديد بالجهل بجغرافية المنطقة ليس إلا وسيلة بلاغية استعملها للتأكيد على الإجابة التي زوده بها مبعوش أشيه الملك، في وقت الفرعون، وهي استحالة أن يعلم الفرعون بمرش أشيه الملك، في وقت يسمح له بإرسال تمنياته له بالشفاء، ويعلن له فيها اهتمامه بصحته وأحواله.

لقد كان يهم بورنابورياش إلى حد بعيد أن يسمع كل الموجودين ببلاطه أسباب عدم وصول رسالة من فرعون مصر للاطمئنان على صحته، وأن يبعد عن الأذهان أى مفهوم بأن اهتمام فرعون مصر به قد قل عن ذى قبل.

وهناك احتمال أخر يفسد إدعاء بورنابورياش الجهل بالمسافة الشاسعة التي تفصل بين بلاده ومصد. فمما لاشك فيه أن كل المبعوثين الأجانب إلى مصد كانوا يتمرضون ادعاية مكثفة وهم بمصد عن قدرة الإمبراطورية المصرية واتساع مساحته، وأنها أعظم إمبراطورية ظهرت حتى ذلك الوقت، وأنه لا يوجد مكان بالعالم يبعد عن متناول ملوكها العظماء، وأنه لا شيء يحدث في العالم إلا ويعرف به فرعونها، وأن ملك بمثل تلك القوة لا تمثل المسافات عانقًا أمامه. كل تلك المعلومات كانت تغرس في عقول كل المبعوثين الأجانب ادى مصر. وبالرغم من ذلك، ها هو المعرى ادى بابل يعتذر ببعد المسافة عن إحجام ملكهم عن البعوث المصرى الدى بابل يعتذر ببعد المسافة عن إحجام ملكهم عن

إرسال رسالة تمن بالشفاء لأخيه ملك بابل. وسرعان ما أمسك بورنابورياش بتالبيب ذلك العذر، وربما كان ذلك العذر هو السبب في تساؤله: «هل يوجد مكان بعيد عن أخى الملك العظيم ومكان أخر قريب؟» إلا أن مرماء غاب عن إدراك المبعوث المصرى الذي أخذ التساؤل بحرفيت على محمل الجد، ثم أخذ بورنابورياش بنصيحة المبعوث المصرى، وتأكد من صحة المعلومة من مبعوثيه.

كانت كل تلك التساؤلات جانبًا من الخطة التي برأسه. إلا أن المفهوم المعقبقي لتساؤله لم يكن ليخفي على الفرعون. فالملوك العظماء لم يكونوا ليترددوا من النيل من إخوتهم الملوك الأخرين، حين تواتيهم الفرصة الملائمة، وسوف نعرض مزيدًا من الأمثلة عن ذلك.

حق استعبال مصطلع «أخ ملكس»

لعب استخدام مصطلحات القرابة العائلية في الرسائل المتبادلة بين الملوك دُوراً كبيراً، كان لمفهوم العائلة التي تقدم ملكين كبيرين كأخوين يستخدم أيضًا بين أصحاب المراكز العليا المتماثلة في مملكتين. كذلك خاطب ابن رمسيس الثاني الأمير سوتاحابساب الملك حاتوسيلي بـ «أبي» كذلك وجّه رمسيس الثاني الفطاب للأمير العثيني تاشمي - شروما به ابيني»، كذلك استخدم رمسيس الثاني والملكة بودوحيبا زوجة حاتوسيلي في مخاطبتهما لبعضهما في نصوص الرسائل صفتي «أخني» و«أخي» كذلك ضاطبت زوجة رمسيس الثاني الملكة نفرتاري (نانتبرا) الملكة بودوحيبا بلقب «أختي». وأضافت روابط الزواج أبعاداً أخرى للعلاقات بين بودوحيبا بلقب «أختي». وأضافت روابط الزواج أبعاداً أخرى للعلاقات بين في رسائله بـ «أخي» أحيانًا و«ابني»، مما يشي بدلالة واضحة از ابنته في رسائله بـ «أخي» أحيانًا و«ابني»، مما يشي بدلالة واضحة از ابنته نادوحيبا قد انتقلت إلى حريم أخناتون بعد موت أمونحوتيب الثالث.

إلا أن حق توجيه الخطاب إلي ملك كبير بصفته أخ أو إلى أعضاء أسرته بصفتهم أخت أو ابن أو ابنه لم يك مباحًا بلا ضوابط. وهذا يظهر قبل أى شيء. أن من يخول له هذا الحق لابد أن يكون قد حقق لنفسه أولا وضع وصفة «ملك عظيم»، فالإخوة كصفة كانت لابد لتحققها المجازي أن تكون بين طرفين متكافئين. وهكذا، نجد أن الأشوريين حين انجهوا بكل توبهم لملء فراغ القوة، الذي نشأ شرق الفرات بعد انهيار المملكة الميتانية. سعى ملكهم أشور - أوياليت إلي تحقيق وضع كبار اللاعبين السياسيين في المشهد السياسي الدولي، فقرر أن يبادر هو بالكتابة إلى الملك أخناتون وشعم رسالته بهدايا ثبينة إليه:

هكذا يتحدث أشور- أو باليت ملك أشور إلى مصر:

«بالرغم من أنه لم يسبق لأحد من أسلاقي الكتابة إلى ملك مصر، ها أنذا أكتب إليك اليهم، وأرسل إليك رسولي، لزيارتك وزيارة بلدك، وأبعث إليك أيضًا، كهدية، عربة رائعة، وجوادين، وشجرة نخيل من اللازورد اللقيء،(13) ويبدو من لهجة الرسالة، ومحتواها ومصطلحاتها التي تشي بالتواضع كأول محاولة مترددة للتواصل بين أشور – أوباليت وفرعون مصر، كتمهيد لمحاولة إرساء وتأسيس روابط دبلوماسية ودية مع فرعون مصر، وكما يذكر دكتور كوهرت، فإن أشور – أو باليت أرسل هداياه دون أن يطلب مقابلها هدايا أو أية مطالب معينة، على عكس ما كان متبعًا (14).

لم يطلب إلا طلبًا واحدًا من فرعون مصدر، وهو ألا يعوق رسوله ولا يحتجزه في مصر، قال:

«اسمع له أن ينتهى من زيارته، ويرجع إلى بلامنا»، ودون أى شك كان أشور— أو باليت يدرك بوضوح أن رسل كبار الملوك عرضة التأخر الأوقات متباينة، قبل أن يحصلوا على الموافقة المثول بين يدى الملك المضيف، أو من الممكن أن يعوقوا حتى بعد المثول بين يدى المضيف الأوقات متباينة، حتى يحصلوا على إذن للملك المضيف لهم بالمفادرة، ويإدراكه لذلك، لم يطلب الملك الأشورى من أخناتون إلا سرعة السماح لمثله بالعودة إلى يطلب الملك الأسورى من أخناتون إلا سرعة السماح لمثله بالعودة إلى بلاده، كان الهدف الأساسى من تلك المهمة هى اكتشاف أو معرفة إن كان

الفرعون سيقبل إقامة علاقات وبية معه أم لا. وكان تواقًا لمعرفة كيفية استقبال البلاط والفرعون المصرى له. في أول رسالة وبية، كان أشور – أو باليت يظهر تواضعه المتعمد. لم ينعت نفسه في تلك الرسالة بصفة هملك عظيم، كما لم يوجه الخطاب إلى أخناتون بصفته أخيه. كما لم يطلب هدايا مقابل هداياه التي بعث بها رسوله إلا أنه من الواضح أنه تلقى ربودًا إيجابية على مبادرته، ففي رسالة منه إلى أحد خلفاء أخناتون، وتحتمل أنها كانت مرسلة إما إلى توت عنغ أمون أو إلى أي، كتب نص رسالته كما يكتبها أحد أكابر الملوك إلى ند له، أو أخ ملكي إلى أخيه الملك(15).

ويتسق مع طبيعة تك المراسلات في عديد منها شكواه من تفاهة الهدايا المرسلة إليه من الفرعون، ويذكر في تك الشكوي:

«يمكن لأى امرئ في بلنكم أن ياتقط الذهب كما يلتقط التراب، وتحصلون عليه بكل سهولة».

«لماذا تشع في وهبة؟ أنا أشيد الآن قصراً جديدًا، أرسل إلى بقدر ما تستطيع من ذهب حتى يصبح القصر لانقًا». (16)

وراح يذكره بالماضى، وبالهدايا التى أرسلها أبوه الفرعون إلى ملك هانيجاليت (ما تبقى من المملكة الميتانية) مؤكداً أنه أصبح الآن في مرتبة لا تقل عن مرتبت (17).

ويعلق البروفيسور أرتزى أن استقبال الفرعون للوفد الأشورى يعد نقطة تصول في السياسة الخارجية المصرية، فذلك الحدث يماثل بداية تبادل التمثيل الدبلوماسي بين دولتين في حياتنا الماصرة، كان ذلك يعنى اعتبراف مصدر بأن أشسور أصبحت على درجة مساوية للمملكة المصرية(18).

ولا نحتاج إلى ذكر أن الملك البابلى بورنابورياش كان يراقب المبادرات الدبلوماسية الأشورية بانزعاج شديد، وكرد فعل للأتباء التى وصلته عن استحرار الاتصالات الآشورية المسرية، كتب رسالة مليئة بالغضب والسخط إلى فرعون مصر في ذلك الوقت، ويحتمل أنه كان توت عنخ أمون، قال في رسالته:

«الاشوريون من رعباياي، إلا أننى لم أرسلهم إليك، لماذا بهتمون بالصغور إلى بلدكم؟ إن كنت تحيني، دعهم ينهون عملهم عندك، ثم أرسلهم إلى وأيديهم فارغة».(19)

كان بورنابورياش يلوى المقائق بوقاحة، بل وصل فى ذلك إلى مرحلة خلق مشكله بادعائه أن الأشوريين من رعاياه، ويمكن تفهم أسباب انزعاجه المتزايد من جيرانه الشماليين، الذين راحوا ينمون بسرعة، حتى اكتسبوا وحققوا من القوة ما خول لهم اعتبارهم من القوى العظمى، فى المنطقة التي كان يحكمها من قبلهم الميتانيين. كانت المسألة مجرد وقت حتى تشكل المملكة الأشورية تهديداً خطيراً على مملكة بابل، خاصة بعدما حتى تشكل الاعتراف به على المسرح الدولى كملك عظيم من كبار الملوك.

إلا أن إحراز مرتبة ملك عظيم من كبار الملوك لم تكن تعطى صاحبها الحق بطريقة آليه بمخاطبة أحد كبار الملوك بصفة «أشي»، كما لم يكن توفر ذلك الحق في مخاطبة أحد كبار الملوك بصفة أخى، يتيح للملك المعنى بصورة آليه مخاطبة باقى كبار الملوك الأخرين بصفتهم إخوته. وأوضح أورهى - تيشوب ذلك بكل جلاء. أثناء شغلة لوقت قصير للعرش الحثينى للملك الأشورى عدد - نيرارى الأول. كان عدد - نيرارى قد جعل من المملكة الأشوري قدوى قوة في شرق الفرات حين اكمل احتلاله لا هانيجالبت (20)، آخر ما تبقى من المملكة الميتانية وضمها لملكته وأصبحت جزءًا منها. وأدى ذلك إلى إفساد كلى لعلاقته بالحثينيين، فقد الحثينيين، فقد الحثينيين. وسعى عدد - نيرارى إلى طمأنة أوردى - تيشوب، وعن رغبته للحثينيين. وسعى عدد - نيرارى إلى طمأنة أوردى - تيشوب، وعن رغبته في إقامة علاقات سلمية مع الحثينيين، وبسبب تطلعه إلى ذلك ورغبته في إقامة علاقات سلمية مع الحثينيين، وبسبب تطلعه إلى ذلك ورغبته الشديدة فيه ارتكب خطآ بخطابه الملك الحثيني بصفة آخى، وترتب على الشديدة فيه ارتكب خطآ بخطابه الملك الحثيني بصفة آخى، وترتب على ذلك تلقيه رسالة توبيخ شديدة اللهجة من أوردى - تيشوب، قال فيها.

«لماذا مازات مستمراً في ذكر الإخوة، وما هي الأسياب التي تجعلني الكتب إليك بصفة الإخوة". هل يكتب الذين لا تجمعهم علاقات طيبة إلى بعضهم بلقب الإخوة" وما هي الأسس التي تجعلني أكتب إليك بصفة الإخوة" هل ولدتنا أم واحدة" لم يكتب جدى ولا أبي لملك أشور بصفة الإخوة، بوصفك من كبار الملوك. لا أرغب في نلك (21).

لقد قبل أورحي- تيشوب على مضض الإنجازات العسكرية الآشورية والتي جعلت ملكها يحقق صفة ملك عظيم، إلا أن تلك الإنجازات في رأيه لا تخول له أن يضاطبه بلقب «أخي»، والذي يعني ويتضمن وجود روابط شخصية حميمة بين بيتين ملكيين، والتي كانت تدعم في أغلب الأحيان بزيجات ومصاهرات ملكية بين البيتين، وتنعكس على التبادل المستمر للمبعوثين والرسل وتبادل المهدايا وتوثيق عرى الصداقة والتعاون (22). كان أورحي- تيشوب قد عاني بعض الهوان بعد أن انتزع الملك الأشوري أخر ما تبقي من المملكة الميتانية، والتي كانت خاضعة لنفوذ الحثينين قبل ذلك في شرق الفرات.

إلا أن عدد - نيرارى، ظن بتهور متعجل من جانبه، أن ثلك الانتصارات العسكرية تعطيه الحق الفورى في اكتساب صفة الإخوة الملكية، مع الملك الذى كانت تلك الانتصارات العسكرية تقتطع من نفوذه، ويبدو أن العاهل الأشورى داوم علي محاولاته وسعيه لتشييس روابط وعلاقات أفضل مع الحثينيين خلال فترة حكمه، إلا أنه لم يحرز أي نجاح في ذلك، استرشاداً بتعليق ورد في رسالة كتبها حاتوسيلي عم أورحى - تيشوب، إلى عدد نيرارى، في تلك الرسالة، أشار إلى المعاملة السيئة التي كان يلقاها ممثلو عدد نيرارى ومبعوثره في بلاط أورحى. تيشوب.

إن السفراء الذين كنت تداوم على إرسالهم إلى بلاط أوهى تيشوب كان يقابلون بغضب مهين (23).

أما حاتوسيلى ذاته، حين اعتلى العرش الحثينى بعد ابن اخيه فلم يتردد في اعتبار عدد- نيرارى ندًا له وملكًا من كبار الملوك. كان بالطبع

يستمي إلى تملق كبار اللوك الأجانب وكسب ودهم، خاصة في ضوء الظروف والوسائل الشبوهة التي ارتقى عن طريقها عرش الحثيثيين، ومن أجل أن يحظى باعترافهم، بكونه ملكًا شرعيًا على العرش الحثيني، ولابد أن نتوقع أن الملك الأشوري قد رجب كل الترجيب باعتلاء حاتوسيلي المرش المثنثي، فقد كانت فرصة سائحة اتأسيس علاقات أفضل مع المثينيين بعد العداوة التي أظهرها سلفه ضد الأشوريين. ولكن ما حدث أن عدد- نبراري امتنع عن الاعتراف والتودد إلى مرتقى العرش المثنني الجديد، كان من الواضع غياب أي ممثل للأشوريين عند تتويج حاتوسيلي، لم يبعث عدد – نيراري بأي رمز أو إشارة أو حركة تدل على اعترافه بالملك المثيني الجديد. وكتب إليه حاتوسيلي رسالة تشي ببعض الانزعاج: «هين حصات على الملك، لم تبعث رصولاً إلى، حين يعتلي ملك جديد عرش بالإده، يقوم الملوك المساوون له في المنزلة بإرسال هدايا تذكارية لتلك المناسبة، ومساديس تليق بالمنزلة الملكيسة، وزيوت عطرية التطيب. إلا أنك لم تفعل ذلك (24) كانت الملكة الأشورية بالفعل أخر الممالك الكبرى التي اعترفت بالنظام الجديد في هاترسا، وينكرنا ذلك بالتوبيخ الذي وجهه رمسيس إلى حاتوسيلي: «أنت أست إلا بنيلاً للك عظيم»(25).

من الواضع أن استخدام صعفة «ملك عظيم» وصعفة أخى في توجيه الخطاب لملك عظيم آخر كان من الامتيازات العظمى، وكان المخواون بذلك التعيز يرفضون أن يهبوه لمن لا يستحقونه. وذلك يفسر اعتراض أورهى تيشوب الشديد أن يوجه له الملك الأشوري عدد نيراري حديث العهد في نادى كبار الملوك الحديث بصفة أخي، والتوبيخ الواضح والانتقاد من رمسيس لحاتوسيلي لمعاملته لحاكم بابل بصفته من كبار الملوك، كان فشل عاهل في الحصول على أو المحافظة على صفة ملك عظيم. والإخوة الملكية تعني حرمانه من الفوائد المادية والسياسية التي تترتب على العلاقات الدبلوماسية الودية، بما فيها المصاهرات الاستراتيجية والتحالفات الدبلوماسية، والتحاون في فرض النظام والأمن على البلاد الخاضعة،

والحصول من خلال تبادل الهدايا على منتجات بلاد أخيه الملك .

فضلاً عن ذلك، كان الاعتراف الدولي بشاغل عرش كـ «ملك عظيم» وتوجيه باقي كبار الملوك الخطاب له بصفة «أخ» يدعم ترسيخ شرعية ذلك ، ملك بين رعيته داخل بلاده.

أحبانًا ما كان ملك صنفير يوجه الخطاب إلى أحد ملوك النخية الكيار بصفة «أخي»، دون أن يعتبر الملك العظيم أنها إهانة أو نوع من التجاوز، لهذا نجد أن ملك مملكة الاسبياء والذي كانت مملكته تقم بجزيرة قبرص دأب على توجيه الخطاب إلى أخناتون بصفة «أخي» في كل رسائله التي أرسلها إلى أخناتون (26)، وبيدو أن مملكة الاسيا بصفة خاصة كانت تتمتم بملاقات شبيدة التمين مع مصر خلال فنرة تل العمارنة، كما اتسمت العلاقة بين الدولتين بتيادلات تجارية منتعشة. ومن بين السلم ذات الأهمية الغامنة التي كانت قبرص ترسلها إلى مصر مادة النماس(27) في مقابل الفضة الممرية(28) كهدايا متيادلة بين الجانبين. كانت مملكة آلاسيا تتمتم بروابط تجارية قوية مم ممالك أخرى بطبيعة المال، إلا أن أيًّا من علاقاتها التجارية الأخرى لم ترقُّ إلى المستوى الذي كانت عليه العلاقات التجارية بن مصر وقيرص، وربما كانت هناك ظروف خاصة، منها روابط الدم بين البيتين الملكيين في كل من الاسبيا ومصس، وهي الروابط التي خوات لملك الاسبا أن يوجه الخطاب لملك منصر بطريقة ويصنفات مخصصة بكل تشدد لأنداده من كبار اللوك وحدهم، لذلك لم يكن بإمكان ملك الاسبيا أن يوجه الغطاب إلى أحد كبار الملوك الأخرين بصفة «أخى»، فلم يميل إلى الدرجة ولا حقق الامتيازات التي تعطيه ذلك الحق، وسنعرض في موضع أخر رسالة شهيرة من حاثوسيلي الثالث كتبها إلى ملك أحياوا، وهي مملكة حيثينية إغريقية، وجه له فيها الخطاب بصفة «أخي»، ويصفة فيها أنه من عظماء الملوك وكبارهم. (الفصل 12). ولكنه بقدر ما نعلم لم يفعل ذلك إلا مرة واحدة كوسيلة الوقف نفعي بحت، فلم يكن ملكا آلاسيا وأحياوا قد اعتبرا في يوم ما من مجموعة ملوك النخبة القليلة، الذين تقاسموا السيطرة علي مصائر عالم الشرق الأدنى القديم.

هل التقم كبار الملوك أبدًا؟

على مستوى شخصي بحت، ما الذي كان يتصوره كل ملك من أولئك الملوك الكبار عن أمثاله من كبار الملوك؟ لا نحتاج بالطبع إلى التأكيد على أن سبل وفيض عبارات الحب والإخلاص لم تزد أبدًا عن كونها عبارات يبلوماسية بحيّة. كانت أجيانًا تشفي ورامها مشاعر بفينة من العداء المتبادل، والشكرك وعدم الثقة، وكما لاحظناء كانوا سريعي الإهساس بالهانة لأسبط الأسباب الحقيقية أو المتخيلة من أندادهم، حتى إنهم لم يكونوا ليترددوا الحظة في معاقبة أو حجز رسل إخوانهم الملوك، للتعبير عن عدم رضاهم عن سلوك فعله أو أمر أخفق أو تواني عن فعله، وكان تقديرهم وحبهم لبعضهم بعضاً يقاس إلى حد كبير بنوعية وكمية الهدايا المرسلة والمتلقاة. ولا يدعو ذلك للدهشة في عالم العصير البرونزي المتأخر، حين كانت الروابط بين كبار الملوك تتأسس على أسباب شخصية ومناقع سياسية (ويمندق ذلك على كل التصالفات الدولية في جميم مراحل التاريخ). لم تكن الشراكة التي تجمعهم ترجم إلى نظرة شاملة ومفاهيم عميقة، للسمى إلى تعقيق عالم متمد في سنائم وتناسق وتناغم، ولا برغيتهم في تحقيق استقرار دائم وانتعاش للشعوب والدول والمجتمعات الخاضعة لهيمنتهم ونفوذهم، بل تعود إلى حد كبير إلى اهتماماتهم الشخصية. لم تجمع أبدًا أية مناسبة أولتك الملوك ولم يلتقوا أبدًا، لمناقشة أي أصر يخصنهم منعًا أو يؤثّر علينهم، تعامل كل منهم مع كباراللوك الأخرين على أسباس فردى من ملك الله ومن خلال المبحوثين المفوضين والنواب، وكان كل منهم على اضطلاع مستمنر من خلال مجعوثيه أو المنعوثين الأجانب بمواقف الملك الآذر مع بناقي الأطراف، بل دقي لم يغفلوا المعلومات التفصيلية الاقيقة عن طريقة استقبال الملك الآخر لمندوبيهم ورسلهم والهدايا التي تلقاها والتي بعث بها لملوك أخرين،

ومما لاشك فيه أيضنًا، أن مبعوثي أي ملك بعد عودتهم من مهمة لدي بلاط ملك أجنبي لم يكونوا ليسجلوا في تقاريرهم النتائج الرسمية للزيارة فقط، بل كانوا يزودون ملوكهم بمعلومات وفيرة، عن جوانب أخرى كثيرة غيرالجوانب الرسمية الزيارة، وتشمل تلك الجوانب بالارجة الأولى انطباعاتهم الشخصية عن نوعية الملك الأجنبي ونقاط ضعفه ومزاجه الشخصي. كانت تلك الانطباعات عن شخصية الملك الآخر تستخدم في وضع مخططات ووسائل وسبل التعاملات القادمة معه، وكذلك تحديد أنواع الهدايا التي يمكن أن تبهجه، ونقاط ضعفه وكيفية استغلالها. ومما لا شك فيه أيضًا أنه لم يكن بدافع الفضول الشخصي. كان كل ملك عظيم يهتم بمعرفة شخصية الملك الآخر كإنسان وماذا يشبه؟ ولا توجد أية مناسبة نعرفها التقي فيها أولئك الملوك وجهًا لوجه، بل ولا واحد منهم مع أخر، ويدعو ذلك إلى الدهشة، على ضوء تأكيداتهم الستمرة في رسائلهم على أهمية تقوية الروابط التي تجمعهم، حتى لو سلمنا أن الحب والتقدير الذي يكتونه ليعضهم اليعض لم يكن إلا من قبيل الدواعي الدبلوماسية، إلا أننا ننحى ذلك جِانبًا في هذه اللحظة، لنؤكد أنه كان يمكن تحقيق إنجازات كثيرة، أو كان قد حدث والتقي ملكان عظيمان، خاصة أو وضعنا في الاعتبار أن المفاوضيات التي كانت تتم بين ممثليهما نيابة عنهما كانت تمتد أحيانًا ليضعة أعوام، مع استهلاك أغلب ذلك الوقت في الذهاب والعبودة بين البلاطين الملكيين المعنيين. فيهل بذلت أية جنهبود سبابقية لاختصار الوقت والمجهود لتدبير لقاء مباشر بين أية ملكين بنفسهما؟ بينما لم نترصل إلى أية معلومات عن أية محاولات أو مساع لترتيب ما يماثل لقاءات القمة، إلا أن هناك مناسبتين أو حيثين مسجلين، ترتفع فيهما نسبة توقع أن يكون أحد كبار الملوك قد قام بزيارة احتفائية إلى بلاط أخ ملكي، ففي رسالة إلى آمونحتيب الثالث، يشتكي ملك بابل كاداشمان إنليل الأول أن الفرعون لم يقم بدعوته لحضور مهرجان احتفالي يقام بمصر.

دمين أقمتم الاستغال الكبير، لم ترسل رسواك إلى قائلاً: احضر، لتأكل وتشرب»(29) .

وسلط كاداشمان- إنليل الضوء علي عدم كياسة الفرعون بتجاهله دعوته للحضور، وبادر هو بدعوة الفرعون المساحبته في المتناح قصر جديد في بابل

«ساتوم بافتتاح احتفالي بالقصر، احضر بنفسك لتأكل وتشرب معي، ان أفعل مثك: (30)

ولايد أن نأذذ شكوى كاداشمان- إنليل بحرفيتها المرة واللاذعة. ولا يوجد أي احتمال ضئيل أن يكون قد قبل في أي وقت دعوة لزيارة مصر. حتى لو ظن (ادعاءً مثل خلفه بورنابورياش) أن مصر قريبة جدًا من بابل؛ كما لم يتوقع جيبًا أن يلبي الفرعون دعوته. كانت هناك أسباب قوية (سنعود إليها) لامتناع أي من كيار الملوك عن زيارة ملك أخر من أنداده. حين كانت احتفالات هامة تقام في مملكة واحد من كبار الملوك، كان من العادة إرسال دعوات إلى كبار الملوك الآخرين لحضور غلك الاحتفالات، إلا أنها كانت دعوات شكلية دون أي توقع بالاستجابة لها. ومما لاشك فيه أن المعوين كانوا يرسلون وقوياً برئاسة كيار رجالهم؛ لتمثيلهم في تلك الاحتفالات، مثلما حدث في العفلة الكبرى التي أقامها أخناتون للاحتفاء بالعام الثاني عشر من ارتقائه العرش، وحضور ذلك الاحتقال ممثلو الملك المثيني، ووفود من النوبة، ولبييا، ودول أخرى، لذلك لم يكن كاداشمان-أثليل جادًا في شكواه لأموتحتيب الثالث، حين لم يدعه لحضور الاحتفال الكبير، إذ لم يكن يرى بجدية أنها فرمنة ضاعت لزيارة مصر وبلاد النيل، ما كان يعنيه فعلاً إهمال أغيه اللك للقواعد المرعية، وتجاهل دعوته، خاصة إذا كأن كبار الملوك الأخرين قد تلقوا دعاوى لحضور ذلك الاحتفال.

من جهة أخرى، نجد دعوة وجهها رمسيس الثانى إلى الملك الحثينى حاترسيلي الثالث، ووجهها بجدية وعن نية حقيقية. كانت المناسبة التي اختارها مناسبة تتطلب احتفاءً واحتفالاً ثنائيًا من الطرفين معاً. كانت المعاهدة الشهيرة بين الإمبراطوريتين قد أبرمت بالكاد، وكان كل منهما قد أرسل إلى الآخر نسخته الموقعة على لوح من الفضة. وكانت تلك المناسبة من المناسبات التي يجب الاحتفاء بها بشكل خاص، لذلك وجّه رمسيس دعوته إليه. ولا نعرف كيفية استجابة حاتوسيلي ذاته للدعوة، ولكن لو حكمنا من نص رسالة تالية من رمسيس نعرف أنه قبل الدعوة مبدئيًا، وهذا ما كتب به رمسيس إليه، ناسخاً فقرة من رسالة حاتوسيلي إليه:

كتب إلى أخى كما يلى: «أخوك الملك سيحضر إليك، أخوك الملك سيلبى دعوتك ازيارته، أخوك الملك سيلبى دعوتك ازيارته، أخوك سيحضر إليك في بلدك، حتى يظهر فى حضرة أخيه (31) وفى المقيقة، كان قبول حاتوسيلى للدعوة قد أخذ بجدية أكثر من حقيقة نبته، وأخذ الفرعون قبوله للدعوة بقدر أكبر من حقيقته. وردًا على رسالة حاتوسيلى كرر رمسيس الدعوة، معبرًا عن خالص أمنه وعميق رغبته فى تحقيقها:

«سيحقق إنه الشعس وإنه العراصف والهتى والهتك رؤية أخى الأخيه، فليات أخى إلى أخيه وأتمنى أن يحقق هذه الدعوة لزيارتى، وأن يات أحينا للأخر ويظهر في حضور الآخر في القصر الذي يوجد فيه عرش الملك،».

ولزيد من إقناع حاتوسيلى، أو ربما كرد فعل للشكوك التي أبداها حاتوسيلى، عرض رمسيس أن يلثقي بجلالة أخيه في خارج مصر أثناء رحلته إلى كنعان التي كانت خاضعة للنفوذ المصرى.

دساقيم أنا الملك العظيم، ملك مصر إلى بلاد كينا حى (أى بلاد كنعان حيث كان لرمسيس بها قبصر ملكى) لأرى الملك العظيم، ملك بلاد الحثينيين، أخى، وأظهر في حضور أخى، وأستقبله في بلادى، ورصل الإعداد الزيارة مراحل متقدمة إلى المرحلة التي أرسل فيها رمسيس كبار رجال الدولة لاستقبال حاتوسيلي في بلاد أوبي (32)، وهي المنطقة المحيطة بدمشق، وكانت فيما سبق خاضعة النفوذ الحثيني، إلا أنها كانت

في ذلك الوقت تحت الهيمنة المصرية بعد اتفاق السلام. ومما لاشك فيه أن لجنة الاستقبال المصرية الرسمية كانت قد كلفت بمرافقة حاتوسيلي حتى مكان المقابلة بقصر رمسيس في أرض كنعان، ثم يصحبه رمسيس بنفسه إلى عاصمته الجديدة التي أطلق عليها بي— راميس في دلتا مصر. فضلاً على ذلك، كان رمسيس قد ذكره في هذا الصدد بتحقير ملك آشور له ورفضه إياه، وبعته بئته مجرد بديل لملك عظيم، وكان ذلك التذكير بالإهانة لا مبرر ولا مسوغ له ولم يكن ذلك موضعه. إلا أنه يبدو أن رمسيس لجأ إلى ذلك الأسلوب لمزيد من الإقناع والفسغط على الملك المتمنع عن زيارة المصر. وكما لاحظنا، كان حاتوسيلي يتطلع بشغف إلى قبول أحد كبار الملوك له واعتراف به وبحقه في الجلوس على عرش الحثينيين، وكان الملك الأشوري قد رفض الاعتراف له بذلك الحق. كانت زيارته لمصر تلبية لدعوة فرعونها يعد أقوى اعتراف أله بذلك الحق. كانت زيارته لمصر تلبية لدعوة فرعونها يعد أقوى اعتراف الأشوري.

وكان ذلك أخر ما عرف عن تلك الدعوة لزيارة الفرعون. ويبدو بشكل يقرب من اليقين أنها لم تتم، إذ يبدو أن أحد علل حاتوسيلي قد اشتدت عليه، مما حدا به إلى تأجيل الزيارة أو إلغائها كليًا.

ونعرف عن حاترسيلى أنه كان يعانى من حالة مرضية مزمنه، تسبب له حرقان شديدًا بالقدم أو «نار القدم»، كما ذكرت في صلوات قرينته بودوحيبا، وقد وصل ذلك الأمر إلى معرفة فرعون مصر، ربما في سياق العذر الذي ساقة حاتوسيلى لعدم قيامه بالزيارة المتفق عليها (33) وأرسل رمسيس إليه بدهانات طبية لملاج تلك العلة (انظر الفصل7)، ولكن باستثناء الحالة الصحية لحاتوسيلى، والمشاكل الكثيرة الضاغطة عليه في كل البلاد الخاضعة لنفوذه، خاصة في منطقة غرب الأناضول، قد أديا به إلى إعادة النظر في تلك الزيارة لمسر. كانت مثل تلك الزيارة تبقيه بعيداً عن مملكته لثلاثة أشهر أو أزيد، وهو غياب لا يقدر عليه، خاصة إذا كانت عن مملكته لثلاثة أشهر أو أزيد، وهو غياب لا يقدر عليه، خاصة إذا كانت لديه مخاوف من وقوع تعردات وثورات من الشعوب الخاضعة له أو من

المالك المجاورة له.

ولكن لنفترض للحظة أن حاتوسيلي قد قام بالفعل بزيارة مصر، كان التناقض البدئي بين الملكين سيبدو مدهشًا ولافتًا للانتباء، ففي الوقت الذي توصلت فيه الإمبراطوريتان إلى اتفاق السلام، كان حاتوسيلي في أواخر الخمسينيات من عمره أو بدايات الستينيات، وكان سيندو أكبر كثيرًا في العمر، خاصة مع الأمراض الكثيرة التي كانت تعتريه. كان رمسيس أمنغر منه بحوالي عشرة أعوام، وكان مازال يحظى بهيئة وشكل مؤثرين، وشعر أسود مائل للحمرة وقوام متميز، وكان وجيهًا ويهيًّا. ويطول بلغ 1,70 مقرأً . كان بيدو أطول من كل معاصريه، وكان سبيدو كذلك بالنسبة لأخيه الملك الحثيني إن كان قد حقق الزيارة. كان هيئة وشكل الملك الحثيني يصب في صالح الملك رمسيس، أو كانا قد التقيا، ليس فقط في عبون رعاماه المصريان، بل أنضيًا في عدون البعوثان من البلاد الأشري المدعوين للمشاركة في الاحتفالات والمراسم في أثناء زيارة الملك الجثيثي لمسرء وكانت بوبوجيبا تهتم بتلك الاعتبارات، ومن المحتمل جدًا أنها استخدمت تأثيرها ونفوذها لإثنائه عِن إتمام تلك الزيارة. ولكن في كل الأحسال، لا يصتمل أبدا أن صانوسيلي فكر جديًّا في القيام بالزيارة، الأقرب للاحتمال في قيام رمسيس بالإعداد الفعلي للزيارة، أنه ذهب بعيداً في افتراضاته، نتيجة ما يفترض أنه قبول مهذب من حاترسيلي، لم يصل إلى حد تنفيذ الدعوة الأولية التي تلقاها.

كان هناك اعتبار أخر فيه فصل الغطاب في تنصية أية نية لدى حاتوسيلي للذهاب إلى مصر. وكان ذلك الاعتبار خاصًا بكيفية إظهار رمسيس لتلك الزيارة، في حال تحققها لرعاياه ولأنداده الأخرين من كبار الملوك.

لذلك نؤكد مرة ثانية أنه لم يكن من عادات كبار الملوك أن يقوموا بزيارة أحد رفاقهم من كبار الملوك في مقار عروشهم. فذلك ما كان يفعله الملوك التابعون ودافعو الجزية من صغار الملوك. وذلك هو السبب الذي جعل كبار الملوك يقومون بالتفاوض مع أندادهم من كبار الملوك من خلال البعثات الدبلوماسية، وسنرى أن رمسيس، بعد ذلك بعدة أعوام، لم يتردد في إظهار وصول عروسه الصنينية إلي مصر على أنه نوع من الجزية والترضية وكسب الود من الملك الحثيني (انظر القصل 6)، أما أن يأتي الملك الحثيني نفسه إلي البلاط المصرى، فإن ذلك قمة الدعاية التي لا نظير لها المسيس.

لا تذكر الحرب

بالرغم من الرغبة المشتركة بين كل من حاتوسيلي ورمسيس في إرساء أسس من التواصل الديلوماسي الودي، والتفاوض لوضع معاهدة سالم، إلا أن التوتر ظل سائداً بينهما. كانت مشكلة أورحى - تيشوب بكل تأكيد أهم وأكبر الأسباب لدوام ذلك التوتر، وكان الفشل في نسبان أشباح أحداث موقعة قادش سببًا آخر في استمرار التوتر. كان من الستحيل على أي زائر أو مبعوث من البلاط الحثيني إلى مصدر إلا ويكون سببًا في تذكر صبراع معركة قادش، أو رؤية النسخة التي يرويها رمسيس عن تلك المركة، التي عمد رمسيس إلى تصويرها، وتسجيلها كتابة على جدران خمسة معابد من أكبر المعابد الممرية. ومما لاشك فيه أن رمسيس كان يتعمد ويقصد أن يكون المبعوثون الحثينيون قد رأوا تسجيلاته ورؤيته التي سجلها عن معركة قادش، ويحتمل أنه كان يحقق ذلك من خلال إعداد رُيارات للضيوف لتلك المعابد، ما ضبايق جاتوسيلي هو ادعاء إخوة الملك أنه انتصبر في تلك المركة، بل وبيد واحدة، وتصبوبره للخصبوم وهم يخطبهون له، وظل رمسيس مصراً على أنه انتصر على المك المثيني العظيم، أو الحدِّينيين الفاشلين، كما أطلق عليهم. وكان حاتوسيلي على علم يقيني بحقيقة ما حدث في تلك المعركة. كان خصم رمسيس الرئيس في تلك المعركة ميواتاللي شقيق حاتوسيلي، وكان حاتوسيلي بنفسه مشاركًا في تلك المعركة التي خاضها قبل أن يعتلي عرش الحثينين، وكان

بالتالى من المساركين في مطاردة الجيوش المصرية حتى جنوب منطقة دمشق. وسقطت تلك المنطقة التي كانت خاضعة للنفوذ الممرى في قبضة الحثينيين، وبقيت لفترة تحت سيطرة حاتوسيلي ذاته. إلا أن رمسيس ظل مصراً بعناد على أنه المنتصر في تلك المعركة.

ولم يصل الطرفان أبداً إلى اتفاق في وجهات النظر حول حقيقة ماوقع في قادش، ولم تؤد إثارة الموضوع في أي وقت إلا لتصعيد التوثر من جديد. كان حاتوسيلي قد أرسل بغطاب عدواني شديد اللهجة بسبب رفض رمسيس تسليم أورحي— تيشوب، ملك الحثينيين السابق، الذي فر إلى مصر لاجدًا إليها (انظر الفصل 13)، واعترض رمسيس على لهجة الخطاب العدائية، ورد قائلاً:

«حين علمت أنت بهذا المُضوع، كتبت إلى أخيك تلك العبارات العدائية حتى تنتهز أول فرصة لإثارة الشجار والنزاع، دون أن ينعكس ذلك على إخرانا وعلى السلام القائم بيننا» (34). أكثر ما كان يثير حنق رمسيس تهديدات حاتوسيلي المطنة بقيامه بعمل عسكري، وأريف رمسيس:

«فضلا عن ذلك، أنت تثير العداوة (القديمة) بين بلدينا بكلامك هذا: ع «هل نسبت أيام العداوة مع بلاد العثينيين؟».

وكان ذلك من حاتوسيلي إشارة واضحة للانتصبار الذي يدعيه الحثينيون في قادش، كان يحذر رمسيس من أنه قد يجد نفسه عرضة من جديد للانتقام المسكري المثيني إذا لم يسلم أورحي- تيشوب.

وفى رد رمسيس على تلك الرسالة تناول رمسيس فى آخرها الادعاء الضاص بأورهى - تيشوب، إلا أنه قبل أن ينتقل فى رسالته إلى ذلك الموضوع لم يكن بإمكانه أن بدع الادعاء العثينى عن معركة قادش أن يعر دون أن يتحداه فى ذلك، فقد كان ذلك أهم لديه من استرضاء أخيه الملك. كان حاتوسيلى يهدده بقادش أخرى، وكان مضمون التهديد يعنى أن رمسيس قد هزم فى قادش، مما يتناقض مع النسخة التى يرويها رمسيس عن تلك المعركة، وما يرى أنه أعظم انتصار حربى له، لم يكن

بقدرته أن يترك الادعاء الحثيثي أن يمضي دون تحد منه، وكان عليه أن يعيد رواية ماحدث، طبقًا لرواية رمسيس في ذلك اليوم المصيري.

«اخترةت قلب مسقوف الأعداء القادمين من بالاد المثينيين وضريت العدو، حين جاء جيش ميواتاللي ملك المثينيين مع جيوش بلاد كثيرة جاءت معه.. وهجم ملك بلاد المثينيين علي بجيشه وبجيوش كل البلاد التي جاءت معه، إلا أنني هزمتهم جميعاً بيد واحدة، بالرغم من أن جيشي لم يكن معي، وعجلات جيشي العربية لم تكن معي، وسقت جيش الأعداء من بلاد المثينيين تلك وجابتهم أسري إلى أرض مصره.

ولم يؤد إصرار رمسيس على تأكيد صحة النسخة التى يرويها عن معركة قادش إلى أي تحسن في العلاقات مع العثبنيين. إلا أن ما أثار الفرعون بهذه الطريقة إصرار أخيه الملك العثيني على أن العثينيين هم من كسبوا وانتصروا في معركة قادش. لم يكن من المكن أبدا إنهاء ذلك النزاع وديًا، لذلك ظهر ميل مشترك بين الأخين الملكين أن يدعا فرصة للجراح القديمة للالتئام بعدم ذكر قادش بعد ذلك أو الإشارة إليها. وعلى الأقل ألا يشار إليها في المراسلات المتبادلة بعد ذلك، والتي بقيت حتى وقتنا هذا.

الإخوة الملوك يتوافقون

كانت اعتبارات نفعية بحتة هى التى أجبرت حاتوسيلى على العفاظ على علاقات طيبة بفرعون مصر، بالرغم من نكهة العداوة التى كانت تغلف علاقتهما. كان يطمح إلى اعتراف الفرعون به كملك شرعى على عرش المثينيين وقبوله كملك ضمن الملوك الأنداد. وتطلب ذلك اعترافًا صريحًا ومعلنًا من الفرعون به، في الوقت الذي كان إيواء الفرعون لاملك الحثيني السابق يظهر الفرعون بمظهر المؤيد له واقضيته. ومما لا شك فيه أن حاتوسيلى كان مازال يستشعر ألم الإهانة من توبيخ الملك الأشورى له وربما من الملك البابلى الجديد أيضًا، اذلك سرعان ما شعر بالإساءة وربما من الملك البابلى الجديد أيضًا، اذلك سرعان ما شعر بالإساءة

والإهانة حين لم يوجِّه إليه رمسيس الخطاب في رسالته بأسلوب يليق به كأحد كبار الملوك، وظن أن وجود الملك الهارب أورحي- تيشوب بمصار له علاقة بذلك الأمر، فكتب إلى رمسيس باحتجاج قائلاً:

«أذا تكتب تك الكلمات القليلة إلى كما لو كنت خادماً؟ أنا الآن ملك الحثيثيين لا أورحى - تيشوب» (35) ورد عليه رمسيس بسخط، في الوقت الذي حاول فيه أن يطمئنه: «علمت الآن برسالتك الفظة التي كتبتها إلي، وأن أكون قد كتبت إليك كما أكتب لأحد خدمي، فهذا غير صحيح، ألم تصبيح ملكًا، أتظن أني لم أعلم بذلك؟ ألم أعلم ذلك علم اليقين؟ أنت ملك عظيم على بلاد المثينيين أنت بطل على كل البلاد. أراد رب الشمس ورب المواصف أن تكون ملكًا على الحثينيين مكان جدك. يجب ألا تظن أني كتبت إليك كما أكتب اخادم، وما يجب أن تكتب به إلى هو «قد يمثلي قلبك بالسعادة والسرور كل يوم» لا تلك الكلمات الفارغة التي بلا أساس، هكذا أتحدث مع أخي، ويسبب العلاقة الحميمة التي أرسيناها بيننا كتبت لك الحدث مع أخي، ويسبب العلاقة الحميمة التي أرسيناها بيننا كتبت لك

كان من المعروف عن رمسيس كياسته الجمة. لذلك لم يكن غريبًا أن يشعر حاتوسيلي بالمهانة من تكبر وعجرفة ونغمة التعالى لتي شابت رسالة الفرعون إليه. ولكن يحتمل أن رمسيس كان يكتب بالطريقة ذاتها إلى كل الإخوة الملوك. لقد كان رغم أي شيء رمسيس مصر، وكان بلاشك يعتبر نفسه الأعظم بين كل عظماء الملوك. وكانت تعتري حاتوسيلي مشاعر الإهساس بالذنب بسبب الطريقة التي استولى بها على عرش الحثينين، بالرغم من محاولاته إضفاء شرعية على سلوكه وكانت مشاعر الفوف من فقدانه للعرش تجعله شديد الحساسية تجاه كل ما يشعره أنه ليس أهلاً لذلك الملك، خاصة إذا جاء من أنداده الملوك. كانت حساسيته مبررة في بعض الأحوال. قوبات أول محاولة منه للتودد الملك الأشوري بزجر ووفض، وكان رمسيس يشعر بالمتعة بتذكيره يذلك.

فعلى أي حال، كما رأى رمسيس، لا يوجد ضر إذا عمق رمسيس لديه

الإحساس بشهامته وكرمه مقارنة باللوك الآخرين الذين زجروه، وأن يكون حاتوسيلي مبينًا له بذلك الموقف.

وفي الحقيقة، كان لاعتراف رمسيس بحاتوسيلي ملكًا على الحثينيين كثير من التداعيات المفيدة لحاتوسيلي، ففيما يخص الولايات الخاضعة للمشيئيين يغرب الأناشيول، كتب ملكها إلى رمسيس حين علم يفرار أورجي- تيشوب ملك الصنينيين الشرعي السابق إلى محسر ووجوده يضيافة رمسيس، وكان الهدف من رسالته أن يعرف إن كان رمسيس يؤيد الملك المثيني السابق ويعمل على إعادته إلى عرشه أم لا، ولم نعش بالطبع على نص رسالة (كوبائتا - كورونتا) إلى رمسيس، ولا يمكننا أن نعرف من نص رد رمسیس إن كان يؤيد حاتوسيلي أم أورهي- تيشوب. والمحتمل أنه لم يظهر في تلك الرسالة تأبيده لأي منهما. كانت رسالة رمسيس قد مدينات بعناية شديدة، لنظهر موقف رمسيس من أورهي-تيشوب. كان رد رمسيس يهدف إلى معرفة إن كان ملك غرب الأناضول الخاصم للهيمنة العثينية مازال يؤيد الملك السابق أورحى - تيشوب الذي أقصى عن عرشه، حيث كان لابد عليه أن يفعل ذلك، لارتباطه بشروط المعاهدة التي وقعها مع مورسيلي جد أورحي- تيشوب (36)، أم يظل مخلصًا للمك المخلوع، ويتمرد على حاتوسيلي معتصب العرش، ويعرض مملكته في غرب الأناضول لمخاطر جمة؟ إلا أن رمسيس انحاز بوشوح تام لحاتوسيلي، وأهلهر ذلك بشكل رسمي واضع:

«تذكر التحالف الذي عقده الملك العظيم، علك بالاد مصر مع الملك العظيم، علك بالاد العثينين، أخي، إخوة صادقة، وسلام مؤكد، وضعن إله الشمس وإنه العواصف ذلك الاتفاق للأبد، وإليك ملاحظة أخرى، فيما يخص أمر أورحى— تيشوب الذي كتبت إلى بشائه، فإن الملك العظيم، ملك بلاد الحثينين قد عالج هذا الأمر بالطريقة التي رغبتها». (37)

كان المقصود أن تترك تلك الرسالة أثرها. ولكن لدى من، وبأى وسيلة؟ فبالرغم من أن الرسالة مكتوبة لـ (كوبانتا- كورونتا)، إلا أنها لم ترسل

إليه بل أرسلت إلى حاتوسا عاصمة الحثينيين. فهل كان ذلك مجرد بروتوكول؟ يعلق بروفيسور بيكمان على ذلك الموقف بأنه كان من غير اللائق أن يتواصل أحد الملوك الخاضعين بأحد كبار الملوك مباشرة(38). وقد خرج (كوبانقا— كورونقا) عن تلك التقاليد المرعية بكتابته مباشرة إلى رمسيس، ومن الواضح أنه كتب رسالته دون علم حاتوسيلي، فمن للعروف أن حاتوسيلي لم يكن ليسمح لأي ملك تابع له بالكتابة إلى ملك أجنبي مباشرة لأي صبب كان، فما بالك بأن يكون السبب هو التساؤل عمن يكون مساحب الحق في الجلوس على العرش الذي يخضع المرسل لهيمنته؟

وكالعادة، انتهز رمسيس الفرصة إلى حدها الأقصى، فلم يكن دافعه للرد على رسالة (كوبانتا- كورونتا) مراعاة قواعد البروتوكول وإرسال الرد إلى حاتوساً. لقد وانته فرصة جبيدة لمُسابِقة أَحْيِه المُلك، فقد كان الفرعون على يقين أن الرسالة ستقم بين يديه، وحينتُذ يعلم حاتوسيلي ربما الأول مرة، أن واحدًا من أهم الحكام الخاصعين للنفوذ الحثيثي قد ناقش شرعية اعتلائه للعرش الحثيني مم ملك أجنبي، وكان أقل ما يمثله ذلك أنه يشكل إهانة وإذلالاً لصانوسطي. ولا يمكنه إزاء ذلك الموقف أن يلقي بأي لوم على الفرعون. ففي كل الأحوال لم يكن الفرعون من بادر بالكتابة إلى (كريانتا- كورونتا)، كما قام بمراعاة القواعد المرعية بحرصه على أن يعلم حاتوسيلي بأمر الرسالة، كما أطن دعمه غير المشروط لماترسيلي في رده على الرسالة. كما ترتبت بالطبع تبمات كثيرة على تأبيد الفرعون ودعمه لماتوسطي، فقد كان حاتوسطي لا نشك أبدأ في ولاء ملوك غرب الأناضول، ولا في ولاء حكام الناطق الأخرى الضاضعة للنفوذ الحثيني، وهو يدين بذلك إلى الفرعون الذي أعلن تأبيده له، ومما لاشك فيه أن ذلك عجُّل بوضع رمسيس كشريك رئيسي في علاقته بحاتوسىلى.

ويدل العثور على رد رمسيس على (كوبانتا- كوروبنتا) في حاتوسا

على أن الرسالة لم توجه أبداً إلى عنوان المرسل إليه، إلا إذا كان قد تم نسخة عن الرسالة الأصلية (39). وسيان وصل محتواها أم لم يصل إلى (كويانتا - كورونتا) فإن ذلك لم يكن ليعني رمسيس بأى درجة. فما كتبه في ذلك الردجة الأولى أن يصل إلى علم حاتوسيلي.

إلا أنه من الواضح أيضًا أنه كان يهم حاتوسيلى أن يصل مضمون ذلك الرد إلى (كوبانتا-- كورونتا) بطريقة أو بأخرى، ليدرك مدى تأييد الفرعون ودعمه له. ومما لا شك فيه أيضًا أنه انتهز تلك الفرصة هو الآخر ليوبخ (كوبانتا- كورونتا) لإقدامه على الكتابة إلى رمسيس متجاوزًا إياه وهو ذنب عظيم.

5

نظم وأنساق مذهلة

كان السفراء الأجانب يلقون ترحيباً من كبار الملوك. وكانوا يحملون اليهم عبارات التحية الحميمة من ملوكهم. وكانوا يحملون معهم رسائل لجلالة الملك ولباقي أفراد الأسرة الملكية، وكانت هناك أيضاً هدايا، أشكال كثيرة متعددة من ألوان الهدايا، كلها من أرقى النوعيات، وكانت تلك الهدايا أفضل السيل لكل ملك عظيم، ليعبر بها عن حبه اللامحدود وتقديره لأخيه الملك، بالرغم من أنه لم يره في حياته، وفي أغلب الأحوال لا تتاح له الفرصة ولا تتوفر لديه النية ولا الرغبة لرؤيته. لم يكن ذلك إلا وجهاً دبلوماسيًا فقط مين علاقات حكام المالك الكبرى. إلا أن الهدايا كانت حقيقية وأصلية إن لم تكن المشاعر التي ينقلها حاملوها كذلك. وكان تسليم الهدايا يعد مناسبة يحضرها كل كبار رجال الدولة، وكذلك كبار ضيوف الدولة من الأجانب الشاهدة الهدليا المبهرة والأشياء الشيئة الأتية من مملكة بعيدة؛ لتعد دليلاً حيًا وملموساً على التقدير الدولي الذي يتمتع من مملكة بعيدة؛ لتعد دليلاً حيًا وملموساً على التقدير الدولي الذي يتمتع من الملك.

وبالطبع، كان من الحكمة إعلان محتويات كل صندوق أو لفافة قبل فتحها للتأكد من الأثر الذي يتركه وتوقع ما تحويه كل لفافة.

وكان ذلك بلا شك أحد الأسباب التي جعلت مرسلي الهدايا يتجشعون عناء تسجيلها في خطاباتهم المرافقة للهدايا؛ ليعلموا المتلقى بما أرسلوه إليه.

ذهب.. وذهب، ثم ذهب! كان ذلك المعدن الثمين دائم الذكر في القوائم التفصيلية المدايا التي يبعث بها الفرعون إلى الإخوة الملوك، فقد كان الذهب أكثر نفاسة من أية مادة أخرى وأصبح السمة الرئيسية الدالة على

ثراء مصر، كانت هناك أصناف وأشكال لانهائية من الأيوات التي تصنع من الذهب أو المطلبة به: تماثيل مسفحرة من الذهب، قنائي من الذهب للزيوت العطرية، أواني تجميل، أقواس، مفارف، كئوس، عقود، أساور، خواتم، عربات خشبية مكفتة برقائق الذهب، قوارب من خشب الأرز مكفته برقائق الذهب، أسرّة، ومسائد رأس، مقاعد وكراسي عروش من الذهب. وفي بعثة هدايا واحدة مرسلة من أخناتون إلى بورنا بورياش ملك بابل بلغ وزن الذهب 1200 منياس، أي حوالي 600 كجع(1). ويضاف إلى ذلك مجموعات كبيرة أكرى من الهدايا صبيغت من الفضعة، مثل أواني الاستحمام والاغتسال، أنية قياس سوائل، مغارف، مناخل، وبلاء، وأدوات لجعل شعور النساء لولبية الشكل، عروش، مرايا، أنية تجميل، وتماثيل طريقة لقردة من القضة تحمل صبغارها في حجرها، كما كانت هناك هدايا كثيرة من البرونز، وأخرى منحوتة من الصخور والمجارة. كانت هناك أبضًا مصوغات دقيقة منحوتة من العاج ومن خشب الأبنوس، وكذلك أمشاط للشعر من العاج، وأنية مصنوعة للزيون العطرية من العاج أيضًا على شكل ثور أو أشكال مزينة على هيئة تفاح ورمان وبلح. فوق ذلك كانت الهدايا تتضمن كميات كبيرة من المسوجات وأردية كتانية من أرق أنواع الأنسجة، ما يزيد على 1000 قطعة.

كل صنف كان يوصف ويسجل منفرداً ويوضع في موضعه الملائم من القائمة حسب المادة التي صنع منها، وفي حالة تعدد الصنف الواحد كان أعدد القطع بذكر بالترتيب، إن كنت تلك الأصناف من ذهب وتليها التي من فضة ثم تلك التي من برونز.

وذكر حاتوسيلى في إحدى رسائله إلى رمسيس. «اقد سجلت قائمة المنقولات التي ستصحب العروس»، ورعده أن تفوق منقولاتها منقولات كل الأميرات الأجانب التي أرسلت إلى رمسيس من بالاد بابل أو من زولابي(2).

كل صنف كان يسجل ويوزن، قطعة بعد قطعة قبل أن تحزم وتغلف

وتختم، وكانت القائمة ترسل مصاحبة المنقولات، وعند وصولها، كان كل صنف تفض أغلفته ثم يوزن، قطعة بعد قطعة بعد فض الأختام بطريقة رسمية، لم تكن هناك أية احتمالات أو فرص للتلاعب أو الاختلاس ما بين إرسالها وتلقيها، أو على الأقل كان ذلك هو الغرض.

كذلك كانت الهدايا المرسلة من الملك الميتانى إلى فرعون مصر، تسجل جميعها بالتفصيل الدقيق. كانت هدايا الزواج التى صحبت الأميرة الميتانية تادوحيبا إلى مصر، ليتزوجها أمونحتيب الثالث(3) تضارع في تنوعها وقيمتها الهدايا التي تلقاها الملك الميتاني من بلاد النيل.

كان من بين الهدايا مجوهرات شخصية: حلى، تماثيل صغيرة، أواني تجميل، أنية، كتوس، أنية زبوت عطرية وأدوات أخرى كلها من الذهب والفضة والبرونز والمرمر والعاج، هذا عدا مجموعات أخرى من مواد تُمينة ونفيسة، سجلت كلها بالتفصيل في القائمة التي أرسلها توشراتا ملك المتانيين، وتظهر بالقائمة أنضًّا أصناف مصنوعة من الحديد (وهناك للزيد سنذكره لاحقًا عن هذا المعدن). كان العقيق نادرًا في مصر، وكانت مصر تتحصل عليه فقط من المصادر الخارجية، وزينت به الهدايا التي أرسلت إلى الفرعون مثل الخناجر والنبات. كما كانت هناك أيضًا أحذية وجوارب وأردية وأغطية رأس من المدوف المعبوغ أو الكتان المعبوغ، وكذلك منناديق من خشب الأبنوس، وأسلمة احتفالية مزينة سجلت بدورها في قائمة الهدايا، مثل: البلط، والصراب والخناجر والسهام، والهبراوات ذات النشوءات والبروع والضوذات، وشيملت الهيدايا الضيل والعربات المذهبة، كما كانت هناك كثير من الكماليات من لجامات خيل للرسن، وسيور اللجامات، وسروج مطعمة أو مصنوعة من العاج أو المعادن الثمينة، وكانت الخيل من أرقى أنواع الخيل، فقد كان الحوريون من أفضل مربى الخيول في العالم القديم في العصر البروبزي المتأخر،

كان الكرم والسخاء من الجوانب التي تمثل أهمية قصوى في تبادل الهدايا بين القصور الملكية، كانت الهدايا السخية لملك تضيف كثيراً لهيبة المانح، وكانت تظهر مدى الثراء والرخاء والانتعاش الذى تنعم به مملكته، كما كانت تظهر تنوع وكثرة المصادر المادية المتوفرة تحت أمره، كما كانت مقياسًا لمدى حبه لأخيه الملك، فكلما عظم العطاء، كلما دل على حب أعظم، كانت تلك النظرية على الأقل هي التي تحدد العلاقات، فقد كتب أشور -- أوباليت ملك الاشوريين إلى أخناتون قائلاً:

«ابعث إلى بذهب كثير»(4).

كذلك أشار بورنابورياش الثاني ملك بابل إلى كميات الذهب الهائلة التي أرسلها أمونحتيب الثالث أبو أخناتون إلى كوريجالزر الذي سبق سلفه على العرش(5)، تلك الهدايا كانت برهانًا واضحًا للملوك الآخرين على الصداقة، والإخوة والسلام الذي يجمع ويربط بين حكام بابل ومصر.

كان هجم وغزارة الهدايا الذي ذكرناه يتجاوز كثيرًا الهجم والكم الذي يتوقعه المتلقى في الأحوال العادية، وكان ذلك يحدث عادة في المناسبات الخاصة، وكانت الأعراس من المناسبات الهامة التي يتم فيها لمناسبات الخاصة، وكانت الأعراس من المناسبات الهامة التي يتم فيها تبادل الهدايا بسخاء شديد، على هيئة تقدمات للعروش وبائنة ودوطة من أهل العروس أرسل توشراتا عددًا كبيرًا من العبيد والرقيق (270 فتاة و المنابئ) إلى أمونحتيب الثالث كجزء من هدية العرس، وعشرة أطقم من الفيول، وعشر عربات مجهزة تجهيزًا كاملاً، وكانت مناسبات التتويج أيضًا من المناسبات الملائمة لإرسال الهدايا، وكان الملوك الأجانب يذكرون بيضًا من المناسبات الملائمة لإرسال الهدايا، وكان الملوك الأجانب يذكرون بذلك في الرسائل الواردة إليهم، وكما لاحظنا في الفصل السابق، لم يتوان حاتوسيلي عن الشكوي لنظيره الأشوري عدد -- نيراري، حين لم يرسل إليه هدايا ارتقائه العرش الحثيني.

أما في مناسبات تبادل الرسائل والمبعوثين في الأحوال العادية، كانت الهدايا تقل كثيرًا عما سبق ذكره، فقد أرسل بورنابورياش ملك بابل إلى أخناتون هدية عبارة عن عشر قطع من العقيق الخام غير المشكل، وإلى الملكة عشرين نموذجًا لصرار الليل صيغت من العقيق. أما أمونحتيب

الثاك، فقد أرسل إلى كاداتشمان – إنليل ملك بابل أثاثًا تقصره الجديد عبارة عن سرير من خشب الأبنوس مطعم بالذهب والعاج وعشرة مقاعد من الأبنوس مكفتة بالذهب.

وتلقى رمسيس جياداً من البلاط الحثينى، وكاساً مطعمة بالأحجار الكريمة، وكاساً مماثلة منقوشة بالأسلوب البابلى ومطعمة باشكال من الذهب، وسرير مكفت بالنهب. وتلقى أيضًا من الملك الحثينى تمثالاً من الذهب يزن 33.5 شاقلاً، وأرسل رمسيس احاتوسيلى غوريلا. كان العبيد أيضًا يرسلون كهدايا بين البلاطين الحثيني والمصرى. كان المبعوثون الزائرون يتلقون هم أيضًا هدايا من الذهب والفضمة والزيوت من مضيفهم، وأحياناً (لاوى المراتب العليا) كانت الهدايا التي يتلقونها لا تقل كثيرًا عن تلك الهدايا المرسلة إلى ملوكهم(6).

كانت الهدايا تتبادل أيضًا بين أعضاء أسر كبار الملوك. كان المبعوثون يحضرون بطريقة روتينية الهدايا من بلاط ملوكهم، لا للملك فقط، بل أحيانًا لكل أفراد أسرته ولكبار رجال الدولة، فعن طريق رسول زوجة رمسيس الملكة نفرتارى (نابيترا) وكان اسمه باريحناوا أرسلت إلى الملكة العثينية بودوحيبا عقدًا من اثنتى عشرة خرزة نهبية يزن 88 شاقلاً، وثرباً من الكتان المصبوغ، كما أرسل الأمير المصرى سوتاحبساب إلى حاتوسيلي كأسًا من الذهب الفالمي منقوش عليه ثور بقرون من صفر أبيض وعيون سودا، وبلغ وزن ما به من ذهب 93 شاقلاً، مع أربعة ثياب من الكتان الرقيق(7)، كانت تصحب تلك الهدايا رسائل تجمل تحيات مرسلها وتمنياته الطيبة المرسلة إليه، كذلك نجد أن نفرتارى طمأت أختها الملكة بودوحييا أنها هي وبلادها بكل خير، وتمنت أن تكون بودوحييا وبلادها بكل خير أيضًا، وشكرت بودوحييا لاستفسارها عن أحوالها الصحية، وسجلت أن بودوحييا قد كتبت إليها عن السلام المستتب بن بلديهما، وعن العلاقة الطبية التي تربط بين زوجيهما (8).

كان ذلك النوع من الرسائل شكلاً من أشكال الصيغ الرسمية، يكتبها

الناسخون عن نماذج ثابتة صعدة لذلك، دون أى جانب شخصى من الرسل، باستثناء تحديد الهدايا المرسلة مع الرسالة، ووصفها وعددها، وبالرغم من أنها كانت ترسل بصغة شخصية، كان الهدف الأول منها ذكر ووصف الهدايا المرسلة، والذكر الدقيق لاسم مرسلها، وكذلك اسم المرسلة إليه تلك الهدايا (9). وسنشرح فيما يلى أهمية كتابة وتسجيل الهدايا وأسماء المرسل والمرسل إليه.

شكاوس متلقس المحايا

كما لاحظنا، كانت الهدايا تعد تعبيراً حميمًا لمرسئها، يعرب عن طريقها عن حبه وتقديره للمرسلة إليه، وكان تسليم الهدايا يساعد على خلق جو إيجابى المناقشات التي سبتلى تسليمها بين المبعوث القادم بالهدايا والملك المرسلة إليه، بافتراض أن الهدايا كانت عند حسن ظن متلقيها. في هذا الصدد، لم تكن المشاعر المصاحبة مشاعر هبة تمنح بلا مقابل وإحساس بالامتنان التلقى، على العكس، كانت الهدايا – في أغلب الأحوال – سببًا كبيرًا الملحساس بعدم الرضى، ومصدرًا الشكوى.

وهناك رسائل من متلقى الهدايا تعبر عن خيبة أملهم واحتجاجهم على شح وبخل مرسل الهدايا، وأحيانًا ما كانت تعقد المقارنات بين الهدايا التى تلقوها وتك التى أرسلها المرسل إلى غيرهم من ملوك أو أسلافهم، وقد عرضنا قبل ذلك شكرى أشور أوباليت لفرعون مصر التى قال فيها:

«يلتقط أى أمرى» الذهب فى بليكم كما يلتقط التراب، لماذا تشع فى وهبه؟ حين كتب سلقى أشور – ناسين – أحى إلى مصر، أرسلتم إليه عشرين جعلاً من الذهب،(10).

«ولم يقم أخى الملك بإرسال التحاثيل النهيئة التي كان والدكم سيرسلها، وبدلاً منها أرسلت إلى تماثيلاً خشبية مطلبة بالنهب»(11).

كان توشراتا هو الآخر قد أرسل احتجاجًا مريرًا إلى أبي أخناتون، أمونحتيب الثالث، بعد ما تلقى منه ما كان يفترض أن يكون كمية كبيرة

من الذهب النقى، وحضر كبار الضيوف فض أختام الهدية، فقد كانت المحتويات ستظهر – بما لا يدع مجالاً لشك – مكانة الملك الميتانى بين كبار الملوك وتقديرهم له وحبهم، ثم حين رُصنت كل الهدايا واللفائف، تم فتحها وفض أختامها وأخرجت الهدايا، وأطبق الصمت على الجميع من الصدمة، فبدلاً من أن تذهل الحضور المجتمعين لنفاستها، لم تكن للقضبان المعدنية من أثر إلا الدهشة والصمت، ثم بدأ التهامس «هل هذه فعلاً من ذهب؟ بكل تأكيد ليست من ذهب». كان لون المعدن الرصاصي يشى بوضوح لكل الحضور أنها مغشوشة بمعدن غير ثمين، وكان المشهد كفيلاً بدفع الدموع إلى التجمع في عيون الحاضرين، لذلك عبر توشراتا عن ضيفة قائلاً:

«الذهب في مصر أكثر من التراب»

. وظل الضيوف يذكرون بعضهم بتلك المناسبة وبذلك القول، وجعل ذلك من المهانة أشد وطأة وقسوة، كان الفرعون يدعى أنه يحب أضاه الملك الميتانى حبًا جمًا، ولكن كيف له أن يحب أحدًا بهذا القدر ويرسل إليه مثل تلك الهدية، خاصة إذا كان الذهب في مصر كما يعلم الجميع ملقى في كل مكان، ينتظر فقط من يعد يده ليلتقطه (12).

وعانى بورنا بورياش ملك بابل من خيبة الأمل ذاتها عند تلقيه هدية من أخناتون، كان يفترض أنها من ذهب خالص، ومرة أخرى فضبح اللون الرصياصي للمعدن مكوناته المخلوطة، وحتى يتأكد بورنا بورياش من ظنونه صهر الهدية، وصدمته النتيجة، وذكر في رسالة منه:

«أربعون وزنة من الذهب أهديت إلىّ، واكن أقسم أننى بعد ما صهرتها لم استخلص منها إلا عشر وزناته(13).

ولا يمكن الاقتناع أن الفراعنة كانوا يعمدون إلى إهانة رفاقهم من كبار الملوك بإرسال ذهب مغشوش إليهم؛ لأن ذلك سينعكس بأثار سيئة عليهم وعلى منلقى تلك الهدايا، ويبدو في الصالتين السابقتين أن المختلسين كانوا وراء ما صدف، ولم يشك بورنابورياش في ذلك، ولذلك

نصبح الفرعون في رسالة قائلاً:

«لا ينتدب أخى أحداً لإرسال الذهب الذى سيرسله إلى، يجب أن يفصصه أخى بنفسه، ويشرف على تغليفه ثم يرسله إلى، من المؤكد أن أخى لم يقم بقصص الشحنة السابقة من النهب التي أرسلها، ترك أخى ذلك لشخص آخر يقلفها ويرسله (14).

ومما لا شك فيه أنه كان من الصعب على كثير من رجال الملوك ورسلهم أن يقاوموا إغراء سرقة أو اختلاس الهدايا الملكية، كلما وانتهم الفرصة، حتى لو قام الملك ذاته بفحص الهدايا والإشراف على تغليفها قبل إرسالها، كما نصحه بورتابورياش، فإن ذلك أيضًا لم يكن ضمانًا كافيًا أنها ستصل للمهدى إليه سليمة كما هي، ومما لا شك فيه أنه كان هناك خبراء في إعادة تغليف اللفائف كما كانت، بعد فضها والعبث بمحتوياتها، واختلاس وسرقة ما يمكن سرقته، فلا يتركون أثرًا يدل على عبشهم بالمحتويات، لذلك نكتشف أهمية كتابة قائمة مفصلة بالأصناف المرسلة إلى أي بلاط ملكي، بما فيها الوزن الافرادي لكل قطعة، والوزن الإجمالي لها جميعًا، خاصة إذا كانت تلك الأصناف من المعادن النفيسة، حتى يمكن مراجعتها والتأكد من وصولها، وكان الوصف الدقيق يذكر بعد ذلك.

وأدى اختلاس الهدايا وسرقتها إلى نشوب نزاع بين آمونعتيب وملك بابل كاداشمان – إنليل، كان كاداشمان – إنليل يشتكي أن مبعوثيه إلى الفرعون قد عادوا خالبي الوفاض، دون هدايا من الفرعون لأخيه الملك، ورد آمونعتيب قائلاً:

وليس صحيحًا ما تقول، هل هدئ قبل ذلك لمرة واهدة أن أتي رسلك إلى برن أن يتلقوا الفضة والنهب والزيوت والاردية الرقيقة بكميات لا نظير لها في أي بك آخر؟ رسلك لا تذكر لك المقيقة، أفواههم نطقت بالكنب قبل ذلك لأبيك والآن لك».

ثم أشاف بقطاطة:

«سواء أعطيتهم أي شيء أو لم أعطهم، سيظلون بيلغونك أكانيب، لذلك قررت ألا أعطيهم شيئًا بعد ذلك»(15).

كان ذلك الخداع من رجال كاداشمان – إنليل بمثابة سبب آخر يبرر أهمية إرسال قائمة مفصلة بالأصناف المرسلة، وكانت فاعلية وكفاءة تلك الرسيلة تمتمد على ثقة الواهب فيمن يعدون ويسجلون القائمة وعلى الرسول المسئول عن نقل الهدايا وتسليمها، وكانت القوائم أيضاً عرضة للتلاعب، كما يحدث للأصناف ذاتها.

أخلاقيات تبادل الهدايا

في كل الأحوال، كان مصطلع «هدية» في المراسلات الملكية مصطلع غير دقيق المداول. واذلك، كان الفعل كله أقرب ما يكون إلى شكل راق من التبادل التجارى بين الملوك، إلا أنه لم يكن من اللائق أن يشير إليه أى ملك بتلك الصفة، وبالفعل لم يكن يليق بملك أن يمارس أعمال التجارة والأنشطة التجارية، خاصة مع أنداده من الملوك، وكانت التجارة قاصرة على الطبقات الأدنى الفانية، كانت هناك وسيلتان ساميتان أمام أي ملك، ليحظى بالأصناف والبضائع الشمينة: إما عن طريق تلقيها كهدايا أو جزية، أو عن طريق اغتنامها ونهيها بالوسائل المسكرية، وكانت الوسيلة الأولى بالفعل لا تزيد عن كونها شكلاً من أشكال التجارة المستترة، تحت شكل تبادل الهدايا – هدايا توهب وتتلقى كبرهان على العب والمودة الشكل يتفق ويتوافق مع مدورة «الإخوة» بين الملوك، فالإخوة لا يتاجرون على بعضهم، فانتجارة تعنى الحصول على مكاسب من شخص آخر، أما الأخرة، فيمكنهم تبادل الهدايا ذات القيم المتساوية (16).

وكان لمفهوم تبادل الهدايا بعد أخر أيضًا. ففي كل المسروعات التجارية المعتادة بين البشر يقوم التاجر بالاتجار بأصناف نادرة أو غير موجودة أو ناقصة في بلده، ولكن كبار الملوك كانوا يحبون الظهور بصورة

من لا يعوزهم ولا ينقصهم أي شيء، ويؤكد على أن مملكته لديها كل ما تحتاجه، وغنية بكل المسادر، وفي تلك السالة يدعى أن الهدايا التي يتلقاها لم تكن من الفسرورات، إلا أنه يرحب بالهدايا التي ترسل إليه، كبرهان فقط على العلاقات الدافئة التي تربط بينه وبين المرسل، لذلك كتب بورنابورياش رسالة لأخناتون يقول فيها:

«عرفت أن بلد أخى يتوفر بها كل شىء وأن أخى لا يحتاج إلى أى شىء، كذلك يتوفر كل شىء في بلدى وأنا أيضًا لا أحتاج أي شىء، ولكن بما أننا ورثنا عن أسلافنا علاقات هميمة تربط بيننا، فلنرسل التحيات (الهدايا) لبعضناء(17).

ولو وضعنا مصطلح هدايا التحية كبديل دباوماسى راق لكمة تجارة على مستوى عال، خاصة في الأصناف النفيسة المترفة، سنتفهم بسهولة سبب الفظاظة الواضحة التي يبديها متلقى الهدايا، إذا اعتقد أنه تلقى أقل مما كان يتوقع، كان أغلب ذلك التبادل يعتمد على نظام من التكافق السلعى بين ما وهب وما تلقى، وهو سبب أخر هام ووجيه، يفسر أهمية وضرورة تسجيل قوائم بكميات وأصناف الهدايا.

ويفسر ذلك أيضا الطلبات الكثيرة التي كان الفرعون يتلقاها من إخوته الملوك الأجانب، فعلك الاسيا التي كانت تقع في جزيرة قبرص بعث إلى أخناتون(18) قائمة بالهدايا المطلوبة تصتوى على كميات كبيرة من أنقى أنواع الفيضية، وثور، ووعائين للزيت العلو، وخبيس في تدريب النسور(19)، إلا أن الطلب الشائع من الفرعون كان كميات كبيرة من الفوء.

وكتب بورنابورياش باحتقار عن وزنتين تافهتين من الذهب أرسلهما إليه أخناتون، وكانت تلك الكمية الضنيلة لا تفي بأي جانب من احتياجات المعبد الذي كان يشيده، وقال له:

> «ابعث إلى من النهب كميات يقدر ما بعثه كل أجدادك. أما إذا كان النهب قد شح، قابعث نصف الكمية»(20).

أما تو شراتا فقد طلب من آمونحتیب أن یعامله بأفضل معا كان یعامل أباه بعشرة أضعاف، وأن یظهر له مزیدًا من الحب، وبعبارة أخرى، أن یرسل إلیه کمیات کبیرة من الذهب، وكان یعد فی تلك الحالة كجزء من مهر العروس، ابنته تادوحییا، وجزء لبناء مقبرة(21)، مباشرة بعد العرس، وطلب منه تو شراتا أیضاً أن یرسل إلیه تمثالاً من الذهب علی هیئة ابنته العروس التی كانت قد أصبحت زوجة للفرعون(22)، وتمنی بحرارة أن لا یكسر بضاطره ویرفض طلبه هو أضوه وابنة بالمساهرة فی أن، وربعا كانت لفتة عاطفیة من الملك المیتانی الذی شعر بوحشة محزنة لابنته الحبیبة وأراد تذكاراً ملموساً یذكره بها.

أن أنه كان يبتكر أفكارًا خالاقة، لنفع أخيه الملك لزيادة الذهب الذي يرسله إلى بابل.

ويثير كل ذلك موضوعًا ذا دلائة، كان «إخوة» الفرعون من الملوك الأجانب، يحرصون على تجنب إثارة أى انطباع بأن طلبهم للذهب لا يدفعهم إليه رغبتهم لتخزين المواد الثمينة اذاتها، بل على عكس ذلك، إنما كانوا يطلبونه (أى الذهب) الأغراض محددة، كان من المقبول تمامًا والمفهوم أن أيًا من كبار الملوك كان يستخدم الذهب في بناء معبد أو مقبرة، أو لصنع تمثال، في حين لم يكن من المقبول له اختزانه، أو الأسوأ من ذلك، استعماله كشكل من أشكال النقد، كان ذلك يشين المارسة النبيلة لتبادل الهدايا ويهبط بها إلى مصاف الباعة الجائلين(23).

ويحتمل أن الملك البابلي كاداشمان إنليل الأول اشترط عند إرسال إحدى بناته، لتصبح زوجة للفرعون أن يرسل إليه الذهب الذي طلبه منه، إلا أنه كان يطلب ذلك الذهب لمشروع إنشائي، وأكد على الفرعون أنه لا يطلب الذهب لذاته، وأنه إذا أزف الموعد النهائي، الذي كان مقررًا الانتهاء فيه من التشييد والبناء، لن يكون بحاجة إلى ذلك الذهب:

دإذا أتممت العمل الذي أشيده، ما حاجتي إلى الذهب ليمت إلى 3000 وزنة ذهب (90 طنًا) وإن أقبلها. سأعيده إليك إن أرسلته، وإن أعطيك ابنتي زوجة (24).

ويجب أن نذكر أيضًا أن قوائم طلبات الهدايا التي كان كبار الملوك يطلبونها من أندادهم كانوا يختمونها بعروض كريمة مفتوحة، فقد ختم بورنابورياش قائمة طلباته من أخناتون قائلاً:

«ما على أخى إلا الكتابة إلى مهما كان ما يريده، وسوف أبعث إليك به من ستر ع(25).

كذلك أيضا وعد ملك الاسيا أن يبعث إلى القرعون أي شيء يريده، وخاصة كميات من النحاس بقدر ما يريد ويشتهي، كذلك طلب توشراتا كميات كبيرة من ذهب مصر كان يقابله مجموعات كبيرة من هدايا العرس التي أرسلها إلى مصر بصحبة ابنته العروس.

إلا أنه لا يوجد أى شك فى أن الإخوة اللوك من غير المصريين قد بالفوا فى تقدير كميات الذهب الموجودة بمصدر، حتى بعد الاستنزاف المكتف لمناجم الذهب فى النوبة فى عهد رمسيس الثانى، كان ملوك الشمال يطلبون الذهب بمنطق تواجده بكميات غير محدودة:

«يمكن لأي امرئ في بلدكم أن يلتقط النهب كما يلتقط التراب، وكانوا يفرمون بذكر ذلك، ويعبدًا عن توقعاتهم غير الواقعية، هناك عوامل أخرى لا بد أن تؤخذ في الاعتبار، فبينما كان من دواعي الشرف تلبية طلب أخ ملكي، كان ذلك يعد سابقة تقاس عليها الطلبات التالية من الملك ذاته أو ممن يخلف، وكان الجميع يتوقعون نفس الكرم السابق، إن لم يزد عنه، وكان البعوث يناقش مع مضيفه قوائم طلباته بلباقة، لدفعه إلى الاعتدال وعدم الشطط والمفالاة.

وهناك وجه آخر انظام تبادل الهدايا، وهو وجه لا يجب المغالاة في تقديره، وهو يتعلق بمكانة كبار الملوك واعتبارهم الشخصى، على المستوى الدولى وبين رعاياهم، لقد لاحظنا اندفاع متلقى الهدايا للشكوى، إذا رأى أن الهدايا المرسلة إليه أقل من الهدايا التي كانت ترسل لسلفه، أو التي ترسل إلى مجرد علمع أو ترسل إلى مجرد علمع أو

مشاعر غيرة، كان إرسال هدية تافهة من ملك إلى ملك آخر تعد من أعمال التحقير والإهانة والحط من شأته، وكان ذلك يقلل من شأته وهيبته في عيون كبار الملوك الآخرين، كما يقلل من هيبته في عيون رعيته والملوك الخاضعين لنفوذه. وتم دراسة مثل تلك المواقف دراسة مفصلة وسجلت حالات كثيرة منها (26). لقد لاحظنا أن وصول ميعوثين بهدايا من ملك أجنبي كان يعد في أغلب الأحوال مناسبة هامة وعامة في القصور، يدعي لحضورها أهم الشخصيات والمنالين الأجانب لبالادهم، وتفض أختام اللفائف وصناديق الهدايا في حضورهم وتعرض أمامهم. لذلك يمكننا أن نتفهم الحرج الشديد والإحساس بالمهانة الذي شعر به توشراتا، حين وجد أن الهدية ليست إلا ذهبًا مغشوشًا لا يغفي أمره على كبار الشخصيات الحاضرة، وكان تلقي مثل تلك الهدايا التافهة يشكل إهانة وتحقيراً شديدًا لمتنفها.

ومرة أخرى، لا بد أن نؤكد على العلاقة المباشرة بين إهداء الهدايا ومكانة الشخص، كما تبدو في نظر مانح الهدية، كان يشار إلى الهدايا في الرسائل بصفتها تعبيراً حميماً عن علاقة قوية تربط بين ملكين. كما كانت في حقيقة الأمر تعبيراً سياسياً قوياً، وفي عالم مبنى على التحالفات الاستراتيجية بين الاقوياء، كان من المضروري أن يظهر أخوك الملك على وفاق معه، بشرط التكافؤ التام وعلى قدم المساواة، وأن يتعامل معك بقدر الاعترام نفسه الذي يظهره لكبار الملوك الأخرين المتعالف معهم.

وكان منع الهدايا من أهم المقاييس التي تظهر قدر ملك ما بين أقرائه من كبار الملوك. لقد كان المغزى السياسي ذاته، لا قيمة الهدايا، ما جعل حاتو سيلي يغضب من إهمال عدد – نيراري الأشوري إرسال هدايا له بعد ارتقائه العرش الحثيني، وهو ما سبب للملك الحثيني انزعاجًا شديدًا.

وكانت أحيانًا ما تساق الأعذار التأخر في إرسال هدايا، فبعد ما عرض ملك ألاسيا على فرعون مصر أن يطلب أي كميات يريدها من النحاس، تلى ذلك بإخباره ألا يتضايق إذا استغرق وصول النحاس بعض الوقت، فقد كان الطاعون منتشراً بين سكان الاسيا، وقال في رسالته

دلقد وضع الإله نيرجال يده على بلادى، وقضى على كل الرجال ولم يترك عامل نحاس واحد»(27).

كما كانت أحوال الطقس السيئة تعوق إرسال كميات كبيرة من الهدايا، كما ذكر بورنا بورياش لأخنانون في إحدى رسائله

«لقد علمت أن السفر أصبح متعذرًا، الطقس حار ومصادر المياه شحت في الطريق، لذلك لم أرسل إليك في الوقت الحالي عددًا كبيرًا من هدايا التحية الشمينة، مجرد أربع وزنات من العقيق النقي وضمس مجموعات من الجياد، بمجرد أن يتحسن الطقس، سأبعث مع رسولي هدايا ثمينة كثيرة إلى أخي،(28).

كان عدد — نيراري قد أرسل رسالة إلى حاتو سيلي يطلب منه إرسال هدية من الحديد، وكان شديد الندرة في تلك الأيام قبل التوصل إلى طرق استخلاصه، فكان يعد من المعادن الثمينة، لذلك كانت المشغولات القليلة التي صنعت من الحديد تصنع من الكتل الطبيعية من الحديد التي يعثر عليها، أي الحديد النيزكي، وكان الحثينيون — على وجه الخصوص — قد توصلوا إلى طريقة بدائية لصبهر ذلك الحديد النيزكي واستخلاصه وتشكيله، إلا أنه كان من الناحية العملية أرداً كثيراً من خليط سبائك البرونز، إلا أنه الندرته كان يلقي تقديراً عالياً، وكان يستخدم في صناعة ألواح الكتابة، والمجوهرات والأسلحة التذكارية، وكانت الأسلحة التذكارية ترسل كهدايا ملكية (29).

وكان من بين الهدايا المرسلة من توشراتا - بصحبة ابنته عروس فرعون مصر - زوج من الأساور الحديدية المطلية بالذهب، كذلك هراوة مسئنة، ونصل خنجر من الحديد المطلي بالذهب، إلا أن الهدايا المصنوعة من الحديد كانت تقل كثيراً في العدد عن الهدايا الأخرى المصنوعة من المعادن الثمينة الأخرى، ويبدو أن عدد - نيراري كان لديه تقدير مبالغ فيه

عن قدرة الحثينيين على إنتاج الحديد، لذلك رد عليه حاتوسيلي ليخبره أن طلبه الحالى لا يمكن تحقيقه، لذلك أرسل إليه هدية أخرى تعبيرًا عن الود، مع وعد بهدايا أخرى في الوقت الملائم، قال في رسالته:

«بالنسبة للحديد النقى الذى أرسلت فى طلبه منى، فإن العديد النقى لا يوجد فى خزائن فى مدينتى كيزوادنا، وكتبت إليك أن الوقت غير ملائم لمناعة المديد، سوف يصنعون حديد نقى، واكنهم لم ينتهوا من صنعه بعد، عندما ينتهون من صنعه، سأبعث به إليك، أما حاليًّا، فأنا أرسل إليك نصل خنجر من العديد، (30).

مخاطر نقل المدايا

كان جمع الهدايا أحد الجوانب، أما إرسالها إلى الرجهة المرسلة إليها، فقد كان أمرًا أخر، كانت آحوال الطقس تشكل واحدة من مخاطر النقل، كما ذكر بورنابورياش، خاصة للقوافل، فقد كانت أبطأ في الانتقال. وكانت العصابات تشكل تهديدًا مستمرًا، وكانت معرفة أن قافلة ما ترتحل في خدمة الملك لا يعطيها استثناءً ولا حماية من هجمات العصابات، بغض النظر عما يعتقده الملك عن ضبطه الأمن في الأراضي الخاضعة لسلطته، كان الانتقال عبرها يعد دائمًا نوعًا من أنواع المخاطرة، خاصة تلك القوافل التي تنقل أصنافًا ذات قيمة ثمينة، لم تكن القوافل الملكية تأمن حتى مخاطر المرور عبر أراضي الملك المحديق الذاهبة إليه، لقد كتب بورنا بورياش إلى أخناتون متشكيًا أن القوافل من بابل والمتجهة بهدايا إلى فرعون مصر تعرضت مرتين السرقة من موظفي الفرعون أنفسهم(31). كما اشتكى عزيرو – أحد الملوك المشاغبين الخاضمين النفوذ المصرى حمرة عدايا الفرعون الرسلة إليه من الذهب والفضة قد قام بسرقتها أن نصف هدايا الفرعون المرسلة إليه من الذهب والفضة قد قام بسرقتها مصرى يدعى حتيب(32).

أما التجار العاديون الذين كانوا ينتقلون في رحادتهم التجارية عبر منطقة سرري، فقد كانوا في أغلب الأحوال يقعون ضحايا للعصابات، فيسرقونهم وأحيانًا يسرقونهم ويقتلونهم، وكتب بورنا بورياش مرة أخرى إلى أخناتون متشكيًا من أن التجار البابليين قد هوجموا وسرقوا وقتلوا في منطقة كنعان الخاضعة لنفوذ الفرعون، وطلب منه في رسالته أن

«يحيل الجناة إلى العدالة، ويعوض التجار عن الأموال التي سرقت، وإعدام الجناة اقتلهم تجارنا، قم بقصاص الدم»(33).

إلا أن القصاص لم يكن للطلب الوحيد في تلك الرسالة:

وإذا لم تمدم الجناة، سيقتلون تجارًا الخرين، سواء كانت قافلة لنا أو من مبعوثيك، وسيترتب على ذلك انقطاع الرسل بينناء(34).

وكانت الفقرة الأخيرة تحريضًا مباشراً لمساسه بمصالح الفرعون، عتى الشحنات الصغيرة من الهدايا كانت بحاجة إلى قوة عسكرية مرافقة ذات حجم كاف أدرء خطر العصابات، كانت بعثة واحدة على سبيل المثال من لدن أخناتون إلى بابل تحتاج إلى قوة عسكرية من المشاة والعجلات العربية نظل مرتبطة بها لأشهر عديدة، كانت البضائع تنقل على اليابسة على الحمير، وأحيانًا على السفن البحرية في جزء من الطريق(35)، كانت على النقل تزداد خطورة إذا كانت الهدايا تشمل عبيدًا أن حيوانات حية، وكانت هبة العروس الحثينية المرسلة كزوجة لرمسيس الثانى تشمل الخيل، والخراف والماعز والماشية وعددًا من العبيد، أسرى حروب الحثينين من شعب القوقاز شمال الأناضول، وكانت ترتيبات نقل العروس والهدايا والموكب بأجمعه موضع مناقشات عبر رسائل عديدة، تبودلت بين رمسيس وبودوحيبا، وسوف نعرض ثلك الرسائل في الفصل التالى، مع عرض التحضيرات الكثيرة السابقة على الزواج والتي أثمرت عن ترسيخ عرض العلاقات بين البيتين الملكيين، الحثيني والمصرى.

6

سوق الزواج

فى طريق عودة الأمير الحثيني حاتوسيلى، والذي أصبح بعد ذلك الملك حاتوسيلى الثالث من قيادة الجيش في سوريا مر بمدينة لوازنتيًا، مركز العبادة والكهانة الشهير في منطقة كيزُّوادنا، وهناك التقى بزوجة المستقبل بودوجيبا، ابنة الكاهن الحوراني بنتي بشاري.

وفى منامه رأى حاتوسيلى الربة عشتار وأعلمته أنه سيتزوج من بودوحيبا، وكان يقول عن ذلك: «وهبتنا الربة حب الزيج والزوجة»، وكان يتعدث عن زواجه بصفته زواجًا صنعته السماوات العلى، أما في الحقيقة، فيبدو أن حاتوسيلى قد صرعته مفاتن بودوحيبا من أول لحظة وقعت عيناه عليها، بمساعدة الربة أو دون مساعدتها، إلا أن الحب كسبب أول الزواج كان نادرًا، إن لم يكن فريدًا في عالم ملوك الشرق الأدنى القديم.

ترتيب وتنظيم الزيجات الملكية

في مجتمع عواهل الحكم عبر التاريخ بأجمعه، وكذلك في العصر البرونزي المتأخر، كان الزواج من أهم الوسائل في تقوية التحالفات السياسية والعسكرية بين حليفين، كانت الأميرات من أهم الأدوات الدبلوماسية لتحقيق هذا الفرض.

كنان أي ملك عقليم رزق بكثير من البنات يمسيح تحت يده ورهن تصرفه بناته الأميرات، واللاثي يمكن اختيار عرائس من بينهن لإرسالهن إلى فراش الأزواج من إخوته الملوك، وسناهمت الظيلات والمحظيات في إنجاب الكثير من الأميرات للملوك، كنان «الحريم» من زوجنات الصف الثاني والخليلات والمحظيات من الجوانب المآلوفة في كل مملكة، كحالة رمزية أو ترفيهية فعلية لضمان متعة جلالته. وتذكر الملكة بودوحيبا أن

البلاط الحثيني كان يموج بالأمراء والأميرات، في مختلف المراحل العمرية، حين دخلت ذلك البلاط لأول مرة كزوجة، وكان بإمكان جلالته أن يختار من بين كل الأميرات من بناته الأميرة ذات السن الملائم، لتصبح زوجة لأحد الإخوة الملوك إذا طلب منه إحدى بناته الزواج، في أغلب الحالات تكون الأميرة المفضلة من بين أرفع الأميرات، أي من بنات الزوجة المفضلة، وكان يحتفظ بهن للزيجات الهامة، أي الزواج من أهم حلفائه. إلا أن المسفات الشخصية المرشحة كانت أيضاً من العناصر الهامة في الانتقاء، بالإضافة إلى أية مواهب وكفاءات أخرى قد تتوفر فيها، فالأميرة المرشحة للزواج من أحد كبار الملوك كان لا بد لها أن تكون ذات جمال المرشحة للزواج من أحد كبار الملوك كان لا بد لها أن تكون ذات جمال

ومن غير المعروف إن كان لمبعوث العريس الحق في الفحص المبكر للعروس أم لا، فالذي اختارها أبوها، حتى يتأكد للمبعوث ملائمتها لملكهم. ولكن من المفترض أنه كانت لدى الزوج المرشح وسائله للتأكد من أنه لن يتزوج بعروس دميمة، وبالطيع، لم يكن من صبالح أحد كبار الملوك أن يرسل ابنته للزواج من ملك عظيم آخر، انتعسه ولا تعظى بإعجابه. في كل الأحوال كانت توجد فرصة واحدة على الأقل لفحص العروس قبل أن تنتهى، وتكتمل تحضيرات الزواج، كان مبعوث يرسل من لدن زوج المستقبل لرؤية العروس وتكريس الموافقة عليها، ولم يكن ذلك إلا جانبًا من الرسميات، بالرغم من أنها كانت فرصة للمبعوث للتأكد من أن العروس في حالة جيدة وأنها تصلح لما هو منتظر منها.

ولا نعرف عن حالات فشل فيها إتمام الزواج بسبب مشاكل اللعظة الأخيرة، بل على العكس، كان مبعوث العريس يعرب عن إعجابه بالعروس المختارة، كما فعل مين مبعوث آمونحتيب الثالث بعد ما رأى ابنة توشراتا، وقال أبوها في رسالة لأمونحتيب:

«أريت مين العروس المطلوبة الأخي، ولما رآها، امتنحها كثيرًا» (1).
 كذلك أيضًا، حين طلب آمونحتيب زواج تحالف من ابنة ملك ارزاوا

الملك تارحوندا رادؤءرتب وسيلة لمعاينتها قبل الاتفاق النهائي:

«أترى ! لقد أرسلت إليك إيرشابًا، مبعوثى، (بتطيمات): دعنا نعاين الابنة التى سيقدمونها إلى ملكى الزواج، وسوف يسكب على رأسها زيت التمسيح»(2).

وما حدث فعاد أن ذلك الزواج لم يتم، لا لقنصبور بالعروس عند معاينتها، بل للأحداث السياسية التي وقعت، واسترداد الحثينيين لكامل نفوذهم على كل منطقة الأناضول وفقدان الملك أرزاوا لنفوذه الذي كان قصير العمر في تلك المنطقة، لم يعد لأرزاوا الأهمية والتفوذ، حتى يحظى بميزة انضعامه لعضوية أصهار ملك مصر.

وهناك سمة هامة واضحة نالحظها مما سبق.

كان طريق الزواج والمساهرات مع ملوك مصر ذا أتجاه وأحد،

كان فرعون مصر راغبًا على الدوام في استقبال زوجات أجنبيات ذوات حسب رفيع، إلا أن أيًا من فراعنة مصر لم يوافق أبدًا على إرسال أميرات مصريات ليكن زوجات لملوك أجانب، كان ذلك تقليدًا راسخًا لا استثناء له، ولم يكن ذلك بالطبع بسبب قلة عدد بنات الفراعنة، فقد كانت هناك أعداد وفيرة منهن (وكن على درجات متباينة في الترتيب الوراثي حسب وضع أمهاتهن)، كما لم يكن السبب كما ظن الكثيرون من الباحثين يعود إلى احتمال موت تلك الأميرة خارج مصر، فلا يحظى جسمهانها بطقوس الدفن، طبقًا للمعتقدات المصرية الدينية، والتي تضمن لها الخلود في العالم الآخر، بل كان السبب يعود إلى كبرياء الفراعنة واعتدادهم بأنفسهم، وفي المحافظة على صورة الفراعنة الراسخة كأهم وأعظم ملوك المنطقة(3).

وأن يرسل حاكم أجنبى إحدى بناته إلى البلاط المصرى - كعروس الفرعون دون أى احتمال أن يبعث الفرعون بأميرة مصرية بالمقابل كان يعزز من وضع الفرعون وعلوه على كل الملوك، أو على الاقل كانت تلك هى المفاهيم المصرية، ويبدو أن الملوك الأجانب قد تفهموا ذلك وقبلوه، ومادام

حظر تصدير الأميرات للصريات كزوجات يسرى على كل الملوك الأجانب، مادامت المصالح السياسية والاستراتيجية والمادية واستمرار العلاقات الدبلوماسية مع مصر قد تأسست على المساهرة من جانب واحد، والتي كان الفراعنة يصرون عليها.

غير أن الملك البابلي كاداشهان إنليل حاول اختبار متانة وقوة ذلك العرف المسرى، وكتب إلى آمونحتيب الثالث يطلب منه ابنته كزوجة له. وأتت الإجابة حاسمة:

دام يحسنت من بداية الزمن أن أعطيت ابنسة ملك مصرى كزوجة الأي ملك أجنبي».

وأصر كاداشمان - إنليل على طلبه في رسالة تالية:

«أنت الملك، بإمكانك أن تفعل ما تشاء»

وظل فرعون مصر على صادبته، لذلك لجأ كاداشمان - إنايل إلى وسيلة أخرى، قال للفرعون إنه بإمكانه تلبية طلبه، وفي الوقت نفسه يظل محافظًا على ذلك التقليد المصرى الأصيل بأن يرسل إليه أميرة مصرية مزيقة، أي ليست من بنات الملك، وعرض ذلك قائلاً في رسالة:

«لا بد أن هناك في مصدر من لديه بنات جميات صالحات الزواج فلماذا لا ترسل لى أية فتاة جميلة على أنها إحدى بناتك؟ ومن الذي يجرؤ على القول: إنها أيست ابنة الملك؟ على القول: إنها أيست ابنة الملك؟ على القول:

كان يقترح على فرعون مصر عملية تزييف صارخ،

وبالطبع، لم يكن ذلك السبب الرئيسى فى امتناع فراعنة مصر عن إعطاء بناتهم كزوجات للوك أجانب، كان كل الأمر يتعلق بصورة الفرعون، ووعى الشعوب بثلك الصورة، فإذا وافق على إرسال أميرة مزيفة على أنها ابنة حقيقية المفرعون، على عكس حقيقة الأمر، فإن ما سيعرف بين الناس هو أن الفرعون خرج على التقليد الراسخ، وقام بتقديم ما لم يقدم إلى أى ملك أخر، فلم يكن أى أجنبى مهما كانت مكانته يستحق شرف الحصول على أميرة مصرية، وإن حدث ذلك فإنه كان يعزز مكانة الملك الميتاني في

أعين نظرائه من الملوك الأجانب، في الوقت الذي تنتقص فيه هيبة ومكانة فرعون مصر. ولا يوجد شك في أن الفرعون لم يول ذلك الاقتراح أدني اهتمام.

وبثمر ذلك سؤالاً أشرء فإلى أي مدى كان أي ملك برتبط بابنة ملك أخر على يقين من أصالة الزوجة المرسلة إليه؟ فالضدعة التي طلب كاداشمان ~ إنابل من فرعون مصر مشاركته فيها لم تكن نادرة الحدوث، كان إيفاد مبعوث لمعاينة العروس يساهم إلى حد بعيد في التأكد من أمبالتها. إلا أن مشاكل عدم اليقين كانت تظهر من أن لآخر، فغي بعض الأحيان كأن يصنف على أبناء وطن الأميرة ذاتها ومواطنيها التعرف عليها. وأدى ذلك إلى زيادة توتر مفاوضات الزواج بين كاداشمان - إنليل وأمونحوتيب الغاصة بزواج أمونحوتيب من أميرة بابلية، كان أمونجتيب قد طلب بد أميرة بابلية، ومثَّل ذلك الطلب مشكلة لكاداشمان - إنليل، كانت شقيقته قد أرسلت فيما قبل إلى مصبر كزوجة لأمونحتيب - أثناء حكم أبيه – ولم يسمعوا أو يعرفوا عنها شيئًا من ذلك المين، كان كاداشمان - إنليل يرسل مبعوثيه لزمارة شقيقته والاطمئنان عليها، إلا أن أيًّا منهم لم يمكنه التأكد إن كانت مازالت حية أم ميتة، وليطمئنهم، أشار أمونحتيب إلى امرأة بين زوجاته وقال للمبعوثين البابليين إن تلك هي الأميرة البابلية، إلا أن المبعوثين ظلوا على تشككهم، ولم يستطيعوا التأكد إن كانت هي فعالاً شقيقة ملكهم أم لا، وأبلغوا ملكهم بذلك، فأرسل كاداشمان - إنايل بشكواه إلى أهيه الملك، وكان جوهر الرسالة:

«كان أبي قد أرسل شقيقتي كمروس لكم واختفت، وأنت الآن تطلب ابنتي أيضا؟»

وكان أمونحتيب سريع الرد على ذلك الأمر، وقال:

«إن الرجال الذين أرساتهم لا صفة لهم، بل إن أحدهم كان راعيًا العمير والبغال، لا يوجد منهم من كان مقريًا من أبيك ليعرف أختك ويستطيع التعرف عليها، لماذا لم ترسل واحد من كبار رجالك وعظمائهم يعرف أختك، بحيث يمكنه التعدث معها والتعرف عليها؛ أو كنت قد قدت بذلك لكنت عرفت المقيقة، وهي حية ويقدسن حال، ويمكن أن يزوروها بجناحها الذي تقيم فيه: ليتلكنوا أنها سعيدة بعلاقتها مع الملك، وأو كانت قد مانت لماذا أخفى ذلك المقيقة عنك؟(5)

ولا نعلم إن كانت مشكلة شقيقة الملك المفقودة بمصر قد ظهرت حقيقتها أم لا؟ ولكن حتى، بعيداً عن تلك المشكلة، كانت العلاقة بين ملكى بابل ومصر غير بسيطة ويسودها الشد والجذب، والأقرب إلى الاحتمال أن شقيقة كاداشمان - إنليل كانت مازالت حية بالبلاط المصرى، إلا أنها أصبحت مهملة بين حريم الملك، ولو كان قد سمح لها أن تلتقي بمبعوثي أخيها كاداشمان إنليل، فمن المحتمل جداً أنها لم نكن لتقدم لهم صورة وردية عن حياة أميرة أجنبية تنتهي أيامها المبهجة بمجرد انتهاء عزف موسيقي الزواج، وأصبحت بعد ذلك امرأة غير معيزة ضمن كثيرات أخريات، وفي مفاوضات زواج أمونحتيب بأميرة أخرى من البيت الملكي البابلي، وهي ابنة الملك، في المرة الثانية ربما اعتقد أمونحتيب أن من البابلية الماك أن لا يعطى أي فرصة لمبعوثي ملك بابل القاء زوجته البابلية شقيقة الملك.

مثالب سوق الزواج الدولس

وكانت هناك مناسبات انقلبت فيها روابط الزواج، أو مشاريع الارتباط بالزواج بين البيوت الملكية إلى مأسى وكوارث، فابنة بورنابورياش الثانى، التي تزوجت من الملك العثينى سبيللوليوما، أصبحت بعد الزواج أقوى وأخطر وأشد أسباب التمزق في كل المعسر البرونزى المتأخر من بين كل الزوجات المجلوبات من خارج بلاد أزواجهن، كان سبيللوليوما قد هجر زوجته لحثينية، ليتزوج من الأميرة البابلية وأطلق عليها اسم تاوانانًا، واتخذها زوجة أولى شريكة في الملك، ومن خلال ما سجله ابن زوجها مورسيلي والذي أصبح ملكًا بعد ذلك، نعرف أنها سرعان ما أصبحت نات أقرى نفوذ في جميع أرجاء الملكة، واستبدت بكل ثروات الملكة أثناء

حكم زوجها وبعده أيضاء كما أدخلت تقاليع وعادات غريبة على المجتمع، وتقرب وتدعم من ترضى عنهم، وتغتال أبناء زوجها من زوجاته الأخريات، حتى أمكن نزع كل سلطاتها وطردت إلى المنفى.

كحا حدثت اضطرابات شديدة في بابل حين اعتلى أحد أبناء بورنابورياش ويدعى كارينداش العرش، وتزوج من أميرة أشورية ابنة للملك الآشوري آشور – أوباليت، ثم اعتلى ابنهما ويدعى كاراها رداش عرش بابل، إلا أن كاراهارداش تم اغتياله على أيدى القادة العسكريين البابليين؛ لرفضهم أن يكون ملكًا عليهم من تجرى في عروقه دماء نصف أشورية، وفضب أشور أوباليت؛ لاغتيال حقيده الذي أصبح ملكًا على بأبل، وهاجم بابل منتقمًا وأعدم الملك الذي انتزع عرش حفيده (ارجع للفصل الأول).

كذلك أيضا شن سبيللوليوما هجومًا انتقاميًا على الحدود المصرية، فقد كان أرسل ابنه زائلنزاء للاقتران من أرملة توت عنخ أمون، إلا أنه مات في الطريق ميتة غامصة وفي ظروف مريبة، واعتبر سبيللوليوما أن المصريين هم المسئولون عن موت ابنه (انظر الفصل 11).

كذلك أدى زواج الملك الحثينى تودحاليا الرابع من أميرة بابلية أخرى إلى اضطرابات وصراعات داخل القصر المثيني، حين تشاجرت العروس مع حماتها الشهيرة شديدة المراس بودوحيبا، والتي قادت كل معارضي ذلك الزواج ضد كل مؤيديه (6).

أما على مستوى الملوك الماضعين لهيمنة ونفوذ ملوك آخرين أقوى منهم، فنجد أن زواج أميشتامرو الثاني ملك أوجاريت الشاب من ابنة بنتشينا ملك عمورو قد انتهى بمأساة، وطلاق مدو، ويحتمل جداً بإعدام العروس(7).

لذلك من المُمكن أن يسغر زواج التحالف بين بيتين ملكيين عن مشاكل خطيرة، وأحيانًا قبل أن يتم الزواج.. بل حتى كان السغر من بلد العروس إلى بلد العراسة المسكرية

ضرورية في مثل تلك الصالات، وقد أثار بورنابورياش تلك المشكلة حين كان يعد ابنته لتكون زوجة لأخناتون(8)، وكان واضحًا أن تلك العروس كانت بديلاً لعروس أخرى مرشحة الزواج من أخناتون، إلا أنها ماتت، واشتكى بورنابورياش من ضعف قوة الحراسة وصغرها التي أرسلها أخناتون لجراسة عروسه القادمة إلى مصر، وقال في تلك الرسالة

«حایا (السئول المبری) ایس تحت إمرته إلا خمس عجلات حربیة، فهل بإمكانه مرافقتها إلى مصر بخمس عجلات فقط؟ هل یجب علی أن أدعها تفادر بیتی فی هذه الظروف؟»

مما لا شك فيه أن انزعاج بورنابورياش كان سببه حرصه على سلامة ابنته، إلا أنه كان منزعجًا أيضا من قلة التقدير التي سببدو عليها في نظر الملوك الآخرين، حين يعلمون أن فرعون مصبر قد أرسل تلك الحراسة البائسة لمساحبتها، واشتكى قائلاً: في الرسالة نفسها:

«جيراني الملوك قد يقولون: لقد استخدموا خمس عجلات فقط لنقل ابنة ملك عظيم إلى مصرة(9)

وراح بونابورياش يذكّر الفرعون أن في الجيل الذي سبقه أرسل أبوه أمونحوتيب الثائث قوة قوامها ٢٠٠٠ جندي مقاتل لمرافقة أميرة بابلية إلى مصر.

وأن تكون الفتاة ابنة ملك عظيم لم يكن امتيازًا عظيمًا تحسد عليه، كانت الأميرات في حقيقة الأمر لا يزدن عن كونهن جواري ولكن من طبقة عالية، وكن يعاملن أحيانًا كسلع زائدة لدى من يقترن بهن من ملوك أجانب، وكما لاحظنا، جعل الملك البابلي كاداشمان - إنليل موافقته على زواج ابنته لامونحوتيب مشروطة بإرسال أمونحوتيب كميات الذهب التي طلبها لمشروعاته الإنشائية في بابل، وكانت مثل تلك الطلبات التي تبدو كمقايضة تثير الحنق الذي يدفع الطرف الثاني ليويخه توبيخًا مستحقًا، فقد رد أمونحوتيب على ذلك الشرط قائلاً(10):

«شيء لطيف أن تهي بناتك من أجل الحصول على حفنة من الذهب»

استغلت أميرات كثيرات كأدوات دبلوماسية بإرسالهن إلى بلاد أجنبية كأفضل وسيلة ملائمة لتحقيق مصالح ممالك آبائهن، كان ذلك هو مصير الأميرات عبر كل العصور، وكان المصير يتحول إلى أسوأ حين كانت أى منهن تقترن بملك له كثير من الزوجات، كما كانت تتكرر المدورة على الدوام، حين يجدن أنفسهن في بلد أجنبي حيث عليهن أن يقضيين كل عمرهن دون أن يعرفوا كلمة واحدة من لغتة ولا عادات قومه.

كانت العروس الملكية تأتى إلى موطنها الجديد تصحيها مجموعة من الفدم من موطنها الأصلى (على سبيل المثال، جاحت الأميرة الميتانية كيلوحيبا إلى مصر وبرفقتها 317 امرأة من خدمها(11)) وكانت مرافقتهم لها تمثل بعض المزاء أثناء إقامتهن في الأوطان الغريبة عنهن، كن على الأرجح موضع ترحيب واحتفاء طوال فترة الاحتفالات بالزواج، ثم بعد ذلك وتدريجيًا تنصدرن إلى زوايا الاهمال والنسيان، حتى إنه لا يبقى لديهن من سلوى إلا خدمهن الذين صحبوهن من مواطنهم الأصلية، ولا يوجد شك أن أبائهن الملوك كانوا يعدونهن عند رحيلهن من بلادهن بانهم سيبعثون من يزورهن ويطمئن عليهن بانتظام. ولكن تبدأ تلك الزيارات في التناقص والتباعد، وكما رأينا، فإن زوجها وسيدها الجديد من المكن أن يمنع مبعوثي أبيها من رؤيتها أو التحدث إليها..

ولم يكن من غير المعتاد لأي فرعون أن يطلب أكثر من عروس من مملكة واحدة، وكما رأينا، كان على ابنة توشراتا أن تنضم إلى عمتها كشاغلات لفرف نوم أمونحوتيب الثالث، إلا أن مصاهرات التصالف المصرى – المبتاني كانت قد بدأت في عهد تحتمس الرابع أبي أمونحوتيب الثالث، وكان قد كتب إلى أرتاتاما ملك الميتانيين طالبًا يد ابنته، وأظهر ارتاثاما أنه مساوم شديد البراعة، فقد طالت مفاوضات الزواج حتى ترصلا إلى اتفاق في نهاية الأمر لذلك، راح توشراتا في سياق خطاب طويل بذكر أخناتون بتاريخ العلاقة بين الملكتين، وجاء في تلك الرسالة.

دمین طلب جدك (تصقمس) من جدی ارتاتاما ید ابنته أخت أبی

شوتارنا كتب إليه خمس وست مرات، ورغم ذلك رفض جدى، ولم يوافق جدى إلا بعد أن كتب إليه مكرراً طلبه اسابع مرة. (12)

ثم انتقل إلى ذكر ما حدث من مفاوضات بين أبيه، شوتارنا، وأبيا أخناتون، أمونحوبيب، حول عروس ميتانية أخرى، وهى الأميرة كيلوحيبا ابنة شوتارنا وأخت توشراتا، وذكره أنه بعد الطلب من أبيه بإلحاح لسادس مرة وافق على منحه كيلوحيبا. ثم ذكر توشراتا أخناتون بالفضل الذي عامل به أباه أمنحتب، حين طلب منه يد ابنته الأميرة تادوحيبا، وأنه طوق عنقه بجميل: «قعندما طلبها لأول مرة قلت لرسوله: بكل يقين ساعطيها له».

فعا سبب ذلك الفرام الواضح بالأميرات الميتانيات؟ السر هو أن العرائس الملكية كن بمثابة المعاهدات - روابط غير مستقرة بين مملكتين، إلا أنها جيدة بين الحاكمين، وحين يموت أحد طرفى المعاهدة، يسعى شريكه الذي ما زال حيًا إلى عقد معاهدة جديدة مع خليفته للتأكيد على التحالف واستمراره، وكذلك أيضا، كانت العروس الملكية تمثل رابطًا شخصيًا بين الملك الذي أنجبها وأرسلها والملك الذي تلقاها، فبعد موت ارتاتاما وتحتمس الرابع، كان لابد من إعطاء عروس جديدة للفرعون المجديد كأحد أهم عناصر تأكيد التحالف المصرى الميتاني، وكان ذلك لا يرتبط ولا يتوقف على إن كنت الزوجة الميتانية لتحتمس الرابع مازالت حية بعد موت أبيها احتاج الفرعون إلى عروس ميتانية جديدة، فقد كانت الأميرة كيلوحيبا، إلا الأميرة كيلوحيبا، إلا الأميرة كيلوحيبا قد أصبحت بموت أبيها بمثابة معاهدة لا يعتد بها، لذلك الأميرة كيلوحيبا قد أصبحت بموت أبيها بمثابة معاهدة لا يعتد بها، لذلك الأميرة كيلوحيبا قد أصبحت بموت أبيها بمثابة معاهدة لا يعتد بها، لذلك

فى ذلك الوقت كان عمر آمونحتيب يقترب من نهايته، فما الذى حدث للأميرة تادوحيبا بعد موته؟ يبدو أن أخناتون نقلها إلى جناح الزوجات.

وبالفعل، افترض كثير من الباحثين أنها أصبحت الزوجة الثانية في ترتيب الأممية (بعد الزوجة الرئيسة نفرتيتي)، وأنها أصبحت تحمل لقب واسم «المحبوبة جدا» كيا(13). ويترتب على ذلك الافتراض احتمال جدلى، فبما أنه من المعروف أن نفرتيتي أنجبت من زوجها أخناتون ست بنات ولم تنجب له ذكورًا، فإن ذلك يدفع بافتراض أن كيا هي من أنجبت توت عنخ أمون.

ويتساط بروفيسور مورنين مشيراً إلى التوتر الدائم بين بنات نفرتيتى والأميرة كيا: هل كانت جريمة كيا أن فازت في التنافس وأنجبت ما عجزت الزبجة الرئيسة الأولى المفضلة عن إنجابه، أي وريتًا ذكراً (14)؟ وإن كانت كيا هي بالفعل الأميرة الميتانية تادوحيبا، فإن ذلك كان يعثل سببًا إضافيًا للعداوة بين بنات نفرتيتي وبينها، أي أنها كانت بالنسبة لهن امرأة أجنبية غريبة وهبت أباهن وريتًا ذكراً، وهو ما فشلت أمهن به، وام تقدر على تحقيقه، ويترتب على صحة ذلك الافتراض أن توت عنغ أمون نصف حورى، وأن جده لأمه هو الملك الميتاني ترشراتا - عدو العثينين الرئيسي.

مراسلات الزواج المصرية – الحثينية

لا تتوفر معلومات عن طبيعة المفاوضات بين البلاطين المصرى والميتانى التى سبقت الموافقة النهائية على زواج أمونحتيب الثالث والأميرة تادوهيبا، إلا أنه توفرت لنا معلومات عن طبيعة المفاوضات. ومختلف النقاط الهامة التى ظهرت خلال المفاوضات، من نصوص الرسائل العديدة التى عثر عليها والضاصة بذلك الأمر، المتبادلة بين البلاطين المصرى والحثيني أثناء حكم رمسيس الثاني وحاتوسيلي الثالث.

كانت المفاوضات معقدة وصعبة أكثر مما يجب، بسبب تناولها أيضاً لمشكلة وجود أورجى تيسفوب ملك الحشينيين السبابق الذي أزاحه حاتوسيلي عن الموش بأرض مصر (انظر القصل 13)، كانت المراسلات التي تلت عقد معاهدة السلام بين الملكتين تشي بالحرارة والود الشديد، وأعلن حاتوسيلي أنه لن يعطى ابنته إلا لرمسيس، لا لملك بابل ولا لملك

هانيجالبات (ما تبقى من المملكة الميتانية القديمة)، ورد رمسيس على تك الرسالة مخبراً أخاه الملك أنه تلقى رسائل من أولئك الملوك ذاتهم يعرضون فيها بناتهم عليه، إلا أنه طمأن حاتوسيلى أنه سيوليه هو ذلك الشرف.

وبينما تبادل الملكان عدداً من الرسائل تتعلق بمشروع الزواج، كان المفاوض الرئيسي لذلك المشروع من الجانب الحثيني بلا أدنى شك الملكة بودوحيبا قرينة حاترسيلي، وبالفعل كانت مهمة سمسار الزيجات الملكية إحدى المهام الرئيسة الملكة بودوحيبا، والتي عن طريقها كانت تدير كثيراً من شئون المملكة، لقد كتب رمسيس رسائل خاصة بالجوائب الروتينية المتعلقة بالزواج لكل من حاتوسيلي وتقريباً ذات النص لبودوحيبا، كانت رسائله لماتوسيلي تتعلق بالجوائب الدبلوماسية، وبعضها على سبيل المجاملة، أما رسائله لبودوحيبا فقد كانت تتعلق بالجوائب العملية التي بيجب إنجازها،

والرسائل المتبادلة بين الفرعون ويودوحيبا يمكن وصفها بأنها أقل من ودية، كانت أهم أسباب عدم الرضي لدى رمسيس تقاعس حاتوسا عن إرسال عروسه الحثينية، وكتب عن ذلك بنفاذ صبر إلى بودوحيبا:

«أَحْتَى، لقد وعدت بإعطاء ابنتك لى، وهذا ما كتبت به إلى، إلا أنك احتجزتها عندك وغاضبة منى، فلماذا لا تعطها لى؟»

وكتبت بودوحيبا في ردها على رسالته:

دأنا بالفعل أحتجزت ابنتي، وأنت بالتأكيد ستؤيدني فيما فعلت».

لقد ساقت إلى رمسيس عذراً لم يخف على رمسيس ما يتضمنه من جشع:

«لا أستطيع أن أرسل إليك ابنتى في الوقت الصالي، لأن منضازن الحثينيين كما تعلم قد احترقت، وكل ما لم تطله النيران سلمه أورحى --يتشوب إلى بيت الرب الأعظم»(15).

ويبدو أن المبنى الذى احترق كنان من أهم مخازن الشروات في الملكة (16)، وكان يحتوى على الأشياء التي تصلح لإعداد وتجهيز عروس

للرواج، وأدى ذلك الحريق الهائل إلى أضرار اقتصادية كبيرة المملكة الحثينية، بالرغم من أنه حدث قبل سنوات حين كان أورحى – يتشوب ابن أخى حاتوسيلى مازال على العرش قبل أن يغتصبه حاتوسيلى، ولم تترك بودوحيبا فرصة ذكر أورحى تيشوب تمر مرور الكرام دون أن تلمح إلى إيواء فرعون مصر له:

«وحيث إن أورحي – تيشوب لنيك» اسأله عن صحة ما أقول».

وكانت إشارتها إلى أورحى - يتشوب إشارة متعمدة، فبعد أن فقد عرشه، فر من المنفى الذى أرسل إليه ولجاً إلى مصر، ولم يشاً فرعون مصر أن يطرده، وحين تكرر طلب حاتوسيلى لفرعون مصر بتسليم أورحى - يتشوب أو طرده من مصر، أنكر الفرعون وجوده بمصر، وقال «لقد فر من مصر كالطائر»، وادعى أن أورحى - تيشوب موجود في ذلك الوقت في بلاد المشينيسين ذاتها (وهناك المزيد عن تلك المشكلة في الفصل13)، ولم يصدقه حاتوسيلى ولا بودوحييا، ولم تخف بودوحيها ذلك في رسائلها، كما لم تقاوم إغراء معاندة زوج المستقبل لابنتها، كان نفاذ غير الفرعون بتأخر العروس له علاقة ببائنتها، ويظن قارئ الرسائل من شغفه وقلة صبره وتلهفه على وضع يده عليها أن بلاده هو (أي الفرعون) قد حل بها الفقر والفاقة، لدرجة أن العريس يتطلع إلى وضع يده بسرعة قد حل بها الفقر والفاقة، لدرجة أن العريس يتطلع إلى وضع يده بسرعة على ثروة العروس، وعبرت بودوحييا عن ذلك في رسائة منها إلى رمسيس على ثروة العروس، وعبرت بودوحييا عن ذلك في رسائة منها إلى رمسيس قائلة:

«هل أصبح أخى لا يمك شيئًا على الإطلاق؟ إذا كان ابن إله الشمس، ابن إله الشمس، ابن إله العواصف والبحر لا يملك شيئًا، هل لا تملك شيئًا، ولكن يا أخى، تريد أن تغتنى على حسابى هذا لا يليق بسمعتك ولا بمكانتك». (17)

وبعد أن وبحَّت رمسيس على مقادُ صبره من تأخر العروس، انتهزت القرصة التغني بمحاسن العروس ومزاياها:

«بِمن يمكننى أن أقارن ابنة السماء والأرض التي سأعطيها الأخي؟ هل يمكن أن أقارنها بابنة بابل أو زولابيا أو أشور؟» (18) ويعبارة أخرى، إذا لم يكن باستطاعة رمسيس أن يكبع نفاذ صبره أكثر من ذلك، فإن العروس من المحاسن ما يجعلها تستحق الانتظار، وبالفعل كانت العروس التى تليق برمسيس لابد أن تنتقى وتدرب على يدى بودوحيبا بعناية فائقة، ولم يكن العروس أن تجد معلمة ومرشدة أفضل من أمها الملكة بودوحيبا، فعند وصول بودوحيبا لأول مرة إلى القصر الملكى في حاتوسا وجدت غرف أطفال القصر، وأماكن لهو الأطفال ملبئة بكثير من الأمراء والأميرات الصغيرات، وكان كثير منهم من زوجها وزيجاته الثانوية ومن خليلاته أيضا(19). ولا يوجد شك في أن أعدادهم لم تتوقف عن الزيادة، كان أبناء الملك من الذكور مطلوبين بشدة؛ لتولى المناصب عن الزيادة، كان أبناء الملك من الذكور مطلوبين بشدة؛ لتولى المناصب الادارية في المملكة، وللقسيام بالمهام الدبلوماسية، وكانوا أحيانًا ما يستخدمون في مصافرات التحالف مع ممالك أجنبية، أما الأميرات، خاصة المستقات في مصاف عليا طبقًا لأرضاع أمهاتهن في قصر الحكم، فقد كن منذ مولدهن مادة مخصصة لزيجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن لايجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن لايجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن لايجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن لايجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن للحياة المنتقات المنافئ المؤلى المؤ

ويعتمل أنه لم يكن شرطًا لازمًا أن تكون الفتاة التي تختار كعروس لرمسيس الثاني ابنة للملكة والزوجة الأولى بودوحيبا، وكان ذلك ما يتوقعه رمسيس، إلا أن بودوحيبا أشارت بوضوح ويجلاء أن العروس ابنتها هي، إلا أن المصطلع يحمل من المرونة ما يجعله يمند ليشمل كل بنات زوجها اللاتي كبرن تحت رعايتها وإشرافها، كان التركيز في الاستقرار على عروس لفرعون مصر يتركز على انتقاء أفضل زهرة من بين ذلك المحسول الملكي، ولو تصادف أن كانت أفضل زهرة ابنة لامرأة عشينية أخرى من رفيقات فراش الملك، فإن ذلك لم يكن ليشكل صعوبة عظمى في إعلان أنها أميرة من الدرجة الأولى، وطالما قبل رمسيس العروس على أنها ابنة بودوحيبا وحاتوسيلي، فإن هذا أهم ما يحقق المطلوب.

تطلبت المفاوضات المطولة حول شروط الزواج كشيراً من الذهاب

والعودة والمجيء والرحيل لمبعوثين ورسل من الجانيين، وأضاف التمهل في تجهيز العروس وإكمال بائنتها وكل ما يليق بابنة ملك عظيم، إلى طول الوقت الذي استغرق نظله الزواج حتى إتمامه، ويحتمل أنه استغرق بضعة أعوام، من اللحظة التي طلب فيها رمسيس الزواج من ابنة حاتوسيلي والمفاوضات التي تلته إلى إعداد وتجهيز العروس حتى إرسالها، وكان انتقال بائنة العروس من المفترض أن يتم على مرحلتين، كانت بودوحيبا قد طلبت من رمسيس أن يرسل رسولاً سريعًا، أي راكب جواد، ومعه الوثائق اللازمة لإكمال الرسميات الخاصة بنقل المتلكات الحية والعبيد. وكان طلبها طلبًا متعجلاً ألح على السرعة، فقد كانت هناك مجاعة في بلادها في ذلك الوقت وكان مغادرة الحيوانات الحية من البائنة يخفف الضغط على المصادر الفذائية الحثينية لإطعام تلك الحيوانات، ومن الواضح أن ذلك المكون من قائمة بائنة هدايا العروس لعربسها تم عن عمد تسبيقه على حفل العرس وعلى باقى منقولات البائنة.

واشتكت بودوحيبا أن رمسيس لم يستجب لطلبها ذاك - فقد ظل المبيد والحيوانات المية في البلاد المثينية.

وأخيرًا، أصبح كل شيء معدًا لرحيل العروس، كانت بودوحيبا مازال يسيطر على أفكارها مصير عم زوجها زانانزا الذي لقي مصرعه وهو في طريقه إلى مصر، الزواج بآرملة توت عنخ أمون في ظروف غامضة، ويذلت بودوحييا أقصى جهودها لتأمين كل الطريء وقد كان على نفس المسار المشار إليه، وكتب حانوسيلي إلى رمسيس يعلمه أن ابنته أصبحت جاهزة للرحيل:

دفليات مفرضك ليسكب زيت التكريس على رأس لينتى، ليصحبها إلى بيت الملك العظيم، ملك بالاد مصر، أشى».

وفى سعادة وحبور رد رمسيس على حاتوسيلى، معيداً ما ذكره(20)، وإلى بودوحيبا بالنص ذاته:

«رائع، رائع ذلك للوقف الذي كتب لي أخي عنه لقد شاء إله الشمس

وإله العواصف، وآلهة أرض مصر، وآلهة أرض الحثيثيين أن تتحد بلدانا إلى الأبد».(21)

ومن خلال ترتيبات السفر، كما سجلت في المراسلات، يمكننا تتبع مراحل انتقال موكب العروس حتى مصر، أخبرت بودوحيها رمسيس أن الأميرة ستخرج من حاتوسا محمية بقوات عسكرية من الجيش يقودها أمير حثيني، ربما كان الأمير نيريكايلي، الابن الأكير لحاتوسيلي(22)، وأن الملكة بنفسها ستصحب العروس حتى حدود نقوذ مصر في جنوب سوريا. كما كتب رمسيس إلى أحد حكام كنعان في منطقة الحدود، وأمره أن يلبي كل طلبات واحتياجات موكب العروس وأن يقوم بتأمين حراستهم ومرافقتهم، بمجرد دخولهم أرض الفرعون في جنوب سوريا، وأن يكون مسئولاً بصفة رسمية عن حماية الموكب، ثم يتبقى أمر الحيوانات الحية والأسرى العبيد القوقازيين، أخبر الفرعون حاتوسيلي بأنه أصدر الأوامر لاثنين من حكام الأقاليم في أوبي وكنعان أن يتوليا مسئولية الأغنام والجاموس والعبيد بمجرد عبورها إلى الأرض المصرية(23)، كما بعث برسالة إلى بودوحيبا حول نفس الموضوع(24).

كان القوقازيون يشتهرون بأنهم خطرون وعدوانيون، حتى وهم أسرى، ولا يوجد شك أن بودوحيبا كانت سعيدة بانتهاز تلك الفرصة؛ للتخلص من أولئك الأسرى القوقازيين بإرسالهم إلى مصر كعبيد، وأعلن رمسيس أنه يرحب بإرسالهم إلى مصر، ولكنه نصح الملكة بأن تشدد الحراسة عليهم، حتى وهم مازالوا في الحبس الحثيني، حتى لا يشكلون أي تهديد أو خطر على المرتدلين في حقلة العرس، وكانت بويوحيبا قلقة تخشى أن يحاولوا الفرار في برية المسحراء ويرجعوا إلى بلدهم، إلا أن رمسيس محى تلك المخاوف قائلاً.

«لو كان أي أحد أحدق بما يكفي ويفر في الصحراء، دعيه يفعل ذلك، لأنه بكل تأكيد سياقي حتقه فيها».

في الوقت نفسه، كان كل شيء معدًا في مصر لاستقبال موكب

المرس، كان رمسيس قد شيد للعروس قصراً جميلاً، وأعلن أن هدية العروس سنفرق أي هدية لأي ملك عظيم، وأخيراً، وبعد أن اجتاز المركب أخر المراحل الخطيرة من رحلته عبر شبه جزيرة سيناء، وصل موكب العرس إلى غايته، إلى المدينة الجديدة الرائعة التي شيدها رمسيس وأسماها بي – راميس في الدلتا، وجاءت اللحظة التي يشاهد فيها الفرعون عروسه الحثينية لأول مرة، وكانت كما توقع، وحظت باستحسانه، وسجلت بودوحيها عن ذلك:

كانت جميلة في نظر جالاته، وأحبها أكثر من حبه لأى أحد أخر وهكذا (25)، أخيراً تم الزواج، في ألعام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس (1245). كان سرور الفرعون بعروسه العثينية يذكرها بحب أبيها لأمها من أول نظرة حين التقيا أول مرة من ثلاثين عامًا سابقة على وجه التقريب. أما بالنسبة لأبويها، فقد كان الأمر يتجاوز الحب والعواطف فلودام ذلك الحب من رمسيس لعروسه الحثينية، فإن ابنتهم تزيد فرصتها لأن تصبح ذات نفوذ في البلاط المصرى، وهو ما يعود بفوائد جمة على الحثينيين، ومما لا شك فيه أن بودوحيبا كانت قد دربتها وأعدتها للعب ذلك الدور، ومن يستطيع أن يقوم بذلك خير من بودوحيبا؟

إلا أن ذلك التطلع لم يكن واقعيًا بأى حال، كانت مصر منذ بداية عصر الملكة الحديثة تتميز بظهور ملكات مصريات قويات، ضمن الأسماء التى ترد بسرعة على الذهن: الملكة تايى، زرجة أمونحتب المثالث، ونفرتيتي زوجة أخناتون(26)، وعنخسن أمون زوجة توت عنغ أمون، ونفرتارى زوجة رمسيس، ويبدو أن نفرتارى كانت قد ماتت في العام الثلاثين من حكم رمسيس على الأقل(27). وحتى لو كانت زوجته الثانية ايزيت سنرفرت، والتي عاشت طويلاً قد احتلت مكانة نفرتارى بعد موتها وأصبحت السيدة الأولى، إلا أنها ماتت هي الأخرى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين(28)، لهذا السبب، بدا توقيت الزواج بالأميرة الحثينية توقيتًا وحمل فرصة رائعة إذ كان الطريق معهداً أمام العروس لتصبح الزوجة يحمل فرصة رائعة إذ كان الطريق معهداً أمام العروس لتصبح الزوجة

الأثيرة للفرعون، لقد كانت هذاك سوابق للملوك الصثينيين الذين كانوا يشترطون أن تصبيح بناتهن الزوجة رقم واحد في محصاهرات التحالف(29). إلا أن ذلك الأمرحتي تلك اللحظة كان يمكن اشتراطه على ملوك تابعين أو حكام محميات خاضعة لنفوذهم، إلا أنه لم تكن هناك سابقة لأميرة أجنبية أصبحت زوجة الفرعون الأولى، حتى لو كان ذلك شرطًا وضعه حاتوسيلي أو بالأحرى بودوحيبا، لقد كتبت بودوحيبا إلى رمسيس قائلة.

«أحب أن تجعلها في مرتبة أعلى من كل بنات الملوك العظام، وألا يجد أي أحد أن هناك من يضارعها في منزلتها».(30)

وربما كان العريس المخلوب اللب، إن كان قد كان كذلك فعلاً، كان سعيداً جداً ووافق على الشرط – أو على الأقل ليتم الزواج.

وأطلق على العروس اسمًا مصريًا هو ماعت حور - نفرورى، أى «التي ترى حورس، عظمة رع المرئية»، وكانت بالفعل قد أصبحت زوجة الفرعون الرئيسة، ربما استجابة للشروط الأولى، وبالتأكيد اختصتها النصب التذكارية في بلدها الجديد بحظ وافر من التكريم الذي تحظى به سيدة البلاد الأولى.

وحتى لو كان ذلك قد حدث، فإن المرء يسيطر عليه انطباعًا مؤلًا أن وصمة كونها أجنبية كانت تعمل ضدها طول الوقت، وأن فترة سعدها لن تدوم،

فضلاً عن ذلك، حتى لو كان رمسيس قد أحب عروسه لذاتها، إلا أنه ظل يبرز تلك العروس وبائنتها التي جلبتها معها كنوع من الجزية وضع تعت قدميه، كترضية ولاء أرسلت إليه من بلاد الحثينيين، وسجل رمسيس ذلك:

«ثم أرسل ملك الحثيثيين ابنته مع جزية هائلة سبقتها من ذهب وفضة وكثير من البرونز، والعبيد ومجموعات خيل بلا عدد، وماشية، وماعز، وكباش بعشرات الآلاف، بلا عدد، وهي جزية نقعت ارمسيس».(31) والدعاية السياسية لا يمكن إغفالها، ونرى من خلالها سببًا واضحًا وضوحًا تامًا لماذا كان الفراعنة يرفضون رفضًا تامًا تزويج بناتهن لملوك أجانب؟ لأن ذلك، من وجهة النظر المصرية، يساوى ويوازى دفع جزية، أي أنه عمل من أعمال ولاء التبعية، يقوم به من هو أدنى، إلى من هو أعلى مرتة وأرفع مقامًا.

لقد زعم رمسيس أن روابط المصاهرة قد قوت الاتحاد بين مصد والحثينيين - مما زاد من غم وكدر ماوك البلاد الأخرى، صحيح أنه ثبت بعد ذلك أن الزواج الذي استهلك كل ذلك العناء لم يزد عن كونه نتاجًا ثانويًا للتحالف المصرى - الحثيني كما كان قصير العمر.

كان لماتوسيلي أملاً معينًا إلا أنه لم يتحقق، وإذا كتب في ضيق للفرعون:

«كنت ساعطى حاتوسا لابن بنتي لو كانت قد وضعت ذكرًا، إلا أنك لا تهب ذكورًا لابنتي، ألا يمكن لأخي أن ينجب ولدًا كما يقال؟ (32)

وكانت تلك الرؤية غير عادلة، فقد أعطى رمسيس، وعلى مدى زمني طويل سيظل يعطى أدلة كافية بلا نهاية أنه قادر على إنجاب ذرية بلا عدد من الجنسين.

أما إن كان حاتوسيلي قد قصد فعاد أن ابنًا ذكرًا لرمسيس من زوجته الأميرة العثينية من المكن أن يعتلي العرش العثيني ذات يوم، فإن ذلك يظل غير مؤكد.

لقد ظل حاتوسيلى لفترة طويلة يهى ابنه تودحاليا لأن يكون خليفته على العرش الحثيني، وكان تودحاليا هو الأخر في ذلك الوقت قد أنجب ذكوراً من صلبه.

وعلى كل حال، اختفت الأميرة الجميلة ماعت - حور - نيفرورى من المشهد، وهناك جزء من نص منقوش يذكر أنها عاشت في جناح حريم الملك بالقرب من الفيوم، مما يظهر أنها قد فقدت وضع السيدة الأولى للفرعون(33).

إلا أنه من الصعب أن نعتقد أن بوبوحيبا قد قبلت بذلك، ونحن نعرف أن العلاقات ظلت وبية بين مصر والحثينيين في الأعوام التي تلت الزواج، خاصة بعدما أرسلت أميرة حثينية ثانية إلى مصر كعروس أخرى لرمسيس، ربما بعد فترة قصيرة من موت حاتوسيلي، ومن الصعب أن نتخيل أن البلاط الحثيني، وعلى رأسه بوبوحيبا، كان يوافق على زيجة أخرى إذا كان رمسيس لم يستطع التقيد والالتزام بشروط الزيجة الأولى، الأقرب للاحتمال أن الأميرة ماعت - حور - نيفروري قد ماتت بعد زواجها من رمسيس بفترة قصيرة، ويحتمل جدًا أن ذلك كان السبب في سعى البلاطين المثيني والمصرى، لتجديد العلاقات الشخصية بينهما، من خلال إعطاء عروس حثينية أخرى الفرعون.

7

بحثا عن معجزة

ربما كانت محسر أخر مالا يلجأ إليه حاتوسيلى، حين كتب إلى رمسيس عن مشكلة استعصى عليه حلها. كانت شقيقته ماسانوتزى عقيماً، وكانت قد وهملت إلى عمر تجاوز العمر الذي يمكن لها فيه أن تحمل وتنجب، ولا يوجد شك أن حاتوسيلى ملك المثينيين كان قد استشار أطباء واستعان بهم، إلا أن الأمر كان واضعاً دون الحاجة إلى مختصين بعلوم العمل والولادة؛ لأن شقيقته كانت قد تجاوزت العمر الذي يمكن أن تحمل فيه، ولم يعد هناك أي احتمال لحدوث حمل، والمشكلة أن أخاها كان يرغب بشدة ويتوق أن تحمل أخته، وكانت مصارحته بأنه يطلب المستحيل من أشق المهام على أطبائه، ولا يمكن لأحد منهم أن يظلب المستحيل من أشق المهام على أطبائه، ولا يمكن لأحد منهم أن يظلب المستحيل من أشق المهام على أطبائه، ولا يمكن لأحد منهم أن يظلب المستحيل من أشق المهام على أطبائه، ولا يمكن لأحد منهم أن يخاطر بوظيفته كطبيب بالقصر الملكي، وكان البديل المقبول أن يدعوه على نظرتهم تحقيق أماله تلك.

وكان تلك المشكلة هي السبب في كتابة حاتوسيلي لواحد من أهم رسائله إلى رمسيس(1)، وربما كتب تلك الرسالة ثحت إلحاح أطبائه، بالرغم من أنه كان بإمكانه المبادرة إلى ذلك من تلقاء نفسه، فمصر كانت تشتهر وتحظى بسمعة دولية بخبرة أطبائها، وأن أولئك الغبراء من الأطباء المصريين يممكن استدعاؤهم؛ ليقوموا بتحقيق المجزة التي يطلبها حاتوسيلي، لذلك كتب تلك الرسالة إلى فرعون مصر، ولا يوجد شك في أنه كتبها مرغمًا؛ لأنها تضمنت اعترافًا يخجله بأن شقيقته فشلت في تحقيق أهم مسئولياتها كأميرة، وهي إنجاب وريث. كتب قائلاً:

-ساكون ممتنًا أشد الامتنان إذا أرسات إلى من يجيد تحضير عقاقير

تجعل شقيقتي تنجب،

وأكمل رسالته معترفًا أن طلبه قد يعد غير طبيعي بشكل ما؛ لأن الأميرة تجاوزت مرحلة شبابها، إلا أن لنيه ثقة كبيرة فيما يمكن أن تنجزه وتحققه علوم الطب المصرى.

فلماذا كانت تلك المشكلة تهم حاترسيلي إلى هذه الدرجة؟ كانت شقيقته زوجة لأحد الحكام الخاضعين للنفوذ الحثيني في غرب الأناضول، وكان اسمه ماستورى، ملك بلاد نهر سيمون، كانت تلك الملكة تدين بالولاء الحثينيين من زمن طويل، وكانت تلعب دوراً استراتيجياً هامًا في تلك المنطقة.

أما في قديم الزمن فقد كان ولاؤها موضع شك، كان أبو ماستوري وسلفه في حكم مملكة بلاد نهر سيمون الملك مانابا – تارحوندا قد خرج عن تحالفه مع المثينيين في بداية عهد الملك الحثيني مورسيلي الثاني، وتجنب التعرض لضرية قاسمة من القوة الكاملة للجيش الحثيني، بعد أن خرج مورسيلي الثاني بنفسه على رأس الجيش وأصبح على أبواب المدينة، ولم يبق إلا إشارة بدء الاجتياح حين تراجع مانابا – تارحوندا في اللحظة الأخيرة وأعلن خضوعه، وعدل مورسيلي عما اعتزمه من انتقام، وتراجع عن إلحاق أي أذى به بعد أن ضرجت إليه أمه من المدينة المحاصدة، وتضرعت إليه أله من المدينة المحاصدة، وتضرعت إليه ألا يلحق بابنها أي أذي.

قرر مورسيلى أن يعفى عنه، وأن يعطيه فرصة ثانية وثبت مانابا - تارحوندا على عرشه كملك خاضع للحثينيين، ومن حينها ظل وفيًا ووليًا للعرش الحثيني، إلا أنه مع مرور الأعوام قلَّ دوره، وبدأ يتقاعس عن رعاية المصالح الحثينية بالهمة نفسها التي كان عليها في منطقته، ومن وثيقة شهيرة يشار إليها في العادة باسم رسالة منابا - تارحوندا نعلم أنه خلال حكم ميواتاللي خليفة مورسيلي حاول محاولة فاشئة إنقاذ مملكة ويلوسا المجاورة له والخاضعة بدورها النفوذ الحثيني من غزو عصابة شهيرة يترأسها قاطع طريق شرير(2) اسمه بيامارادو، كان يثير الفوضي

والفرع في كل المسالك الصغرى بفرب الأناضول الضاضعة لنفوذ المشينة بمنابا - تارحوندا. فقام ميواتالي بإرسال قوة حثينية للقضاء على عصابات بيامارادو، وأرسل إلى منابا - تارحوندا - الذي كان لابد القوات الحثينية من المرور ببلاه، حتى تصل إلى ويلوسا - بأن يستعد لدعمهم والانضمام إليهم، إلا أن منابا - تارحوندا كانت همته قد فترت بعد الهزيمة التي مني بها على أبدى عصابات بيامارادو، ولم تكن لديه الإرادة لخوض مواجهة حربية أخرى، ووجد أن ذلك الوقت هو أنسب فرصة لادعاء المرض، فكتب إلى سيده الكبر ميواتالي مدعياً المرض، وقال في رسالته:

«للد مرضت، أنا مريض جدًا، أنا طريح الفراش من شدة المرض»(3).

وقامت قوات ميواتالى بطرد عصابات بيامارادو من ويلوس دون معاونة منابا – تارهوندا وأصبح الملك المسن منابا – تارهوندا – المتقاعس فاقد الهمة – مبنًا على المملكة الحثينية، ولا يمكن اهتماله أكثر من ذلك، فخلعه ميواتالى عن عرشه ونصب ابنه ماستورى مكانه، وتبين أنه كان قرارًا صائبًا، لذلك كافأوه بتزويجه من ابنة الملك، ويعد ذلك نوعًا نادرًا من المكافئة والتقدير لملك تابع إذ أن ابنه الذي سيخلف على العرش سيكون هفيدًا للملك الأعظم، وبذلك يظل عرش المملكة التابعة محصورا في سلالة حثينية، وهي سلالة ميواتاللى، ولكن لما نشب الصراع بين ابن ميواتاللى، أو رحى – تيشوب وبين عمه حاتوسيللى، انحاز ماستورى إلى حاتوسيلى، ودفض أورحى – تيشوب، لكونه مجرد ابن لزوجة الملك من الدرجة الثانية.

لذلك، لما نجع صاتوسيلى فى انتزاع العرش، كان لديه على الأقل طيف واحد مخلص من بين كل الملوك الخاضعين النفوذ الحثينى فى غرب الأناضول، كانت المشكلة، فى الوقت الذى كتب فيه حاتوسيلى إلى رمسيس طالبًا أطباء مصريين لشقيقته، أن زوجها كان قد بدأ يطعن فى السن ومازال هو وزوجته دون إنجاب وريث العرش، وأدى ذلك إلى موقف خطير يتوقع قيه حدوث صراع على عرش الملكة الخاضعة، خاصة مع وجود تيارات قوية بتلك الملكة مناهضة للنفوذ الحثيني، وجاهزة للوثوب على العرش فور موت ماستوري. كانت هناك مشاكل بغرب الأناضول من ملك احياوا، بالإضافة إلى مشاكل بيامارادو، ولم يكن ينقصهم أن يموت ملك خاضع لهم دون وريث، فتضاف إلى المشاكل السابقة مشكلة أخرى أخطر وأكثر استعصاءً على الحل، لذلك يعكننا أن تتقهم سعى حاتوسيلي بكل الوسائل في أن يكون لماستوري ابن من زوجته الحثينية، وكذلك تفاضيه عن تعريض نفسه للهوان مع فرعون مصر بتوجيه نداء تضرع وإلحاح إليه ليحقق له أمنيته.

وانتهز رمسيس ثلك الفرصة بأقصى ما أتيح له، رد عليه قائلاً:

«انظر، أنا أخواك، أعلم بمشكلة شقيقتك ماتاناتزى(4). والمشكلة أنها في الضمسين، هذا إن لم تكن في الستين من عصرها، واصرأة في الفسين تعد امرأة مسئة، إن لم نقل أنها في الستين، ليس في استطاعة أي أحد أن يعد أي عقاقير تمكنها من حمل أطفال حسنًا، يمكن لإله الشمس وإله العواصف أن يأمرا، والأرامر التي سيعطيانها ستنفذ على الدوام لمسالح شقيقة أخي، وسوف أرسل أنا الملك، أخوك، أكبر كاهن تعاويذ مع طبيب خبير إذا وجدا وسيلة تمينها على المعله(5).

كان ذلك الرد المتعجرف هو تماماً ما توقعه حاتوسيلي من الفرعون، وكان رمسيس على يقين أن أخاه الملك يقلل من عمر شقيقته، ولم يظهر أي قدر من الكياسة في إعلامه بذلك، وفي المقيقة، ويافتراضه أن شقيقة الملك من المكن أن تكون في الستين من عمرها كان بالفعل قريبًا من الصقيفة، - بل ربما كان كرمًا منه أنه لم يذكر أكثر من ذلك، كان حاتوسيلي وأشقاؤه وشقيقاته أبناء مورسيلي من زوجته الأولى جستُول (ي) ويًا، التي ماتت في العام التاسع من حكم مورسيلي - حوالي 1312 والرسالة تنتمي إلى مجموعة المراسلات المتبادلة بين البلاطين الملكيين، والمصرى بعد إبرام معاهدة السلام بين رمسيس وحاتوسيلي، أي

أن الرسالة كتبت في عام 1258 أو 1257، لذلك يفترض أن عمر ياسنوتزي شقيقة حاتوسيلي كان عند توقيع المعاهدة يشارف الخامسة والخمسين، ومن المكن أن تكون أكبر من ذلك بخمسة أعوام أو أكثر، كان حانوسيلي هو الأصغر بين أربعة إخوة، وكان عمره – على الأقل حين كتب تلك الرسالة إلى رمسيس – خمسة وخمسين عامًا. ويحتمل أن شقيقته تلك في أفضل الأحوال هي الأكبر منه مباشرة، أي أكبر منه بعدة أعوام، كما يحتمل أن المُطاب قد كتب بعد عام 1257، لذلك إذا أخذنا بأشد وجهات النظر تحفظًا، تكون تلك الأميرة على مشارف السّتين حين كتب شقيقها تلك الرسالة إلى الفرعون، ومن الواضح أن رمسيس كانت لديه مصادر معلوماته عن أسرة حاتوسيلي، فكيف توصل إليها؟

من المحتمل أنه كان لديه على الأقل ببلاطه الملكى من هو على دراية جيدة بمثل تلك الأمور، فهل كان ذلك المصدر بنت أخيها أو رحى --يتشوب؟

من الصعب استنتاج ما حدث بعد ذلك، كانت مخاوف حاتوسيلي حول مستقبل المملكة التابعة له – والتي يحكمها زوج شقيقته ألذي لم ينجب وريثًا – مخاوف حقيقية ولها ما يبررها، كان ماستوري مازال علي عرش مملكته بغرب الأناضول حين مات حاتوسيلي وخلف على عرش حاتوسا ابنه توبحاليا(6). إلا أن ما حدث بعد ذلك هو ظهور اسم جديد على عرش المملكة التابعة وهو تارحانارادو، ويحتمل أنه أزاح ماستوري عن العرش أو اعتلاه بعد موته، إذ لم يكن له وريث من صلبه، وكان الملك الجديد منقطع القرابة تمامًا بسلفه وعائلته، وانتهز فرصة عدم وجود وريث شرعي للعرش ليبدأ حركة الاستياده على الحكم، وهو بالضبط ما تطلع حاتوسيللي إلى تجنبه بأي ومبيلة. علاوة على ذلك حظي تارحانارادو بدعم ومساندة احبًاوا ملك الملكة المارقة على الحكم الحثيني والمجاورة له، ولا يدع ذلك مجالا للشك أن تلك الملكة المائحة الضاهية، أصبحت من التكتل يدع ذلك مجالا للشك أن تلك الملكة الخاضيعة أصبحت من التكتل ليناهيض الحكم الحثيني في غرب الأناضول.

أما من وجهة النظر الحثينية، فإن ذلك الوضع أصبح من المتعذر السكوت عليه أو احتماله، فقام توبحالها على رأس جيش كبير بحملة عسكرية على تلك المائك المتمردة، واستعاد السيطرة عليها، وأسر الملوك المتمردين وعائلاتهم وكل من يمت لهم بصلة، وسيطر على ممالك نهر سيحون، كما غنم ٥٠٠ طاقم من الخيل، وأعيد عرش الملكة التابعة لعائلة مانابا - تارحوندا وما ستوري(7).

الاستفادة سن خبراء الأطباء الأجانب

كان إيمان هاتوسيلى بقدرات الأطباء المصريين، وإن كان ساذجًا فى طلبه السابق ليس قاصرًا عليه وحده، وكان يشاركه الإيمان بقدرات الطب المصري على عروشهم.

وطبقًا لما سنجله هوميروس، كانت مصدر من أغنى البلاد بالنباتات الطبية، حتى إنه كان يعتبر أن كل مصدى يعد طبيبًا، ويذهل أى امرى غير مصرى بفزارة معلوماته الطبية(8).

وبعد هوميروس بعدة مئات من السنين، ذكر المؤرخ اليوناني هيرودت أمثلة كثيرة على السمعة الطبية العالمية العظيمة التي كانت تشتهر بها مصر، ومنها علاج أمراض العيون، وسجل هيرودت: أن الملك الفارسي قورش أرسل رسالة من بلاد فارس إلي مصر أثناء حكم الملك أماسيس، أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (أحمس الثاني 570 – 526) ومع الرسالة تعليمات بإرسال أفضل طبيب عيون في كل أنجاء مصر (9)،

واستفاد حاتوسيلي هو الآخر من خبرة أطباء العيون المصريين، فقد كان حاتوسيلي في طفواته طفلاً عليلاً، وبالرغم من ذلك تمكن من اجتياز كل علل الطفولة، ولم يمت على عكس ما كان متوقعًا له، ويدأ في إحراز نجاح ملحوظ، إلا أن يعض العلل ظلت ملازمة له بعد ذلك، كان منها التهابات مزمنة بالقدمين، ومرض بعيونه، واشتد عليه مرض عينه أثناء إنجاز المراحل الأخيرة من مفاوضات معاهدة السلام ألتي كانت جارية بينه وبين رمسيس الثاني، ولما علم الفرعون بذلك، أمر على وجه السرعة بإعداد عقاقير أمراض العيون وأرسلها إلى حاتوسيلي مع رسالة قال فيها:

«أمرت ضابط عجلة حربية سريعة بمصاعبة بريعنارا، وأمرتهم بالذهاب إلى بنتشينا، عاصمة بلاد العموريين مع رسولى بريحناوا. وأعطى بنتشيئا كل الأدوية التي اصطعبها معه، ومن بنتشيئا سافر ضابط آخر بها إلى أخى، بالأدوية التي أعدها الملك، أخوك، وأرسلها على وجه السرعة مع بريعناوا ((10)).

ومن الواضح والثابت أن تلك العقاقير كانت شافية؛ لأن هاتوسيلي طلب بعدها طلبًا أخر مماثل:

«تلك العقاقير التي أرساتها لعلاج عيني كانت فعالة، من فضلك أرسل لي مزيدًا منها».

ورد عليه رمسيس، بسعادة من له فضل(11):

«أمرت برياماهم أن يعضر إليك مزيدًا من تلك العقاقير الشافية لعيون أشيء.

غير أن رمسيس لم يكن من ذلك الصنف من الناس الذي يفعلون أنمياف الأشياء، ففي رسالة أخرى منه لحاتوسيلي، عدد من ضمن قائمة هداياه التي أرسلها إلى حاتوسيلي «خمس أوان كيوكوبو بمقاقير ممتازة العيون، وعشرون سلة بعقاقير ممتازة العيون، وعشرون سلة بعقاقير ممتازة العيون، واعاد رمسيس ذكر تلك الملومات إلى الملكة بويوميبا زوجة حاتوسيلي في رسبالة منه إليها (13)،

وكما علمنا من مراسلات حاتوسيلى ارمسيس عن مشكلة أخته العاقر، كان رمسيس يرسل أطباء مصريين، بناء على طلب أخيه الملك، لعلاج أعضاء آخرين من أسرة حاتوسيلى. وحدث ذلك أيضًا في عهد ابن حاتوسيلى الملك توبحاليا الرابع فقد كان ابن عمه كورونتا حاكم اقطاعية في جنوب الأناضول اسمها تارحونتاسا قد أصيب بمرض فشل أطباء وكهنة القصر الملكى في علاجه. وتطور المرض، بغض النظر عن طبيعته، إلى درجة جعلته مشرفًا على الموت. كان كورونتا شقيقًا لأورحى – تيشوب المخلوع عن العرش، إلا أنه أظهر ولاءً شديدًا لأسرة حاتوسيلى، وحكم تارحونتاسا بكفاءة كحاكم خاضع لنفوذ حاتوسيلى، وكان موته يشكل ضربة خطيرة لمصالح الحثيثيين بتلك المنطقة. وكتب توبحاليا إلى فرعون مصدر واصفًا أعراض مرض ابن عمه وطلب معونة مصدر الطبية. واستجاب رمسيس في الحال، وفي رسالة منه خلت من البلاغة الرسمية، دد عليه قائلاً:

«أتعلم، لقد أرسلت الآن الكاتب والطبيب بارياماهو، أرسلته لإعداد المقاقير الشافية لكررونتا ملك منطقة تارهونتاسا، وسوف يعد كل المقاقير اللازمة كما طلبت في رسالتك، ويمجرد أن يصل إليك ، ضع ملك أرض تارهونتاسا في مسئوليته، حتى يعد المقاقير اللازمة له، وأصرف الطيبين الموجوبين معه بكررونتا، ودعهما يعودان إلى مصر، بمجرد أن يصل الكاتب والطبيب بارياماهو، يجب إنهاء عمل الطبيبين الأخرين في اليوم نفسه، أترى، لقد وهيت كل ما ذكرته في رسائتك. في هذا الوقت الكاتب والطبيب بارياماهو في الطريق إليك، وسوف يعطيه كل أصناع الكاتب والطبيب بارياماهو في الطريق إليك، وسوف يعطيه كل أصناع المقاقير كما طلبت، (11).

ومن الواضح أن الأطباء المصريين نجحوا في اشفاء الملك كورونتا الموشك على الموت، وهو النجاح الذي ندم عليه تردحاليا بعد ذلك، إذ يبدو أن كورونتا بعد أن شفى تمرد على سيده الأعلى، بل إنه تمكن من احتلال العرش المثيني ذاته لبعض الوقت قبل أن يختفي اسمه تمامًا ونهائيًا من التسجيلات القديمة.

فى مناسبات كثيرة كان المعالجون المحترفون يقومون بزيارة المراكز الطبية فى بلاد أخرى؛ لتعلم آخر المنجزات الطبية التى تتبع فيها، أو على وجه التحديد كيفية علاج مرض معين. وهو منقوش فى رسالة فى أرشيف مارى كتبها اشمى – داجان، الخاضع للنفوذ الأشورى فى الكالاتوم إلى

أخيه يسمح - عدو، ملك مارى، فبعد أن أنبهر بالعلاج الذى تلقاه من طبيب أخيه، قرر أن يرسل أحد أطبائه إلى بلاط أخيه ليتعلم الوسائل الفعالة في علاج الأمراض، قال في الرسالة:

دأخبر يسمع – عنى: أخوك إشمى – داجان يرسل الرسالة التالية: المقاقير التى وضعها طبيبك على جسمى فى ضماده جيدة إلى أبعد مدى، بدأ الجرح في الاندمال، وقليلاً قليلاً توشك المقاقير أن تشفيه تماما، والآن، أرسل إليك مع كسابى هذا الطبيب شمسشى – عدو – توكولتى، دعه بلقى نظرة على تلك المقاقير ثم اتركه يعود في العال»(15).

كانت ممارسة طبية منتشرة إلى حد كبير بين ممارسى الطبابة خاصة من مصر وبابل أي يستأجروا أو يعاروا إلى بالاد أجنبية.

وكتب نيكمادو الثانى، ملك أوجاريت إلى أخناتون طالبًا طبيبًا مصريًا، ومن المدهش أن تلك المملكة الثرية والمتقدمة لم يكن لدى ملكها طبيا خاص به(16)، وكان من الواضح أن الملك نيكمادو كان يطلب تعيين طبيب مصرى مقيم في قصره، ولكن، بوجه عام، كان الأطباء يرسلون في مهام مؤقتة إلى البلاد الأجنبية، كان المغرض الرئيسي من إرسالهم علاج مرض محدد، كما في حالة الطبيب الذي أرسله رمسيس لعلاج كورونتا، وقاموا أيضا بتقديم خدمات استشارية أثناء إقامتهم في الخارج، مما كان يتيح للعاملين بمجال الطب في البلاد الأجنبية الاستفادة بخبراتهم ونصائحهم.

وبالفعل، كانت تظهر قيمة غيراتهم وفوائدها المعققة، حتى إن مضيفيهم من الملوك كانوا يميلون إلى استغلال كرم إخوانهم الملوك الذين أرسلوا إليهم أولئك الخبراء ويعتجزون أولئك الغبراء الطبيين إلى آماد غير محددة.

الأطباء البابليون فى البلاط الحثينى

وصل إلى علمنا حدثان طبيبان وردا في خطاب من حاتوسيلي إلى ملك بابل كاداشمان – إنليل، فقد أرسات بابل من لدنها طبيبين على سبيل الإعارة المؤقتة من بابل إلى حاتوسا، أحدهما في عهد ميواتاللي بصحبة كاهن معالج، والثاني في عهد حاتوسيلي ذاته، ولم يعد الطبيب ولا الكاهن المعالج إلى وطنهما أبداً.

واحتج كاداشمان – إنليل، وادعى أنهما محتجزان بلا مبرر فى بلاد الحثينيين ورد عليه حاتوسيلى فى كتاب منه منكرًا أى مسئولية من جانبه، وفيما يتعلق بأول اثنين، الطبيب والكاهن، راح يلوم ميواتاللى المثينى باعتباره السبب فى احتجازهما، وقال فى رسالته: «فى عهد أخى ميواتاللى أرسلت إليه كاهنًا معالجًا وطبيبًا واحتجزهما فى بلاد المثينيين، وتجادلت معه قائلًا: لماذا تحتجزهما حجز طبيب ليس صوابًا، (11).

لذلك قد نتساءل، ما الذي حدث للمحتجزين؟ لقد أصر حاتوسيلي على أنه ليس لديه أي فكرة عن مكان الكاهن، كما لم يظهر أي اهتمام بذلك، وبرر ذلك قائلاً: «ربما يكون قد مات»، وكان ذلك أفضل ما استطاع تقديمه من تفسير لاختفاء الكاهن، إلا أنه كان يعرف معلومات محددة عن الطبيب، كان الطبيب حيًا وفي أحسن حال، وطمأن أخاه الملك قائلاً:

داقد أصبح الطبيب مالكًا لبيت جميل هذا، واقترن بامرأة من أقربائي، ثم أضاف في مراوغة :

دان قال: أحب أن أعود إلى باندى، فسوف يعود إلى بلاده، فهل أكون بهذا احتجزت الطبيب رابا - شا - ماردوك؟ (18)

وما يتضمنه قوله واضح كل الوضوح، أى أن الطبيب البابلى لم يكن محتجزًا رغم إرادته في بلاد المثينيين، بل عرضت عليه مزايا هامة ليقيم هناك وفي بيت يشبه قصرًا وزوجة من المائلة الملكية الحاكمة، وبالطبع، لم يكن قرار العودة إلى بلاده في حقيقة الأمر في يده هو، ولا يوجد شك أن إبقاءه في بلاد الحثينيين، بموافقته أو بدونها، كان خروجًا من جانب حاتوسيلي، وكذلك أخيه ميواتاللي على الشروط التي اشترطها ملك بابل، عندما وافق ملك بابل على إعارة طبيبه للبلاط الحثيني(19).

لذلك فانه من المدهش أن يطلب حاتوسيلى من كاداشمان – إنليل برسال طبيب آخر إلى حاتوساء مع الاشتراط الواضح أنها بعارة مؤقتة، وصدق نية حاتوسيلى على إعادته، ولكن كل مثل تلك النوايا الطيبة كانت تقف عاجزة إذا معادفه حظ عاثر ومات الطبيب في كنف مضيفه، وبعد اعتراضات بابل واحتجاجها على احتجاز الطبيب السابق وعدم عودته طبقا للاتفاق، فإن موت الطبيب الثاني أثناء وجوده ببلاد المثينيين لا بد أنه قد شكل حرجًا بالفًا لحاتوسيلى، في الوقت الذي كان يود فيه مخاصلًا إظهار صدق نيته غلك بابل كاداشمان – إنليل، وأنه لم تكن لديه أي نوايا للفدر أو العدوان باحتجاز الطبيب الثاني، وقال في رسالة منه إلى كاداشمان – إنليل البابلية منه إلى

«حين استقبلو) الطبيب، قام بأعمال كثيرة جيدة(20)، وهين مرض الطبيب، تم عمل كل ما يمكن عمله، ولكن حين حانت ساعته، مات».

وقام حاتوسيلى بإعادة خادم الطبيب مع حامل الرسالة، ليثبت لمك بابل صدقه، وكدليل إضافى على التقدير الذى لقيه الطبيب من البلاط العثينى قبل موته، قام حاتوسيلى بإرسال كل الهدايا والهبات والعطايا لتى منحت للطبيب فى البلاط الحثينى قبل موته، مع خادمه العائد إلى بلاده، ومعه حامل رسالة الملك الحثينى، وتحسبًا لقيام الخادم، باختلاس بعض الهدايا والهبات لنفسه، قام حاتوسيلى بتسجيلها في قائمة، وقال فى رسالته:

«فلينتبه أخى إلى المربة... والخيل، والفضة النقية، والأثواب التي منحتها للطبيب، إنها مسجلة كتابة، وأرسلت اللوح إلى أخى حتى يمكن الأخى أن يسمع ما به».

وأطال حاتوسيلى في بعض التفاصيل؛ ليبعد عن نفسه أي شبهة أو مسئولية عن موت الطبيب، غير أنه ظل لفترة طويلة لا يجرؤ بسبب ذلك الحظ العاثر على طلب مماثل من أخيه ملك بابل، إلا أنه طلب منه إرسال مثال، لينحت له تماثيل لأعضاء الأسرة الحاكمة(21)، وأكد له أن النحات

سيعود إلى بلاده بصفة عاجلة ويسرعة قور انتهاء مهمته، وعلى ضوء الأحداث السابقة يبدو أن ذلك الطلب قويل بكثير من التشكك في بابل، بالرغم من تذكير حاتوسيلي لهم أنه قد أعاد من قبل مثّالاً بابلبًا سليمًا معافي كان قد استعاره في مناسبة سابقة من أبي كاداشمان - إنليل، ومن غير المعلوم إن كان كاداشمان إنليل قد ظل يثق في الملك الحثيني ويرسل إلى خزلئن العفظ لديه مزيدًا من المحترفين المهرة أم لا، ولكن، في نتلك المرة على الأقل، لا يدهشنا أن نعرف أن ماتوسيلي قد راح يتطلع إلى ممالك أخرى ليحصل منها على نحات مثال.

الجزء الثالث أحداث تاريخية

8

الصورة العامة(1)

بدأ البروفيسور جوتزيه عرضه لصراع السيطرة على سوريا في القرن (2) قائلاً: تقع سوريا في تقاطع طرق الشرق الأدنى بين منطقة ما بين النهرين في الشرق، والأناضول في الشمال ومحمد في الجنوب، وكانت منطقة ما بين النهرين والأناضول تعانيان من نقص الموارد والثروات الطبيعية، وكانوا يحملون عليها عن طريق التجارة والمقايضة، وكانت سوريا بالنسبة لهما هي الطريق والبوابة لتلك التجارة الدولية، فقد كانت سوريا ذات موانى، بحرية ترد إليها منتجات التجارة الدولية ويتم تبادل المنتجات بها، ومن موانى، سوريا تتنقل البضائع عبر الطرق البرية، التي تربط القوى العظمى والمسائك الكبرى التي كانت موجودة بذلك العصر، وبذلك أصبحت سوريا تشكل إغراءً قويًا لكل القوى العظمى، المهمنة على سوريا ولو بالقوة العسكرية إذا تطلب الأمر(3).

وكانت الهيمنة على طرق التجارة من الدوافع الهامة، إلا أن النجاح العسكرى في تلك المنطقة كان هامًا أيضًا اذاته، الهيبة التي يضغيها على من يحققه. كانت عقيدة ترسيخ الملك تتطلب من كبار الملوك أن يظهروا قوتهم في ميادين القتال، وكانت سوريا من أنسب الميادين لإظهار ذلك، كان الافتخار بلقب «داحر الأسيويين» بين اهتمامات كثير من فراعنة مصر. كما كانت قيادة جيش قيادة منتصرة مظفرة حتى نهر الفرات من أعظم الإنجازات التي افتخر بها الملك الحثيني صاتوسيلي الأول، وهو الإنجاز الذي وضعه في مصاف عظماء الملوك الذين يقارنون بالملك سارجون.

وكان من المحتم وما لا يمكن تجنيه لإظهار قدرة ملك واستحقاقه حتى يكون من كبار الملوك أن يتمكن من الهيمنة على منطقة سوريا، أو على الأقل على الجل الأعظم منها، كانت سوريا على الدوام مسرحًا للمبراع بين الملكة الحثيثية ومملكة حاب، في سياق الحمالات التي سيرها حاتوسيلي الأول عير جيال توروس، كما سير كل من تهتمس الأول وتحتمس الثالث جملات عسكرية عبر منطقة سيورياء كانت تشق طريقها بالقوة حتى نهر الفرات، وتمكن مورسيلي الأول من تدمير مملكة حلب، ثم قاد قواته المنتصرة عبر منطقة سوريا إلى هدفه النهائي وهو غزو بابل والسيطرة عليها، وكان المتانين أسرع من استغلوا انهيار المثينيين بعد اغتيال مورسيلي، وانكماش مصر جنوبًا بعيدًا عن مصالحها الميوية في سورياء واحتلوا إمارات وممالك شمال سوريا وضموها إلى صميم رقعتها في إمبراطوريتهم التي كانت تتسم بسرعة، ولكن مثلما حدث للإمبراطورية الميتانية السابقة، سرعان ما أنهارت، مع تغير جديد في خريطة كبار عظماء الملوك، فقد انتزع سبيللوليوما الأول الحثيثي كل الإمارات والممالك السورية المنفرى من توشراتا المبتائي، وفي حملة عسكرية امتدت على مدى عام تقدم حتى قلب الإمبراطورية المتانية المنهارة. بعد ذلك بسبعة عقود، كان صعود الأسرة التاسعة عشرة في مصر، وتنامي قوتها إلى أقصى قواها سببًا في صدام وصراع عسكريين بين المثينيين ومصر على منطقية سيوريا، واصطدمت القيوتان ميرتين في منطقية قيادش، في المنطقة الساخنة غير مستقرة الحدود بين قوة الشحال وقوة الجنوب، وكانت قرة جييدة تنتامي وتلوح في الأفق في نفس الرحلة، فقد كان من المعتم على القوة الأشورية المساعدة أن تمتد أيضاً إلى سوريا في الغرب من القرات، وريما غير كل سوريا حتى ساحل البحر التوسط،

قما هي التبعات التي وقعت على سكان سوريا من جراء ذلك الصراع الضاري على أرضها؟

كانت منطقة سوريا -- فلسطين مكونة من خليط متداخل من الممالك

والإمارات الصغرى، وكانت كل منها تخضع السلطة المباشرة للأسرة التي تحكم كلاً منها(4).

وعلى مدى العصر البرونزى المتأخر خضعت كل منها لسيطرة ونفوذ أحد الممالك الكبرى، سواء قل ذلك النفوذ أو زاد، وكان تذبذب وتغير نفوذ تلك القوى الكبرى يتعكس على تلك المالك والإمارات الصنفرى.

وبالطبع، لم يكن من الطبيعي تمامًا لأى من تلك المماقك الصغري ولا من الواقعي أن تتطلع إلى الاستقلال، أي أن تكون حرة دون خضوع لواحدة من الممالك الكبرى لم يتغيل ولم يسبع حاكم معلى ولا مواطن إلى ذلك لاستحالته، كانت التبعية لقرى عظمى حقيقة من حقائق المياة، كان التحدى الذي يواجهونه هو تأمين حياتهم ووجودهم في عالم معاد ومتغير على الدولم، بعض الممالك استطاعت أن تدير أمورها على هذا النصو بنجاح كبير، خاصة أولئك الذين كان لديهم قدرًا من الذكاء السياسي والدهاء والقسوة، الذين حرصوا على عدم إفلات أي فرصة سائحة لتدعيم قوتهم على حساب جيرانهم وأحيانًا أخرى على حساب سادتهم الكبار، وهناك المزيد عن ذلك سنذكره في الفصل التالي.

ترددت أسسماء الحكام المعليين كشيراً وبرزت من خلال أرشيف مراسلات تل العمارنة، سواء كانوا مرسلين لرسائل أو مذكورين في رسائل كتبت عنهم، أحيانا، كانت نسخ الرسائل موجهة إليهم أو الرسائل الأصلية التي لم ترسل بعد كتابتها لأسباب مختلفة، وتختلف الرسائل التي الواردة من الحكام والملوك التابعين اغتلاقًا ملموظًا عن الرسائل التي يرسلها الفرعون إلى أنداده من كبار الملوك، فالأخيرة تعمل قدراً كثيراً من المسطلحات الدبلوماسية الرسمية، وبالرغم من احتوائها أيضًا على كثير من الشكري إلا أن الغرض من ذلك كان تقوية الروابط القائمة بين ملكين وأسرتهما، كما رأينا، فإن أغلب محتويات الرسائل محصورة في الجوانب المادية من تلك العلاقات – مثل تبادل الهدايا، ومصاهرات التحالف وما مائل ذلك، ونادراً ما كانت تتناول تصورات سياسية لأحداث

جارية أو تطورات عسكرية.

أما مراسلات الملوك والأمراء التابعين، فقد كانت مصدراً غنيًا بالمعلومات عن الجوانب السياسية والعسكرية، على الأقل في منطقة سوريا – فلسطين التي تشغلها تلك الممالك الصغرى التابعة، كانت الصياغات الرسمية في تلك المراسلات في حدمًا الأدنى، وكمثال على ذلك

«أقول للملك، سيدى، وشمسى: رسالة من رب – هذا، خادمكم، وأتهب ربة جويلا القوة للملك، سيدى أسجد تحت أقدام سيدى سبعة مرات وسبع مرات أسجد» (5).

وبعد مجاملات التعظيم والإجلال المختصرة، صرعان ما يدخل كاتب الرسالة إلى صلب الموضوع، وهناك نماذج مستكررة من تلك الجوانب العملية: مثل طلب عاجل وملح للفرعون من أجل دعم عسكرى أو مساعدات أخرى لمواجهة أزمة عاجلة، أو شكوى من جار عنوانى متعد على معلكته، أو عملية فساد إدارى قام بها موظف مصرى كبير في الفارج(6)، تقارير عن تواطؤ أحد الحكام الخاضعين وعنو خارجى يمثل تهديداً للأمن المصرى وحدود نفوذ الدولة، تأكيدات بأن أوامر الفرعون قد تم تنفيذها أو ستنفذ بإخلاص، أو أعذار للفشل في أداء مهام وأوامر، من خلال تلك الرسائل نقرأ التاريخ في مراحل المسنع والتشكل، والتطلعات والمعمومات والمضاوف لكثير من أولئك النين صنعوا التاريخ. إن تلك برزى ورؤية لا تقير بثمن، إلى عالم قطع الرقاب القاسي في داخل، وبين، برزى ورؤية لا تقير بثمن، إلى عالم قطع الرقاب القاسي في داخل، وبين، من أجل البقاء حبالرغم من أن المقائق التاريخية تعانى من تشويه لا مكن تجنبه، بسبب الشحذ الشخصي للأسلحة المغرضة.

من القراءة الأولى، تبرز الرسائل المسرية إلى المسالك السورية - الفلسطينية التابعة أكثر المسور واقعية بلا تزويق عن الحكام التابعين خلال فترة تل العمارنة، بتعبيراتهم البدائية عن تحقير الذات، وشكاواهم

المستمرة من الظلم الذي يتعرضون له، ومطالب لا تنتهى من الفرعون، غير أن كثيراً من تلك الهصوم والمخاوف كان حقيقيًا وله ما يبرره، وكما لاحظنا، كان المناخ السياسي، في أرض سوريا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مناخًا لا يتسم بأنني درجة من درجات الاستقرار. كان مصير للمالك الصغرى معلقًا بالدرجة الأولى على نتائج صراع المقوة الدائر بين القوى الكبرى المهيمنة على المنطقة. ورغما عنهم كانوا جزءً من الصراع ومن ضحاياه في أغلب الأحوال، بدءًا من الصراع المسرى – الميتاني، والحثيني الميتاني، والحثيني المعرى. كان من المستحيل أن تظل مملكة صغرى في منطقة سوريا على حالة من الحياد. وكان إعلان تحالف إحدى مند المالك مع مملكة كبرى بمثابة إعلان عداوتها، في الوقت نفسه، لملكة أخرى من المساك الكبري، كان الأمر يتطلب قدرًا كبيرًا من الحصافة أخرى من المساك الكبري، كان الأمر يتطلب قدرًا كبيرًا من الحصافة والذكاء السياسي؛ لتحديد المسار الملائم، وماهية الانصيان السياسي الأكثر ملائمة، لاختياره لفدمة مصالح الملكة الصغرى وبقائها، أو الأكثر ملائمة، لاختياره لفدمة مصالح الملكة الصغرى وبقائها، أو بتحديد أدق مجرد استمرار ملك المملكة الصغيرة على قيد الحياة.

وبالطبع، لا يجد ملك محلى على مملكة صغيرة أى حيلة، حين يجتاح ملك كبير مملكته بجيوشه، ويفرض سلطته وسيطرته وهيمنته على كل الممالك الصغرى التي يمر بها، غير أن حظوظ الممالك الكبرى من القوة كان دائم التبدل والتفير، وكان أى ملك على معلكة صغيرة يتسم بالدهاء السياسى، وتقع مملكته في منطقة تداخل وتقاطع نفوذ مملكتين عظيمتين يسمي إلى استغلال ذلك التضمارب لمسالمه بتحريك طرف كبير ضد الطرف الثانى، وكان يلجأ أحيانًا إلى التهديد، ولكن بخبث ودهاء، بأنه سيحول ولاءه وانتماءه عن الملك الذي لا يلبي له مطالبه، أو إذا رأى أن فرصة في البقاء والاستمرار ~ أو زيادة قوته – تتحقق بالاستجابة إلى الملك الأكبر خصم الملك الذي يخضع له، كانت لعبة خطرة عند القيام بها، وكان النجاح في أدائها يتطلب قيراً كبيراً من المهارة والصنكة، وكذلك قدراً كبيراً من قوة الأعصاب، في تقييم نقاط القوة والضعف لتلك القوى

الكبرى في كل لحظة.

كان الخطر الذي تشكله القوى الكبرى على الملوك التابعين لها لا يمكن إغفاله، كان كثير من الملوك التابعين يسعون إلى توسيع رقاع ممالكهم بغزو أجزاء من الممالك الصغرى المجاورة، وكان من أشهر من قاموا بذلك حكام عمورو، مثل: عبدى – عشيرتا، ومن بعده ابنه عزيرو. وكان عدوانهم المتكرر على الممالك المجاورة بيرز بوضوح من خلال رسائل تل العمارنة التي أرسلها من تعرضوا اذلك العدوان، وكان من أكثرهم تعرضاً للعدوان رب – هذا، حاكم جويلا، التي أصبح اسمها بيبلوس في العصر اليوناني وطرابلس في العصور الحديثة. وقام بنفس الأفعال العدوانية في وسط فلسطين الملك لابايا، حاكم مملكة شكيم، وأثار كثيرًا من الشكاوي لدى الفرعون من جيرانه الذين تعرضوا للعدوان.

ولكن. كما سنرى فيما بعد، رد كل من لابايا والحكام العموريون على شكاوى جيرانهم وضحاياهم إلى حاكمهم الأعلى فرعون مصر بتأكيدهم على ولائهم الشديد للتاج المصرى، وإعلانهم أن الأعمال التى ترتبت عليها كل تلك الشكاوى لم تكن إلا لصالح التاج المسرى، لا لمسلح تهم الشخصية.

ولم تكن مثل تلك الادعاءات يمكن أن تضفى عن الفرعون الدوافع المحقيقية الكامنة وراء تلك التعديات، إلا أنهم كانوا على يقين من أن خطر الرد المصرى عليهم بكامل قوة الهيش غير محتمل – هذا بافتراض أن ولاهم الشديد الفرعون جلى وواضح، ومما لا شك فيه أن الفرعون حرص على أن يكون التدخل المصرى في المسائل الشخصية والعسكرية الداخلية في سوريا وفلسطين، في حده الأدنى الضروري، لاستحمرار الهيمنة المصرية، خاصة في وجود التهديد الحثيني المحوم على الدوام في الشيمال، الملاصق مباشرة لتلك المنطقة، وأدرك أمونحوتيب الثالث وأخناتون إدراكًا تامًا أنهما إذا عمدا إلى اتخاذ أي اجراءات عقابية ضد واحد من أولئك الملوك المحليين المشاغبين فإنهم يخاطرون بدفعه إلى

الارتماء في أحضان المعسكر المعادى، وياارغم من ذلك، كأن يحدث أن أحد أولئك الملوك المشاغبين يأتي من الأفعال ما يتجاوز به حدود صبر الفرعون، خاصة أولئك الذين تبنوا سياسة حافة الهاوية ،فإنهم بالفعل يجدون أنه قد فات أوان النجاة من الهاوية.

كانت المسالم الشخصية والحفاظ على الذات هي المادئ الحاكمة للعلاقة بين الفرعون وملوك سوريا - فلسطين الخاصعين لنفوذه، ولم يكن بالإمكان لوم الملك التابع على انتهاج تلك السياسة، وعلى الجانب المصرى، لم تكن المفامرات المسكرية الإميريالية من تحتمس الثالث فصباعدًا إلا استغلالاً للشعوب، الذين أخضعوهم لحكمهم، وقد يذكر أي امري أن الشيء ذاته يحدث مع كل إمبراطورية، فلا توجد أمة لها تطلعات إمبريالية خرجت في غزوات عسكرية لبناء إمبراطورية تقوم على تحقيق مصالح الشعوب الخاضعة، إلا أن مثل ثلك الأمم الإمبريالية كانت تسعى على الدوام لظل ذلك الرهم لدى الشعوب الضاضعة لحكمهم، في المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية، ومثل تلك الادعاءات أحيانًا ما تجد صدى معينًا، وتحقق الفائدة منها، على الأقل لبعض الوقت. إذا تذكرنا (على سبيل المثال) الفوائد السياسية والمادية التي ترتبت على سياسة رُوِّمَنُهُ (اشتقاقًا من روما) الشعوب العديدة التي أخضعتها روما الإمبريالية لحكمها، الإدعاءات ذاتها، روَّجها في عصبور حديثة بنَّاس الامبراطوريات الأوروبية في أوطان تبعد عنهم بعداً جغرافياً شاسعاً، بعد أن احتلوا تلك الأوطان، وإن كانوا قد أفادوهم بالفعل بعض الفائدة.

إلا أن مصدر لم يكن لها تلك البصبيرة، إذ قصدت فوائد مشاريعها الإمبريالية على نفسها فقط، دون أي فائدة الشعوب التي أخضعتها لحكمها(7).

فبعد غزو الهكسوس لمصر، استدعت الاعتبارات الاستراتبجية ضرورة الحفاظ على وجود متميز في سوريا – فلسطين، وزودتها شبكة المالك الخاضعة بالوسائل اللازمة لتحقيق ذلك التواجد، كانت الهيمنة على تلك

الممالك المسغرى تضمن للفرعون اعتباره من كبار اللوك في عصره، وبتأمينه أقصى الحدود والمناطق الشمالية الشرقية لبلاده، در على خزائن الفرعون عوائد سنوية، وأتاح الفرصة لمصر للحصول على موارد طبيعية مختلفة من البلاد الخاضعة. كانت السياسة المتبعة هي الحصول على أقصى فائدة من الممالك السورية بأقل تكلفة ممكنة، كما لاحظنا، كانت هناك مراكز إدارية وعسكرية مصرية في كل الممالك، في حين تترك للملك المجلى إدارة شئون المملكة الداخلية، وأن يدفع من مصادره تكلفة توفير وسائل حماية ممكنة.

ولو حكمنا من سبل المطالب التي كانت تنهال من الملوك التابعين، ومن استمرار شكاواهم أن طلباتهم لا تلقى صدى ولا استجابة من الفرعون، نتبين أن الفرعون كان لا يرى ضرورة في الاستجابة لكل تلك المطالب، إن لم تكن هناك أسباب ملحة ترغمه على الاستجابة لأى منها. على العكس، كان ينتظر أو يطلب من الملوك الماضعين أن يأخذوا مبادرة حل مشاكلهم بانفسهم – حين يواجهون مثلاً تهديداً أو عدواناً من ملك مجاور.

وكما لاحظنا، لم تظهر أبدًا أي معاهدة بين أي فرعون وأي ملك خاضع للنفوذ المصرى، مثل تلك المعاهدات التي حددت العلاقة بين الحثينيين والملوك الخاضعين لهم، المعاهدات التي لم تقتصر على واجبات الملوك الفاضعين تجاه الملك الحثيني، بل نصت أيضًا على واجبات الملك العثيني تجاه المالك الصغري إذا تعرضت لهجوم من قوة مغايرة، حتى إن كانت هناك اتفاقات رسمية هيئت الملوك التابعين توقعات معيئة من ملكهم الأعلى الفرعون(8)، فإننا يمكن أن نستنتج من نصوص المراسلات أن تلك التوقعات لم تتحقق في الجل الأعظم منها. كانت سياسة عدم التدخل تلك التي اتبعها فراعنة مصر هي التي أساء (عبدي – عشيرتا) استغلالها، حين راح يهاجم المالك المجاورة، ويستولي على أجزاء منها التحقيق مطامعه الإقليمية على حساب جيرانه من الملوك الخاضعين الحكم المصري، كما ثم يكن لها، أي تأثير رادع على المشاغبين وعلى الصراعات

التى كانت تنشب بين الممالك الصغرى، وربعا كان الفرعون يرى أن تلك الصراعات ليست سيئة في جانبها العملى، بل ربعا كانت أفضل له، حتى تظل الممالك الصغرى منقسمة ومتشاحنة -- ويتشكون من عدم تدخله أكثر من أن يصبحوا مدركين لفائدة ترك خلافاتهم جانبًا ويتحدون كلهم ضده(9).

فى كل الأحوال، قد نتممائل إن كان بعض الشاكين قد غالوا فى شكاواهم، وأساليبها البلاغية، خاصة فى ظل الإدعاء أن أخناتون أهمل شئون إمبراطوريته، بسبب انشغاله الشديد بإلهه الشخصى وتشييد مدينته الجديدة. ولا ننسى أنه بينما كان أخناتون هو متلقى أغلب رسائل الشكاوى، كان بعضها موجهًا إلى أبيه آمونحوتيب الثائث. وربما عانى آمونحوتيب فى أعوامه الأخيرة من مشاكل صحية جمة، إلا أننا لابد أن نتذكر أن سجل عهده الملكى يدل على أنه كان ملكًا قويًا قادرًا ذا مبادئ ويعظى باحترام كبير، وأن معمر وكل البلاد الخاضعة لها نعمت فى عصره باستقرار ورخاء شديدين، وباستثناء ذلك، هناك دليل واضح، كما عسرى، أنه كان يتخذ قرار المبادرة حين يجد أنه الأنسب فى المالك السورية، بحسم وحزم، كما كانت هناك مناسبات يوبخ فيها الملك التابع الذى يبعث بشكوى لفشله فى التصرف طبقاً لأوامر الفرعون ونصيحته التي أرسل إليه بها، ولإحالته إلى الفرعون شئونا من صميم اختصاصاته ومسئولياته فى إدارة مملكته الصغرى.

من المهم جداً أن تغلل كل تلك الاعتبارات السابقة في أذهاننا، في جواننا في خضم الأنواء والتقلبات السياسية والعسكرية في ممالك سوريا – فلسطين، خلال العصر البرونزي المتأخر، ومن داخل ذلك ألمالم سنتابع على رجه الخصوص في الفصل التالي، مصير مملكة تابعة أصبحت أقرى مملكة سورية خاضعة، وهي مملكة عمورو، وتفاعلها مع مركب الممالك الصدفري المجاورة، ومع القوى التي تكمن خلفها، ولكن قبل أن نخوض ذلك الغمار، من المفيد أن نحيد بناء المشهد، بأن نعرض أهم ممالك سوريا

- فلسطين في ذلك العصر، وحكام تلك الممالك كما عرفوا من خلال رسائل تل العمارية، ومن رسائل أخرى معاصرة أو قريبة من العصر. ولهذا الغرض، سنقسم تلك الممالك إلى أربعة أقسام: تلك التي تقع على الساحل الجنوبي، وتلك التي تقع على الساحل الشمالي، والممالك الداخلية في فلسطين وجنوب سوريا، ثم الممالك الواقعة في شمال سوريا.

الميالك الصفرس المجالك الواقعة جنوب الساحل الشرقس

مملكة جوبلا

كانت جوبلا (بيبلوس الإغريقية) مملكة تقع على الساحل الشرقى للبحر المتوسط شمال بيروت، ومن عاصمته جوبلا، فرض ملكها رب حدا هيمنته على عدد من المدن الساحلية الصغرى المجاورة لجوبلا، ومنها باترونا وشيجاتا وأميًّا وبترا، وتشكل رسائله إلى أخناتون النسبة الأكبر من رسائل الملوك التابعين إلى ملكهم الأعلى، من بين مجموعة رسائل تل العمارنة، كانت أغلب رسائل رب حدًّا تدور حول عدوان ونهب وتغريب عبدى – عشيرتا وابنه عزيزو، حكام مملكة عمورو الواقعة شمال جوبلا، وفي الفصل التألى سنناقش ببعض التفصيل الملومات التي زودتنا بها تلك الرسائل.

بيروت

كانت بيروت (بيروتا في رسائل تل العمارنة) المجار المنوبي لمملكة جوبلا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وتحتوي رسائل تل العمارنة على بضعة رسائل من حاكمها أمُّونيرا إلى أخناتون(11). وتحالف رب حدا حاكم جوبلا مع أمونيرا، في محاولة منه للتصدي للعدوان العموري، وبعد أن فقد عرشه - في انقلاب وقع ضده - لجاً إلى رب حدا، وظل

منتظرًا بلا طائل وصول الدعم المصرى؛ لاستعادة عرشه،

صيدا وصور

وفي جنوب الساحل الشرقي للبصر المتوسط كانت تقع صبدا (صيدونا) وصور (سورو)، ولجأ أيضًا رب — حدا إلى المدينتين طالبًا دعمهما له ضد عدوان عبدى — عشيرتا العموري، كان حاكم همور في ذلك الوقت ملك يدعي ابي — ميلكو. وكان يزود الفيرعيون بانتظام بالمعلومات السياسية والعسكرية الهامة عن منطقته. والرسائل التي كتبها إلى أخناتون(12). تعد مصدرًا قيمًا للمعلومات عن الانشطة السياسية والعسكرية التي كانت تقع في تلك المنطقة، وعن الصراعات والنزاعات التي كانت تقع بين الملوك الخاضعين لحكم الفرعون في الجنوب الشرقي الساحل المتوسط، وتمتلئ رسائله بالشكري من حاكم صيدا زيمردًا، حيث المهمه ابي — ميلكر بأنه يعتدي على مدينته، وأنه يتعاون مع أعداء الفرعون وخاصة عز يرو، كان زيمردًا قبل ذلك من الملوك الخلصين التاج المسري، وأتهمه ابي — ميلكر بتزويد عزيرو بمعلومات استخبارتية هامة(13)، كما وأتهمه ابي — ميلكر بتزويد عزيرو بمعلومات استخبارتية هامة(13)، كما كان يتطلع إلى غزو صور، ويحتمل أنه كان يعمل كعميل لعزيرو(14)، كما وحمًّد قواته البحرية والبرية مع قوات جزيرة اروادا (أرفاد التوراتية)؛ لتحقيق ذلك الهدف (15).

المحالك الهاقعة شحال الساحل الشرقس

أوجاريت

كانت أوجاريت تشغل مساحة تصل إلى 2000 كيلو متراً مربعًا، وكانت من أكبر الممالك الصغرى وأكثرها رخاءً وانتعاشًا من ممالك سرريا(16)، كانت مدارج الجبال والسهول الخصبة وجوها المعتدل وأمطارها الغزيرة تضمن اسكانها محاصيل زراعية وفيرة، بما فيها

الكروم وإنتاج النبيذ والزيوت، والحبوب والكتان، بالإضافة إلى أنواع كثيرة من المنسوجات الكتانية والصوفية. كذلك عرفت بمراكزها التعدينية التى اشتهرت بمصنوعاتها البرونزية وصياغة الذهب، كانت عاصمتها الملكية تتوسط مدنًا عديدة وقرى كثيرة، كما كانت ملاصقة لمبناء طبيعى ممتاز يمتد إلى مسافة 50 كيلو مترًا على الساحل، لذلك كانت أهم ميناه مجارى عالمي، مليء على الدوام بمراكب وافدة من جميع أدجاء شرق البحر المتوسط، تفرغ بضائعها وتحمل بضائع أخرى، جلبت عبر اليابسة من جميع أرجاء سوريا والأناضول ومنطقة ما بين النهرين، كما كانت تفيض عن الاحتياج المحلي، ومطلوبة لباقي أصواق العالم القديم، كذلك كانت جبالها المعشبة مراعى نمونجية لحيوانات الرعى، فكثرت وانتعشت الحيوانات الرعى، فكثرت وانتعشت الحيوانات الرعى، فكثرت وانتعشت الحيوانات الرعى، فكثرت وانتعشت

وكان ثراء أوجاريت، ومواردها الطبيعية الكثيرة وموقعها الاستراتيجي الهام سياسيًا وتجاريًا يجعل منها قبلة تطلعات كل القوى الكبرى في عصرها، كانت أوجاريت قد قررت أن تغلل مستقلة عن أي من تلك القوى قبل فترة تل العمارنة، بينما كانت تمتغظ بعلاقات ودية دافئة مع الميتانيين، ولكن بعد ذلك حين أصبحت المواجهة الشاملة بين الميتانيين والمثينيين وشيكة، نجد ملك أوجاريت عميشتامرو الأول يعلن ولاءه لقرعون مصر، والرسالة التي أعلن فيها ذلك والمسنفة تحت رقم EA45، موجهة إما إلى أمونحوتيب الثالث أو إلى أخناتون في الأعوام المبكرة من موجهة إما إلى أمونحوتيب الثالث أن إلى أخناتون في الأعوام المبكرة من كما توجد بضع رسائل أخرى تحتوى على تأكيد ولاء عميشتامرو كما توجد بضع رسائل أخرى تحتوى على تأكيد ولاء عميشتامرو مصر – إن لم يكن في حقيقة الأمر خضوعًا إرائيًا كاملاً لها – أنه أنسب وأحكم قرار سياسي، إذا أراد تجنب التورط في الصراع الحثيني –

الميتاني الوشيك. كانت محاولة البقاء على الحياد تحمل قدراً عاليًا من المخاطرة، خاصة مع وجود تلك الجانبية الشديدة والأهمية الاستراتبجية والغنى المادى الذي تمثله أوجاريت لأى غاز، وفي الوقت نفسه، كان إعلان تأبيد الميتانبين أو الحثينيين سيعرضه لا محالة الهجوم من الطرف الأخر. أما مصر، فقد كانت متحالفة مع الميتانبين، إلا أنه كان من المعروف الجميع الأطراف أن الملك الحشيني سبيلوليوما كان يتهلف إلى توثيق علاقات الود والصداقة مع مصر – وكان دافعه إلى ذلك رغبته في إبقاء مصر خارج ذلك الصراع، ولم يكن يحتمل أن يثير سبيلوليوما غضب مصر بمهاجمة أحد حلفائها أو رعاياها.

في إطار تلك الظروف، كان التجالف مع مصدر يتيح لأوجاريت أفضل فرص تجنب توريطها في أتون الحرب الحثينية الميتانية الشاملة، ومن المفهوم أن عميشتامرو رفض كل محاولات وعروض سبيلوليوما للانضمام إليه، إلا أنه بعد ذلك بفترة قصيرة، مات عميشتامرو، فجدد سبيلوليوما عرضه على ابنه وخليفته نيكمادو الثاني، ونجح في تلك المرة، وتحت حكم نيكمادو الثاني، أمبحت أوجاريت طيفة للحثينيين(18).

grgie

كانت أرض عمورو تقع جنوب أوجاريت بين نهر العاصى وساحل البحر المتوسط، وإلى الجنوب منها كانت تقع مملكة جويلا، وفي عصر مراسلات تل العمارية كانت عمورو تحت حكم عبدى - عشيرتا، وسنخصص الفصل التالى لدور العموريين في تاريخ فترة تل العمارية، تحت حكم عبدى - عشيرتا أولاً، ثم تحت حكم ابنه عزيرو من بعده، وتزودنا الرسائل التي كتبها كل من عبدى عشيرتا وابنه عزيرو والرسائل المرسلة إليهما، وكذا الرسائل التي كتبت عنهما برؤية عميقة للأجواء السياسية، والتطلعات والطموحات، والخيانات، والمؤامرات، وتغيير الولاء، والانتماء الذي كان يغلب على السياسات المحلية، والمغامرات العسكرية

الهمالك الداخلية في فلسطين وجنوب سوريا

شکیم

كانت شكيم مملكة منتعشة اقتصاديًا وقوية في وسط فلسطين، وكانت تقع في منطقة غنية خصية غرب وادى الأردن، على بعد 70 كيلو مترًا شمال مدينة القدس(19)، وفي عهد العمارنة تحوات شكيم لتصبح مركز أمبراطورية صغرى، وحقق حاكمها لابايا ذلك الوضع لها عن طريق غزو أراضي الممالك المجاورة الواقعة شمال المملكة وغربها، كانت أنشطته العدوانية مماثلة لتلك التي يقوم بها عبدى – عشيرتا، ومثلما فعل عبدى – عشيرتا، أحاط لابايا هو الأخر ملكه الأعلى فرعون مصر علمًا بأقوال كثيرة عن ولائه الشديد وإخلاصه الفرعون حين لامه على أنشطته غير المتبولة(20)، ومثله مثل عبدى – عشيرتا أيضًا، وصلت مغامراته المسكرية إلى توقف مفاجئ، حين نفذ صبر الفرعون والقي الجيش المصري القبض عليه، وريما يكون قد أعدم.

أهِبِينًا / أبينًا

كانت أوبى - آبينا (وهى المنطقة الواقعة جنوب سهول حمص حول بمشق بما فيها بمشق) هى أخر حدود جنوبية للحملة المسكرية الحثينية، التى استغرقت عامًا كاملاً بقيادة سبيلوليوما، وكانت تقع في الجانب المصرى لمناطق النفوذ بسوريا، وأعيدت إلى النفوذ المصرى، بعد غزو سبيلوليوما لها في فترة لاحقة، تم أعاد الحثينيون احتلالها بعد الفرضى التى تلت معركة قادش، وأسند الملك الحثيني ميواتاللي حكمها إلى أخيه حاتوسيلي (الذي أصبح بعد ذلك الملك حاتوسيلي الثالث) لفترة من الزمن، وخلال مرحلة تل العمارنة كان حاكمها بيرياوازا متورطًا في صراعات مع

جيرانه، خاصة مع جاره الشمالي أيتاكاما، حاكم قادش الذي كان مازال خاضعًا للنفوذ المصري، وأرسل كل منهما شكاوي ضد الآخر إلى فرعون مصر، كان بيرياوزا متهمًا بالتعدي والعدوان الصارخ على أيتاكاما، وبفزوه لكل مملكته وإحراق منها (21) ، واتهمه اتياكاما أيضًا بالتعاون مع عصابات المابيرو الخارجة على القانون(22) ، وما ترتب على ذلك من شبياع تلك المصابات، وادعى بيرياوازا أن المابيرو كانوا حلقاء له، لخدمة مصالح الفرعون(23).

لم يكن جيران بيرياوازا فقط الذين أرسلوا شكاوى ضده للفرعون، بل كان موضع شكوى واحتجاج الملك البابلى بورنا بورياش، الذي أرسل للفرعون مسهما بيرياوازا بنهب قافلة سالمو، أحد أهم مبهوثي بورنابورياش، بينما كانت القافلة في طريقها من بابل إلى بلاط فرعون مصر، مصر(24)، وبالرغم من تأكيد بيرياوازا المستمر على ولائه لفرعون مصر، بعبارات خضوع شديد في رسائله للفرعون منها: «إن سيدى شمس السماء، ومثلما تصدر الكلمات من شمس السماء ينتظر خدمك الكلمات التي تخرج من فم سيدهم»(25)، ثم يدعى بعد ذلك أنه هو الضحية الذي وقع عليه عدوان أعداء الملك، ولا يوجد شك في أنه كان أخر من يمكن الوثوق به من الملوك التابعين للنفوذ المصرى، وكان السبب الرئيسي في الفوضي الزمنة بين كل المالك الداخلية الخاضعة للنفوذ المصرى.

الممالك الداخلية في شمال سهريا

قرقميش

كانت قرقميش الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات آخر مدينة ميتانية حصينة غزاها سبيلوليوما الحثيني، وكان سقوطها بمثابة انتهاء أكبر عملية عسكرية حثينية، في سياق تدمير الحثينيين للمملكة الميتانية تدميراً كليًا شاملاً، ومن بعد ذلك تحوات قرقميش إلى مملكة محلية،

يحكمها أحد أبناء الملك الحثيني، الأمير شارى - كوشوه (بياسيلي مابقًا)، ابن سبيلوليوما، وكان أول ملك حثيني تابع يعين عليها.

حلب

تقلصت معلكة حلب كثيراً عما كانت عليه، بعد ما كانت تسيطر على كل أنحاء شمال سوريا، بعد أن أصبحت إحدى المماثك الضغعة أيضا للنفوذ الحثيني، بعد ما كانت مملكة ميتانية. وبالمثل في حلب، تخلى الملك الحثيني عن سياسته المتبعة بتعيين حاكم محلى بأن عين ابنه تبليبينو ملكاً عليها، وبين قرقميش وحلب تحولت كل الأراضى السورية التي احتلها المثينيون إلى ممارسة كل السلطات الحثينية سياسيًا، وإداريًا ودينيًا وقضاء، وكانها تحت الحكم المباشر قلمك الحثينية داته.

أشتاتا وإيمار

كانت مملكة أشتاتا تقع إلى الجنوب من قرقميش في المنطقة التي يطلق عليها أحيانًا «الانحناءة الكبرى الفرات». كانت تخضع إلى حد كبير اسلطة قرقميش، عندما تأسست قرقميش كولاية تابعة، وفي عهد مورسيلي الثاني بن سبيلوليوما العثيني، اكتمل بناء مدينة جديدة باسم إيمار في منطقة أشتاتا، تحت إشراف العثينيين قريبة من مدينة قديمة، كانت تحمل ذلك الاسم، كما يتضبح من سبجلات ماري(26)، وسوف نناقش في الفصيل العاشر بعض المراسلات المكتشفة حديثًا والتي تبادلها كاهن إيمار مع الملك الحثيني.

موكيش

كانت موكيش تقع شمال أوجاريت، وكانت أول ولاية سورية تقابل القوات العسكرية والنجار والمبعوثين القادمين من الأناضول إلى سوريا، وكانت رسميًا جزءًا من حلب، وخضعت لهيمنة الميتانيين بعد دمار الملكة

الحثينية في عهد مورسيلي الأول، وكانت من ضمن البلاد التي أسند الملك المستاني باراتارنا إدارتها إلى ملك تابع له يدعي إيدريمي، ثم غزاها سبيلوليوما في حملته المسكرية التي استمرت عامًا على سوريا. وبعد ذلك مالت موكيش إلى التخلص من النفوذ الحثيني بالبخول في تحالف مضاد للحثينين، مكون من بضع ولايات في شمال سوريا، كانت منها ولايتا نيا وأرض نوحاس، وتم سحق ذلك التمرد على أيدى قوة حثينية، وتم اقتطاع أجزاء كبيرة من موكيش ونيا، وضمت لحكم ملك أوجاريت نيكمادو الثاني، الذي كان قد تحالف مع الحثينيين بعد موت أبيه وارتقائه العرش من بعده، وكان قد رفض الانضمام لذلك التحالف المضاد للحثينيين.

نيب

كانت نيا واحدة من ولايات شدمال سوريا التي سقطت في يد الحثينيين، خلال حملة سبيلوليوما على سوريا التي استغرقت عاماً كاملاً، وكما لاحظنا أنه أثناء الفوضى التي أعقبت تلك الحملة اقتطع سبيلوليوما جزءاً كبيراً من نيا، وضعه إلى أوجاريت، أما الملك الذي كان يحكم ما تبقى من نيا، والواقع على الضفة الشرقية لنهر الماصى، فقد كان يخضع للنفوذ المصرى خلال فترة تل العمارنة(27)، وكان هو الآخر من ضحايا جشع عزيرو العموري، كما ورد في رسائل أبناء مملكة تونيب إلى الفرعون(28).

أرض نوحاس

كانت بلاد نرحاس تقع إلى الجنوب من نيا، محصورة في منطقة تقع بين نهر الفرات في الشرق ونهر العاصى في الغرب، وكنان من الواضح أنها كانت مكونة بدورها من عدة ممالك صغرى لكل منها حاكم، يكونون معاً نوعاً من الكونفدرالية التي يجعلون فيها لواحد منهم الكلمة العليا.

كانت بلاد نوحاس متحالفة أو خاضعة للميتانيين، إلا أن سبيللوليوما نجع في عقد اثفاق تحالف مع واحد من ملوك توحاس، أثناء إعداده

لحملته العسكرية على سوريا التي استمرت عامًا، وهو الملك شاريشي، ورد الملك الميتاني عوشراتا على ذلك بغزو مملكة شارويشي، فوجه شارويشي نداء إلى سبيلوليوما طالبًا عونه، ولسوء حظ شارويشي، قام بعض أعضاء أسرته باغتياله قبل أن تصل المساعدة المطلوبة، وأعادوا المملكة إلى تحالفها السابق مع الميتانيين ويحكم ملك جديد هو عدو نيراري، وظل سبيللوليوما منشغلاً بغزو أرض الميتانيين، ولم يكن لديه وقت للاهتمام بمشكلة نوحاس، حتى تمكن من اجتياح عاصمة الميتانيين واشوجاني والاستيلاء عليها، وعند عوبته إلى غرب القرات غزا بلاد نوحاس، وخلع ملكها ورحل كل عائلتها الملكية إلى بلاد المثينيين، وسيطر سيطرة مباشرة على كل منطقة نوحاس(29).

تتطنا

كانت (قطنا) تقع شرق نهر العاصى، على مسافة ٤٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من قادش، كانت في السابق خاضعة للنفوذ الميتاني، وكانت هي الأخرى من الولايات السورية التي سقطت في يد الملك العشيني سبيللوليوما في حملة العام الكامل علي سوريا، وأثناء حقبة تل العمارنة كان يحكمها أحد أفراد عائلة اكيزي المالكة وكانت خاضعة في ذلك الوقت للنفوذ المصرى، ويحتوى أرشيف تل العمارنة على بضع رسائل كتبها هاكم (قطنا) الفرعون مصر أخناتون(30)، وتلك الرسائل عبارة عن شكاوى للفرعون من العدوان الواقع عليهم والذي يقوم به عزيرو العموري، وعلى الأخص عدوان (اتياكاما) حاكم قادش، وكان اتياكاما مدعوما من العشينين، وهاجم (قطنا) بهدف إجبارها على تغيير ولامعا لتنضم إلى المسكر الحثيني.

تونيب

كانت مملكة تونيب خاضعة لنفوذ مملكة حلب السورية، ثم أصبحت

خاضعة النفود المصرى بعد حملات تحتمس الثالث العسكرية، وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر العاصى، ونتبين من تسجيلات تحتمس عن حملته السابعة عشرة، أن تونيب وقادش كانتا قد تمرينا على الحكم المصرى، وكان ذلك بدعم من الميتانيين، إلا أنهما بقيتا تحت الهيمنة المصرية، ويحلول حقبة تل العمارنة أصبحتا من أقوى المدن الحصينة في أقصى شمال منطقة النفوذ المصرى في سوريا، ولما خلا عرشها بعد موت ملكها اكى - يتشوب، كتب مواطنو (قطنا) إلى أخناتون رسالة يطلبون فيها من أخناتون أن يعيد إليهم ابن أكى - يتشوب، ليجلس على عرش أبيه، وكان قد حجز في البلاط المصرى؛ «لإعادة تأهيله»(31)، كما عبرو في الرسالة عن خوفهم من سقوط مدينتهم ضحية لأطماع عزيرو، مثلما حدث لمدينة عن خوفهم من سقوط مدينتهم ضحية لأطماع عزيرو، مثلما حدث لمدينة سومور، وهناك ما سنذكره عن سومور في الفصل التالي.

قادش

كانت مدينة قائش(32) (مدينة تل نبع ~ مند حاليًا) تقع على نهر العاصى فى المنطقة التى يمكن اعتبارها كجبهة فاصلة بين شمال سوريا وجنوبها، وبرز اسمها كثيرًا فى الصدامات المسكرية بين القوى الكبرى فى ذلك العصر، وظهرت فى البداية فى التسجيلات كطيفة للميتانيين، إلا أنها هزمت هى ومدينة مجدو فى أولى حملات تحتمس الثالث العسكرية على أسيا، وتأكد خضوعها للنفوذ المصرى بعد حملته العسكرية الثانية.

وترسخ وضعها كمملكة خاضعة النفوذ المسرى بشكل نهائى بعد الاتفاق الذى عقد بين الميتانيين ومصر فى عهد تحتمس الرابع، ووفى سبيلوليوما بمعاهدة السلام التى عقدها مع مصر أثناء حملته ضد الميتانيين ولم يمسها، إلا أن الميول الموالية الميتانيين داخل المدينة كانت ما تزال على قوتها، وكان على رأس ذلك المسكر الميال الميتانيين ملك المدينة شوتارنا، فشن هجومًا غير مبرر على قوات سبيللوليوما وهى تمر بالقرب من مدينته، ورد سبيللوليوما على ذلك العدوان بمهاجمة المدينة وغُزْرها،

وأزاح ملكها عن عرشه، ورحل أهلها إلى بلاد الحثينيين كأسرى، وكان ابن الملك شورتانا الأمير ايتاكاما من بين الأسرى الذين سيقوا إلى بلاد الحثينيين، إلا أن سبيالوايوما سمح له بعد ذلك بالعودة، وشغل مكان أبيه على عرش المدينة، في البداية أبدى أيتاكاما كثيرًا من مظاهر الولاء لفرعون مصر(33)، ألا أنه أصبح من الواضح جداً أثناء حقبة مراسلات تل العمارنة أنه أصبح هو ومملكته موالين المعسكر الحثيني، ويقدر ما نعلم، لم تظهر مصر أي احتجاج ولا رد فعل لخسارتها لقادش، على الأقل في عهد أخناتون، إلا أن التساؤل، من كبار الملوك كان يمكن له أن يدعى السيادة على قادش، ظل تساؤلاً بلا إجابة لفترة زمنية طويلة، وكما سنرى، كان توت عنخ أصون هو أول من وضع تلك المشكلة في موضع الاختبار، وترتب على ذلك الاختبار تداعيات خطيرة، في الوقت ذاته، استغل أيتاكاما القرصة أقصى استغلال في حماية سبيلارليوما، وتحالف استغل أيتاكاما القرصة أقصى استغلال في حماية سبيلارليوما، وتحالف مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع معام محلية، على حساب الملوك المطيين المجاورين الموالين لفرعون مصر،

كان اسم عمورو ~ في تصويص الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل البيلاد – يشير إلى منطقة واسعة تضم أغلب أرض سوريا الهالية، إلا أن الاسم أصبح بدل بعد ذلك على معنى أكثر تحديداً، يغطى في مفهومه العام المناطق الممتدة بين نهر العاصبي ووسط السباحل الشنرقي للينمر المتوسط، وخلال حملات تحتمس الثالث العسكرية على سوريا تم إخضيا م تلك المنطقة وضمها إلى منطقة نفوق الإمبراطورية المصرية في سوريا، إلا أن ذلك كان اسميًا فقط، كانت بلاد عموري منطقة خطيرة تسكنها قبائل عدوائية شرسة، يخاطر بجياته من يمر بها من تجار، أو يعثاث رسمية، أو مسافرين مرتحلين، فقد كانوا عرضة للهجوم في أي لعظة وهم يقطعون تلك البلاد، وينهب كل ما معهم ويقتلون على أيدى مجموعات همجية من أناس شبه قبليين، كانت تفص بهم جبال المنطقة وغاباتها ويشكلون تهديدًا شديد الخطورة، ليس فقط على من يتحلون بالشجاعة أو يتصفون بالمعق بما يكفي للمرور بأرض عمورو بلا هماية كافية، بل أيضًا على المجتمعات المتحضرة المستقرة في مدن تقم على مدى قريب من متناولهم، كانت قدرتهم على الانقضاض المفاجئ على ضبحاباهم دون أي توقع، ثم اختفائهم المفاجئ دون أثر في حنايا الغابات أو تجاويف الجبال، قبل التمكن من اتخاذ أي إجراء ضدهم يجعل من اسم حابيرو الذي اشتهروا به، أحد أكثر الأسماء بنًّا للفزع والرعب في كل أرجاء منطقة سوريا.

كانوا في البداية مكونين من مجموعات كثيرة من عصابات منفردة، تضم الهاربين والمهمشين اجتماعيًا وسياسيًا، كانت أعداد الصابيرو تتزايد بانضمام كل المجرمين إليهم، والقراصنة الجائلين، والمفامرين الساعين إلى الإثارة وأعمال النهب التي توفرها لهم العصابات الجائلة في

شمال كنعان الثرية، وأغرى ذلك كثيراً من مجتمعات بأكملها للانضمام إليهم، كما انضم غيرهم بالقوة إلى تلك الأنشطة، فقد كان ذلك البديل الوحيد عن التعرض للذبح أو العيش تحت خوف دائم وفقر بسبب تعرض مدنهم وحقولهم للنهب والتدمير.

حتى إن زيمبردا ملك صيدا كتب الفرعون قائلاً: «لابد أن تعلم جلالتك أن العداوة ضدى وصلت إلى أقصى مدى، كل المدن التي وضعتها تحت هكمي انضمت الحابيرو»(2).

وكانت الأحوال تصل إلى أسوأها حين تشن عصابات الحابيري غاراتها منفردة في مجموعات لا تنسق عملياتها، كانوا يشيعون الفوضى وعدم الاستقرار بين كل المالك المحلية والإمارات الخاضعة لنفوذ الفرعون في أنحاء سوريا، واتضح ذلك بجلاء من خلال المراسلات الواردة لفرعون محسر من ممالك سوريا، فكيف يكون الحال إذا تم تكمم تشررم تلك المصابات وتم توحيدها تحت قيادة رجل واحد؟!

نشاط عبدس – عشيرتا

في عهد آمونحوتيب الثالث ظهر ذلك الرجل الذي وحد الحابيرو، وهو رجل يدعى عبدى – عشيرتا(3)، برز من بين صفوف زعماء القبائل المطلبة، ما ميزه عن أنداده أنه كان ذا بصيرة، ولديه تطلعات وطموحات، وواسع الرؤية وبعيد النظر، في رؤيته لمنطقته موحدة تحت هيمنته، كانت لديه رؤية مدركة للإمكانيات غير المحدودة في استغلال الشعوب، ومصادر الثروات داخل منطقته وخارجها إذا تمكن من توحيد عصابات الحابيرو.

لم تكن الرؤية وحدها كافية لتحقيق ذلك الهدف، فقضافرت ممها مهاراته الشخصية وعزيمته وقوة إرادته لتحقيق ذلك.

فى سبيل ذلك لم يكن بحاجة فقط لدعم رفاقه من زعماء القبائل المحلية ورؤساء العصابات والقتلة، بل كان محتاجًا الاستمرارية خضوعهم وطاعاتهم له بلا مجادلة كقائد لهم، ويتطلب تحقيق ذلك قدرًا كبيرًا عنهم

من البطولة، كانت جماعات الحابيرو بطبيعتها فوضوية ولا ترضى بالخضوع لأى سلطة ولا بالانتظام الجماعى والتخلى عن استقلالهم الفردى أو انضوائهم في عصابات صغرى الذي يمليه عليهم طاعتهم لعبدى عشيرتا، ولابد أن المكافئات التي قدمت لهم من نفوذ ومزايا مادية كانت ضخمة جداً، حتى يتمكن من ترويضهم، ولا يوجد شك أن عصابات الحابيرو التي كانت بشمال أرض كتعان شكلت العنصر الأساسي من بين قوات عبدى – عشيرتا التي استخدمها لبناء قوته في أرض عمورو والتي بدأ بها اعتداءاته على جيرانه من المالك الصغري.

إلا أن النجاح في مثل ذلك المسروع كان يتطلب تغييبراً في الاستراتيجية، فقبل ذلك كانت أهم سمة وأنجز سلاح في يد الحابيرو هو عدم ظهورهم، أي الكر المفاجئ والفرار السريع والاختفاء كجماعات صغيرة العدد، وقدرتهم على الاختباء السريع دون ترك أثر يقود إليهم، بكان من الصعب على أي جيش نظامي التعامل مع مثل تلك العصابات، وبمجرد أن تنتظم تلك الجماعات الصغيرة في وحدات عسكرية كبيرة وتشتبك في معارك تقليدية يصبحون أكثر عرضة للهزيمة على أيدي جيوش نظامية.

ونمت قوات عبدى ~ عشيرتا، هتى أصبح بإمكانها شن هجمات ناجحة على مدن كبرى، هتى لو كانت بتلك المدن حاميات عسكرية، إلا أنهم لم يكونوا أنداداً يعتد بهم في مواجهة حملة عسكرية مؤلفة من قوة عسكرية كبرى، مكونة من جنود مدريين تدريباً عالياً على فنون القتال، ومجهزين بأسلحة قتال مثل قوات الفرعون.

لم يكن لدى عبدى – عشيرتا أى نية لإثارة صداع مع مصر، غير أن استمراريته في إحكام قبضته على قوات الحابيرو لم تكن لتستمر إلا باللتويح الدائم لهم بمكافئت أكبر، ولم يكن لك ليتحقق ذلك إلا باستمرار وتكرار شن الهجوم على الممالك المجاورة الخاضعة لنفوذ ملك مصر، والنظرة السطحية نظهر أن الترجهين متعارضان، فقد كان تجنب الدخول

في صدراع مباشر مع مصدر — وفي الوقت نفسه الهجوم على المالك الصغرى الخاضعة لها – يتطلب توارنًا تقيقًا في إدارة التوجهين باقتدار، كان التحدي الذي واجهه هو كيفية مزج تطلعاته الشخصية وطموحاته وقواته المتعطشة للغزو والنهب والحصول على غنائم - تحت غطاء تمويهي يتظاهر فيه بأنه عين نفسه بطلاً باسم الفرعون في تلك المنطقة، لرعاية مصالح الفرعون، كل مشروعاته التوسعية وهجماته بفرض السلب، كان يقوم بها بصفته وكيلاً للفرعون، وأي اعتراض على أفعاله لمدى الفرعون كان يرد على القور باتهامه بالخيانة وعدم الولاء للفرعون من كبار موظفي الملك في الممالك الخاضعة، أو من الرعايا المطبين، كانت تلك على الأقل هي المفاهيم التي سعى على الدوام إلى التأكيد طبها في كل رسائله إلى البلاط المصرى.

كانت سومور القريبة من حدود مصر الشمالية(4) بمثابة حالة اختبار، فبعد أن احتل عبدى - عشيرتا مدن لرداتا وإرقاطه جنوب عمورو، راح يتطلع إلى الحامية الاستراتيجية الواقعة في الشمال، غير أن المفوض للمسرى «بحانيت» نائب الفرعون كان يقيم بقصر بها وكان غائبًا في ذلك الوقت.

ووفر غياب باحانيت مندوب الفرعون الفرصة الملائمة التي كان يتطلع إليها عبدى عشيرتا، فقد قاد قوات الحابيرو، وهاجم المدينة واحتلها بعد مقاومة يسيرة، وفي الحقيقة لم يكن للحظ أي دور في اختياره للمدينة ولا في استيلائه عليها، فريما كان قد انتظر حتى سافر باحانيت وهاجم المدينة في غيابه، وبذلك تجنب وقوع مواجهة مباشرة مع المثل الرئيسي للفرعون في تلك المنطقة.

وحتى أو كانت تلك هي حساباته، كان من الصنعب ألا يرد الفرعون على ذلك العدوان السافر.

وانتشرت أنباء احتلال سومور بسرعة، فما الذي يفعله الفرعون إزاء ذلك؟ وأين كانت القوة العسكرية التي يمكنها استرجاع المبنة؟ وفي

انزعاج شديد كتب جار عبدى عشيرتا الجنوبى ريب - حدا، ملك جربلا رسالة عاجلة إلى كبير المسئولين المصريين حايا متسائلاً في رسالته ملاذا تمجم عن إبلاغ الملك؟ إن أبلغته مديرسل فرق رماة السهام السترداد سومور»(5).

(وكان عبدى – عشيرتا قد أقدم على فعل آخر جسور، لا بجرؤ أحد على الاتيان به، لذلك أبلغ ريب – حدا في رسالة أخرى عن نوم عبدى عشيرتا في غرف نوم الملك بقصره المشيد بسومور، وكذلك فتحه للخزائن الملكية الموجودة به)(6) ولم يكن المندوب المصدرى الملكى باحانيت أقل انزعاجًا عندما علم بما جرى وهو في مصر، فكتب غاضبًا إلى عبدى – عشيرتا، وأدانه بأنه عدو لمصر(7). ورد عليه عبدى – عشيرتا بلا توان منكرًا كل اتهامات باحانيت.

ورد بأنه على المكس تمامًا مما ذكره باحانيت من اتهامات، وأنه أبعد ما يكون عن ذلك، وأنه لم يكن إلا مدافعًا عن مصالح مصبر، وذكر أنه مثل سومور حين وجدها خالية معن يمكنه الدفاع عنها، وأن القصر الملكى لم يكن به أحد الحميه، بالرغم من وجود خطر يهدد المدينة بالدمار على أيدى قوات مدينة سحالال، وأنه بالرغم من ذلك لم يبادر باحتالال المدينة لحمايتها إلا استجابة لطلب من الموظفين المصريين الأربعة، الذين كانوا بالقصر مظهرين ولاهم الفرعون حتى آخر لحظة.

وكتب عبدى - عشيرتا إلى الفرعون ذاته ليطمئنه على ولائه وخضوعه للملك، معلنًا أنه - بالنيابة عن سيده الأعلى - المدافع لا فقط عن سومور وأولاسا القبريبة منها، بل عن كل أرض عصورو، وفي تلاعب ملحوظ بالحقائق، ادعى أنه أغذ ذلك على عاتقه بناء على طلب باحانيت المندوب الملكى الرسمى، أو على الأقل بموافقته ورضاه:

دأتري، لديك باحانيت، مقوض الملك، قد يساله الملك، الشمس إن لم أكن أحمى سرمور وأولاسا، وحين كان سيدى المقوض في مهمة لدى الملك، الشمس، أصبحت أنا من يحرس المحاصيل من الحبوب في سومور

وكل أرض المك، شمسي، وسيدي، (8).

كان عبدى – عشيرتا بذاك ينصب نفسه كنوع من كلب حراسة إقليمى، كما لم تكن هجماته منصبة على عديمى الولاء الفرعون، كما كان يدعى، وكما فعل ابنه عزيرو من بعده فى مناسبات مختلفة، كان يتعلل على الدوام بعنر التدخل الأجنبى والتصدى له فى كل هجماته، وقال فى إحدى رسائله «كل الحكام العوريين الفاضعين للملك يسعون إلى انتزاع أرضك منك»، وأوضح أنه ليس على الملك أن يقلق ولا ينزعج، إذ أكد له «أنا أحمى أرضك»، كان خوف مصر من عدوان خارجى على منطقة سوريا خوفًا حقيقيًا، وكان من المكن استغلال وجود ذلك الخوف، وقد زود ذلك الخوف عمورو بورقة مفيدة يلعبون بها من أن لآخر، وقد لعبوا بتلك الورقة بنجاح إلى أبعد مدى.

وسمع لعبدى – عشيرتا أن يستمر في احتلاله لسومور، مما أتاح له قاعدة هامة لعملياته العسكرية المستقبلية، ويحتمل أنها أصبحت مقر قيادة انشطته (9). ولما كانت تقع في أقصى شمال الأراضى السورية الفاضعة للنقوذ المصرى، كان لموقعها كثير من المزايا لحاكمها القطى لا الاسمى، ولابد أن بعدها عن أرض مصر قد زاد من فرصته مع وجود سيد أعلى لا يرى ضرورة في إرسال قواته في حملات بعيدة في أقصى أطراف البلاد الماضعة لنفوذه. وحتى لو كان قد أرسل قوات لاسترداد المدينة كما طلب حاكم مدينة جوبلا منه أن يفعل ذلك، كان لدى عبدى – عشيرتا فرص كافية، لتلقى الشحذيرات بقدوم ثلك القوات، كان قرب سومور من المبتانيين، (وبعد ذلك) من الأراضى الفاضعة للحثينيين بتحول بدوره أرضي الحدود ضد أى تدخل أجنبي تتحول أحيانا لتصبح تهديداً أراضي الحدود ضد أى تدخل أجنبي تتحول أحيانا لتصبح تهديداً بالتحالف مع الأعداء والانضمام إليهم، إذا لم يكن لدى الفرعون ما يكفى من الحكمة، وحاول الإضرار به ويوضعه كحامى لمصالح الملك في الشمال. لقد افترض بعض الباحثين أن عبدى – عشيرتا حاول بالفعل أن ينقل من الحكمة، وحاول الإضرار به ويوضعه كحامى لمصالح الملك في الشمال.

ولاءه للمستانيين، وكان ذلك الافتراض مبنيًا على الحملة التي (طبقاً لما ذكره رب – حيَّة) سيرها الملك المتاني توشيراتا لفزو سومور، ثم إكمال الفزو حتى جوبلا على ساحل البحر(10). وطبقًا لتفسير البروفسير لبيراني لفقرة من الرسالة، رأى توشراتا أن ذلك الإقليم واسم جدًا وفقير جدًا، ولا يجنب اهتمامه، وأنه كان مقتنعًا بتركها خاضعة الصر(11). ولسوء العظاء فإن غموش مفردات الرسالة بجعل من الستحيل تحديد الدلالات التاريخية والسياسية لهذه الحملة المتانية المعاة، فهناك أسباب قوية للتشكك في أن توشراتا ذاته قد فكر في توسيع رقعة البلاد الخاضعة للميتانيين على حساب المناطق الخاضعة لمسر، أو أنه كان يحث على ذلك من عبدي – عشيرتا، فضبلاً عن ذلك، كانت زيارة توشراتا لسومور – لو كان قد قام بالفعل بزيارتها - تيدو بوجه عام وسيلة سياسية لإظهار قوة ومتانة التحالف الميتاني - المسرى، والمفترض أن ذلك قد حدث لمواجهة المخاطر التي يشكلها الحثينيون العدوانيون على كل من الملكتين المصرية والميتانية، ولا يمكن قبول أن توشراتا قد سعى لإثارة العداوة مع مصر بشن حملة عسكرية على الأراضي الخاضعة لنفوذها، في الوقت الذي كان فيه مضيفوطًا واخل بالإدو من تحرش قوات سبيلوليوما العثيثي، ولذلك بيدن أن تقدير سنجر هو الأصوب، جيث اعتبر أن تقرير ريب – هذا الذي ذكر فيه أن توشراتا قاد حملة عسكرية لغزو سومور وجوبلا ليس إلا اختلاقًا من حاكم جوبلا لكراهته الشديد لعبدي – عشيرتا(12).

في جميع الأحوال كانت عمليات عبدى — عشيرتا العسكرية في عمورو ناجحة جداً، دون احتياج لأي مساعدة خارجية، وفي عدم وجود معارضة مصرية حقيقية، ولا معارضة قوية من المسئولين المسريين في سوريا، تمكن زعيم سابق لقبيلة محلية من غزو أغلب المدن الهامة في منطقة سوريا، وجعل من نفسه سيداً عليها. كانت وسائله لتحقيق ذلك تتفاوت من إكراه إلى تخويف، وكذلك القوة العسكرية مفرطة القسوة، وتدفقت النداءات والشكاوي على بلاط الفرعون من كل أولئك الذين وقعوا تحت

تهديده في بلاد العموريين وعلى رأسهم ريب حدا حاكم جوبلا.

كانت عصابات الحابيرو تحت إمرة عبدى – عشيرتا قد أصبحت مطلقة السراح في البلاد المجاورة، فاقتحموا واحتلوا القرى الجبلية الخاضعة لريب – حدا، وتركوا المنطقة الصغيرة الباقية التابعة لجوبلا على حافة الموت جوعًا، وأرسل ريب – حدا رسالة الفرعون قال فيها «فقدنا أولادنا وبناتنا، تم بيعهم في إياريموتا الشراء أقوات انا حتى لا نفني جوعًا، وأعدم وجود، من يزرع الأرض أصبحت أرضنا كامرأة بلا زوجه (13). كان كل نجاح عسكرى لعبدى – عشيرتا، وكل تخريب لمنطقة تجتاحها عصابات تدفع بأعداد كبيرة من البشر للالتحاق بقواته والانضمام إليه. أما من قاوموا فقد كانوا يبادون بلا رحمة، تحت زعم عبدى – عشيرتا بالمحافظة على السلام والوحدة، أما من التحقوا به فقد أمبحوا مثل العابيرو.

باقى الخطابات التى أرسلها ريب – حدا تحمل الطابع ذاته، وكلها تتهم عهدى - عشيرتا بالعدوان بلا رحمة، والتوسع على حساب الممالك الصغرى المجاورة، وكلها تناشد الفرعون إرسال دعم عسكرى، وكلها تعلن للفرعون أن مملكة جوبلا على شفا الانهيار، وقدم حاكمها نفسه كخط الدفاع الأخير ضد ملك الحرب الذي يتطلع إلى الاستيلاء على ممتلكات الفرعون، وأن على الفرعون أن يحذر، وأن تحقيق طموحات عبدى - عشيرتا لا بد أن يكون على حساب الفرعون، وقال في إحدى رسائله:

«عدا ذلك، من يكون عبدى - عشبيرتا، الكلب، الذي يسبعي إلى الاستيلاء على كل مدن الملك، الشمس، لنفسه؟ هل هو ملك ميتان؟ أم ملك قسبيطى، حبتى يسبعى إلى الاستبيلاء على أرض الملك (المصرى) لنفسه(14)»؟

إلا أن مصر صمت عن الاستجابة لكل ذلك، على الأرجع نتيجة سياسة مقصودة، لا عن لامبالاة أو إهمال وتقاعس من جانب الفرعون،

كانت عموري مساحة شاسعة ويصعب السيطرة عليها، من الجانب الطربوغرافي ومن الجانب الديموغرافي، وكما لاحظنا، كان موقعها المجوزافي يجعل منها سهلة المنال على أي قوة تهيمن على شمال سوريا، ونجع عبدى – عشيرتا في توحيد المنطقة تحت سيطرته وهيمنته، وحقق ذلك بعبادرته الشخصية دون السعى لنيل مباركة أحد أو تبنيه لأفكاره أو دعم من الفرعون، لقد قام بيساطة بإجراز القوة في المنطقة، ثم قدم مشروعه إلى الفرعون كعمل منجز تم تحقيقه. إلا أنه حقق ذلك في إطار من قبول الفرعون له بلا تحفظ بصفته سيده الأعلى، وهي أهم نقطة في الأمر كله، وعلى أي حال حقق القوة التي أرادها .

ولم يكن لدى الفرعون أى شك أن تحقيق ذلك انطوى على قهر وإرهاب وتخويف وترويع، وأن ادعامه أنه حرر سومور (مثلاً) من تهديدات جار عدوانى إدعاء تفوح منه روائح الشك، إلا أنه أثبت أنه رصيد مفيد للإدارة المصرية، كحاكم محلى قوى وقادر، أعلن دون تكليف من أحد أنه سيكرس نفسه لحماية المصرية في المنطقة، لذلك لا يوجد تعجب أن نداءات ربب - حدا وتحذيراته لم تلق إلا أذانا صماء، على الأقل حتى تلك المرحلة من أنشطة عبدى - عشيرتا العدوانية.

وكان ذلك في صالح عبدى – عشيرتا، الذي زادت جرأته بعد استيلائه السهل على سومور، وراح يتطلع إلى عمليات غزو أخرى، وربما جال في ذهنه غزو ولاية أوجاريت الغنية الواقعة بالشمال على ساحل البحر، ولكن بالرغم مما تعد به من غنائم، كان غزوها يترتب عليه مخاطر لا حدود لها، مع عدم التيقن من نجاحه في غزوها، فقد كانت أوجاريت في ذلك الوقت متحالفة مع الحثينيين مما يجلب عليه نقمة الحثينيين بكامل ثقلها، كان من الأفضل له أن يحول دفة عدوانه إلى انجاه آخر.

كان غزو المناطق الجنوبية يعد باحتمالات أكبر النجاح مع تبعات أقل خطورة، وباستخدام قوات الحابيرو، انغمس عبدى - عشيرتا في حملات من بث الرعب والخوف ضد عدد من المن والناطق الواقعة إلى جنوب عمورو.

وكان حكام تلك المدن هم هدفه وغايته، فبينما قامت قوات الحابيرو بقتل وذبح بعضهم(15)، سقط بقيتهم على أيدى مواطنيهم، بتحريض من عبدى – عشيرتا. وكان ذلك ما ذكره ريب – حدا الفرعون في رسالة منه ليه «بعد ما استولى على شيجاتا لنفسه، قال عبدى – عشيرتا اشبعب عميًا، اقتلوا سيدكم حتى تصبحوا مثلنا ويسود السلام، ونفذوا ما قال، أصبحوا مثل الحابيروة(16). ولا يمكن أن يراودنا أي شك أن المدن التي ثارت على حكامها وقتاتهم ثم انضمت إلى الحابيرو قد فعلوا ذلك في أغلب الأحوال، خوفا من تبعات رفض اقتراحات عبدى – عشيرتا،

وأعلن ريب - حدا أن دالمتمردين سيتخلون عن عبدي - عشيرتا، لو أن الفرعون أرسل قواته لتأديب عبدي - عشيرتا، حتى في عمورو ذاتها لم يعد الشعب يطيق عبد - عشيرتا... ويتطلعون ليلاً ونهارًا إلى وصول الرماة، ويقولون: فلننضم إلى الرماة، كل حكام المدن ينتظرون أن يتخذ هذا الإجراء ضد عبدي عشيرتاء(17).

أما الموقف بالنسبة إلى ريب - حدا ذاته فقد أصبح ميئوساً منه، فقد راحت المدن التي كانت خاضعة لحكمه تسقط واحدة بعد أخرى في يد عبدى - عشيرتا، وسرعان ما لم يعد بالتيا تحت حكمه، إلا مدينة باترونا ومدينة جوبلا التي تعد عاصمة ملكه، وأخيراً، سقطت باترونا(18)، وبقيت جويلا وحدها.

وأرسل وقداً من ادنه إلى مصر التناشد الفرعون إرسال دعم عسكرى، إلا أن الوقد عاد خالى الوقاض دون دعم ودون وعد، ولم يتبق إلا أمل شاحب، وبعد وقت طويل، كتب الفرعون إلى حكام بيروت وصيدا وصور بتعليمات كان منها «سيكتب إليكم ريب – عدا اطلب قوات دعم، ويجب عليكم جميعًا الذهاب لدعمه»(19)، وكانت تلك المدن تقع إلى الجنوب الأبعد بعيدًا عن متناول عبدى – عشيرتا، ومن المكن الاعتماد على دعمها، خاصة مع وجود أمر مباشر من الفرعون القيام بذلك.

بدت صور على وجه الخصوص بصفتها أقصى مدينة إلى الجنوب من

بين الممالك الثلاث كمكان آمن من عدوان العموريين. ولما تحركت قوات عبدى -- عشيرتا إلى جوار جويلا، أرسل ريب - حدا شقيقته وأبناها إلى صور كمأرى آمن لهم، بعد أن بث الفرعون لديه بعض الطمأتينة، وأخبره أنه أمر حكام المدن الثلاث بدعمه، إلا أن سرعة ومهارة عبدى - عشيرتا كانت أكثر مما قدروا، فقد سقطت المدن الثلاث في أيدى مناصري العموريين. وقمام إيباح - حدا وزيمردا، حاكما بيروت وصيدا بالاستسلام، ويحتمل بعد نداءات منتائية للفرعون لمعاونتهم بلا استجابة منه(20)، فاستسلموا ونجوا بجلودهم(21). ثم وردت إلى ريب - حدا من صور على أيدى أبناء مدينته لرفضه الانضمام إلى عبدى - عشيرتا، كذلك صور على أيدى أبناء مدينته لرفضه الانضمام إلى عبدى - عشيرتا، كذلك متات شقيقة ريب - حدا وأبنائها، الذين أرسلهم إلى صور كملاذ آمن لهم(22)، فقد نبحوا هم أيضا، ويحتمل بأوامر مباشرة من عبدى - عشيرتا.

في ذلك الوقت بدأت جوبلا عاصمة ريب – حدا تعانى من الحصار الذي فرضه عبدي – عشيرتا عليها، فعلى مدى عامين كانت محاصيلها تغتصب، مما دفع المدينة إلى حافة المجاعة، كما زادت الهجمات التي تتعرض لها، ووصلت إلى ثلاث هجمات شارية في العام الأخير، واشتدت قسوة المجاعة، وكتب ريب – حدا إلى الفرعون، وقال له إن شعبه ومزارعيه بدأوا يبيعون أدواتهم المنزلية، بل حتى أطفالهم لإنقاذ أنفسهم من الموت جوعًا(23). وحان الوقت الذي يشن فيه عبدى – عشيرتا هجومه النهائي على عاصمة ريب – حدا، التي أصبحت على وشك الانهيار جوعًا.

وأرسل عبدى - عشيرتا رسالة إلى كل قواته، قال فيها وتجمعوا في معبد نينورتا، ثم نهاجم جويلا، أن ينقذها أحد منا (24) وكتب ريب - حدا إلى الفرعون: «أنا خانف جدًا جدًا الا يوجد من ينقنني منهم، كما طائر محاصر، أصبحت أنا في جويلا، لماذا تهمل دولتك، كتبت رسالة ممائلة إلى كبار رجال القصر الملكي، إلا أنك لم تول كلامي أي انتباء».

كان كبير رجال الفرعون (امان آبا) موجود في ذلك الوقت بالقصر الملكى في مصر، وكان غير من يعلم بحقيقة تطورات الموقف، لذلك أردف ريب حدا في رسالته قائلاً: «إن لم تكن تصنقني، سله، هو يعرف، وهو يدرك الموقف اليائس الذي وصلت إليه»، وحتى داخل مدينته كان عرضة للخيانة وعدم الولاء، فقد تخلى عنه الرجال الذين عينهم الفرعون لمعاونته، وقال «كل الرجال الذين عينهم الفرعون لمعاونته، وقال «كل الرجال الذين خصصتهم لي، فروا»، وراح عبدي - عشيرتا بحرض شعب جربلا على سيدهم: «اقتلوا سيدكم وانضموا إلى الحابيرو»، وقال ريب - حدا : «بهذه الطريقة، يتحول شعبي إلى خونة»(25)، ونجا من معاولة اغتيال تعرض لها: «طعنتي رجل بخنجر برونزي تصع طعنات، إلا ألني تمكنت من قتله»(26). وكان عرضه لمحاولات أخرى لاغتياله، وبدا أن ألني تمكنت من قتله»(26).

لم يكن يرى أمامه إلا احتمالين: ذلك الحل الماسم الذي أرسل في طلبه من الفرعون: «أرسل إلى بما يفيد أنك بعثت بحامية وفرسان، وإلا ساهجر المدينة وأصحب معى حلفائي المخلصين، أو أفعل كما فعل حاكما بيروت وصيدا وأتحالف مع عبدى – عشيرتا «(2)، وكان من الواضح أن تلك كانت أخر محاولة لرجل ظل على ولائه لسيده الأعلى حتى آخر لحظة – في الوقت الذي خضع فيه الآخرون للمعتدى – حتى تلاشت كل الأمال، لم يبق إلا اختيار أخير، فلو ظل الفرعن متقاعساً عن إرسال قوات لإنقاذ ريب – حدا، فريما يمكنه على الأقل رشوة المعتدى لسحب قواته، فبعث إلى الفرعون في رسالته بذلك الاختيار: «لماذا لا تكفع له ألفاً من الفضة أو الله من الذهب، حتى يرحل عني الاختيار: «لماذا لا تكفع له ألفاً من الفضة أو

ولما بدا الموقف أبعد عن أى عبلاج ووصل اليباس إلى مبداه، قبام الفرعون فجأة بالتخاذ القرار الحاسم، فما الذى يفعه فجأة إلى ذلك؟ بكل تأكيد لم بكن تغير موقفه يرجع إلى تعاطفه مع المأزق الذى يعانى منه ريب – حدا، فقد ثبت أن كل تضرعاته السابقة طلبًا للمساعدة ذهبت أدراج الرياح.

الجانب الوحيد في رسائل ريب — حدا الذي أصاب وبراً حساساً هو التهديد الذي سيشكله عبدي – عشيرتا على الطرق الموصلة بين كل الولايات التابعة في سوريا، بمجرد أن يحكم قبضته على كل ولايات الساحل من سومور في الشمال حتى صور في الجنوب، كان استيلاؤه على جويلا سيغلق آخر فجوة باقية على الساحل. وقد فسر سنجر ذلك الأمر ذاكراً: «لقد بلغ تعاظم شأن عبدي — عشيرتا، حتى وصل إلى مرحلة أصبح فيها كل ساحل فينيقيا تحت سيطرته المباشرة أو غير المباشرة، وتخطي بذلك كل قدر يمكن لحكمة مصر احتماله، دون أن تخاطر بنفوذها وهيمنتها على لاقطاع الشمالي من إمبراطوريتها الأسيوية»(29).

وفيما بعد، كأن رب- حدا يشير في رسائله إلى إخناتون إلى الإجراءات الحاسمة التي اتخذها أبوه أمونحوتيب الثالث ضد عبدي - عشرتا:

«لقد بعثت رسولاً إلى أبيك، وهين جاء (أمان آبا) على رأس قوة معفيرة، كتبت إلى القصر بأن على الملك أن يرسل قوات أكبر، ألم يعتقل عبدى – عشيرتا وجرده من كل ما يمك، كما كنت أذكك له من قبل؟ (30).

أدى اعتقال الحملة العسكرية المصرية لعبدى – عشيرتا إلى إنهاء كل الأعمال العسكرية العدوانية، ووصل بأنشطته إلى نهاية مفاجئة، وفي رسالة أخرى يحتمل أن كاتبها ريب – حدا إلى أخناتون، نجد إشارة تفيد موت عبدى – عشيرتا(31)، إلا أن التفسيرات الأخرى لتك العملة تذهب إلى أن المصير النهائي لعبدى – عشيرتا موضع كثير من التفسيرات والشكوك(32).

ويشير أحد الاحتمالات إلى أنه اغتيل على أيدى بعض المعارضين له، من أبناء موطنه أو من المنضمين له من الأجانب، ويشير احتمال غيره إلى أنه أعدم على أيدى القوات المصرية التى اعتقلته، إما مباشرة بعد اعتقاله، أو بعد الرجوع به إلى مصر، وكان موته سببًا في إقامة احتفالات عظمى في جويلا، واحتفالات أوسع انتشارًا في المناطق التي أخضعها لنفوذه.

ابناء عبدس ~ عشيرتا

تسبن أن المهلة التي أتسحت لربب – حيدا وحكام المبالك الأخبري الصغيرة في سوريا من تهديدات العموريين لم تكن إلا مهلة قمبيرة العمر لم بهناوا بها كثيراء فبينما نجحت مصر في إزاحة عبدي – عشيريًا والتخلص منه، إلا أنها لم يكن لبيها نظام بديل لتحله محله، وكان ذلك يرجع إلى حد كبير لطبيعة الإقليم، كان الإقليم غابات شناسعة ومناطق جبلية ومساحات صغيرة من الأرض المنبسطة الصالحة للزراعة الرعوية، مما يهيم؛ تلك المناطق لأنماط الحياة الرعوبة وشبه القبلية، وكانت الطبيعة القبلية غالبة على العموريين، وكان عبدي – عشيرتا بدوره زعيمًا محليًا قبلياً، نجح في تجميع باقي القبائل تحت قبادته، مضافًا إليهم عصابات المنطقة وقاطعو طرقها، لم يشر إلى نفسه أبدًا، كما لم يوجه الخطاب إليه أبدا بصبفته ملكًا. كانت «مملكته» تفتقد أية مقومات مملكة تابعة أو خاضعة، وكانت سلطته التي توصيل إليها سلطة غير قانونية، ولم يكن ذلك يماثل بأي حال من الأحوال سلطة بلاط رسمي دائم مستقر ومعترف به، وكان من الواضح أيضًا أنه لم يكن له أبدًا عاصمة ثابتة مستديمة، بل كان يستخدم مدنًا مختلفة كمقار القيادة حسب مكان تواجده، كانت سومور واحدة من تلك المدن، ويحتمل أنها كانت أهم مقر لديه.

كان العثينيون وملوك الشرق الأدنى الأغرين يدركون أنه من العسير فرض هيمنة وسيطرة دائمة على مثل تلك المناطق، التي ليس لها جيش نظامي يمكن إلحاق الهزيمة به في ميدان المعارك النظامية، ولا نظام سياسي وإداري ثابت ومسمتديم، من ذلك النوع الموجود في الممالك الصغيرة الأخرى الخاضعة لنفوذ القوى الكبرى، وربما يفسر ذلك تأخر الفرعون لوقت طويل قبل اتخاذ قرار التصدي لعبدى – عشيرتا، بعد الاعتداءات الصارخة التي شنها على المالك التابعة الهيمنة المصرية.

والأقرب إلى الاحتمال أن الخلاص منه تم بعمليات سرية من المسريين أو عملائهم، أكثر من كونه عن طريق جيش عسكري نظامي،

إلا أن الخلاص منه لم يحل مشكلة العموريين، فسرعان ما شغل أبناءه الفراغ الذي خلفه موت أبيهم، وفيما بينهم معًا، استمروا في ممارسة هيمنتهم على كل منطقة العموريين، كانت تلك المنطقة قد أصبح فيها سلالة قبلية حاكمة من أبناء عبدى – عشيرتا، ولم يكن ذلك ليبعث أي نوع من الراحة في نفوس المالك المجاورة، كما أدى إلى موقف أصبعب على الفرعون في كيفية معالجة ذلك، وأكد له ذلك بداية تدفق جديد، للشكاوى من ريب – حدا حاكم جوبلا، كل المالك التي تم تحريرها من سطوة قوات عبدى – عشيرتا أصبحت في خطر من جديد، ولكن هذه المرة على أيدى أبناء عبدى – عشيرتا.

كانت سلسلة رسبائل الشكاوى الجديدة موجهة إلى أخناتون الذى اعتلى عرش مصر، خلفًا لأبيه أمونحتيب الثالث، وذكر له ريب - حدا في رسالة:

دان عداوة أبناء عبدى - عشيرتا لى عداوة شديدة، لقد احتلوا كل بالد عدورو وأصبحت المنطقة كلها تحت سيطرتهم»(34).

وراحت المدن التي تحررت من قبضة عبدى - عشيرتا تسقط واحدة بعد أخرى من جديد في أيدى أبنائه، فستقطت مدن أولاسا، وأرداتا، وواهليا، وأمبي، وشيجاتا، وأرقاد(35)، واستخدم الأبناء تكتيكات أبيهم ذاتها، لتحقيق ذلك، وهي تحريض الزعماء المحليين على الانضمام إليهم، فإن رفضوا، يحرضون رعيتهم على اغتيالهم والاستيلاء على الحصون المحلية وفتح أبوابها لقوات العموريين.

وصمدت مدينة سومور ومدينة إرقاطة الواقعة جنوبها، كانت سومور قد وضعت من جديد تحت إمرة مندوب الفرعون بعد موت عبدى - عشيرتا، وخصصت قوات لحمايتها، ولكن مع السقوط المتنالي المدن المجاورة في أيدى أبناء عبدى – عشيرتا أو انضعام بعضها طواعية

إليهم، أصبحت سومور معرضة لفطر شديد مرة أخرى، وكتب الفرعون بتعليماته إلى ريب - حدا يأمره بمعاونة مدينة سومور على التصدى العموريين، وأن يظل هناك حتى وصول التعزيزات العسكرية المصرية(36).

ويبدو أن ريب حدا كان بالفعل قد توجه إلى سومور، ولكن يحتمل أن ذلك قد حدث قبل أن تصل المدينة إلى ذلك الوضع اليائس، ولذلك رد متضرعًا للفرعون أنه ليس بإمكانه تنفيذ آمر الفرعون، وقدم أسبابًا عديدة لعدم قدرته تنفيذ ذلك، كان أهم الأسباب وأولها أن عاصمته ذاتها أصبحت معرضة لعدوان عمورى في أى لحظة، وقال «العداوة لي أصبحت شديدة جداً، ولم يعد باستطاعتى الذهاب (37)، وفشل في أصبحت شديدة جداً، ولم يعد باستطاعتى الذهاب (37)، وفشل في الحصول على دعم حاكمي صبيدا (الملك زيمردا) وبيروت (الملك يابعا حدا) لزيارته السريعة لسومور، ولم يكن ذلك غريبًا، فقد كانوا قد رفضوا قبل ذلك نداءً مباشرًا من المفوض المصرى في سومور. كان أيضًا منزعجًا من فكرة أنه حتى لو تمكن من دخول مدينة سومور فإنه سيظل حبيسًا من فكرة أنه حتى لو تمكن من دخول مدينة سومور فإنه سيظل حبيسًا بها، ولن يستطيع مغادرتها بسبب محاصرة قوات الأعداء لها، وسيتيع ذلك إن حدث الفرصة لرعيته هو التخلى عنه والتحالف مع العابيرو(38).

كان نقص الطعام يضاعف من سوء الموقف داخل مدينته جوبلا، كانت عصابات الحابيرو قد استعادت نشاطها في شن الغارات على الحقول المحيطة بجوبلا، كما فشلت محاولات جلب الطعام للمدينة عن طريق البحر بسبب إغلاق جزيرة ارشادا الطريق البحرى أمام المراكب البحرية(39)، (وللسبب ذاته عجز ربب - حدا عن إرسال مراكبه البحرية إلى سومور أو العودة منها). كانت جزيرة ارشادا تقع على مسافة تقترب من ثلاثة كيلو مشرات من الساحل إلى الشعمال من سومور، وكانت قد تحالفت مع الأعداء، وزاد من حدة أزمة الغذاء في جوبلا التضخم المفاجئ في إعداد المهاشرة إلى مدينة جوبلا بصفتها ملاذًا أمنًا، وذكر ربب - حدا ذلك السبب أيضًا في رسالته إلى آخذاتون:

«المصريون الذين فيروا من أولاسيا أتوا إلى عندى، ولكن لا يوجيد حيوب تكفي لغذائهم (40).

ويحتمل جداً أن جوبلا اعتبرت أيضا ملاذاً أمناً للفارين من المدن الأخرى اكان لعنصر توقع المجاعة أثره كحافز قوى لسكان جوبلا والفارين من المدن الأخرى ويفعهم للإنضمام للحابيرو.

راح وضع سومور يزداد سوءًا بعد أن أصبحت محاصرة برًا ويحرًا، وتناسى ريب – حدا مشاكله الخاصة به، وراح يحث الفرعون على إرسال قوات تفك المصار عن سومور بأسرع وقت، وقال: «سومور مثل طائر في شرك. أنها تتعرفي الهجوم نهارًا وأيلاً من أبناء عبدي – عشيرتا من البر، ومن أبناء ارقادا من البحرة (41)، كما أخبره أن المندوب المصرى طلب من ماكمي بيروت وصيدا دعم سومور، إلا أنهما لم يستجيبا: «وبالرغم من أن النهاية بدأت تنوح أمام الأنظار، قامت أغلب حامية سومور بالفرار منها خرفًا من المصير المنتظر، ولم يبق إلا قوة ضنيلة العدد من المخلصين، ولم يكن في مقدورهم عمل أي شيء. ومرة أخرى يناشد ريب المخلصين، ولم يكن في مقدورهم عمل أي شيء. ومرة أخرى يناشد ريب عدا الفرعون: «هل يهتم الملك، سيدي، بكلمات خادمه المخلص، أرسل قوات إضافية على جناح السرعة إلى سومور، لحمايتها حتى وصول رماة قات إضافية على جناح المرعوني ذاته المقيم في سومور في خطر داهم، لذلك أضاف ريب – حدا في رسالته: «إن ثم تفعل شيئًا لمواجهة داك الموقف، سيستواون على سومور، ويقتلون المندوب وقوة التعزيز داكم، لذلك أضاف ريب – حدا في رسالته: «إن ثم تفعل شيئًا لمواجهة داك الموقف، سيستواون على سومور، ويقتلون المندوب وقوة التعزيز داك الموقف، سيستواون على سومور، ويقتلون المندوب وقوة التعزيز المسرية الموجودة بالمدينة (44).

ويبدو أن تلك المناشدة أيضًا لم تلق اهتمامًا، كانت كل المناطق المحيطة بسومور قد سقطت، ولم يبق إلا المدينة ذاتها، فقال عن ذلك، داحتات كل ولاية سومور حتى أبواب المدينة (45)، كما حملت رسالته أنباء سيئة أخرى، كان المندوب الفرعوني الذي صمد طويلاً على أمل أن يرسل الحكام المحليين من بيروت وصيدا دعمهما، أو أن تصل قوة مصرية عاجلة لفك الحصار، أولاً، قد لقى حتفه، ومن المرجع جداً أنه اغتيل على

أيدى أحد مواطنيه المصريين، وأزاح موته آخرالعوائق أمام استسلام الدينة، فسرعان ما خضعت أو ما تبقى منها في قبضة المحاصرين لها.

أنشطة عزيرو

برن من بين أبناء عبدي عشيرتا أثناء حصار مدينة سومور حتى الاستبلاء عليها أبنه عزيرو، كان هو مخطط هملة سومور الناجحة، لذلك برز بصفته العدو الرئيسي في رسائل ريب - حداً، كان قد اكتسب مكانة أعلى من بين إضوته، دون أن يكون رئيسًا عليهم أو أن يترتب على ذلك خضوعهم له، ومن ذلك الوقت ارتبط مصير بلاد عمورو بمصير عزيرو، كانت سباساته ومشروعاته وطموحاته العسكرية لا تشتلف عن تلك التي كانت لأبيه، أي حملات عسكرية على جيرانه لزيادة سيطرته وتوسيم رقعة تفوذه، في الوقت الذي يظهر نفسه للفرعون في صورة الملص للملك ومندويه وسامي الممالح الممرية في منطقته، ولكنه كان أكثر من أبيه حرصنًا على المصول على اعتراف رسمي به كيلك مطي مثل باقي ملوك الولايات المعلية، ولم يكن يرى أي تناقض في انتهاج سياسة الاتجاهين المتعارضين، فقد رأى أن بإمكانه المصبول على اعتراف الفرعون به إذا طلب ذلك وهو في مركز قوة، كان من المكن أن يرفض الفرعون التعامل في أي مصالح مع معثل أسرة لها مثل ذلك السجل الحافل بالخيانة والاعتداء على رعايا مصر ، إلا إذا تمكن من إغرائه أن ذلك سيكون في صالحة وصالح مصنر إلى أبعد مدي.

ويحتمل أن عروض ودعوات عزيرو للفرعون وكبار موظفيه، التواجد في سوريا أو زيارتها، كانت تعرض في الوقت الذي كان يعد فيه مخططاته لحملته العسكرية على سومور، على أمل أن تنجز الوسائل الدبلوماسية ما تعجز الوسائل العسكرية العنيفة عن إنجازه في السيطرة على سومور بلا حرب. كان تعامله الأول مع سلطات المدينة قد اندرج في إطار دبلوماسي، كما ذكر الفرعون في رسالة بعث بها إليه وقال فيها:

«من مبدأ الأمر، يا مديدى، سعيت إلى تكريس نفسى لخدمة الملك، سيدى، إلا أن كبار مستولى سومور لم يستجيبوا لى. إلا أننى أبرأ من لقتراف أى ننب ضد الملك، سيدى، ويطم الملك، سيدى، من هم المعتدون الحقيقيون، وسوف ألتزم بكل صدق مع كل ما يطلبه سيدى الملك منى، (46).

وكبرهان ودايل على صدق مزاعمه وعميق إخلاصه، جعل اثنين من أبنائه يذهبون إلى بلاط الفرعون بصحبة حامل الرسالة(47). ويحتمل أنه لم يلجأ إلى القوة إلا بعد فشل مبادرته الدبلوماسية، بالرغم من أنه لم يتوان عن التأكيد للفرعون أن هجومه على سومور يجب ألا ينظر إليه على أنه عمل من أعمال العدوان ضد سيده الأعلى(48).

ومن جهة أخرى، لم يندهش عزيرو من العداوة التي قوبل بها من كبار المسئولين المصريين المقيمين في بلاد سوريا، فمن خلال رسائل عديدة نتبين إحباطه وغيبة أمله فيهم في سوريا في نيل اعترافهم به، قال في واحدة من تلك الرسائل:

«أريد أن أوظف لخدمة الملك، الإله، الشمس، سيدى، إلا أن إيانهامو لم يسمح لى بذلك»(49).

ومن تلك الرسالة، وغيرها يتضبع أنه بدّل مساعي كثيرة في مناسبات عديدة لتأسيس مصداقية لدى الملك، باتباع التدرج المنطقي بنيل ثقة كبار مسئوليه في سوريا أولاً، وهكذا، كتب في البداية إلى المسئول المصري توتو بأكثر العبارات تملقًا ومداهنة: «أنت أبي وسيدي، وأنا ابنك، وبالا عمورو هي بلادك، وبيتي هو بيتك، اكتب إلى بما ترغب وتشتهي، وساتقذ رغباتك بكل إخلاص، (50).

وعلى الأقل، كانت استجابة توبو في البداية مماثلة لاستجابة إيانحامو (51). لم تكن الوسيلة البلوماسية سهلة ولا ممهدة بأي حال.

غير أنه في محاولاته كسب اعترافًا رسميًا مصريًا به، وجد أن الظروف الدولية السائدة تهيئ له أوراقًا رابحة المساومة بها، لم يكن

هناك شك فى أن الميتانيين قد انهاروا انهياراً كليًا، لا قائمة لهم بعده كقوة كبرى وإمبراطورية مستقلة، وأنها مسائة وقت ليس إلا، ليصبح سبيللوليرما ملك الحثينيين، القوة المهيمنة على شمال سوريا بلا منازع، وبمجرد أن ينتهى من ذلك، أن يوجد من يستطيع إيقاف تقدمه إلى الجنوب باتجاه مناطق النفوذ المصرى بسوريا، إذا عن له ذلك، إلا إذا كان هناك ملك تابع مخلص التاج المصرى، ولتنبيه الفرعون إلى التهديد المثينى القادم، لم يترك عزيرو مجالاً للشك فى دوافعه الشخصية: وإذا قام الملك المثينى بأى عمل عنوائى ضدى، هل يتفضل الملك، سيدى، قام الملك المدي، ومعاقوم بالدفاع عن أرض بإرسال... قوات وعجلات حربية اساندتى، ومعاقوم بالدفاع عن أرض

لم يكن عزيرو يسعى فقط للحصول على اعتراف رسمى مصرى به كملك تابع، بل قام بالفعل بممارسة كل ما يطلب من ملك تابع بالفعل: «كل ما يقوم به الملوك والحكام الخاضعين للملك، سأقوم أنا أيضا بأدائه للملك، سيدى، وإلهى وشمسى للأبد» (53)». لذلك لم يتوان عن طلب إرسال دعم مصرى عسكرى، وفي المقيقة، كانت الاستجابة بإرسال دعم عسكرى مصرى له يحقق دعماً قوياً لتطلعاته، فأولاً: كان الدعم العسكرى المصرى له يعد دليلاً عملياً ملموساً على تبنى الفرعون لوضعه، ثانيًا: ستؤدى المقوات العسكرية المصرية إلى تقليل اعتماد عزيرو على عصابات الحابيرو غير المنظمة وغير المنضبطة، والتي لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تقدم عليه، والتي تشكل الكتلة الرئيسية في قواته.

كان أبوه عبدى - عشيرتا قد سعى إلى بناء قوة عسكرية داخل الأراضى السورية الخاضعة لنفوذ الفرعون بتوحيد الجماعات شبه القبلية تحت قيادته واستخدامهم في غزو أراضي الممالك الصغرى المجاورة. وزاد عليه عزيرو بسعيه إلى إضفاء شرعية على تلك القوة، والفوز بمباركة الملك الأعظم لنظام حكمه، في الوقت الذي يطلق فيها العنان لغريزة النهب والغزو والغزو التي غرست فيه وراثة عن أسلافه، كان التحدى الذي

يواجهه هو الحصول على الشرعية، في الرقت الذي يظل فيه ممارسًا لغريزة النهب والغنم.

ولا بد أن القرعون كان يعى كل الوعى أبعاد اللعبة التي يلعبها عزيرو، وأنه في الوقت الذي يظهر هيه الاخلاص كان يقوم بأعمال العدوان على المالك الخاضعة النفوذ المصرى بكل صفاقة، وأكدت التقارير التي لم تنقطع من كبار المستولين المصريين في سوريا، إذا نحينا جانبًا تيار الشكاوى الذي لم يتوقف من ربب - حدا ونظرائه من الملوك التابعين أن مشكلة العموريين كما كان يتصورها تمامًا، ولكن، إذا كان إضفاء الفرعون على عزيرو صفة ملك تابع التي يطلبها بإلحاح، من المكن أن تضمن أنه سيعمل بعدها على الحفاظ فقط على مصالح سيده الأعلى والتفاني في خدمته، فإنه يصبح بلا أي شك أكفأ عميل المصالح المصرية في المنطقة أكثر من كثير غيره من الملوك التابعين، فضلاً عن ذلك، لم يكن هناك أي اختيار آخر قائم بشكل عملي.

كان عزيرو شخصية بارزة من بين زعماء القبائل في تلك المنطقة، وموضع تبجيل كل سكانها من عامة الناس، وأثبت جدارة واستحقاقًا في ميادين القتال، وكان سياسيًّا أريبًّا، ولو وثق به الفرعون فمن المكن أن يصبح الدرع الواقي ضعد تهديدات العثينيين لمناطق النفوذ المصرى في سوريا، ولكن، إلى أي مدى كان يمكن الوثوق به؟

كانت التقارير التي ترد إلى الفرعون من مندوبيه في سوريا تتحدث عنه بطريقة سلبية، وفي أفضل الأحوال كاتت متضارية.

ومن الواضع أن الفرعون كان مجبراً على اتخاذ قرار لحسم الأمر، ولم يكن أمامه إلا عقد مقابلة شخصية، والمحتمل جداً أنها كانت المناسبة التي قام فيها عزيرو بزيارته الشهيرة إلى مصر – وكانت بكل تأكيد بناء على رغبة الفرعون(54)، وقياساً على الوقت الذي يستغرقه الطريق في الذهاب والعودة، بالإضافة إلى الوقت الذي مكثه عزيرو بمصر نستنتج أنه قضى عدداً من الشهور بعيداً عن بلاده، ويحتمل عاماً أو أزيد، خلال تلك

الفترة، قام شقيقه بعلويا وابنه بيتى – إليو بإدارة شئون الحكم في مملكة الأمر الواقع التي خلقوها. أما الفرعون، فطالمًا كان عزيرو متواجدًا في البلاط الملكي في مصر، لم يشعر بأي تعجل التوصل إلى اتفاق مع الجانح الذي عين نفسه ملكًا تابعًا بقوة فرض الأمر الواقع.

لم تمض الإقامة الطولة التي قضاها عزيرو بمصر بلا فائدة لعزيرو، لأنه لم يدع أي شرمية تمر دون أن يحصل فيها على معاومات مفيدة، خامية المعلومات التي لم يكن من المتيسر أن يحصل عليها من المسادر الرسمية. كانت الإصلاحات الدينية الجذرية التي قادها أخناتين قد ذاع صبيتها في أنحاء الشرق الأبني القبيم، وكان بإمكان المرء أن يعرف الكثير بوجوده في موقع الحدث، خاصة ما قد يترتب على تلك الإصلاحات الدينية على السياسة المسرية الخارجية، وكذلك مدى الرغبة والجاهزية المسرية في إرمنال حمالات عسكرية جديدة على متورياء ورجب عزيرق بغرصة زيارته لمسر لكي يعميل على الاعتراف الرسمي الذي تأق إليه -ومن القرعون نفسه - بوشيعه كحياكم شرعى محترف به على مناطق خاضعة لنفوذ مصرر إلا أنه احتفظ سرًا باختبارات مفتوحة، مستفيدًا بالوقت الذي قضاه في مصر مختبراً نوع الاستجابة الذي يمكن أن يلقاه ويجعله يلغى اختياره المصرى، وبالفعل، إذا كان يمكن أن نصدق ما ورد في رسالة إلى الفرعون من الليرابح شقيق ريب - حدا وخليفته على مدينة جربلا، كان عزيري بالفعل بتأمر سرًا أثناء إقامته بمصر مع ابتاكاما حاكم قادش، التي كانت قد أصبحت منطقة نفوذ حثينية من وقت قريب(55).

أما من وجهة النظر المصرية، كانت زيارة عزيرو لبلاط الفرعون بمثابة فرصة ملائمة لتقييم مدى ملائمة عزيرو لأن يصبح ملكًا تابعًا، خاصبة على ضوء سجل سلوكه السابق وخلفيته العائلية.

وفى عالم لا يعرف معنى لحصانة دبلوماسية، كان بإمكان الفرعون أن ينهى المشاكل التى يثيرها عزيرو بحجزه فى مصر إلى المدى الذى يريده، وكما لاحظنا، فإن تلك العقوبة كانت تطبق على المبعوثين الأجانب، ليظهر بها الملك عدم رضائه عن ملوكهم الذين أرسلوهم. كما لم تكن هناك أى غضاضة في أن يحبس لديه أي ملك من الملوك الخاصعين الهيمنة المصرية، وبالفعل، كان أخناتون يميل إلى تلك الفكرة، ولذلك ظهرت شائعات مفادها أن الفرعون أن يسمح لعزيرو بمغادرة مصر، إلا أنه كان من الصعب تبين كيف يمكن أن يكون لنفي عزيرو الإجباري بمصر أي تداعيات نحو الأفضل في أرض عمورو، حيث لا يبدو أي اختيار آخر ملائم لتزعمه المنطقة.

أما في بلاد عمورو، فقد زاد انزعاج عائلة عزيرو؛ بسبب غيابه الطويل بمصر، وكتب ابنه – ويحتمل أنه كان دوبي – تيشوب – رسالة إلى أحد كبار المسئولين المصريين ويدعى توتو، مخبراً إياه عن الشائعات التي تذكر أن عزيرو أن يسمح له أبداً بالعودة إلى بلاده، بالإضافة إلى شائعة أنه باع أباه إلى مصدر مقابل ذهب(56)، وخلقت الشائعات قلاقل واضطرابات خطيرة في منطقة عمورو، كان من المكن أن تغرى أعداء مصدر بغزوها وخاصة ملوك نوهاس، وطلب دوبي – تيشوب في نهاية رسالته أن يسمح لأبيه بالعودة فوراً إلى موطنه.

ومع الرسالة السابقة، كانت هناك رسالة أخرى مرسطة إلى عزيرو ذاته (57)، من أقاربه المباشرين بعلويا وبيتى – إليو، وتعتوى على أخبار مقلقة، تغيد أن القوات الحثينية تعت قيادة قائد الجيش لوباكر قد احتلوا مدنًا في أرض أمكا (58)، كما ورد تقرير أخر يغيد أن القائد الحثيني زيتانا قد وصل إلى منطقة نوحاس على رأس قوة قوامها 90000 من المشاة، وكان الغير الأغير بحاجة إلى مزيد من التيقن، كما أفادت الرسالة بأن بيتى إليو كان سيترجه إلى القائد العثيني للتأكد من صحة تلك المعلومات، ولو صحت تلك المعلومة فلا يوجد شك أن الإعداد كان يتم لاجتياح وغزو كل مناطق النفوذ المصرى الواقعة غرب نهر العاصى.

كان المقصود بتلك الرسالة فرعون مصر بنفس القدر مع عزيرو(59)، وكان التقرير المرفق شديد المبالغة، فرقم 90000 جندي – وهو ضعف عدد

الجنود العثينيين الذين واجهو الجيش المصرى في موقعة قادش لا يمكن قبوله ولا تخيله، إلا أن أشقاء عزيرو أقروا أن ما سمعوا به مازال بحاجة إلى تأكيد وتيقن. وربما كانت هناك تحركات عسكرية حثينية بالفعل في منطقة نوحاس، وقد كانت خاضعة للنفوذ الحثيني في ذلك الوقت، كما يفترض أنه كانت هناك بعض العمليات العسكرية الحثينية في منطقة أمكا، التي لم تكن خاضعة للنفوذ الحثيني (60)، إلا أن التقرير غير المؤكد ببتك الإشاعة عن توقع غزو حثيني واسع النطاق، كان بهدف إلى تحقيق هدف آخر، وبالفعل، من المحتمل جداً أن يكون عزيرو، قبل مغادرته بلاده إلى مصر، قد رتب مع إخوته اللجوء إلى تلك الحيلة في حالة غيابه في مصر ازمن يبدو بلا مبرر واضح.

ومهما كانت حقيقة الأمر، كانت رسالة إخر[عزيرو دافعًا قويًا لسرعة اتضادُ قرار من الفرعون، ليضنفي على عزيرو الصفة الرسمية التي ينشدها (61)، وأن يأذن له بالعبودة إلى بلاده، ويصتمل أن تلك كانت المناسبة التي فرض فيها أخناتون عدداً من الشروط على العموري، والتي راح يذكره بها بعد ذلك، كان أحد الشروط يجبر عزيرو للخضوع إلى تفتيش منتظم من السفير المسرى المتجول حاني، والذي سيرسل بدوره تقاريره إلى القرعون ليخبره إن كان عزيرو ملتزمًا أم غير ملتزم بشروط الاتفاق في خدمة مصدر بإضلامي وتفان، كان من الواضع أن صاني أصبحت تربطه علاقة ودية طيبة بعزيرو في الفترة التي قضاها بمصر. فكما أعلن عزيرو بنفسه بعد ذلك، عامله رجل الدولة المتميز حانى بكرم مُسِافَة فَائَقَ، ورعاه «رهاية الأم والأب»(62). وعلى ذلك فإذا أرسل حائى تقريرًا ينتقد فيه عزيرو، ان يكون بمقدور عزيرو التعلل بأن كاتب التقرير مِنْ أَعِدَائُهُ، وهِوَ الإدعاء الذي دأتِ عزيرو على أتهام للستولين المسريين به، وسواء كان أدى عزيرو نية حقيقية في الحفاظ على ولائه لمسر والفرعون – وما علمه عن خبايا النظام المسرى أثناء وجوده بمصر كان له دورًا في اتخاذ قرار في هذا الشبان – فإنه لم يدع مجالاً للشك بعد

عودته إلى بلاده أن سياساته وأفعاله ستحددها فقط طموحاته ومصالحه، لا الاتفاقات التي عقدها مع سيده في مصر، لقد أصبحت المسألة أوضح بالنسبة إليه وهي أن الملك الحثيني لديه عروض أفضل، إذا تحالف معه على مستوى أمانه الشخصي ومستوى تحقيق طموحاته أكثر من انضوائه تحت هيمنة الفرعون المصرى، وظل لفترة يظهر ولاءه للفرعون، إلا أنه في ذات الوقت بدأ في بناء تحالفات مع ممالك صغري خاصعة للنفوذ الحثيني، وعلى وجه الخصوص مع اتباكاما ملك قادش ونيكمادو ملك أوجاريت، بالإضافة إلى بدء الحوار مع الملك الحثيني ذاته، كان قد أصبح من الواضح أيضا أنه لن يقي بالشروط التي فرضها عليه سيده، وراح مل الفرعون يتزايد، وكتب إليه طالبًا منه تفسير فشله في تحقيق وعوده له.

ولدينا رسائتان بدلان على انزعاج الفرعون(63)، كان عزيرو قد وعد بإعادة بناء مدينة سومور، والتي كانت على حالة سيئة بعد حصاره لها، واقتحامها في بداية تزعمه للحابيرو بعد موت أبيه، وبافتراض أن سومور كانت أقوى مدينة حصينة خاضعة لمصر في الشمال، فقد كان من المحتم إعادة بناؤها وتقوية أسوارها وحصونها، فلماذا لم يف عزيرو بوعوده التي قطعها على نفسه للفرعون؟ كان لدى عزيرو عثر جاهز، فقد وضع الذنب في أعناق المستولين المصريين، وأكد الفرعون أنه سيعيد بناها في أسرع فرصة:

«تعدث الملك، سيدي، عن إعادة بناء سومور، كان ملك نوهاس يشن عربًا شدى، واستولى على مدنى بناء على تعريض من حاتيب (مسئول مصرى) لذلك لم أعد بناء سومور، والآن، ويكل سرعة ممكنة سوف أعيد بناهاء(64).

ولا يوجد أى دليل على أن عزيرو وفَّى بذلك الالتزام أبدًا.

كما قام بتجاهل السفير المصرى حانى، عندما زار عمورو بعد ذلك، كانت الزيارات الدورية التفتيشية التي يقوم بها السفير المسرى حانى، لتفقد أوضاع وأحوال مملكة عزيرو تتضمن لقاء مباشراً بين حانى وعزيرو، لتقييم مدى التزامه بأداء مهامه، إلا أن حانى لم يجد عزيرو في استقباله عندما وصل إلى عمورو، وبدلاً من ذلك ترك أفراداً آخرين من الأسرة يجتمعون بحانى، وكان ذلك بكل تأكيد خرقاً مباشراً لبنود الاتفاق الذى التزم به أمام أخناتون، فبالإضافة إلى أن ذلك كان إهانة للسفير والمفوض الملكي حانى، كان إهانة أيضًا الملك الذي يمثله ذلك السفير، واتهم أخناتون عزيرو وبالتهربه من مقابلة السفير، إلا أن عزيرو كان لديه الغذر الذي أعده، ورد قائلاً:

«سيدى، كنت مقيمًا في تونيب (في الوقت الذي وصل فيه حانى إلى بلادى) ولم أكن أعلم بوصوله، وفي اللحظة التي علمت فيها، جئت لألحق به، ولكني عدت بعد رحيله،(65).

كان عذرًا واضح الاختلاق، وكان الفرعون على يقين من ذلك، ولم يرض عن ادعاءات عزيرو بتأكيده أن حانى لقى من عائلته عناية فائقة أثناء غيابه في تونيب، وأنهم أمدوا حانى بالخيول والبغال اللازمة لعودته إلى مصدر، وتشير كل الاحتمالات إلى أن عزيرو تجنب عامداً الالتقاء بالسفير المصرى، فقد أقدم بعد عودته إلى عمورو على كثير من الأفعال التي يصعب تبريرها.

كان احتلاله لتونيب في حد ذاته يحتاج إلى تفسير. فكما علمنا (من الفصل 8)، ظلت تونيب دون قيادة بعد موت ملكها أكى – تيشوب، وظلت نداءات أهالي تونيب ورسائلهم المتواصلة لفرعون مصر، ليسمح بعودة ابن اكي – تيشوب من مصر ليحل محل أبيه على عرشه، بالا أدني استجابة من البسلاط المصري، وذكسرت إحمدي الرسسائل الواردة من تونيب إلى العاصمة المصرية:

«داومنا على الكتابة إلى الملك، سيننا، ملك مصر، على مدى عشرين عامًا، ولم يرد علينا سيئنا بكلمة واحدة حتى الآن،(66).

كان ابن اكى - تيشوب محتجزًا في مصر، منذ أن كان أبوه على

عرش ترنيب. كانت تونيب تقع على الحافة الشمالية الشرقية لإقليم عمورو، على الضفة الغربية لنهر العاصبي، وأغرى عزيرو خلو عرشها ولا مبالاة الفرعون الواضحة بمصير تونيب إغراءً لم يستطع يفعه ولا مقاومته، وكان ذلك بالضبط ما يخشاه أهل تونيب، فبعد اقتطاع ما تبقى من إقليم نيا (بمجرد أن ضم سبيللوليوما الحثيني أغلب مساحة نيا إلى أوجاريت)، قام عزيرو بالفعل باحتلال المدينة، وبالتالي راح يستخدمها كأحد مقاره.

وأتاحت له تونيب قاعدة قريبة من الأقاليم الخاضعة للملك الحثيني، بل قريبة من الملك الحثيني ذاته الذي كان في ذلك الوقت في إقليم نوحاس، الواقعة شمال تونيب على مسيرة يومين(67)، وأقر عزيرو للقرعون بلا مواربة بالاتصالات التي يجريها بالملك المثيني سبيللوليوما، كانت لعلاقات المصرية المثينية في حالة استقرار، وأعلن الملك المثيني عن عدم وجود أي نوايا لديه بالاعتداء على الأقاليم الخاضعة لمصر بجنوب سوريا، وحتى على ضوء ذلك، فمن المدهش أن أخناتون قد قبل قيام ملك تابع له بإجراء اتصالات مباشرة مع مملكة أجنبية، بالرغم من أي ادعاءات من عزيرو أنه كان يسعى من خلال المحادثات الودية مع ملك أجنبي لحماية إقليم – وبالتالي حماية مصالح – سيده الأعلى من أي تدخل أجنبي، أو إنه كان يقوم بدور الوسيط بين الفرعون وأخيه الملك الحثيني، فقد كانت تقرم بدور الوسيط بين الفرعون وأخيه الملك الحثيني، فقد كانت تلك المهام من اختصاص المبعوثين الملكين.

لقد افترضنا أن عزيرو احتفظ باغتيارات مفتوحة منذ أن أمسك بزمام إقليم عمورو، ليختار الجهة التي يكرس لها ولاؤه، وفي الواقع لم يكن أمامه إلا اختياران لا ثالث لهما: إما أن يغضع لفرعون مصر أو للملك الحثيني، لم يكن هناك أي احتمال أن يكون زعيم مملكة مستقلة عن القوتين الكبيريتين، بالرغم من اتهام (ريب - حدا) له أنه يسعى لتحقيق ذلك.

وربما كأن يشعر أثناء وجوده بمصر يومًا بعد يوم بميل أشد إلى الانضواء تحت جناح الحثينيين. إلا أنه لم يكن أمامه حتى تحين تلك

اللحظة التي ينتقل فيها من الانضواء تحت جناح ملك كبير إلى ملك كبير آخر، إلا أن يظل على ولائه المعلن لمصر.

وباستثناء بضعة اعتبارات أخرى، لم يكن بإمكانه التيقن تمامًا إن كانت كان الملك الحثيني الكبير سيقبل به إذا تمرد على الحكم المصرى، لو كانت لديه رغبة حقيقية في الحفاظ على العلاقات الطيبة التي تربطه بمصر في ذلك الوقت، كما لم يكن على يقين أيضاً إن قبله سبيللوليوما هل سيحتفظ له بوضعه كملك تابع أم لا.. على الأقل كان قد ضمن ذلك من الفرعون .

كان بحاجة إلى إجراء مباحثات دقيقة ومفاوضات مفصلة مع العثينيين، ومن الأفضل أن تكون من القاعدة التي استولى عليها بالقرب من حدودهم، وكان لاستبلائه على تونيب مبزة تحقق له ذلك – تحت تمويهه المعلن أن اتصالاته بالملك الحثيني إنما هي لصالح سيده الأعلى ملك مصر، وفي الوقت الذي استفرقته تلك المفاوضات كان عزيرو يحسن ويقوي موقفه على الأرض، بتوسيع دائرة نفوذه في المنطقة بالتنسيق مع ابتاكاما ملك قادش على حساب ولاية نايا، ومدنها نايا وقطنا وتونيب، وكذلك مدن ولاية أمكا، وكما يذكر الباحث سنجر، كان يرسل في الوقت ذاته برسائل استرضاء إلى البلاط المصرى.

كان عدوه اللدود وضحيته في الوقت ذاته ريب - حدا ملك جوبلا الذي يصل بنا إلى الأزمة النهائية وقصل الفتام في علاقة عزيرو بمصر، إذ تذكر رسالة من ريب - حدا إلى أخناتون:

داهتل عزيرو كل منتى، لم يعد تمت سيطرتى إلا جوبلا لا تنس خادمك المخلص، إذا قدم بقواته إلى جوبلا سيستواون عليها، وبالفعل عرض عزيزو كل المدن عتى يستولى عليها قاين أنا من كل ذلكه(68)؟

كان (ريب - حدا) قد توسل كثيرًا عبر كثير من الرسائل إلى أخناتون، ليدعمه ضد عدوان خصمه وجاره القاسى، وكتب في واحدة من تلك المناسبات إلى الفرعون قائلا: «إذا كان الملك، مولاي، يود المحافظة على جوبلا، فليرسل مولاي 300 جندي، و30 عجلة حربية، و100 رجل من

كاشى (النوبة / كوش) لحماية جوبالا، مدينة مولاي: (69).

من كثرة وغزارة اعتراضات ريب - حدا وتوسلاته، بدأ أخناتون مثله مثل أبيه آمونحتيب الثالث يشعر بالانزعاج، وكتب أخناتون رسالة إلى أحد كبار موظفيه خارج مصرد: «لماذا يداوم (ريب - حد) على إرسال ألواح الرسائل بهذا القدر إلى القصر؟» كان أخناتون يوجه ذلك التساؤل في الوقت الذي كانت فيه رسائل جديدة ترد إلى القصر من ملكه السوري العاجز عن التصرف(70)، وأرسل إليه رسالة مباشرة قال فيها: «أنت تكتب إلى أكثر من كل باقى حكام الأقاليم مجتمعين (17).

وما يمكن ذكره في صالح (ريب – حدا) بالرغم من تهديداته بالتخلى عن المدينة أو الانضمام إلى عبدى – عشيرتا، أو عزيرو، كما فعل كثير من جيرانه ملوك الولايات، إلا أنه ظل على ولائه التاج المصرى حتى أخر لعظة في حياته، وكان ذلك في حد ذاته إظهاراً مشهوداً لشجاعة نادرة أمام عقبات لا يمكن تخطيها. وليس من العدل أن يتهم بأنه كان ضعيفاً أو متخاذلاً في مواجهة تلك العقبات، فقد كانت عائلته ذاتها تحرضه وتدفعه أن يساير عزيرو ويهادنه، وذكر ذلك في إحدى رسائله للفرعون:

«شعب جويلا، وأهل بيتى، وزوجتى، يكررون على الدوام: «انضم إلى ابن عبدى عشيرتا ودعنا نعش في سالم»، إلا أننى رفضت، ولم أعرهم انتباهًا»(72).

وأخيرًا، حين بدا أن وضعه ميؤسا منه تمامًا، بذل أخر محاولة لكسب تأييد ودعم محلى في غياب أي استجابة محسوسة من الفرعون، ذهب إلى بيروت وعقد اجتماعًا مع حاكمها عمونيرا(73)، كان عمونيرا متعاطفًا معه، إلا أنه لم يرد أو لم يكن بقدرته أن يمده بأي معاونة ذات قيمة، وربعا كانت تلك القشة الأخيرة التي كانت تخشاها أسرة ريب – حدا. وبعد إن لم يعد أمام ريب – حدا أي أمل أو احتمال لوصول مساعدة خارجية، تمرد عليه أخوه الأصغر إيلى رابح، لم يكن لدى إيلى رابح نية الاستشهاد مع أخيه، فأمسك بمقاليد الحكم في جويلا ونحي أخاه، وسلّم أبناء أخيه مع أخيه، وسلّم أبناء أخيه

إلى المتمردين العموريين، وقد وصلت تلك التفاصيل إلينا من خلال رسالة بعث بها عمونيرا حاكم بيروت إلى أخناتون بعد عودة ريب – حدا مرة ثانية إلى بيروت كلاجي(74).

ومرة أخرى يكتب (ريب – حدا) إلى مصر، بطلب أخير الفرعون، ليدعمه ويعاونه على استرداد عرشه، والقبضروعلى الغونة، والحياولة دون وقوع المدينة في أيدى أبناء عبدى – عشيرتا، متعللًا بأن كبر سنه واعتلال صحته هما ما يمنعانه من القدوم بنفسه إلى مصر، وأنه عهد بالرسالة إلى أحد أبنائه الذي تمكن من القرار من براثن عزيرو وكلف بمهمة شرح الوضع الذي أصبح عليه والده لفرعون مصر، وقال في تلك الرسالة:

«لا أستطيع القدوم ينفسي إلى مصر، أصبحت مسنًا وأنهكت الطل بنني»(75).

إلا أن تلك البعثة والرسالة لم يسفرا عن شيء، ومع تعريم عودته إلى مدينته، وعدم وجود مدينة أخرى يذهب إليها، فقد كانت المدن إما واقعة في أيدى العموريين، كما أن وجوده في أيدى العموريين سيجعل منها هدئًا لانتقام في أي مدينة لم تقع بعد في أيدى العموريين سيجعل منها هدئًا لانتقام العموريين، اتخذ ريب – حدا آخر خطوة مذلة، فقد وجد مسكنًا متواضعًا في إحدى مدن ولاية صبيدا، وأضحى وكأنه يضع نفسه تحت رحمة ألد أعدائه، وعرض على عزيرو رشوة ضخمة لاسترداد مدينته، ليصبح تابعاً أعدائه، وعرض على حياته بأجمعها (76).

أما رد عزيرو على ذلك العرض فنعلم به من رسالة بعث بها أغناتون إلى عزيرو(77)، وقد تضاربت التفسيرات حولها، فوجهة النظر التقليدية السائدة تذهب إلى أن عزيرو لم يظهر أى قدر من الشفقة ولا الرحمة تجاه الرجل الذى رفضه على الدوام (ورفض أباه من قبله). وأنه سلمه إلى الحكام المحليين في صيدا، واعتمدوا في ذلك على الجملة التي وردت في رسالة أخناتون (أنت سلمته إلى (بعض) المحافظين – وهو تفسير موران)، والمفترض أنه لقى حتفه على أيديهم. إلا أن هناك تفسيراً حديثًا لإسرائيل فسر المفردات على أن عزيرو استجاب إيجابيًا لذلك العرض، بأن عينه محافظًا كتفسير لمفردات (أنت عينته (سلمته) محافظًا)(78). وعلى أساس ذلك التفسير، يعلق سنجر أن أخناتون، الذي لم يكن لديه أي نية لمعاقبة عزيرو على معاملته القاسية لريب – حدا، إلا أنه كلفه بتعيينه محافظًا، وهو حق مقصور على الفرعون وحده الأمر به (79).

وبذلك نجد أن لدينا تفسيرين لنهاية ريب - حدا ، نهاية قاسية وبلا طقوس رسمية لمك جوبلا السابق، على أيدي حكام محليين في ولاية صيدا، والنهاية الأخرى ترى أنه خضع في نهاية حياته لعدو عمره اللدود في وظيفة شرفية مريحة حتى آخر أيامه، وليس هذا إلا أحد الأمثلة على لمصاعب المتضمنة في ترجمة فقرات كثيرة وردت في رسائل تل العمارنة، فالقراءات المختلفة وكذلك التفسيرات المختلفة لفقرة بعينها، من المكن أن ينتج عنه في أحيان كثيرة ترجمات متضادة المعنى تمامًا.

واسبوء حظ ريب - حدا، لم يكن من المتوقع أن تنتهى قصبته تلك النهاية المؤسفة، كان يمكن أن نفضل له بعد تلك الحياة من المقاومة العنيدة للعدوان العمورى أن يموت ميتة الشهداء على أيدى أعدائه، معلنًا حتى آخر لحظة من حياته ولاءه لسيده الأعلى، إلا أن هناك احتمالاً أنه خضوعًا مشيئًا في النهاية تحت رحمة عدوه اللدود، الذي من عليه بعد خضوعه.

ومهما كانت الطريقة التي عامل بها عزيرو ريب - حدا بعد انهياره، بدأ أخنائون بعدها إجراءات صارمة متشددة، فأعلن أن العموريين قد تجاوزوا كل العدود المسموح لهم بالتحرك في إطارها، ولم يكن ذلك إلا تجاوزا واحداً ضحن قائمة مطولة من التجاوزات سجلها الفرعون في رسالة غاضبة إلى عزيرو، وبالرغم من ادعاء عزيرو المستمر بالولاء، إلا أنه لم بعد يحظى بأي قدر من ثقة الفرعون، وأعلن الفرعون في رسالته «كل ما كتبت به إلى ليس إلا أكانيبه(80). وأكثر ما أثار غيظ الفرعون تعاون تعاون

وتعامل عزيرو مع آتياكاما حاكم قادش، الذي لم يكف عن توسيع حدود ولايته بالعدوان على الولايات الخاضعة لمصر، لذلك أقصح الفرعون عن غضبه في تلك الرسالة: «أنت في حالة وئام مع حاكم قادش. أنتما تأكلان معًا وتشريان الضمر معًا، لماذا تسلك ذلك السلوك؟ ولماذا تصادق حاكم بيتنا وبينه حروب»(81)؟ وربما كان ذلك السلوك الاحتفالي للذي أشار إليه الفرعون، لم يكن إلا احتفاء بمعاهدة أبرمها عزيرو مع آتياكاما(82)، الذي كان عدوًا لمصر.

ثم وجه الفرعون أقوى تهديد إلى عزيرو. وإذا كنت تقترف الشرور لأية أسباب مهما كانت، وإذا كنت تحيك مؤامرات شريرة وخيانات، فسوف تعوت أنت وكل عائلتك بفاس الملك» (83).

وطلب منه الفرعون إما أن يأتي بنفسه إلى مصدر، أو يرسل ابنه الذي بمثله ولا يوجد شك في أن الفرض من تلك الزيارة كان مواجهة التهم التي تراكمت ضده، وهي التهم التي اتهمه بها اللوك المطبين في سوريا الذين عانوا أشد المعاناة من العدوان العموري المتكرر والتهم التي يتهمه بها كبار رجال الفرعون وموظفوه، أو كان عزيرو قد استجاب لأمر سيده الأعلى(84). لكان قد تعرض إلى عقوبة قد تكون في أفضل الأحوال احتجازه في مصر لفترة غير محددة، أو حجز ابنه ضمانًا لحسن سلوك أبيه، كان أخناتون قد أوضع بجلاء أن ذلك إنذارًا نهائيًا، وكان تلقيه ذلك الإنذار بتحد أو استخفاف يترتب عليه رد فوري وعاجل من الفرعون، وتذكر عزيرو مصير أبيه، كان يعلم علم اليقين أن الفرعون قد عقد العزم النهائي، وأنه في نهاية الأمر في متناول بد مصير أكثر حتى مما كان أبوه، وفكر في اكتسباب بعض الوقت وطلب مهلة من الفرعون عامًا، حتى يرد على الاتهامات الموجهة إليه، وقبل الفرعون، ومنضى العام، ولم يكن الفرعون لتوافق على أنة تمديدات جبيدة المهلة، ويعث إليه قائلاً. «لا تفكر: ا هل يعطيني مهلة عامًا آخر، أو كان من المستحيل عليك أن تأتي أمام الملك، سيدك، لابد أن ترسل ابنك إلى ملكك، سيدك، عوضًا عنك،(85).

ويبدو شبه مؤكد، أن عزيرو لم يذهب إلى مصر استجابة لأمر الفرعون ولم يرسل ابنه عوضاً عنه، وحان الوقت الذي يحسم فيه موقفه، وكان من زمن طويل يعد لتلك اللحظة، ومنذ زيارته السابقة لمصر التي ظل من حينها يظهر ولاءه للفرعون، لم يضع لحظة في تقوية موقفه في سوريا، بمد نفوذه وبعقد تحالفات مع ملوك محليين مثل نيكمادو ملك أوجاريت وأتياكاما ملك قادش الخاضعين للنفوذ الحثيني، ومع إحساسه بالأمان في ظل تلك التحالفات، جاء إنذار الفرعون، وبعد أن كان قد أجرى اتصالات بالملك الحثيني (والمفترض أنه حصل على تأكيدات بدعمه)، أعلن عزيرو نقل ولاءه إلى المثينيين، وقام بإبرام معاهدة خضوع وتبعية مع الملك الحثيني الكبر.

ولا بد أن أخناتين قد انزعج انزعاجاً شديداً من ذلك التحول، خاصة أن عزيرو نقل معه إلى المعسكر الحثينى كل أرض بلاد عصورو، وهو مكسب إقليمى ضخم لسبيللوليوما، على حساب أخيه الملك المصرى، وأصبحت مناطق النفوذ المصرية الأخرى في النطقة في خطر داهم.

وأدى ذلك الموقف إلى جر مصدر والملكة العثيثية إلى حافة العرب الشاملة، وهناك أدلة تظهر أن أخناتون بدأ في الإعداد لصملة عسكرية شاملة موسعة، لاستعادة الأقاليم السورية التي فقدها(87). إلا أن ذلك الإعداد توقف فحجاة بموت أخناتون عام 1663، وأدى ضعف مصدر والاضطرابات والقلاقل التي حلت بها فيما تلى ذلك وهي الفترة التي شهدت انهيار الأسرة الثامنة عشرة، التي كانت من أعظم الأسر، أكدت أنه لن يمكن الإعداد للصرب الموسعة في سوريا، على الأقل في تلك المرحلة. إلا أن فقدان كل من قادش وعمورو لصالح الحثيثيين ظل يعتمل في صدور أسيادهم الأوائل، وظلت الولايتان موضع نزاع بين القوتين العظميين على مدى عقود طويلة تالية، كما كانتا الدافع وراء ذلك الصدام المشهود بين قوات الحثيثيين والقوات المصرية في معركة قادش، التي وقعت بعد موت أخناتون بستين عامًا.

10

مراسلات الجبهة الحثية

سجرات المحفوظات الإقليمية

من أهم ماكشفت عنه أعمال الحفر في منطقة الحثينيين في الأعوام الماضية، مواقع سجلات المحفوظات في مراكز إقليمية عديدة بتلك المنطقة، وداخل حدود المملكة القديمة ذاتها، اكتشفت سجلات المحفوظات الحثينية المكتوبة بالمسمارية في أورتاكوي (سابينيوا قديماً)، وكوزاكلي (ساريسا قديماً)، وماسات (تابيكا قديماً). وتنوعت محتويات تلك السجلات تنوعاً واسعاً، من صكوك ملكية أراضي، إلى فواتير بضائع وأفراد إلى تنويهات من نصوص دينية وعقائية.

كما كانت مواضع إغلاق الرسائل ما تزال بادية بوضوح على كثير منها، أما أكبر مجموعة من النصوص، فهى عبارة عن رسائل كتبها الملك إلى موظفيه المحليين وحكام الولايات، أو من الموظفين المحليين وحكام الولايات إلى المستولين المحليين، أو الولايات إلى المستولين المحليين، أو من مستولين محليين إلى زملاء لهم في مناطق أخرى. على مجالات عديدة احتوت الرسائل، وكأنها سجل يومى الشئون الإدارية في المراكز الحضرية للمحلكة، ووفرت رؤية واضحة للأحوال التي كانت سائدة، والمشاكل والمخاطر التي تواجه كلاً من المستولين المدنيين والعسكريين المعينين على المناطق الخاصعة، كما أتاحت لنا تأمل جوانب هامة في العلاقات الشخصية، التي كانت تبدو في بعضها وبية وحميمة، وفي بعضها الآخر متورة.

وتعد سابينيوا أهم موقع بين المواقع الثلاث السابق ذكرها، وتقع على مسافة 55 كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من مدينة سورام، وكانت مدينة كبيرة وجميلة في فترة ازدهارها وتشغل مساحة تسعة كيلو مترات مربعة،

وأثناء إجراء أعمال الحفر التي بدأت عام 1990، تم الكشف عن مبنيين أثريين، تم التعرف على أحدهما كقصر قديم (المبنى أ (A))، وعثر به على 3000 لوح من الطين، موزعة بين ثلاث قاعات الحفظ، ومازالت نصوصها قيد البحث والنشر، إلا أن التقرير الأول عن محتوياتها، وتكرار ذكر اسم سابينيوا في سجلات العاصمة، يظهر أن المدينة لم تكن مجرد مركز ديني وحضري للحثينيين، بل كانت أيضًا أحد مقار إقامة الملك الحثيني الأكبر(1)، على الأقل خلال الفترة السابقة على كارثة الغزو الداخلي، كما كانت قاعدة عسكرية هامة، حيث كانت تتجمع بها القوات من المناطق المعاكة (2).

وشهد عام 1993 بداية التنقيب في مواقع كوزاكلي 1، الذي يقع علي بعد 200 كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من حاتوسا عاصمة الملكة، وفي العام التالي بدأت الألواح الطينية التي كانت بذلك الموقع تظهر إلى الوجود، مما أكد أن ذلك الموقع هو موقع مدينة ساريسا القديمة، والتي كان اسمها يذكر مراراً في النصوص الحثية كمركز ديني، كانت ساريسا مدينة منبعة متوسطة المساحة تقدر بحوالي 18 هكتارا، والنصوص التي عثر عليها بسجلاتها الصغيرة كانت نصوصاً دينية وطقسية، كما أزيل الركام عن خمسة وستين خاتماً، لختم الرسائل من ذلك الموقع(3).

وسوف يثرى فض أسرار تلك النصوص التي ذكرناها من معرفتنا عن تفاصيل الحياة والشئون الإدارية في النولة الحثينية، إلا أن تركيزنا الرئيسي في هذ الفصل سيكون على سجل الألواح المكتشفة في ماسات، وهو موقع مدينة تابيكا القديمة(4)، التي تقع على بعد 50 كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من موقع مدينة حاتوسا القديمة.

مراسلات تابیکا (5)

كانت مدينة تابيكا القديمة مركزاً إدارياً وعسكرياً على منطقة الحدود

الشمالية الشرقية، خلال القرن الخامس عشر ويدايات القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كانت المنشآت تشغل مساحة تربو على عشرة هكتارات، وتم اكتشاف موقعها في بداية السبعينيات من القرن العشرين. كانت مدينة صعفيرة وأقل أهمية من مدينة سابينيوا القديمة التي تقع على مسيرة يومين منها إلى الغرب. إلا أن سجل مراسلاتها كان أول سجل يتم التوصل إليه بعد سجلات العاصمة حاتوسا، وأمدنا بفيض من المعلومات عن مرحلة لم يكن متوفراً عنها أية وثائق تاريخية، وعثر على سجل مصفوظاتها الذي احترى ضعن محتوياته على ست وتسعين رسالة (من بين إجمالي 166 نصاً)، وقد تم اكتشافها في مبنى بعد بوجة عام قصراً في المستوى الطبقي الثالث من بين مستويات الصفر الخمس، ويمكن تحديد زمنه بدقة في عهد توبحالها الثالث، أبو سبيللوليوما، الذي حكم في العقود الأولى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد(6).

وكانت تلك الفترة من الفترات العرجة في التاريخ العشى، ففي أثناء حكم تودحاليا وصلت الملكة الحثية إلى شفا الدمار والهلاك، كانت قوات الأعداء قد اخترقت حدود الملكة من كل الاتجاهات، وشنت سلاسل من الهجمات على قلب الملكة وهو ما يسمى الآن بالغزو المركزي الداخلي، وكما عرفنا (من الفصل الأول)، تم اجتياح كل أنحاء البلاد، واضطر البلاط الملكي إلى الفرار من العاصمة ولجأ إلى منطقة ساموحا في طرف البلاد الشمائي الشرقي، وتشير رسائل تابيكا إلى وقت يقدر بحوالي بضعة أعوام قبل تلك الكارثة، ولا بد أن الكارثة قد حلت بالمنطقة قبل آخر الرسائل المكتشفة بذلك السجل، وكانت بانتظار إرسالها إلى حاتوسا العاصمة، فهل تحتوى الرسائل ذاتها على أي دليل يشير إلى الكارثة ألم موضع المتوقعة والمحتملة في ذلك الوقت؟ سنعود إلى ذلك التسائل في موضع اخر.

لنولى اهتمامنا أولاً إلى كاتبى تلك الرسائل ومتلقيها، الجل الأعظم من تلك الرسائل مرسل من الملك الأكبر ذاته إلى المسئولين المحليين في تابيكا، داوم الملك على المحافظة على الاتصال المباشر بأولتك المسئولين، مهتمًا بنفسه بشئون تلك المنطقة ومرسلاً أوامره وتعليماته المنتظمة وكيفية تتفيذ تلك الأوامر. كانت أوامره تنقل في رسائل مكتوبة صادرة من القصر (وأحياناً كرد على رسائل واردة من المسئولين بتلك المنطقة)، وكذلك الأوامر المباشرة وجهًا لوجه، حين كان المسئولون يفدون إلى حاتوسا لهذا الغرض. ويبدو أن أولئك الذين كانت تصدر لهم أوامر تقصيلية لم يكن متاحاً لهم ممارسة أي قدر من الاجتهاد الشخصي، ويعكس ذلك بالطبع عدم استقرار السلطة الحثية في منطقة تابيكا التي تقع على حافة منطقة كاسكا، وكانت معرضة على وجه الخصوص لهجمات قوات كاسكا المعادية، كان الملك مهتماً بالتأكد أن كل الإجراءات المكثة قد تم اتخاذها لضمان سالامة المنطقة، وتدخل بنفسه مباشرة في شئون تلك المنطقة أكثر من غيرها من المناطق التي لم تكن تتعرض لمثل التهديد.

وغطت مراسلات الملك موضوعات كثيرة مختلفة، فقد اشتملت على طلبات منه بكتابة تقارير دقيقة عن تحركات العدو (وأرسل أعداداً من الحثيين إلى المنطقة للاستكشاف والتجسس)، كما كان فيها رداً على طلبات بإرسال قوات إضافية، لتقوية الدفاعات الموجودة، واحتوت أيضاً على تعليمات خاصة بإعادة توطين السكان في المناطق المهددة من قبل العدو، كما اشتملت على الوسائل الواجب اتباعها مع الفارين من الجيش وأسرى الأعداء الذين يستسلمون والذين يؤسرون أثناء المعارك.

كانت تلك الاتصالات تتم بصورة مباشرة وتدخل مباشرة إلى صميم المواضيع المعنية وتنتمى إلى شكل يختلف عن المراسلات الدبلوماسية التى كان الإخوة الملوك يتبادلونها، أو تلك التي ترسل من ملك كبير إلى ملوك صغار تابعين وخاضعين لهيمنته. فحين كتب كاسو من تابيكا إلى سيده الأكبر طالباً تعزيزات عسكرية، لم يتضمن الرد عليه أي رسميات ولا صباغات بلاغية لا ضرورة لها: «هكذا يقول جلالته لكاسو: فيما يختص

بما كتبته إلى عن العجلات الحربية ظلعام: أننى بعثت بالمجلات العربية. انتظر وصولها»(7)، أما المراسالات بين المستولين فكانت أقل تركيزاً واختصاراً، فقد كان من المتعارف عليه أن يخاطب أى مسئول مسئولاً أخر بالبدء بكلمة «أخى»، أو الأكثر ملاحة: «ابنى»، ثم يضيف تمنياته له بموفور الصحة والسعادة، وكانت تلك البداية بالفعل طريقة موحدة على كافة المستويات الاجتماعية في مخاطبة الأنداد(8)، وقد لاحظنا ذلك في الرسائل المطولة التي كان كبار الملوك يرسلونها إلى أندادهم من كبار الملوك.

كان كاسو أكثر من ذكر اسمه في رسائل تابيكا، وكان هو متلقى كثيرًا من الرسائل من كل من الملك الأكبر ومن كثيرٍ من المسئولين في المعمدة حاتوسا، بالرغم من أنه لم تكن عادة متبعة في المراسلات أن يوجه الكلام لمتلقى الرسالة بذكر ألقابه المهنية الرسمية، ويمكن إدراك أن كاسو كان رتبة عسكرية عظمى وله صلاحيات واسعة في تلك المنطقة(9)، كاسو كان رتبة عسكرية عظمى وله صلاحيات واسعة في تلك المنطقة(9)، وكان عبء الدفاع عنها يقع على عاتقه بصفة أولية(10)، ويبرر ذلك كثرة اتصاله بسيده الأعلى في حاتوسا حول شئون الأمن والدفاع وتحركات الأعداء. لم يكن كاسو ولا زمالاؤه يحتفظون بنسخ من الرسائل التي يبعثون بها إلى حاتوسا، إلا أنه يمكننا أن نضمن ما كانوا يكتبونه من خلال الردود التي تلقوها على رسائلهم.

فنجد أن جلالته بعد أن يطلع على تقرير عن تحركات قوات الأعداء، يرسل إلى كاسو تعليمات بألا يسمح للأعداء بتجاوزوا الحدود، وأن يعمل على أن يبقوا داخل مناطقهم(11)، وفي رسالة أخرى يشير الملك الأعظم إلى رسالة تلقاها من كاسو يعلمه فيها باستسلام عدد كبير من قوات الكاسكا، وقال في رده: «وعما كتبته إلىّ: جاحت أعداء كبيرة من الكاسكا طلباً للسلام، أبعث بهم أمام الملك أولتك الكاسكا الذين جاحا طالبين السلام»(12)، أما معاملة أسرى الأعداد فهي مشروحة في عديد من الرسائل، على الأول من بداية عهد سبيللوليوما الأول، وكان أولتك الأسرى

ينقلون إلى الداخل، ويسخرون في الأعمال الشاقة التي لا تقوم بها العمالة الوطنية، كان نقلهم إلى داخل البلاد يتطلب قوات حراسة كافية لنعهم من الفرار والعودة إلى بلادهم، إلا أنهم كانوا يحتفظون ببعض الأسرى بالقرب من جبهة المواجهة، وكان ذلك يتطلب قدراً أكبر من حراستهم، لضمان خضوعهم وطاعتهم.

ويبرز ذلك الاحتمال من خلال نصوص عديدة في سجلات تابيكا تشير إلى أسرى مكفوفين، أو الذين سملت أعينهم حتى لا يتمكنوا من القرار، واحد من تلك النصوص (وهو ليس من الرسائل) عبارة عن قائمة بأسماء الأسرى الذين يمكن افتدائهم بالمال، ليعودوا إلى أهلهم، كان الأسرى يقسمون إلى قسمين. قسم العميان وقسم المبصرين(13) ولا يوجد ما يثبت بيقين كيف فقد العميان أبصارهم، ويحتمل أن عيونهم قد سملت عمداً، بعد وقوعهم في الأسر، حتى لا يتمكنوا من الفرار أو كعبرة لمن يفكرون في محاولة الفرار، والبديل المحتمل أنهم فقدوا بصرهم نتيجة إصابات أعمال القتال، أي إصابة حرب، إلا أن البروفيسور هوفز يعلق على ذلك بأن نسبة عدد الأفراد المسجلين من فاقدى البصر تبدو نسبة على ذلك بأن نسبة عدد الأفراد المسجلين من فاقدى البصر تبدو نسبة على المؤرد، أن سمل العيون كان من العقوبات التي تقتصر على قادة التمرد والبارزين من بينهم(14).

وهناك رسالة من مسئول يدعى كيكارسا تحتوى على مزيد من المعلومات عن الأسرى فاقدى البصر، ففى محاولة للتوصل إلى شخص معين بين فاقدى البصر، كتب كيكارسا إلى زميل له يدعى تاحازيللى، وهو مسئول أخر، ربما كان مقيماً في تابيكا، وردًّ تاحازيللى عليه بالنص التالى:

دبخصوص موضوع فاقدى البصر الذى أرسلت به إليّ: لقد ساقوا كل فاقدى البصر إلى سابينيو، ولم يتركوا هنا إلا عشرة منهم (للعمل) في الطواحين، واستفسرت عن أسمائهم، ولا يوجد بينهم الاسم الذي تسال عنه، يجب أن تكتب إلى ساريا في سابينيوا كل فاقدى البصر (الأخرين) مناكه(15).

وكما توضع تلك الرسالة بجلاء تام، كان للأسرى فاقدى الأبصار أيضاً ما يمكن أن يسخروا فيه من أعمال، وفي الحالة السابقة تم تسخير الأسرى. فاقدى البصر العمل في طواحين الفلال، ونعلم من نص رسالة أخرى أن بعضيهم حاول الفرار من العمل في طواحين الفلال في سابينيوا(16). كما تثبت صعوبة توصل تاحازيللي إلى فرد بعينه (والمحتمل أنه كان يبحث عنه ليفتدى بمال) صحة الافتراض أن أعداد الأسرى الذين سملت عيونهم عمداً، افتراض جوهرى، وأن ما حلً بهم قد حلً بهم على أيدى أسريهم.

وعلى ضوء وجود رسالة من بين رسائل سجل المحفوظات من الملك الحثينى يهدد فيها بسمل أبصار اثنين من كبار المسئولين إذا فشلوا في تنفيذ أوامره بدقة، ندرك أن الآسرين الحثينيين لم يكن لديهم أي رادع تجاه سمل عيون من يقع من المتمردين في الأسر، إما كنوع من العقوبة، أو كعبرة وتحذير الباقين، أو السببين معاً.

ولاحظنا مماسبق تلك الرسالة من الملك إلى كاسب التي تدور حول استسلام أعداء من الكاسكا للسلطات العشينية في إحدى المناطق المحلية، والرسالة طويلة نسبياً، سجل فيها الملك أوامره بخصوص موضوعات عديدة رداً على رسالة تلقاها من كاسو. وبعد أن تعلى الكاتب ما يصل إلى واحد وأربعين سطراً من الملك، أقفل النص بخطين متوازيين أسفل أخر سطر، وهما علامة اكتمال النص الرسمي، إلا أنه كتب أسفل الفطين إحدى عشر سطراً جديداً، ليس لها علاقة بالنص الملكلي أعلى الخطين، بل كانت عبارة عن رسالة أخرى، عن لسان كاتب آخر، وموجهة إلى شخص مختلف:

دقل لأخي الحبيب حميويلي هكذا ذكر أخوك حاتوسيلي: أتمنى أن يكون كل شيء على أفضل حال. وأن تشملك الآلهة بعنايتها وتحفظك سالماً. وعما كتبته إلى بخصوص زوج ابنتك، أن أنسى أمره، وسأتحدث عنه في القصر، وسأعرض موضوعه على جلالته،(17).

وهكذا، نعرف شخصيتين برزا كثيراً من بين ثنايا مراسلات تابيكا. كان حميويلي من أبرز الشخصيات في ثلك الراسلات بعد كاسو، كان يتقلد منصب الحاكم المحلي، مع صلاحيات عسكرية وقضائية وإدارية واسعة(18).

وكان حاتوسىيلى (ولا يجب الخلط بينه وبين الملوك الحيثيين الذين حملوا هذا الاسم) صديقاً حميماً لعميويلى الذى يتمتع بصلات ونفوذ في البلاط الملكي.

وأخذ على عاتقه استخدام نفوذه في البلاط الملكي في أمر يخمس زوج ابنة حميويلي، ويبدو أن حميويلي طلب من صديقه السمي لترقية زوج ابنته ردًا لخدماته الجليلة التي يقدمها إليه، حتى يسمى الأخبر للحصول على ترقية لزوج الابنة من القصر الملكي.

كان من الشائع أن يقوم الموظفون القائمون على خدمة الملك بإلحاق رسائلهم إلى زملائهم وأصدقائهم بعد رسالة الملك، وبوجه عام، كان يلحق بالرسالة الأساسية رسالة واحدة في الغالب وأحيانا رسائتين، ويحتوى سجل محفوظات تابيكا على بعض الأمثلة لتلك العادة التى تعد وسيلة تواصل غير رسمية بين كبار المسئولين (كما في المثال السابق). وأيضا بين صفار الكتبة، كانت وسيلة فعالة في نقل المعلومات والمطالب الشخصية، وأحياناً في أمور تافهة وشخصية بين الموظفين والمسئولين المعينين في مختلف أرجاء الدوائر الإدارية في أنحاء الملكة، وكانت الرسائل الملحقة المتعلقة بأمور شخصية مبتذلة، تضفى أحياناً شكلاً من التفاهة على الرسائل الملحقة المعلمة الأساسية التي تتناول أصوراً في غاية الجدية والخطورة. إلا أن شيوع تلك المارسة كان يشي بأنها تتم بعلم الملك، أو على الأقل يتغاضي عنها، مثلما يسمح في عصرنا لموظفي السفارات على الأقل يتغاضي عنها، مثلما يسمح في عصرنا لموظفي السفارات بإرسال بريدهم الشخصي عبر الحقائب الدبلوماسية.

كان على كثير من الكتبة والموظفين الطامحين إلى الترقي في مجال خدمة الملك الأعظم العمل بعض الوقت في المراكز الإقليمية مثل تابيكا حتى ينالوا ترقية وظيفية، بل إن صغار أعضاء العائلة المالكة كانوا يرسلون أيضًا لقضاء بعض الوقت في الأقاليم، لتوسيع مجالات خبراتهم وتنمية قدراتهم كوسيلة من وسائل إعدادهم لشغل المناصب الهامة في المملكة، وبينما كانوا يقضون المدة المقررة لهم في الأقاليم، كانوا يوضعون تحت إشراف ومراقبة موظفين مسئولين عن أمنهم وسلامتهم، وهناك رسالتان معادرتان من تابيكا من أولئك المسئولين إلى الملك يطمئنونه فيها بأن كل شيء على ما يرام فيما يخص ابنه (في إحدى الرسائل) وبناته بأن كل شيء على ما يرام فيما يخص ابنه (في إحدى الرسائل) وبناته بأن كل شيء على ما يرام فيما يخص ابنه (في إحدى الرسائل)

وفيما كان على موظفى حاترسا العمل بعض الرقت فى الأقاليم، كان المكس يطبق على الرقافين الإقليميين، فنصرف مشلاً أن كاتباً يدعى تارحونميا توجد ممتلكاته فى تابيكا، بينما كان يعمل فى العاصمة(20)، ويدل ذلك على أنه ينتمى فى الأصل إلى تابيكا، بينما نقل للعمل مؤقتاً فى حاتوسا، وتوجد بضع رسائل أخرى من كتبة فى حاتوسا يطلبون فيها من زملائهم فى تابيكا رعاية ممتلكاتهم هناك.

وحيث إن المعقفين الذين يرسلون العمل بعض الرقت في الأقاليم لم
يكونوا ليصحبوا عائلاتهم معهم، كان كثيرون منهم قلقين على شئون
أسرهم وأحوالها، وتوجد عدة رسائل ملحقة من موظفي حاتوسا يطمئنون
فيها زملاهم في تابيكا على أسرهم، فمثلاً، بعد كتابة نص رسالة من
الملك تحمل تعليماته وأوامره إلى كاسو عن الإجراءات التي يقوم بها
بخصوص تحركات الأعداء(21)، أضاف الكاتب شورحيللي رسالة
شخصية من عنده إلى زميله وصديقه عوزو الكاتب بإدارة ولاية تابيكا،
كان شورحيللي يعلم أن تلك الرسالة ستمر أولاً على زميله عوزو الكاتب
بإدارة تابيكا، لذلك كتب إليه في رسالة ملحقة برسالة الملك إلى كاسو:
«إلى عوزو أخي الحبيب من أخيك شورحيللي.

أتمنى أن تكون كل أمورك على ما يرام، لتحفظك الآلهة وإله المكمة، كل شيء بضير في بيتك، وكل أمور زوجتك على ما يرام، لا يوجد ما يستحق أن تشغل ذهنك به، أخى الحبيب، الرجال الرد بإرسال تحياتك إلىّ» (22).

وهناك رسائل أخرى مرسلة إلى عوزو من كاتب في حاتوسا يدعى ميرسير، إحدى تلك الرسائل ملحقة برسالة من الملك إلى الحاكم حميويلى، وبعض جر خطين تحت نص رسالة الملك، أضاف ميرسير ملحوظة إلى عوزو يبلغه فيها أن حميويلى كان قد وعده بثور، ويطلب من عوزو أن يعاونه على إرسال الشور إلى حاتوسا(23)، وفي رسالة أخرى طلب ميرسير من عوزو إرسال طهاة ،لو كان لديه طهاة مهرة في تابيكا، كما طلب إرسال بعض الأسلحة (24)، وفي وقت آخر كان فيه حميويلى في العاصمة حاتوسا، بعث بطلب مماثل إلى حميويلى، وهو أحد زملائه في تابيكا، بعد أن وبخه لعدم كتابته إليه (25)، وكذلك توجد رسائة من مسئول يدعى إليتوكولتي يشكر فيها إلى كاتب تابيكا المدعو عدد بيلى تقاصمه عن الرد على رسائله، قال فيها:

وإلى أخى العبيب أرسات إليك تعياتي مراراً، ولم ترد أبداً على تحياتي بنالها عن المديد الداً على المياتي بنالها ع

وكان التوبيخ القاسى يظهر أحياناً في مراسلات المسئولين بين حاتوسا وتابيكا، فنجد أن قائداً عسكرياً متمركزاً في تابيكا يكتب رسالة شكرى إلى بالأنا وزارتوماني، وهما من كبار المسئولين في حاتوسا، يلقى عليهما بمسئولية المعاملة غير المادلة التي تعرض لها وعاني من جرائها، ومن أخطاء وجرائم، كان بريئاً منها أو كان يدعي ذلك(27)، وهدد برفع المشكلة كلها إلى حضرة الملك، وأعلن أن ذلك سيؤدى إلى إجراء تحقيق شامل في تابيكا، ويفضى إلى القبض على الجناة الحقيقيين، ثم يرسلون إلى حاتوسا ويحاكمون في محكمة الملك، كانت الجرائم، كما يبدو من الرسالة ،جرائم خطيرة، بغض النظر عن معرفتها على وجه الدقة، فقد الرسالة ،جرائم خطيرة، بغض النظر عن معرفتها على وجه الدقة، فقد

شمات قائد عسكريًا كبيرًا ربما كان كاسو ذاته (28)، وأسوء الحظ لم يصل إلينا مزيد من التفاصيل، وأكن بدت المشكلة على درجة من الخطورة تصل إلى حد إجراء تحقيق ملكى في تابيكا، ينتهى بمحاكمة المتهمين في محكمة الملك.

كذلك كانت درجة التوبر تزداد أحياناً في المراسلات بين المستولين الرئيسيين عن تابيكا كاسو وحميويلي، ولا يدهشنا ذلك، إذ يحتمل أنه كانت توجد تداخلات كثيرة بين اختصاصاتهما ومستولياتهما، ومنها تسلسل المستولية في تلقى الرسائل والرد عليها وعلى الأوامر الواردة من حاتوسا، ولذلك وبخ كاسو حميويلي ومساعيه لإهمالهم وتقاعسهم عن إرسال رسل الملك إليه، وقال في رسالة التوبيخ: «هل من المعروف أنهم خدم عندك ألا ينتمي أولك الرسل إلى سيدنا، كما تنتمي كل البلاد إليه» (29)

كما ظهر أن كاسو كان يتبادل رسائل لاذعة مع كاهن كيزوادنا في جنوب شرق الأناضول(30)، واسمه كانتوزيللي (وعرف من مصادر أخرى على أنه الكاهن الأكبر ليتشوب وهيبات)، وكانت منزئته في كيزوادنا تضارع منزلة الملك المحلي(31)، كان الكاهن قد بعث قبل ذلك برسالة إلى كاسو يطلب فيها إعادة عشرين فرداً من التابعين له، دخلوا لسبب مجهول في المنطقة الخاضعة لمسئولية كاسو، وكتب إليه كاسو رافضاً تسليم أولئك الأفراد، وقال له. «أحل الأمر إلى القصر، وحد الكاهن في غضب قائلاً: «إنه بالفعل سيحيل الأمر إلى القصر، وهذر كاسو من أنه سيقوم هو الاخر بحجز أي أفراد من منطقة كاسو إذا دخلوا منطقة نفوذه».

كانت المشاحنات والنزاعات من ذلك النوع بين الولايات الضاضعة للنفوذ الحيثي كثيرة الحدوث، وكانت الجهات المختصة في البلاط الملكي متخمة بالمشاكل والمشاحنات، وتعارض المسئوليات الذي يرد إليها للفصل فيه. وفي مراسلات تابيكا وحدها، ظهرت تهديدات في عدد من المشاكل برفع المشكة برمتها إلى الملك مباشرة، الفصل فيها وكان للشاكين الحق

في اللجوء إلى القصير، للقصيل في المشاكل والقضيايا، إد كان القانون الحيثي يوفر للجميم ذلك الحق.

ويؤكد ذلك رسالة أخرى أرسلها المسئول الكبير حاتوسيلى من العاصمة حاتوسا إلى الحاكم المحلى حميويلى(32)، في تلك الرسالة تأنيب رسمي لحميويلي لفشله في حماية ممتلكات الكاتب تارحونميا الكائنة في تأبيكا، وكماعرفنا مما سبق أن تارحونميا ينتمي إلى تابيكا، إلا أنه كان يعمل في العاصمة. وأثناء غيبابه أدعت السلطات المحلية في تابيكا أنه متأخر عن دفع الضرائب ومقابل خدمات الولاية (سابان ولوتزي) عن ممتلكاته هناك، بالرغم من أنه معفى من دفع تلك الفسرائب، وحين اعترض، قامت السلطات المحلية بالحجز على مقتنياته المنزلية، إما لبيعها أو كرهن حتى يدفع ما عليه، ويصفة حميويلي حاكم المنطقة، فقد كانت له كل الصلاحات المعالمة تلك المشكلة.

ومن المعروف من خلال عدد من فقرات القانون الحيثى أن بعض موظفي الإدارة كانر) معفين من أداء تلك الضريبة(33)، وكان منهم تارهونميا صاحب المشكلة، وأضاف تارجونميا رسالة ملحقة منه إلى الرسالة التي كتبها المسئول حاتوسيلي إلى حميويلي، بصفتها رسالة من ابن إلى أبيه، للحفاظ على حقوقه وحماية ممتلكاته، قال له في رسالته المحقة:

«سيدى، اشمل منزلى برعايتك، وتيقن من أنهم لم يلعقوا به أى ضر، عدا ذلك فلتفصل متكرما في النزاع القانوني الذي أواجهه، فلتعد المق إلى نصابه، ولتضع حارساً أمام بيتى، لا تسمع لموتلقي ضرائب الأرض وموظفى المدينة بإلحاق أى ضر ببيتى، عدا ذلك (ظتعلم) أن ضرائب الأرض والعقبارات لم تطبق أبداً على، والآن، طبق موظف المدينة تلك الضرائب على، سيدى، سل موظفى الأراضى إن كانوا قد تقاضوا منى أية ضرائب عن أرض أو عقارات فيما مبيقه(34).

ولم تكن تلك أول رسالة بيعث بها الكاتب إلى حميويلي بخصوص تلك

المشكلة (35)، إلا أن رسائله السابقة لم تلق إلا آذاناً صحاء، ومع ذلك أصر وداوم على الكتابة، خاصة بعد أن وجد دعماً قوياً من حاتوسيلى الذى ازداد غيظه، كان ذلك المسئول الكبير والبارز في إدارة شئون الدولة قد كتب عدة مرات إلى حميويلى بخصوص مشكلة الكاتب، وربعا كان قد امتنع عن كتابة تقرير ضده إلى الملك بسبب علاقة الود التي تربطهما، إلا أن صبره على صديقه أخذ في النفاذ، لذلك أرسل رسالة غضب أخيرة إلى حميويلي، وهو ما كان متوقعاً منه:

«في نطاق منطقتك الإدارية لا يوجد إلا بيت واحد لكاتب يضغط عليه موظفوك كثيراً، هل تحصل ضرائب أرض وعقارات من الكتبة الرسميين؟ لماذا يقوم هو بدفعها في منطقتك؟ الآن انتبه جيداً، ان يضطهدوه بعد ذلك. إذا لم تحل هذه المشكلة، ساتيرها في القصر الملكي:(36).

كانت الرسالة واضحة بلا لبث، فترحونميا لا بدأ ن يعفى من الضرائب وأن يبقى بمنأى عن أى ضر، وإذا ظل حميويلى على تجاهله ولم يحل المشكلة، سيحال الأمر كله إلى الملك.

فهل كان من المعقول أن يشغل الملك نفسه بمشكلة ضرائب أحد الكتبة، مع كل المستوليات والمشاكل الكبرى التي تشغل بأله؟ لو حكمنا بتدخل الملك المباشر في موقف مماثل تماماً، فإن الإجابة تكون. بلي، الموقف المماثل كان في مدينة إيمار التي أعيد بناؤها في عهدى سبيلوليوما الأول ومورسيئي الثاني، وكانت تابعة إداريًا لماكم مدينة قرقميش، وكانت مسئولية الإدارة مقسمة بالتشارك بين الماكم ومجلس من الشيوخ، وفي عهد مورسيلي أو من تلاه، كإن يوجد كاهن بمدينة إيمار بدعي ذو بعل تلقى فجأة إنذاراً بأن بيت أبائه وأجداده وكذلك حقل الكروم سوف تنزع ملكيتها وتخصص لشخص آخر (37)، وأنه سوف يخضع الضريبة ورسوم خدمات الولاية التي كان معفياً منها.

ولجاً ذو بعل مباشرة إلى الملك الأكبر(38)، وادعى أنه ضحية لظلم وقع عليه من مسئول حيثي يدعى الزياموا (39).

واستجاب الملك لدعواه وبعث برسالة مباشرة إلى الزياموا

هكذا (يتحدث) شمسى، يقول الأزياموا: انظر، ذا بعل هذا كاهن، من أشتاتا، وضع أمامى: «بيت أبى آن دامالى، وحقل الكروم أخذهم الزياموا وأعطاهم إلى بأليوا، وقيما يخص ضريبة الأراضى لم أكن أدفعها أبداً، والآن يقرضون على ضريبة الأراضى وضريبة الخدمات، ومطلوب منى دفعها.

وحكم جلالته بما يلي :

البيت وحقل الكروم لا يؤخذان منه، ضريبة الأراضى لم يكن يدفعها قبل ذلك، لماذا تفرض عليه الآن ضريبة أراضى وضريبة خدمات (سابان ولوتزى)؟ ما كأن يدفعه قبل ذلك سيستمر في دفعه، ولا يطفى عليه أحد(40).

ومن رسائة ثانية عثر عليها بعدينة إيمار وأصبحت الآن في متحف أرض الكتاب المقدس بالقدس، نعلم أن قضية (دو بعل) أحيلت أيضاً إلى حاكم قرة ميش، وكتب حاكم قرة ميش هو الآخر إلى ألزياموا. وكانت رسالته في المقيقة مماثلة لرسالة الملك الأكبر، ويحتمل أن نسخة من رسالة الملك الأكبر كانت أمامه وهو يعلى نص رسالته (41).

بل إنه زاد عن الملك الأكبر باعفاء ذو بعل حتى مما اعتاد أن يدفعه قبل ذلك، ويعلق البروفيسور سنجر على تلك المقيقة: وهي أن رجل دين محلى من ولاية نائية كان بإمكانه ليس فقط اللجوء إلى الملك الأكبر والملك المحلى، بل إن الملك الأكبر ونائبه المحلى تناولا المشكلة بتفسيهما وأعادا المقل لصاحبه (42).

ونعود إلى تابيكا، ونتعرض إلى مذكرة بسيطة تحتوى على شكوى من حاسميلى، وهو كاتب من حاتوسا أرسل بها إلى الكاتب عوزو فى تابيكا. الجزء الرسمى من الوثيقة رسالة إلى حاكم المدينة حميويلى من الملك، يعده فيها بإرسال خيول وعربات، ويحثه على اليقظة ورصد تحركات الأعداء فى منطقته (43). وبعد انتهاء نص رسالة الملك كتب حاسميلى

رسالة من لدنه إلى عوزو الذي ستمر كل الرسالة عليه، وقد دخل مباشرة إلى صدميم الموضوع: «أنت مستمر في الكتابة إلى عن ذلك الموضوع الفساص بخساس بخساسته، لا أحب أن أسسمع أي شيء بعد الآن عن هذا الموضوع»، ويبدو أن حاسميلي كان قد بعث بإحدى خادماته للعمل في خدمة عوزو في تابيكا، إلا أن كرمه انقلب وبالاً عليه حين راح عوزو يكتب إليه مراراً وتكراراً متهماً الفتاة بالسرقة، ومهدداً بأنه سيقوم بعقابها بنفسه، ولم يكن حاسميلي سعيداً بذلك التعاور، لم يكن يرضي بأن تعود إليه الفتاة مصابة بعد أن أعارها لزميله الكاتب كعلاقة ود وصداقة، لذلك حذر عوزو من إلحاق أي أذى بالفتاة بأى وسيلة، وقال له: «احرص على أن تسلمها إلى الرسؤل في أفضل حال، وسوف يحضرها إلى، ومهما كان الذي سرقته الفتاة فسوف أرده ثلاثة أضعافه». والمثال السابق حالة لافتة لنصين في رسالة واحدة بينهما هذا القدر من التناقض على لوح طيني واحد: نص منهما تمذير عاجل من الملك الأكبر، بخصوص سلامة الأمن الإقليمي، وفي نهايته شكوى للكاتب بشأن خادمة بأصابم متسخة.

كانت الأمور والمشاكل البسيطة الشخصية المضافة إلى المراسلات الرسمية، وكذلك الاعتمامات بالأمور الماصة تخلق انطباعاً بالاعتياد، وأن الأمور المملية المعتادة في تابيكا تمضى كالمعتاد، إلا أن ذلك الانطباع يحتوى على قدر من التضليل، فالمراسلات المتبادلة كرسائل إضافية تحت النصوص الأساسية تخدم في التحول باختصار من الأمور الخطيرة التي تظهر من خلال النصوص الرسمية الأساسية، والتي تعكس المخاطر والتهديدات التي يواجهها السكان في تلك المناطق دائمة التعرض للخطر، وأهمها التهديد المستمر من الكاسكان، وراح ذلك الضطر يتزايد كما راح الخطر القادم من جميع المناطق الحدودية الأخرى يتزايد أيضاً.

ومن أن لآخر كانت الرسائل تسجل نجاحًا الحيثيين في مواجهة الأعداء. إلا أن تلك التقارير لم تفلع في إخفاء ضعف وهشاشة السلطة الحثية في تلك المنطقة، وتذكر رسالة: «اخترق العدو موضعين من الحدود

بأعداد كبيرة (44). وتسجل رسالة أخرى غارة من قطعان مواشى الكاسكان عبرت الحدود، كما نجع الكاسكان في الهيمنة على الطرق المؤدية إلى تأبيكا منتهزين فرصة وجود كاسو واثنين من زملائه في حاتوسا (45). كانت الغارات التي تشن على المحاصيل الزراعية من المشاكل المتكررة، ففي رسالة من مدينة كاسبورا أبلغ بسيني الملك أن. «الأعداء أتوا بأعداد كبيرة أثناء الليل، 600 في موضع، وفي موضع آخر 400.

فأسر الملك كالأ من تاتًا وهولَى من مستولى تابيكا بالمضى فوراً إلى كاسبورا، والعمل على حصد الحبوب وتقلها إلى مخازن الحبوب مع الحرص ألا تقع في يد الأعداء، كان من المكن أن يترتب على غارات الأعداء على الأراضى المنتجة للحبوب نتائج في غاية الخطورة، فقد كانت البلاد نعتمد على تلك الحبوب في غذائها، كان النقص الحاد في الماشية أو الحبوب، سواء بسبب عوامل طبيعية أو نتيجة لغارات الأعداء، من المكن أن تترتب عليه مجاعات شديدة القسوة، كان من المحتم تأمين المنتجات الزراعية من الحبوب من هجمات الأعداء مهما تكلف الأمر، كما كان تفشى الحمى والطاعون من المخاطر الأخرى التي يتعرض لها السكان الطيون في تابيكا (47).

وفي رسائل عديدة أعسدر الملك أوامر قاطعة إلى قادة المنطقة العسكريين بالحضور مع قواتهم المثول أمامه، وأحيانًا ما كان يهددهم بأرخم العواقب إذا لم يمتثلوا الأوامره بدقة: «أقول لكاسو وزيلابيا: بمجود أن تصل هذه الرسالة إليكما، احضرا خلال ثلاثة أيام المثول أمام جلالته بالقوات المتمركزة عندكما وكذلك العجلات الحربية التي بحورتكماء (48). وفي رسالة أخرى. «أقول لكاسو وزيلابيا: بمجود أن تصل هذه الرسالة إليكما احضرا باقصى سرعة معكنة لدى جلالته، وإن لم تفعلا (رجالي) يأتون إليكما ويسلمون عيونكم في مكانكم» (49)، وفي أضرى: «أنت يأبيبابًا، أحضر قوات «أوكو أوس» بأسرع ما يمكنك، وأحضرهم هنا مع

الجيش، إن لم تفعل سنتى بك وتقتل» (50)، لم يكن جلالته يتوانى عن الناكيد على ضرورة إطاعة أوامره بلا أى تردد أو تأخر. وكان كل ذلك يظهر الأزمة التى كانت تواجه المملكة.

كان من المكن أن تترتب أوخم العواقب على أدنى تأخر في الاستجابة لأوامر الملك، لذلك كان يشمل أوامره بالتهديدات المسمان الطاعة الغورية والكاملة، في رسالة أخرى، أمر الملك كاسو وييباباً بتحريك 1700 من قوات المشاة من مدينة إيشوبيتا بكل سرعة ونقلهم في ظرف يومين إلى مدينة سابينيوا، حيث سيكون الملك بنفسه هناك(51)، كانت سابينيوا أكبر مدينة في المنطقة، وتعد مركزاً لتجمع القوات الحثينية من الاقاليم المعفرى المجاورة، ويوضعون هناك تحت القيادة المباشرة للملك، ولا يوجد شك أن مسئولي المن الأخرى تلقوا رسائل مماثلة لتلك التي تلقاها كاسو وبيباباً، وربعا تمثل تلك الرسائل العاجلة من الملك إلى القادة العسكريين المندق الأخير الحدود الشمالية ضد أعداء الملكة. ولكن مهما كانت النجاحات المرحلية أحرزها في تلك المنطقة، إلا أن مصير الملكة كان قد أصبح منتهياً، فسرعان ما كانت قوات الأعداء تخترقها من كل الأنحاء، وورد في أحد نصوص تابيكا:

«أتى الأعداء من الكاسكا، وغزوا كل أرض الميثيين حتى ننياسا، ومن المناطق الدنيا أتت قوات ارزاوا المادية، واجتاحت هي الأخرى بلاد الميثيين، وأصبحت ثيوانيا وأودا حدودهم، ومن الحدود الأبعد، أتى أراونان المعادين واحتلوا حتى جاسيًا. ومن المدود القصوى، جاء أزيان الأعداء واجتاحوا كل البلاد الطيا حتى ساموها. وجاء الإسيوان واجتاحوا منطقة ثيجاراما، ومن بعيد، جاء الأرماتانان الأعداء، واجتاحوا أيضًا أراضى الحيثيين حتى ومعلوا إلى معينة كيـزوادانا وجعلوها حدودهم، وحاتوسا المدينة العاصمة، أحرقت بلجمعها، (52).

ألقت رسائل تابيكا بظلال قاتمة وكانها نتنبأ بما هو آت، وزودتنا بأدلة موثقة معاصرة للأحداث في آخر أعوام تلك المرحلة، بل ربما آخر أشهر تلك المرحلة عن الحياة في المستوطنات الحيثية في شمال البلاد بالقرب من الحدود الشمائية، وربما تعد أيضا صورة مصغرة لأحداث عالم ذلك الزمن السابق مباشرة لانهيار الامبراطورية الحثينية الأولى، تحت وطأة هجوم الأعداء على البلاد من كل الاتجاهات، وكما لاحظنا، فإن الملك الحثيني الذي يبرز اسمه عبر تلك الأحداث وهو تودحاليا الثالث، كان قد أجبر على هجر عاصمته وأقام بلاطا في المتفي، وظل البلاط هناك حتى تمكن من تجميع قواه هو وابنه سبيلوليوما، وتمكن الحثينيون من الانتصار والعودة إلى وطنهم مظفرين، ومع صعود سبيلوليوما إلى عرش الحثينيين، شهدت البلاد طفرة صعدت بها إلى أفاق تاريضية جديدة، فتحت قيادة سبيلوليوما، بدأت البلاد بداية قوية جديدة مكنتها أن تظل على مدى قرن بعد ذلك، أقوى مملكة في عالم الشرق الأدنى القديم.

رسائل من القائد العسكرس الهيمانس فس سهريا

من أهم الملامح المعيزة الرسائل التي عثر عليها في مواقع ماسات، وأورتاكوي وكوزاكل \ سمة الفورية والأنية، ففي وقت كتابة الرسائل، كانت الأحداث التي تسجلها الرسائل مازالت في زمن تشكلها، وكل موقع حفظ يزودنا بمعلومات يومية عن المعياة والأحوال التي عايشها كاتبوا الرسائل في المراكز الإدارية الإقليمية في المملكة المثنية. ولا تقل قيمة عن ذلك، الرسائل التي أرسلها القادة المسكريون من جبهات القتال البعيدة عن الوطن، واسوء الحظ، فإن كم الرسائل العسكرية الذي بقي حصرنا قلبل للغاية.

ونعلم من خلال قائمة تعليمات أصدرها الملك الحثيني الأكبر مجموعة الواجبات والمسئوليات الملقاة على عاتق القادة الميدانيين(53). كذلك تمدما الرسائل التي كتبها أولئك القادة بصور انطباعية عن الحياة اليومية، والأمور الشخصية، والتحديات والمخاطر التي كانت تواجههم هم ورجالهم في المناطق البعيدة عن مملكتهم.

وعلى ضوء قلة تلك الرسائل العسكرية التي أتيحت، كان لاكتشاف رسالة في دار سجلات حفظ الرسائل في أوجاريت عام 1956، كتبها قائد عسكرى ميدانى، ما جنب اهتمام الباحثين(64). كانت أجزاء الرسالة المحطمة بين مجموع رسائل عددها 335، تدور حول مختلف الموضوعات، وكشف عنها مطمورة داخل بقايا منزل خاص قديم كان ملكًا لأهم شخصية في أوجاريت، ولم يكن يبعد كثيرًا عن قصر المدينة(55). وكان القائد العسكرى الذي كتب (أو أملي) الرسالة يدعى سومي [--](66)، ولسوء المظ لم يعرف اسم الملك الحثيني الذي كانت الرسالة موجهة إليه، أو على الأقل لم يكن مسجلاً في الأجزاء التي عثر عليها من الرسالة، وفي الوقت الذي كتبت فيه تلك الرسالة، كان سومي [--] والقوات التي تحت قيادته قد قضوا خمسة أشهر في ميادين العمليات بصفتها قوات أمامية، كانت مهمتهم الدفاع عن الجبهة الاستراتيجية الهامة في المنطقة الواقعة جنرب عمورو، بين جبل لبنان والبحر المترسط، لحمايتها من القوات المصرية.

كان التوتر في المنطقة على أشده، فقد كانت مصدر قد اتخذت قرارًا باستعادة المناطق العمورية (السورية) التي فقدتها لصالح العثينيين، عندما نقل قائدها المحلى عزيرو ولاءه من مصدر إلى العثينيين في عهد سبيلوليوما، ولأنه كان مسئولاً عن غط المواجهة الأول، كان رجاله قد خاضوا مواجهات عديدة ضد العدو، إلا أن الخسائر التي منيت بها قواته والشتاء القاسي تجمعا معًا ضده ووضعاه في مأزق، كان سومي [---) قد كتب قبل ذلك بضع مرات إلى الملك طالبًا إرسال تمزيزات عسكرية وإمدادات، لكن كان من الواضح أنه لم تكن هناك أية استجابة، وكتب من جديد، وهي تلك الرسالة التي نعرضها، وشدد على طلبه بإلساح، قال: مسيدى، ماهي المخارج المتاحة أمامي؟ الخمسة أشهر والبرد يجمعنا، عبلاتي الحربية تحطمت، خيولي نفقت، وقواتي فقدت (57).

كان العدو يشن هجمات ليلية لا تنقطع، تمكن خلالها من اختراق الدفاعات الحثينية، ولم يتم صدهم إلا بعد معركة شرسة داخل الحصن ذاته

«هوجمنا مرة بعد مرة في منتصف الليل، واشتبكنا في معركة شديدة معهم، قام رجالي بصدهم، وغنمنا معداتهم وأسلحتهم، كانت المعركة داخل الحصن ذاته».

وتم أسر أحد جنود الأعداء، وتحت وطأة تعنيبه واستجوابه أغضى بمعلومات مقلقة الفرعون ذاته كان يتأهب للمجىء بنفسه للمنطقة، ويدل ذلك دلالة قاطعة أن حملة عسكرية مصرية كبرى تعد الآن، تحت قبادة الفرعون ذاته. فإن صدق ذلك، فإن أي مقاومة يقودها سومي [---] وقواته تصبح بلا قيمة، لذا كتب في رسالته: «لا قدر الله أن يأتي ملك مصر سريعًا، لأننا أن نتمكن من التصدي له بالقوة لا قدر الله أن يأتي ملك مصر إلى هنا». كان سومي [---] يتمني أن تكون تلك المعلومات غير حقيقية، أو أن يبدل الفرعون رأبه ويرسل قوات استكشافية فقط يمكنه التصدي لها، بافتراض أن فرق العجلات العربية وفرق المشاة التي طلبها تصل إليه بسرعة، وأضاف: «هل يرسل الملك القوات والعجلات العربية، حتى يتسني لذا أن نقاتلهم ونهزمهم بالقوة، ضرية قوية ونفنيهمه وإلا «إذا حتى يتسني لذا أن نقاتلهم ونهزمهم بالقوة، ضرية قوية ونفنيهمه وإلا «إذا من نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم (الفرعون) على إرسال (قوات) ضعنا».

من كان متلقى تلك الرسالة؟ بينما يصدق احتمال أنه كان حاكم محلى سورى، تابع للملك الصشينى، إلا أن الاقرب للاحشمال أنه كان ملك المثينين الأكبر، والسؤال الذي يطرح نفسه هو، أي ملك منهم؟

على وجه التقريب تشير كل رسائل الأرشيف إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولا يدع ذلك معالاً لشك أن ذلك الأرشيف كان معاصراً اواحد أو أكثر من أسرة الرعامسة في مصور، وناريخيًا، يتناسب ما ورد في بلك الرسالة مع التوثر الذي وقع بدن المشتنيين ومصير، بسبب المناطق الفاصلة المتنازع عليها، وهو النوتر الذي نحول إلى صراع عسكرى في البداية بين سيتى الأول وميواتاللي(58)، تع بين مدواتاللي وابن سيتى الأول وميواتاللي(58)، تع بين مدواتاللي وابن سيتى الأول، الملك رمسيس الثاني في قادش عام 1247 قبل الميلاد، وإكن على

خلفية لغوية ذهب البعض إلى أن تلك الرسالة لا تمت إلى تلك المرحلة، وأنها تتلاثم وتتوافق مع عصر العمارنة، وأن أحد نصوص المجموعة على الأقل تعود مفرداته إلى الفترة ذاته، أي إلى مرحلة العمارنة(59)، لو صدق ذلك، فإن الرسالة تكون موجهة إلى سيطوليوما(60).

وبذلك تكون الأحداث التي تشير إليها الرسالة قد وقعت مباشرة بعد نقل عزيرو لولائه من التاج المصرى إلى التاج الحثيني، وبالتالي انتقال كل منطقة عمورو من منطقة نفوذ مصرى إلى منطقة نفوذ حثيني. وبناء على ذلك نستنتج أن أخناتون كان قد قام برد فعل فورى في محاولة لاستعادة على الأقل بعض أجزاء المناطق المفقودة – بالأمر بشن غارات متتابعة من قواته المتمركزة هناك على القوات الحثينية المتمركزة حديثًا بالمنطقة كأعمال عسكرية تمهيدية قبل وصول الحملة العظمي، التي كان قد انتوى أن يرأسها بنفسه، وكان ذلك يعني نشوب حرب شاملة بين مصر والحثينيين، ولكن، إن كانت مثل تلك الحملة الكبرى قد أعد لها فعلاً، فإن كل مخططاتها قد أجهضت بموت الفرعون.

في إطار ذلك السيناريو يبدو أن ذلك الخطاب لا يثير أي اهتمام لدى سبيلوليوما – أو على الأقل التأخر في الاستجابة – في ضرورة تلبية طلبات القائد الميداني الذي عهد إليه بحماية الجبهة الجديدة للولايات، التي نقلت ولاحما إليهم في سوريا، والتي كان من المرجح أن تكون مهددة أو أن يخسروها.

أما تقاعس الذي كان الفطاب موجهًا إليه في الاستحابة العاجلة والعاسمة فلا يتفق مع ما هو مهروف عن سبيلوليوا، فكل المسادر الأخرى نشير إلى أنه كان على درجة كبيرة من الالتزام وأحادى التركيز على مهمة الاستحواذ على منطقة سوريا وفرض هيمنته عليها، أما الانطباع الذي يقرضه نص الرسالة فيختلف تماما. ربما بالغ سومي [-] في إلحاحه بسبب المخاطر التي تواجهه، مقابل تباطؤ سيده الأعلى في الاستجابة، كما كان يقعل كثير من اللوك الخاضعين لحكم الفرعون

المصرى فى رسائلهم إليه، ومن جهة ثانية، كانت كل مصادر القوة العسكرية الحيثية توظف بشكل كامل، وربعا كانت تأتى مناسبات وأوقات يجد فيها الملك الأكبر نفسه غير قادر على تلبية سريعة لطلبات من القادة الميدانيين بإرسال تعزيزات سريعة، مهما كانت خطورة الموقف الذى يواجهونه، إن كانت كل القوات مرتبطة بحملات عسكرية في أماكن أخرى من الملكة.

وظلت النتائج التي ترتبت على رسالة سومي [--]، وكذلك الأحداث التي تلتها غير معروفة حتى الآن، إلا أن عدم اليقين لم يقتصر على ذلك، وبينما كانت هناك كثير من القرائن التي تدفع إلى نسب تلك الرسالة إلى مرحلة العمارنة، وانطباقها إلى حد بعيد، وترافقها مع الأحداث التي ترتبت على تغيير عزيرو لولائه ونقله من فرعون مصر إلى الملك الحثيني، والتعرف على الملك الذي كانت الرسالة موجهة إليه على أنه سبيلوليوما، حين كان من يشغل عرش مصر حورمحب(١٦)، ولو أخذنا في اعتبارنا للتوتر الذي ساد العلاقة المصرية - الحثينية في تلك المرحلة (كما يستدل عبها على سبيل المثال من حكايات مورسيلي) فإن الاحتمال المقبول أن حورمحب قام بالفعل بحملة عسكرية على سوريا، وهو افتراض له رصيده من الوجهة التاريخية. والاحتمال الآخر أن الرسالة كانت موجهة إلى ملك سوري محلى تابع للهيمنة الحثينية، والاقرب إلى الاحتمال أنه كان ابن سبيلوليوما(١٢).

والأحداث التى تشير إليها رسالة سومى [---]، من المكن أن تكون قد وقعت بعد تنصيب الملوك التابعين للمثينيين على قرقميش وحلب، ولو صدق ذلك، فإن المسئوليات الملقاة على عائق الملوك الخاضعين في سوريا كنواب للملك الحثينيي تجعل من المنطقي أن يوجه قائد ميداني رسالته التي يطلب فيها تعزيزات عسكرية وإحدادات إلى واحد من الملوك التابعين بالدرجة الأولى(٦٢).

11

طلب عجيب

كان ذلك في عام 1327، والمشهد الذي نعود إليه كان خارج الأسوار الجمينة لمدينة قرقميش على الضيفة الغربية لنهر الفرات، كانت الاستراطورية المتاتية العظمي قد انهارت وتداعت تحت وطأة الهجمات الضارية المتتالية التي شنها سبيللوليوما عليها. إلا أن قرقميش التي كانت قوية التحصينات ظلت منبعة على المثينيين، وجاء سيبالوابوها ينفسه لبرأس الجيش في هجومه النهائي على الدينة، وفي غمرة انشخاله بالإعداد للهجوم، أبلغ أن هناك رسولاً قد أتى على وجه السرعة من مصر يرسالة عاجلة من زوجة الفرعون، ويرغم انهماكه في التخطيط لتدمير قرقميش، إلا أن فضوله غلبه للعرفة ما تريده زوجة ملك مصر، وسرعان ما أمر أحد الكتبة بترجمة الرسالة التي كانت مكتوبة بالأكادية، كانت الرسالة تبدأ بحقيقة بسيطة وهي: «مات زوجي».. ثم تبعث تلك الحقيقة بطلب عجيب، أصباب الملك بالذهول، وتعجب قائلاً: «لم أصبادف مثل هذا الشيء في حياتي، وسرعان ما تحولت دهشته إلى شكوك، وطلب أحد أبرز مستشاريه ومسرح له يما يدور في نفسه: «ربما كان ذلك خدعة»، هل يمكن الوثوق بزوجة الملك المصرى؟ هل هي مكيدة؟ وقررا إجراء مزيد من التحري حول صدق الرسالة، وأوكل سبيللوليوما تلك المهمة إلى هاتو --زيتي، أحد كبار رجال البلاط، وقال له «توجه إلى منصر، وعد إلى ً بالمقبقة».

أمدتنا قصة رسالة الأرملة الملكية وسلسلة الأحداث التي ترتبت عليها بواحدة من أشهر الحوادث في تاريخ الشرق الأدنى القديم، وأكثرها إثارة للحدل وتطرح الرسالة تساؤلات كثيرة، لم يتفق الباحثون على إجاباتها حبى الآن. فمن كانت كاتبة الرسالة؟ ومن كان زوجها الذي مات؟ ومتى مات؟ وما المدة التي انقضت ما بين موته ويفنه؟ ومن كان مسئولاً عن النهاية المأساوية التي انتهت إليها الواقعة؟ وما هي الأثار بعيدة المدى التي ترتبت عليها؟ كل مكونات القصة سنعرضها وهي من أكثر القصص البحثية إثارة للجدل، إلا أن الصفحة الأخيرة منها اختفت وضاعت.

ومصدرنا الرئيسى للمعلومات عن تلك الرسالة وما تلاها من حوادث غامضة ليس أرشيف تل العمارنة، يل ولا حتى من أى مصدر مصدي، مصدر القصة موجود في فقرة من بين الفقرات التي سجلت قصة حياة سبيلوليوما، والتي كتبها ابنه الملك مورطيلي(1)، وعبارات الرسالة الهامة مذكورة على أجزاء من لوح طيني ما زال بحالة جيدة عن حياة سبيلوليوما، وهي تحترى على المناشدة بالطلب الذي أثار ذهول ودهشة متلقى الرسالة، يذكر نص الرسالة:

«مات زوجي، أيس أي ابن، وعلمت أن لديك كثيرًا من الأبناء الذكور، لو أعطيتني أحد أبناتك سلجعله زوجًا أي، أن أخذ أبدًا وإحدًا من خدمي وأجعله زوجي(2)، ويمكن أن نشعر بقوة الاعتداد بالذات والتصميم البادي في كلمات الرسالة، إلا أن الملكة كانت على حافة البائس، مات زوجها دون أن ينجب وريئًا، ويموته أصبح الفظ الوراثي منقطعاً، ولم يكن للزوجة الثكلي أسرة يمكنها أن تعتمد عليها، فماذا يكون مصيرها في مثل ذلك الموقف؟ أقد خانتها مشاعرها في أخر كلمات الرسالة: «أنا خائفة».

هوية الملكة المصرية

من كانت تلك الملكة التي أصبحت أرملة فرعون مصرى مات لتوه؟ تذكر قصة حياة سبيلوليوما أن اسمها كان «داهامانزو» ولسوء الحظ، لا يعاون ذلك الاسم كثيراً في معرفة هويتها، لأن ذلك الاسم لم يكن إلا الوسيلة الحثينية في كتابة اللقب المصرى الذي يعنى «زوجة الملك»، كل ما يمكننا التيقن منه هو أن الرسالة كتبت في الأعوام الأخيرة للأسرة الثامنة عشرة المصرية الشهيرة، ويمكننا أن نضيق الفجوة لنحدد بيقين أنها كتبت في أحد عهود آخر ثلاثة ملوك من الأسرة ١٨ المسرية، وهم أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون، واحد من أولئك الثلاثة أدى موته إلى كتابة تلك الرسالة، ولكل ولحد منهم مؤيدوه بين الباحثين المعاصرين كزوج للأرملة التي كتب تلك الرسالة.

إلا أن هناك مفاتيحًا تؤدى إلى الاستدلال الأكثر دقة، أولها أن قصة حياة سبيلوليوما ذكرت اسم الفرعون الميت، وأسعته باللغة المسمارية الحثينية نيفوروريا أو نهبوروريا، وهي الوسيلة التي كان الحثينيون يسبجلون بها الاسم الأول للملك، وهو أحد الأسماء الملكية المصرية الرسمية، ولنقارته بالأسماء الأولى للملوك الثلاثة وكانت على التتابع؛ أخناتون - نفرخبروري، سمنخ كارع - أنخ خبروري، توت عنخ أمون - نب خبروري، ومن الواضح أن الميون في النص الحثيني وهو نب بحروريا يماثل تماما الاسم الأول لتوت عنخ أموت.

ثانيًا: النقطة الهامة جدًا في رسالة الأرملة أن زوجها مات دون أن يترك وريئًا. كانت الأسرة الثامنة عشرة تتأرجح على شغا الزوال والانقراض، في الوقت الذي مات فيه أخناتون، إلا أنه كان مازال لديه سمنخ كارع؛ كولى العهد ليخلفه على عرش مصر، وكذلك خليفة أخر محتمل وهو توت عنخ آمون (والذي يحتمل أنه ابنه، ولكن من امرأة غير نفرتيتي)، وبموت توت عنخ آموم أصبح الخط الوراثي العاظي منقطعًا.

بددت أرملة الفرعون أى شك برفضها إحياء خط وراثى جديد بزواجها واحداً من العامة، لقد كانت بحاجة إلى أمير تجرى فى عروقه دماء ملكية، حتى تعيد الهيبة والسلطة لعرش محسر، حتى لو كان أميراً من دماء أجنبية، فلو تعرفنا على الفرعون الميت بأنه كان توت عفخ أمون، فإن داهامانزو المذكورة فى السيرة الذاتية الحثينية لابد أن تكون زوجة توت عنخ آمون الملكة أنخسن أموت والتى كان اسمها أنخسن أتون فى عهد أخناتون فى مرحلة تل العمارنة، كانت الثالثة فى الترتيب العمرى بين بنات أخناتون ونفرتيتى، وربما الأخت غير الشقيقة لزوجها توت عنخ آمون،

وكانت تكبره بعامين أو ثلاثة، وأصبحت أرملة في بدايات العشريبيات من عمرها، وهي المرأة، كما أعتقد، صاحبة الرسالة الى أذهلت ملك الحرب المثيني الشديد.

وهناك أدلة أشرى كثيرة تدعم هذا التضمين(3)، غير أن عددًا من الباحثين مبازال لا يقبل أن توت عنخ امون وأنخسن أمون همنا الشخصيتان المصريتان المعنيتان في ذلك القصة الشهيرة(4)، وعلى القراء الذين يرغبون في الحصول على تفاصيل أكثر بشأن هوية الملك الميت وزوجه الرجوع إلى الفرضيات الأخرى المحتملة، فنفرتيتي، زوجة أخنانون الرئيسية، وميريت أتون إحدى بناته تعدان من الاحتمالات الاحرى المطروحة في حالة ما كان الملك الميت هو أخناتون أو سمنغ كارع،

إلا أنبى أظل مقتنعًا أن الأرملة التي أرسلت عرضنا بالزواج إلى الملت الحشيني لم تكن إلا أرملة توت عنخ أصون، انخسس با أتون / أنحسس امون(5)، ومن الأفضل أن نقر بذلك بوضوح، لأنه الافتراض الجوهري مي بحثنا حول التداعيات العجيبة للأحداث التي نجمت عن تلك الرسالة.

تاريخ مهت الملك

إن تحديد تاريخ موت الملك على غاية قصوى من الأهمية لحسم الجدل المثار حول تلك الرسالة. وكما الاحظناء تلقى سبيللوليوما نبا موت الملك المصرى حين كان ضاريًا حصاره حول مدينة قرقميش، وكان موسم الأعمال العسكرية قد انقضت منه شهور طويلة، وبعلم من سيرته الذاتية أن الأمر استغرق منه ثمانية أيام، حتى تمكن من غزو قرهميش، ثم قضى بعض الوقت في المدينة لتنظيم توزيع الغنائم ولتنظيم عملية نقل اسرى الحرب إلى عاصمته حاتوسا، ثم نصب أبنه شارى كوشوه ملكا لاب عنه على عرش قرهميش، بعد ذلك عاد إلى حاتوسا على وجه التقريب عى عبد بالله على عرش قرهميش، بعد ذلك عاد إلى حاتوسا على وجه التقريب عى بهاية أكتوبر أو بداية نوفمبر، قبل هطول الثلج.

ولنجعل ذلك الوقت نقطة بداية تنطلق منها إنى ما هو سبابق عنبها

استعرفت رحلة عودة الجيش العثيني بالعربات المحملة بغنائم المعارك خمسة أو سنة أسابيع على الأقل، وهذا يجعلنا نقدر أنهم غادروا قرقميش في مهاية شهر سينمبر.

وإدا قدرنا ثلاثة أسابيع لترتيبات ما بعد الانتصار على قرقميش، فإن ذلك يصل بنا إلى بدايات سبتمبر، ولابد أن حصار قرقميش حدث في ذلك الوقت، وهو الوقت ذاته الذي تلقى فيه سمبننولموما الرسالة القادمة من مصر.

وجلب تلك الرسالة ،التى تضم نبا موت الفرعون، رسول أتى من مصر حتى قرقميش، والرسول الذى يسافر بأقصى سبرعه من معفيس التى أصبحت من جديد العاصمة الملكية المصرية، يمكن أن يقطع تلك الرحلة في حوالي أسبوعين، ولابد أن الفرعون قد مات قبل ذلك بفترة قصيرة، وأحد الأسباب الرئيسية لذلك الاستنتاج أنه قبل حصار قرقميش بفترة قصيرة، كان الجيش المصرى قد شن هجومًا على مدينة قادش، والتى أصبحت في ذلك الوقت من المدن الخاضعة للنفوذ العثيني، ولم يكن من ملمكن أن يقدم الجيش المصرى على مثل ذلك الهجوم إذا كان في مثل حالته بلا وريث يرتقى العرش من بعده، في مثل أزمة كتلك الأزمة لا يبدو من المعقول أن يقدم الجيش المصرى على مهاجمة قوة عظمى مثل الحثيثيين، خاصة بعد خروجهم مضفرين من معاركهم ضد الميتانيين وتواجدهم على أطراف سوريا.

لو أخذنا كل تلك المقائق بعين الاعتبار، يمكننا أن نقول بقدر كبير من الثقة أن الفرعون المعنى في الرسالة قد مات في شبهر يوليو أو أغسطس من عام 1327.

إلا أن ذلك التاريخ يمثل مشكلة كبرى بالنسبة لأغلب عماء المصربات لو كان الملك المعنى هو توت عنخ آمون، والسبب في ذلك يعود إلى دليل ساتي عثر عليه بمقبرته، فكما سجل مكتشف المقبرة هاوارد كارس الحالة السي وجد عليها المقبرة، قال:

«من أكاليل الزهور والفاكهة التي عثر عليها بالمقبرة، من المكن أن نستدل على الفصل من العام الذي سجى فيه جثمان توت عنخ آمون في تلك المقبرة، فالزهور الموجودة في إبان إيناعها في شهرى مارس وأبريل، وكذلك فاكهة عنب الثملب وغيرها تنضج في البرك الراكدة في مصر الدنيا في الفترة من يوليو حتى نوفمبر، إلا أنه من المحتمل أنها كانت مزروعة في خزانات مائية في طببة، مما يجعلها تزهر مبكرة عن موعدها، لذلك يمكننا أن نقرر ونحن مطمئنون أن الموسم من العام الذي دفن فيه توت عنخ أمون كان يقع ما بين منتصف مارس حتى نهاية ابريار(6).

وبالاستناد إلى تلك المعلومات، توصل علماء المصريات إلى أن توت عنخ أمون مات في شهر ديسمبر أو يناير، ولا يوجد دليل مسجل يثبت ذلك في أي مصدر مصري، أي أن الأمر كله استدلال، اعتمد على ما هو معروف من طقوس دفن الموتى الثابتة في مصر، فطبقاً لتلك الطقوس، لا يتم الدفن إلا بعد سبعين يوماً من الوفاة، لا يوم واحد أقل ولا يوم واحد أزيد، وأثناء تلك المدة، تعد كل التجهيزات اللازمة ليوم الدفن(7)، ومن هنا جاء افتراض أن الوفاة حدثت عند نهاية ديسمبر أو بداية يناير.

ويبدر أن ذلك الافتراض يرتكز على أسباب موضوعية مقبولة، فخلال كل تاريخ مصر الفرعونية، لم يُغل المصريون أبدًا بتلك الطقوس إلا مرة واحدة ترجع إلى الأسرة الرابعة(8). وهكذا، إذا تعرفنا على ضرعون الرسالة على أنه توت عنخ أمون، وأن موته حدث في يوليو أو أغسطس السابقين على الدفن في مارس أو أبريل، فإن ذلك يجمل الفترة الفاصلة بين الموت والدفن تصل إلى سبعة أشهر على الأقل، ومثل ذلك الخروج على التقاليد المصرية العمارمة لا يمكن قبوله، إلا إذا كان الدافع إليه ظروفًا استثنائية جدًا.

الظروف الاستثنائية

لقد مرت مصر بظروف استثنائية اضطرت معها إلى اتخاذ تدابير

استثنائية بعد موت توت عنخ آمون، ومهما كان السبب الذي أدى إلى موته (9) للفاجئ وغير المتوقع وهو في آخر العقد الثاني من عمره ترتب على موته وقوع مصر في أزمة، لم يكن توت عنخ آمون قد أنجب وريئًا للعرش، كما لم يكن هناك فرد من السلالة الحاكمة ليليه على عرش مصر ولا حتى طفل صغير كما حدث معه هو حين ورث عرش مصر وهو طفل صغير، ويدون وجود عائلة ملكية قوية، وفي الوقت الذي كانت فيه مصر مازالت تحاول التعافي من أثار مرحلة تل العمارية، كان يمكن أن تنهار مصر وتنقسم من جديد على نفسها، وتصبح مرة أخرى فريسة للأجانب، كما حدث في ذلك المهد المظلم قبل ظهور الأسرة الثامنة عشر، كان التوتر بين مصر والحثينيين على أشده، ويتزايد مع الوقت، فهل تضضع مصر من جديد لفزاة من الشمال؟.

تلك المصاعب هي ما شغل الملكة الشابة، ويفعتها تلك الاعتبارات إلى اختيار أحد الحلول المتطرفة - حتى وأو كان على حساب التقاليد المصرية العريقة - كملاذ أخير لاستعادة ثبات العرش واستقرار المملكة، في محاولة منها لتحقيق تحالف دائم مع القوة العظمى الشمالية التي كانت تشكل أكبر خطراً على مملكتها.

لو كان سبيللوليوما قد استجاب بالموافقة وبالسرعة اللازمة وحقق ما طلبته ملكة مصر الشابة، لكان الوقت المتاح كافيًا، أي خلال السبعين يومًا قبل الدفن، للأمير الحثيثي ليصل إلى مصر، مختصراً المفاوضات التمهيدية والرسميات التي غالبًا ما تصاحب الزيجات الدولية الملكية، ثم يصعد إلى العرش ثم يقوم باداء طقوس الدفن النهائية للملك الميت، كان من أركان شرعية الدفن أن يقوم بها الملك الجديد بذاته، وفي الظروف العادية كان الملك الجديد لا يكتسب شرعية هو الآخر، إلا إذا أدى بنفسه طقوس دفن الملك السابق، وكان لذلك أهمية أشد في الحالة التي نتحدث عنها، إذ كان الذي سيعتلى العرش أمير أجنبي، ولابد أن الملكة كانت تنظر استجابة أفضل مما لقت دون أدنى تأخير، كان عنصر الوقت هامًا

ولا يترك لها مساحة زمنية كافية، وكان الموقف يتطلب التصرف بأقصى سرعة.

أما سبيللوليوما فقد كان في حيرة ودهشة، كان العرض المقدم له عرضاً مغرباً لا يجود به الزمن، كانت أمامه فرصة نادرة لفرض هيمنته ونفوذه على سائر أرجاء الشرق الأدنى، إذا اعتلى ابنه عرش مصر، دون إراقة قطرة دم حثينية واحدة، كانت الزيجات بين بيوت كبار الملوك شائعة ومعروفة، إلا أن الفرق هنا أن أرملة توت عنخ آمون ثم تكن لتعرض فقط زواج تحالف، بل كانت تعرض على ابن سبيللوليوما عرش مصر، وبذلك يصبح سبيللوليوما وابنه ملوكًا على أكبر إمبراطوريتين في الشرق الأدنى يصبح سبيللوليوما إذن كان سبيللوليوما متشككًا إلى هذا الحد من جدية المرض?

لابد أن نعود إلى الخلف قليالاً للإجابة على ذلك السبؤال، ففي عهد أخناتون قامت علاقات ودية بين مصبر والمثينيين، وبالرغم من ذلك ظل التهديد الحثيني على مصالح مصر في سوريا قائمًا، بل إن المثينيين اكتسبو، ولابات عديدة في سوريا كانت خاضعة النفوذ المصرى، بعد نقل الحكام المه سمن للولايات السورية ولاهم من مصبر إلى سبيللوليوما، وكانت مملكة قادش الصغيرة واحدة من تلك الممالك، إلا أن قادش كانت ذات موقع استراتيجي هام، وعلمنا أن أخناتون كان قد شرع في الإعداد لحملة كبرى على سوريا الاسترداد الولايات التي فقدها، إلا أن التجهيز لتلك المملة توقف فيمأة بموت أخناتون، واستصر «السلام» المتوتر مع المشينيين طوال الإعوام التي حكمها توت عنخ أمون، وصين كان المبيللوليوما منهمكا في أخر عملياته العسكرية غيد الإمبراطورية الميتانية المنهرة، وردت إليه أخبار مزعجة، وهي أن قوة عسكرية مصرية شنت هجوماً على مدينة قادش، ورأى سبيللوليوما في تلك الغارة عملاً واضحاً من أعمال العدوان، واستجاب إلى ذلك استجابة فورية، أرسل قوة مسكرية من قواته إلى قادش، هاجمت القوات المصرية وطاردتها وقامت عسكرية من قواته إلى قادش، هاجمت القوات المصرية وطاردتها وقامت

بهجوم مضاد على مناطق النفوذ المصدى في جنوب سوريا، وأصبحت الملكتان في حالة حرب.

ومن شبه المؤكد أن توت عنغ آمون كان من أمر بشن ذلك الهجوم المصرى، بناء على مشورة مستشاريه، إلا أنها كانت حملة دونكيشوتية إلى حد بعيد، وربعا كان وضع الفرعون الصغير داخل مملكته كان قد أصبح في خطر متزايد، وأن أحوج ما يحتاجه لمواجهة حرج موقفه الداخلي تعقيق انتصاراً عسكريًا خارجيًا، ليثبت أنه هو الآخر «قاهر الأسيويين» مثل أسلافه الذين سبقوه، وكان إدماء أنف سبيللوليوما العظيم بالانتصار عليه سيصبح عيدًا وحدثًا يسجل على جدران المعابد المصرية، إلا أن الهجوم المصري على قادش انتهى بكارثة، كان الهجوم بمثابة مقامرة يائسة إلا أنها فشلت، وبعدها بفترة قصيرة مات الملك. ومن غير للعروف إن كان الحدثين علاقة ببعضهما أم لا.

على أى حال، كانت مصدر بتلك الصملة قد أعلنت الصرب على المثنينين، وبعدها بزمن قصير يجد سبيللوليوما زوجة الملك الذي أعلن الحرب عليهم تطلب الوحدة معه عن طريق الزواج بأمير من أبنائه يرتقي عرش مصر، لذلك كانت شكوك سبيللوليوما منطقية.

قمن وجهة نظره كان الهجوم المصرى على قادش عملاً من أعمال الخيانة السافرة، فهل يمكنه الآن أن يخاطر بوضع ابنه في أيدى مقترفي تلك الخيانة؟ فضالاً عن ذلك، وحتى أو أمن بصدق طلب الملكة الشابة الأرملة، فهل يمكنه الإيمان بأنها تملك من السلطة ما يجعلها قادرة على الوفاء بوعدها، أي أن يرتقى ابنه إلى عرش مصر؟

كان سسيللوليوما يدرك أنه لابد أن تكون هناك معارضة شديدة في مصر لذلك القرار المتطرف من الملكة الشابة، وكما كانت الحقيقة المجردة أن عرض الملكة كان آخر محاولة يائسة؛ لدعم أسرتها الملكية المنقرضة إلا أن عرض الملكة كان أخر مداولة يائسة لدعم أسرتها على رعيتها، لذلك لم أنها لم تكن على يقين من قدرتها على فرض إرادتها على رعيتها، لذلك لم يحد سبيللوليوما أمامه إلا أن يتقصى حقائق وجوانب وأبعاد ما يحدث

عن طريق إيفاد شخصيات كبيرة من بلاطه، ولذلك أرسل حاتوسا زيتي إلى بلاد النيل.

زيارة مصر ونتائجها

كانت أنخسن آمون تنتظر رد الملك العثيني بفارغ الصبر، وأخيراً وردت أنباء بأن وفداً رفيع المستوى قد جاء من لدن الملك الأكبر، ولكن لم يكن الوفد يضم الأمير الذي تنتظره، لم يكن علي رأسه إلا مبعوثاً ملكيًا جاء لتحرى الأمر، ويلا شك كان رد فعل الأرملة الشابة يمور بالغضب والغيظ، فلن يؤدي وصول ذلك الموفد إلى إتمام طقوس دفن زوجها، ما لم يكن معهم الأمير الحثيني الذي يتزوجها ويعتلى العرش، أيقوم بطقوس دفن الملك بانتهاء السبعين يومًا التي تلي الوفاة، بل حتى بالرغم من ذلك، لم تكن قد توصلت إلى اتفاق نهائي مع الملك العشيني، فمع أن الملك المثيني كان مهتمًا بعرضها، إلا أنه ما زال بحاجة للإطمئنان من صدق وعودها وقدرتها على تنفيذها، وأن ابنه لن يكون عرضة لأي خطر في حال مجينه إلى مصر حسب رغبتها، وطبقًا للأعراف الدبلوماسية المتبعة، سجل مجينه إلى مصر حسب رغبتها، وطبقًا للأعراف الدبلوماسية المتبعة، سجل الملك العشيني كل ذلك في رسالة سلمها لها حاتوسا – زيتي مع رسالة شفاهية أبلغها لها بالنيابة عن ملكه سبيللوليوما.

ورجدت أنخسن آمون نفسها في ورطة، كان أمام هاترسا - زيتي وقت طويل يتم فيه تقصيه للأحوال والظروف، ولم يكن بإمكانه العودة إلى حاتوسا قبل الربيع التالى - أي بعد بضعة شهور. وهكذا، حتى لو وافق سبيللوليوما في النهاية على مطلبها فإنه ما زال أمامها أشهر أخرى عديدة قبل أن يصل الأسير الذي يضتاره سبيللوليوما من بين أبنائه كعريس لها إلى مصر، فهل بإمكانها الانتظار كل هذا الزمن، دون أن نتوصل إلى حل المأزق الذي وجدت نفسها فيه بموت زوجها دون وجود وريث للعرش؟ كلما طال الانتظار، كلما زادت فرصة معارضيها في إفساد خططها، وكلما زاد أيضاً تعرضها هي المخاطر، كانت تلك هي الجوانب

التي ظلت تؤرقها أثناء وجود المبعوث الحثيني في مصر.

إلا أن عزيمتها لم تلن أبدًا فيما يخص أمرًا واحدا سجلته في رسالتها «لن آخذ أبدًا واحداً من خدمي وأجعل منه زوجًا لي»، فلكي تتجنب الزواج من واحد من العامة غير منحدر من سلالة ودماء ملكية أصرت على المرور بتلك المخاطرة حتى النهاية، أصبح الأمر حرجًا بالنسبة لها، وكان على سبيللوليوما أن يستجيب لطلبها في النهاية ويرسل أميراً حثينيًا إلى مصر.

في الربيع التالي، عاد حاتوسا – زيتي إلى بلاده، وكان بصحبته الدبلوماسي المصرى رفيع السنوى السفير حاني، والذي قام بمهام كثيرة كما يظهر من خلال رسائل تل العمارنة، وعقد لقاءً مع الملك الحثيني في القاعة الكبرى من القصر الملكي في حاتوسا، وسلمه حاني رسالة أخرى من الملكة، وفيما كانت الرسالة تترجم عن الأكادية، تسلم سبيللوليوما تقريرًا من مبعوثه عن نتائج بعثته إلى مصر، لذلك كان متأهبًا للغضب الطاغي على نص رسالة الملكة إليه:

«لماذا قلت هم يخدعوننى بتلك الطريقة؟ هل لى ابن، هل كان يمكن أن أكتب عن غزيى وخزى بلدى إلى ملك أجنبى؟ أنت لم تصدقنى بل وذكرت ذلك لى، الذى كان زوجى مات، ليس لى ابن، وإن أخذ أبدًا واحدًا من خدمى وأجعل منه زوجًا لى، أنا لم أكتب بذلك إلى أى بلد آخر، إليك وحدك كتبت، يقولون أن لديك كثيرًا من الأبناء، هب لى واحداً منهم، سيكون زوجًا لى، وسوف يكون ملكًا على مصرة (10).

والمقتطف السابق من رسالة انخسن أمون الثانية إلى سبياوليوما التى ورد نصبها فى السيرة الذائية لسبيلاوليوما، كما سبطها ابنه مورسيلى، وقد عثر بالفعل على أجزاء من رسالتها أظهرت أن مورسيلى قد نقل ما جاء بها بأمانة، وفى نص الرسالة الأصلى التي عثر على أجزاء منها أشارت أنخسن أمون إلى موت زوجها وأكدت على عدم وجود أبناء له يرثوا عرش مصر.

كدلك لامت سبيللوليوما على شكه في رسالتها الأولى، وإرساله مبعوثه حاتوسا ريتي إلى مصر التيقن من صدق ما ذكرته وتقييم الأمر(11) (من الواضيع أن مورسيلي قد أمر بإخراج رسالتها من دار المحفوظات، ليكون نصها أمامهم وهو يملى ذلك الجزء من سيرة أبيه على الكتبة).

ولم يكن سبيلاوليوما في حال تسمح له يقبول التأنيب. كان الهجوم المصري السابق على قادش مازال عالقاً بذهنه، وقد ذكر ذلك في رده، ألم يكن لديه أسباب قوية للشك في نوايا المصريين؟ ألم تقم القوات العسكرية في وقت قريب سابق بشن هجوم غادر بلا سبب على واحده من مدنه؛ فلماذا يجب عليه الوثوق في النوايا المصرية هكذا فجاة؟ قال في رده على رسالنها:

«لقد كنت أنا نفسى أكن لكم الود والصداقة، ولكن أنتم اقترفتم شراً في حقى، جئتم وهاجمتم قادش، ولما علمت بذلك، أرسلت قواتي وعجلاتي ونبلائي، وهاجموا مناطقكم، منطقة أمكا، ولما هاجموا أمكا، خفتم، وبعد ذلك طلبتم أحد، أبنائي، كما لو كان واجبًا على، من المكن أن يصبح أسيرًا، أنتم لن تجعلوه ملكًا ع(12).

ولم تبدأ أى بوادر للتوصل إلى حل ناجح يرضني الطرفين، فسدخل البعوث المصرى رفيع المستوى عالى بمهاراته اسبلوماسية الرسعة

«سيدى الملك، هذا خزى لبلادنا، وأو كان لدينا أي ابن للملك المتوفى هل كنا تصغير إلى بلد أجنبية ونطلب سيدًا علينا؟ لقد مات نبحوروريا الذي كان سيدنا، وليس له ابن، وزوجته بمقردها وهيدة، ونطلب أحد أبنائك ليكون ملكًا على مصر ونطلبه ليكون زوجًا للكتنا، فضلاً عن ذلك، لم نذهب إلى أي بلد أخرى، لم نأت إلا إليك، والآن يا سيدى، هبنا أحد أبنائك (13).

وكان يدعم ذلك الشرح الودى تقرير مطمئن من المبعوث الحثيني، مما حسم الآمر بالسبة إلى سبيللوليوما، وقلل مورسيلي في سيرة أبيه الذاتية من وزن وقيمة الإنجاز البلوماسي المصدري ونسب الفضل إلى ابيه بأجمعه. وقال ولأن أبي كان طبيب القلب، استجاب لكلمة المرأة وأخذ على عاتقه إرسال أحد أبنائه إليهاء.

إلا أن صفات الفروسية وطيبة القلب التي أدعاها مورسيلي عن أبيه كانت من أبعد الصفات عن شخصيته، كما أن رأى ابنه عنه يبعد بنا عن صفات الإباء والشجاعة والإصرار الذي يميز الأرملة الملكية المصرية، كانت أسباب سبيللوليوما في استجابته لما طلبته المرأة مصلحة شخصية بحتة، كما كانت ثلك هي دوافعه على الدوام، كان هدف ذلك الملك المحارب القاسي الطموح بعد أن خرج مظفرًا من معاركه ضد الميتانيين، هو مد هيمنته وسيطرته على مصر وعلى ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية المنهارة، لم يكن إلا هذا الدافع القوى الذي حدا به إلى الموافقة على إرسال أحد أبنائه إلى مصر.

لغز زانانزا

من من أولاده؟ كان لدى سبيللوليوما خمسة أبناء، إلا أن أكبر ثلاثة كانوا قد تولوا مهام كبرى، كان أرنو واندا قد أعلن وليًا للعهد، أما تليبينو وشارى – كوشوه فقد عينا ملوكًا على حلب وقرقميش على التوالي، أما مورسيلي، ألابن الضامس فقد كان مازال طفالاً ولم يبق إلا زانانزا، الابن الرابم، وكان زانانزا هو من هيئ على عجل التوجه إلى مصر.

وانتظر سبيللوليوما وصول التقارير عن تقدم ابنه في مهمته، وجاعة الاخبار عن طريق مبعوث ملكي، كانت أسوأ ما يمكن أن يتلقاه من أنباء، مات زانانزا، أسوأ ما في الأمر أن الفقرة التي تسجل موته في السيرة الذاتية تالفة وغير واضحة، كل ما توصلنا إليه أن الأمير قتل وهو في طريقه إلى مصر، إلا أن النص محطم، فيما يلى ذلك، مخفيًا هوية من قاموا بقتله. ولم يجد سبيللوليوما المفجوع إلا اتهام المصريين بالمسئولية المناشرة عن مصرع ابنه «أيتها الآلهة، ثم اقترف إثمًا، إلا أن المصريين فعلوا ذلك ضديه (14)

ولم يكن هناك مفر من الانتقام، وأضفى التهديد، بنشوب حرب شاملة، أبعادًا جديدة إلى أزمة وراثة العرش في مصر، كان تعيين خليفة لعرش مصبر لا يمكن أن يتأخر أكثر من ذلك، وتمت احراءات وطقوس الدفن بعجلة، حتى إن طلاء حوائط المقيرة لم يكن قد جف بعد، أحد تلك الرسومات الجدارية يظهر الرجل الذي خلف توت عنخ أمون على العرش يرتدي ملابس كهنوتية، وهو يقوم بإجراء طقس فتح القم المقدس للمتوفي، وهو الطقس الذي بعيد المن إلى الحياة في العالم الآخر، كما يضيفي الشرعية على من يؤديه للميت يصفته الخليفة الشرعي على العرش، وكان اسم من أدى ذلك الطقس (أي) لم يكن (أي) ذاته من السلالة الملكية، ولكن المحتمل أنه يمت بالمساهرة إلى الأسرة اللكية، ويفترض كلير من الباحثين أنه أبو نفرتيتي زوجة أخناتون، وفي كل الأحوال، كان (أي) من الشخصيات البارزة المرموقة في البلاط المسري على مدى زمن طويل، كان من أخلص وأقرب المستشارين إلى أخذاتون، واستمر في أداء دوره المتميز كمستشار أول للملك طول عهد توت عنخ أمون، كان في ذلك الوقت قد أصبح طاعنًا في السن، في السبعينيات من عمره، وأصبح ملكًا بالصادقة، جين لم يكن هناك غيره مناسباً الخلوس على عرش مصر ،

ولابد أن تحوم الشكوك حول (أي) بصفته من دبر اغتيال الأمير الحثيني، قد يدفع ذلك بأي أمرئ إلى تكوين صورة ميلودرامية عن ذلك الستشار الملكي القوى، ذلك الذي يظهر في خلفيات الرسوم الجدارية في منزلة سامية حميمة مظهرًا ولاءً نادرًا للملك، بينما بكتم بين جوانحه تطلعاته لارتقاء العرش. وفي إطار ذلك المفهوم اشخصيته يصبح موت توت عنخ أمون بمثابة تمهيد للطريق لتحقيق طموحاته وتطلعاته، ولا يلبث أن يجد خططه على وشك الانهيار برفض أرملة الملك الميت له وبطلبها الزواج من أمير حثيني.

هل يعطى إصرارها، وتأكيدها المتكرر على رفضها الزواج بواحد من العامة انطباعًا أن (أي) عرض عليها الزواج؟ وبالرغم من جاذبية ذلك

التصور، إلا أنه لا يوجد على الإطلاق ما يدل على أن (آى) قد لعب أى دور في صنع تلك الأحداث أو توجيهها إلى الوجهة التي اتخذتها، أو على وجه التخصيص أن يكون له أي علاقة بمصرع الأمير الحثيثي وهو في طريقه إلى مصر، ومثل كل قصص التحريات الشيقة، فإن الشخصية التي ينصب عليها الاتهام بوضوح يتضع في النهاية أنها ليست الجاني.

إن التوميل إلى ترجيحات لا يعدو كونه مسالة لجوء إلى المنطق والمعقول، فلنفترض للحظة أنه كان لدى (أى) تطلعات إلى عرش مصر بعد موت توت عنخ أمون، في هذه الحالة كان سيظهر نيته تلك أثناء وجود المبعوث المثيني حاتوسا - زيتي في محسر، كان من دواعي قلق سبيللوليوما الرئيسة التأكد من أن ابنه إذا ذهب إلى محسر أن يكون في خطر من خصوم مطالبين بالعرش.

وكان أفضل وقت لتخريب مشروع الزواج المزمع من أمير حثيني أثناء وجود المبعوث المثيني في مصدر، وهو يقوم بتحرياته حول وجود قوى مناوئة أو خصوم يطالبون بعرش مصر، كان ذلك أنسب وقت لأي، لإظهار ذلك، حتى يضعن أن التقرير الذي سيصل لسبيللوليوما سينهي أي احتمال لنجاح زواج التحالف.

لم يكن لدى (أي) الكثير الذي يمكن كسبه - بينما كان هناك الكثير الذي يمكن كسبه - بينما كان هناك الكثير الذي يمكن أن يخسره - في تأخير أي مطالبة له بعرش الملكة قبل أن يقبل سبيللوليوما بزواج التحالف، الأقرب للاحتمال أن (أي) لم يكن لديه أبدًا أي تطلعات لأن يصبح فرعونا، وأن تصميده إلى سدة الحكم لم يكن إلا ترتيبًا متعجلاً من قبل قرارات الساعة الحادية عشرة، أي قرارات اللحظة الأخيرة التي تم اتخانها بعد وصول أنباء مصرع الأمير الحثيني زانانزا، وهو في طريقه إلى مصر.

ولا يوجد شك في أن (آي) بعد أن أصبح فرعوبًا سعى بكل عزيمة إلى إقرار السلام مع سبيللوليوما، ونفى بكل عزم وصدق أي علاقة له بمصرع ابنه، وكتب مرة، ويحتمل مرات إلى سبيللوليوما لاثنائه عن اللجوء للحرب،

ونعلم ذلك من نص رسالة مهشمة أرسلها سبيللوليوما إلى (أي) رداً على إحدى رسائله، وكالعادة المتبعة كان رد سبيللوليوما يتضمن فقرات من رسالة (أي)، واتضح من تلك الفقرات أن (أي) قال في رسائته «اتهاماتك لا مسوغ لها.. أنت تسعى إلى حرب ضدنا.. أنا أطلب السلام والإخوة. هيما يخص موت ابنك – أنا برىء منه تمامًا «(15) إلا أن ذلك لم يرض سبيلوليوما، فبناء على أوامره، عبر الجيش الحثيني إلى مناطق النفوذ المصرى في شمال سوريا وشن هجمات شديدة على المن الواقعة بالمنوا بضعة ألاف عانوا بهم إلى العاصمة الحثينية، وكان لذلك عاقبة وغيمة تعد من سخريات الأقدار، فالأسرى جلبوا معهم وباء الطاعون، الذي ظل بحصد أرواح الحثينيين على مدى عشرين عامًا، وقضى على أعداد هائلة منهم.

وحتى اليوم مازال موت الأمير الحثينى لفزًا غامضًا، هل كان ضحية لقري مصرية قررت الحيلولة دون اعتلاء أمير أجنبي لعرش بلادهم؟ هل كانت هناك توجهات لفئة من بين بني جنسه كانت على استعداد لفعل أي شيء لضمان عدم إتمام التحالف مع مصر؟ أم أنه وقع في كمين أعده رجال قبائل معادية لهم في جنوب سوريا؟ هل كان ضحية لمؤامرة لم تكتشف أبعادها ولا خباياها حتى الأن؟ ظلت هذه الافتراضات مع افتراضات أخرى غيرها تطرح من أن لآخر، وإن نجد لدينا إلا الاستمرار في التغميل حتى تظهر أدلة ويراهين جديدة.

إن الأحداث عاثرة الحظ، التي أدت إلى موت الأمير العثيني، تضعنا في الموقف الجدلي التاريخي الذي يدور حول «ماذا لو»، أي ما الذي كان يصبح عليه المتاريخ أو كان زانانزا قد ومل أمنا إلى مصر، وتزوج من النخسن أمون واعتلى عرش مصر؟ هل كان يمكن أن ينجم عن دلك الزواج اتحاد بين أكبر مملكتين في تاريخ الشرق الأدني؟ هل كان لذلك «لو» كان قد حدث أن يغير مسار التاريخ؟ يحتمل لا، فمهما كانت أسبب موت لأمير الحثيني، كانت هناك بلا أدني شك قوى مصرية شديدة تعارض

ذلك، كما يجب ألا ننسى أن سعى الأرملة الشابة للحصول على أمير ملكى حثينى لم يكن إلا آخر حل يائس من آخر فرد حى فى سلالة ملكية بالات جميعها، كان طلب زواج التحالف ذاك مقضيًا عليه بالفشل المؤكد من بدايته.

ماذا كان مصير أنخسن أمون؟ هل وجدت نفسها في النهاية مجبرة على الزواج من أحد العامة ويحتمل أنه جدها (لو كان أي بالفعل أبا نفرتيتي) حتى يصعد إلى العرش؟ بعد فشل زواج التحالف مع الحثينيين، لا نعرف أي شيء عن أنخسن أمون بعد ذلك، ولا توجد إلا شذرة بسيطة من المعلومات. ففي عام 1931 عرض، على عالم المعربيات الإنجليزي بيرسي نيوبيري، خاتم قديم من أحد تجار العاديات المعربين، وجد على فصه الزجاجي خرطوشين ملكين إلى جانب بعضهما، يحتوى أحدهما على الاسم الأول لآي، ويحتوى الآخر على اسم أنخسن أمون، ويبدو أنهما توصلا إلى أحد الحلول التوافقية، ويحتمل أنه كان عن طريق الزواج، ففي النهاية وجدت أنخسن آمون نفسها مجبرة على قبول المعير الذي ظلت ترفضه قائلة: (لن أتزوج أبداً من أحد خدمي)، قبل أن تختفي نهائياً من السجلات.

12

الاتصالات الهيسنية بالشرق الأدنس

كان الشرق الأبنى بمثابة سوق رائجة ومنفذ حيوى لأنواع كثيرة من منتجات الجزر المتناثرة في بحر إيجه، وحملت المراكب البحرية ∼ التي تجوب أرجاء شرق البحر المتوسط − منتجات جزيرة كريت المنوانية وجزر إيجه إلى كل الموانئ الكبرى ومناطق التجارة على طول سواحل البحر المتوسط، وبذلك شفت المنتجات القادمة من جزر إيجه طريقها، عبر مسالك قوافل التجارة والطرق البحرية إلى قصور وبيوت الصفوة في منطقة ما بين النهرين، والأناضول، ومصر .

وفي عالم يدرك مزايا وفوائد التجارة العالمية والتبادل الثقافي، من الصعب أن نتخيل عائلة ملكية، أو أي عائلة ثرية لم يكن لديها منتجات متحيرة من صنع جزر بحر إيجه، أو لم تتذوق النبيذ الفاخر المنتج في منطقة رائعة وغنية تدعي كريت، وبالفعل، تظهر جداريات المقابر المصرية في لملكة الحديثة الهدايا والهبات التي يحملها زوار بحر إيجه إلى بلاد الفرعون المصري، وهم بالتأكيد من الوفود التجارية، ولكن عدا ذلك الجانب الذي منله المتبادل التجاري، كانت الروابط بين ممالك الشرق الأدني وحضارات جزر بحر إيجه وبلاد اليونان علاقات طفيفة غير ملموسة. فمن مجهة نظر استراتيجية أو سياسية، كانت البلاد الواقعة في ما وراء البحر أيجه نظر استراتيجية أو سياسية، كانت البلاد الواقعة في ما وراء البحر أن نصعي باهتماء كبار مغوك الشرق الأدنى، باستثناء حالات قلبلة نادرة أشدر فبها أحبانا في المراسلات إلى تلك الأماكن، أما عسكريًا، لم يكن الدي أي من كبار ملوك الشرق الأدنى من المصادر والقوى ما يمكنه من مرض هيمنته على تلك الجزر أو بلاد ما وراء البحر كما لم يكن لديهم مرض هيمنته على تلك الجزر أو بلاد ما وراء البحر كما لم يكن لديهم أي دوافع تجبرهم على السعى لتحقيق ذلك. أما استراتيجيًا، فقد كانت

التحالفات الدبلوماسية مع تلك المناطق لا تحقق أي فائدة أو منععة.

ماعدا استثناء واحدأ

أدى انتشار الجزر الصغيرة في بحر إيجه إلى سهولة وصول أهل جزيرة كريت واليونان إلى الساحل الغربي لمنطقة الأناضول بحثًا عن أسواق جديدة، وإلى أماكن جديدة للاستقرار بها، وعند بدايات القرن السادس عشر قبل الميلاد أسس المهاجرون من جزيرة كريت مستوطئة ميلتوس، والتي أطلق عليها في التسجيلات الحثينية(1) ميلاواتا أو ميلاواندا، ومن أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد وما تلى ذلك، زادت الاهتمامات الميسينية بمنطقة غرب الأناضول، مع زيادة حجم التجارة الميسينية، وزيادة عدد وحجم مستوطئاتهم في شبه جبزيرة هاليكارناسوس، وإياسوس، وميلتوس، وايفسوس، وكلازومينيا، وسيمرنا ومنطقة لاريسا(2).

والدليل على ذلك يلاحظ بوضوح في منطقة ميلتوس (وسنستخدم من الآن الاسم الحثيني وهو ميلاواتا)، حيث تبدو بوضوح أثار المستوطئات المسينية من حوالي 1400 ق.م(3)، وكان من المحتم أن تتصادم المسالح المبينية بالمسالح الحثينية، ففي عام 1400 امتد النفوذ الحثيني إلى مناطق أوسع من غرب الأناضول، وعلى مدى القرن الرابع عشر ق.م (إن لم يكن قبل ذلك) ادعى الحثينيون أن ميلاواتا من ممتلكاتهم، وقد علمنا ذلك من المعلومات الواردة في النصوص المثينية، فما هي المعلومات التي وصلتنا من التسجيلات الحثينية المدونة عن التدخل الميسيني في شدون غرب الأناضول؟

تساؤل أحياوا

فى عام 1920، أعلن الباحث السويسرى إميل فوريه إلى الباحثين المهتمين بالتاريخ الحثيني أنه عثر على نصوص ميسينية إغريقية بين النصوص الحثينية، ودعم إعلانه بلغت الأنظار إلى وجود إشارات في تلك النصوص إلى منطقة تدعى أحياوا وإلى ملك أحياوا، وكان ذلك الاسم قد ظهر قبل ذلك في شكل أكثر اختصاراً هو أحبًا، وكان فوريه من توصل إلى الاسم المقابل باليونانية القديمة وهو اكيا، المذكور في ملحمة هوميروس وألذى اعتاد اليونانيون الإشارة إليه عموماً باسم أكايوى. وأدى تعرفه على تلك المقابلات للاسم إلى كثير من الجدل، ولم يقبل المشككون بصحة ذلك الاستدلال، وخاصة الباحث الألماني فرديناند سومر، ورفض قبول ذلك وعزاه إلى مجرد مصادفة زمنية، وأن كل الأمر لم يعد ضجة عابرة في عالم الاتيمولوجي، وعاد الباحثون في الأعوام الأخيرة ليزداد قبولهم لفرضية (فورية) وأصبحت كل إضافة جديدة – مهما قلت – تدعم تلك النظرية(4).

ومن وجهة نظر المؤرخين، من الصعب أن نقال من أهمية ذلك التعرف، فذلك التعرف فذلك التعرف يقدم خدمة جليلة للسجلات الأثارية، وهو يزودنا بالمعلومات الوحيدة المسجلة عن العالم الميسيني، أو على الأقل عن جانب من العالم القديم.

فضلاً عن ذلك، يقدم ذلك التعرف برهانًا ودليلاً واضحين أن الاهتمام الميسيني بغرب الاناضول امتد إلى ما هو أبعد من الصلات التجارية، وكان هناك ملوك ميسينيون، مساهمين سياسيًا وعسكريًا فيما يحدث في غرب الاناضول، وهذا ثابت على الأقل بدءًا من 1320(5)، وهي الأعوام الأولى من حكم مورسيلي الثاني للمثينيين، حين فكر الملوك المتمردون بغرب الاناضول في التحالف مع ملك أحياوا (6). غير أننا سنركز هنا على مرحلة تاريخية لاحقة، وهي منتصف القرن الثالث عشر ق.م، حين اعتلى العرش الحثيني حاتوسيلي الثالث، فقد كتب حاتوسيلي الثالث أثناء حكمه رسالة اسبب ما إلى ملك أحياوا، والرسالة الأصلية تمتد على ثلاثة ألواح طينية، لم يتبق منها اسوء الحظ إلا اللوح الأخير، وقد عرفت تلك الرسالة واشتهرت باسم تاواجالاوا (7) وهو اسم مضلل كما سنتيين فيما يلي، إلا

أن شيوع استعماله يجبرنا على استعماله نحن أيضًا، ولابد أن اسمى كاتب الرسالة ومتلقيها مدونان في اللوح الأول المفقود، وبيسا يمكننا أن نتوصل بسهولة إلى أن كاتب الرسالة هو حاتوسيلي الثالث(8)، إلا أن اسم ملك أحياوا الذي أرسلت إليه يظل مجهولاً، غير أن زمن كتابتها وإشارة إلى ناقلها في الجزء الموجود يثير جدلاً كثيراً حول اسم متلقيها.

ولنعد بناء المشهد، ولكي نشرع في ذلك، لا بد أن نبدأ بمعاولة تعريف مدى وحدود مصطلح (أحياوا) كمصطلح يشير إلى العالم الميسيني الإغريقي،

وفي المعنى العام، نجد أن الحضارة اليسينية قد امتدت من القرن السابع عشر حتى القرن الثاني عشر قبل البيلاد، وهو الزمن الذي يعرف أثاريا بالمرحلة الهيلينية المتأخرة، وهي بذلك تتزامن بشكل عام مع الملكة الحثينية التي اتخذت من حاتوسا عاصمة لها، واللوك القسيطيين في بابل والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في مصير، ويستخدم مصطلح «ميسيني» اليوم للدلالة على كل العمس الهيليني التأخر، وهو يعكس أيضنًا بروز الحضارة المسينية بين كل المكرنات الهيلينية لثلك المرحلة في الكون الآثاري المعماري، كما في المكون الثقافي الإغريقي، والتفكير السائد عن العالم الميسيني، الذي يضم أرض اليونان والجزر الإغريقية، يظهر أنه بينما كانت هناك برجة عالية من التمازج الثقافي، إلا أنه كان عالًا ممزقًا سِياسيًا؛ مكربُّا من عديد من المالك الستقلة، تفضع كل منها لحاكمها فقط، إلا أن نظام الحكم الملكي كان نظامًا أسديًا راسخًا، وتوفرت لها مقومات اللمالك من مساهة وشعب وثروة وقوة، كانت مسينا، وتايرنس، وأرجوس وبايلوس من أهم المراكز المضرية في العالم المسيني، وبالرغم من أنها كانت ممالك مستقلة سياسيًا وإداريًا عن بعضها البعض، إلا أنه من المحتمل أن تلك الممالك كانت تتكتل في تحالفات مؤقتة لأسباب حربية أو لأهداف عظمي مشتركة، وقد صور هوميروس ذلك في الإلياذة.

كيف تتفق الإشارات الحثيثية إلى (أحياوا) مع ما سبق ذكره؟ إن عدد المرات التي أشارت فيها النصوص الحثيثية إلى (أحياوا) ليست إلا مرات قليلة (حوالي عشرين مرة أو نحو ذلك)، وأغلبها عثر عليها في فقرات في ألواح مهشمة، ولكن بقدر ما يمكننا أن نحكم على ما ورد في تلك الفقرات، يبدو أن الاسم كان يذكر في بعض تلك النصوص كإشارة إلى الفقرات، يبدو أن الاسم كان يذكر في بعض تلك النصوص كإشارة إلى جنس بشرى للإشارة إلى العالم الإغريقي المعاصر لهم بوجه عام، بالمنبط كما كان الحثيثيون يستخدمون مصطلح حوري كإشارة عامة لكل من بتحدثون اللغة الحورية، بما فيها المملكة الميتانية، من جهة أخرى، ربما كان الاسم يستخدم الدلالة على مملكة إغريقية معينة، خاصة حين يشار به إلى ملك معين من ملوك (أحياوا)، في تلك الحالة، كان الملك المعنى بشكل شبه مؤكد هو ملك دولة كبرى من الدول الإغريقية، وربما ميسينا بشكل شبه مؤكد هو ملك دولة كبرى من الدول الإغريقية، وربما ميسينا ذبتها، ولكن، حتى الممالك الميسينية الكبرى كانت ممالك متواضعة إذا شورنت بالممائك الكبرى في الشرق الأدنى المعاصرة لها. إلا أنه من المحتمل أن موقف الحثيثيين من ملوك أحياوا كان مساويًا لموقفهم من إخوتهم ملوك الشرق الأدنى.

أنشطة بيا ماراده

ونعود إلى الرسالة التى نتحدث عنها – والتى قد يكون من الأنسب تسميتها «رسالة بيامارادو»، والأموال التى يعكسها نص الرسالة، كما يلى: على مدى أعوام طويلة كان هناك أحد المتعربين المرتبين على السلطة المثينية يدعى بيامارادو، وكان يشن غارات شعرسة على المدن والقرى الحثينية في غرب الأناضول، ويثير الاضطرابات المستمرة والعصبيان المسلح ضد الملك الحثيني، وبالرغم من الحملات العسكرية الحثينية التى شنت ضده وأوقفت نشاطه إلى حين، إلا أنه استعاد نشاطه بحجم أكبر واستمر في التحرش بالمناطق الحثينية وسكانها المقيمين بها، وما زاد من خطورة الموقف أنه كان يقوم بذلك النشاط يدعم أو على الأقل بتشجيع من

ملك أحياوا، ووصلت معلومات إلى حاتوسيلى أن أخا ملك أحياوا ويدعى تاواجالاوا قد وصل إلى ميلاواتا، وأشيع أنه جاء ليصطحب معه في عودته إلى أرض اليونان آلاف الرعايا الحثينيين: بعضهم بإرادته الحرة، وبعضهم بالقوة الجبرية، وشبه مؤكد أن ملك أحياوا كان بحاجة إلى عمالة كثيفة لمشاريعه المعمارية العظمى وعلى رأسها تقوية وتدعيم كل القلاع والحصون، وكان ذلك التوقيت بالفعل وقتًا اشتهر بإقامة المشروعات المعمارية العديدة في أرض اليونان، ويبدو أن بيامارادو كان يقوم بدور مورد العمال للملك المسيني.

وبوجه عام كان ملوك العثينيين يفضلون إسناد قيادة الحملات المسكرية في غرب الأناضول لنوابهم على تلك المناطق. إلا أن هذه الحالة أو الأزمة التي نجمت عن نوايا بيامارادو اعتبرت على درجة من الخطورة، تستلزم قيادة الملك بنفسه للقوات للتصدى لبيامارادو الذي كان بمثابة شوكة في خاصرة العثينيين، كان وقت الحسم قد حان ولكن حتى حين كان حاتوسيلي في طريقه إلى مكان عدوه، ترك الباب مواربًا لإتاحة الفرصة التوصل إلى حل سلمي. كان على استعداد أن يغفر له ما تقدم إذا أظهر بيامارادو أية نية العودة إلى تبعيته الملك الحثيني، كان حاتوسيلي قد خطط لذلك إذ كتب في رسالته إلى ملك أحياوا. «الآن، حين وصلت إلى سلابا(9)، بيامارادو أوسل من العنه رجلا القابلتي وقال: «أعود وصلت إلى سلابا(9)، بيامارادو أوسل من العنه رجلا القابلتي وقال: «أعود مناك في الأفق حلاً دبلوماسيًا، وأرسل حاتوسيلي إليه مسئولاً يدعى تارتينيو، ليصحب بيامارادو إلى الملك(11)، ولما وصل إليه تجاهله. ثم راح بيامارادو يزيد من اشتراطاته، مصراً على تعيينه فوراً: «هب لي مككا بيامارادو يزيد من اشتراطاته، مصراً على تعيينه فوراً: «هب لي مككا الأن، وهنا، وإلا أن آتي القائلية.

فوجه له حاتوسیلی إنذاراً بأن یسحب كل قواته من آیالاندا للحصنة، وربما تكون هی المدینة التی تحول اسمها إلی الیندا بعد ذلك، والتی تقع علی حوالی 60 كیلو متراً شرق میلتوس – میلاواتا، وقال فی رسالته داو

كنت تود المودة إلى طاعتى، حين أصل إلى ليالانداء لا أجد واحدًا من رجالك بها، ويجب ألا تدع أيًا منهم يعود إليها، ولا تطأ قدمك أي مكان خاضم لسلطتي».

وتجاهل بساماراين الإنذان ودسن اقترب كاتوسطي من المسنة الحصينة قويل بهجوم شديد الوطأة، إلا أن المبينة سقطت في النهابة في أيدى المثينيين، ولكن بعد معارك شبارية، مما حال دون تحقيق الملك الحثيني لهدفه وهو استعادة رعيته الذين ساقهم بيامارادو عنوة. وتمكن بيامارادو من النجاة ولجأ إلى ميلاواتا التي كانت خاضعة في ذلك الوقت اسيطرة ملك أحياوا(12)، وكتب حاتوسيلي مرة أخرى إلى بيامارانو طالبًا منه تسليم نفسه. إلا أن بياماراين الذي كانت تملأه الثقة بحماية ملك أحياوا له رفض تسليم نفسه. وكتب حاتوسيلي أيضًا إلى ملك أحياوا رسالة مليئة بالشكرى التي وقفت على أعتاب اتهامه بدعم وتأييد بيامارادو في هجومه على البلاد المثبنية، وذكر في رسالته: «هل يعلم ألمي حقيقة هجوم بيامارادي المتكرر على بالإدي، أم لا يعلم هذه المقيقة؟،، وواضح أن السؤال قد صبيغ في بلاغة لا تنتظر إجابة، إلا أن رد ملك أحياوا جاء جافًا ومختصرًا إلى حد الوقاعة، كما خلا من مجاملات ببلوماسية، قال: «هين وصال رسواك إلى بلاطي لم يعمل معه أية تعية، كما لم يحضر هدية، ولم يقع مثل ذلك في عالم دبلوماسية الشرق الأدنى القديم، إلا أن إجابة تساؤله هو ما كان يهمه، إذ كتب ملك أحياوا على أثر ذلك إلى حاكم مدينة ميلادواتا الخاضع له (والذي كان أبا زوجة بيامارادو) طالبًا منه تسليم بيامارادو إلى الملك المثيني، وقال له: هضم بيامارادو تحت تصرف المثيني»،

وكان ذلك بمثابة الإذن الذى كان يصتاجه الملك الصئيني لمهاجمة ميلاواتا، كانت مهاجمة حاتوسيلي المدينة دون ذلك الإذن يعد بمثابة إعلان الحرب على أحياوا ذاتها، ولم يكن لدى حاتوسيلي أية نوايا لإثارة العداوة بينه ربين ملك أحياوا، أما برضي ملك أحياوا فقد أصبح لديه

الفرصة لدخول المبنة بقواته وأسر سامارادو، كان أسر ذلك المتمرد بعد عظة وعبرة لكل من تسول له نفسه تحدى حاتوسيلي، وكان إنذارًا أنضًا اسكان مبلاواتا بأن من يهاجم البلاد الحثيثية أن يكون بمثأي عن متناول العدالة الحثيثية، وكتب حاتوسيلي: «سأكلم بيامارانق، وسوف تسمع رعية أخي الملك ما أقوله إليه، ولكن اسوء حظ حاتوسيلي، لم تمض الأمور كما خطط لها، فقد تمخضت مسيرته إلى ميلاواتا عن مزيد من الخزي، فحين ومثلها لم يكن بيامارادو بهاء فقد فر منها يحراً، ولا يوجد شك أن ذلك التدبير كان على بدي رعبة ملك أحياوا، فقد ظهر بعد ذلك في بلاد اليونان، حيث أصبح بمنأى عن يدى حاتوسيلي. في الوقت الذي ظل فيه طليقًا ويامكانه العودة إلى غرب الأناضول، ليعاود هجومه على البلاد المثينية حين تواتيه الفرصة. كان الخزى الأكبر لجاتوسيلي فشله في المؤول دون ترحيل الآلاف من رعيته إلى أحياوا الذي دبره بيامارادو. ومثيت حملة حاتوسيلي بأجمعها بفشل ذريم. لم يلق حاتوسيلي قبل ذلك أية هزائم، أو على الأقل لم يلق هزائم كبرى في سيادين القتال، إلا أن فشل تلك الحملة أظهر مدى هشاشة السلطة الحثينية في منطقة غرب الأناضول، ولم يعد بنامارايو وحده من يثير قلقه، فقد كان عليه الآن أن يواجه ما يستجد من ملك أحياوا الذي توقع منه أن تزداد جرأته ومسلافته بعد تلك التطورات، وفشله في ردع المتمردين عليه، وتوقعه أن ينازعه ملك أحياوا على النفوذ في غرب الأناضول، وكان من الواضح أنه هو ومن يدعمهم قد ربحوا الجولة الأولى في تلك المواجهات.

مبادرات حاتوسيلى السلهية

حين تفشل القوة، قد تتجع الدبلوماسية، لجأ حاتوسيلى بعد ذلك إلى لعب دور للفاوض الساعي إلى التصالح، وفي نهاية رسالته انضح هدفه النهائي. والرسالة في مبدأها رسالة شكوى يقوم فيها حاتوسيلى بدور للضار. لقد ألم الباحث دنيس بيج بروح الرسالة وقال إن للك الحثيني

«يتذمر شاكيًا بالمسمارية عبر البحر الداكن»(13) إلا أن الانطباع الكلى عن الرسالة يظهر أنها رسالة مهادنة. كان الملك الحثيني يتلهف إلى التوصل إلى حل دبلوماسي سلمي يفتح به الطريق المسدود بينه وبين أحياوا، وطالب بتعاون نظيره في استعادة الاستقرار إلى المنطقة، وفوق كل ذلك، تكبيل حركة بيامارادو.

وكانت هناك أيضا مشكلة الرعايا الحثينيين الذين رحلوا عنوة إلى احياوا، بالرغم من أن ترحيلهم كان قد أصبح أمرًا واقعيًا منتهيًا، إلا أن حاتوسيلي كان يريد استرجاعهم، أو على الأقل الجل الأعظم منهم، لذلك اقترح حلاً وسطًا يرى أن من انتقل من رعاياه بإرادته إلى أحياوا فيمكنه أن يظل هناك، أما الذين أخذوا عنوة رغم إرادتهم فيجب أن يعادوا إلى وطنهم.

إلا أن القضية الأكبر كانت تدور حول بيامارادو، فقد سرت شائعات أنه كان ينوي العودة إلى غرب الأناضول، وسوف يترتب على عودته استعادته لأنشطته المعادية للحثينيين، وطالب حاتوسيلي ملك أحياوا بإعلان موقفه من ذاك:

«طبقًا للشائمات، فإن بيامارادو إذا عاد سيترك لبيكم زوجته وأطفاله وآل بيته، بلادكم بذلك تقدم له العماية، ولكنه يغير باستعرار على بلادى، وكلما تصديت له للنمه، يعود إلى بلادكم، فهل تحيد يا أخى هذا السلوك؟

وقدم حاتوسيلي إلى أخيه الملك ثلاثة حلول بديلة:

دوالأن يا أخى، اكتب بما يلى على الأقل [إلى بيامارانو]: انهض، توجه إلى بلاد المثينيين، سيدك سيتوصل معك إلى حل، أو تعال إلى بلاد أحياوا، وفي أي مكان منها تختاره سادعك تستقر، (ويجب أن تظل به). أو قم وخذ أسراك وزوجاتك وأطفائك وارحل إلى مكان آخر، فطالما أنت على عداء مع الملك الحثيني، مارس عداوتك من بلد أخرى، من بلدى أن أدعك تمارس عوانك شده».

ويظهر هذا العرض تراجعًا كبيرًا في السياسة الحثينية عما عرف

عنها فيما يخص الرعايا المتمربين والفارين من عقاب الملك باللجوء إلى بلد أخرى، كانت السياسة المعتادة هي المطالبة بطرد المتمرد أو التهديد بشن الحرب على كل من يرفض تسليم المتمردين. أما في هذه الحالة، لم يكن بإمكان حاتوسيلي توجيه إنذار إلى أخيه ملك أحياوا، لذلك قدم الحلول الثلاث التي رأها ملائمة:

- * إقناع بيامارادو بالخضوع مرة أخرى للسيادة الحثينية.
- تخصيص مأوى أمن له في أحياوا مع التأكيد عليه بالبقاء في مقر إقامته وألا يتورط من جديد في أنشطة معادية للحثينيين.
- پاجباره على الرحيل إلى باد أخرى، مصطحبًا أسرته وكل ما يقصه.

كانت هناك قبل ذلك خلافات كبرى بين حاتوسيلى وأحياوا وصلت بهما فى مرحلة ما إلى شفا إعلان الحرب، إلا أن تلك المرحلة أصبحت ماضيًا. ولى كانت سلوكيات حاتوسيلى فى ذلك الماضى عدوانية ومهيئة، فإنه بررها بعدم نضج مرحلة الشباب. صحيح أنه كانت هناك مراسلات حادة لاذعة بينهما، إلا أنه بررها بسوء تفسير وفهم المبعوثين، وأن من تسببوا فى ذلك سيقدمون للمحاكمة، وإن تبين أنهم منتبون، سيعدمون بسبب جريمتهم. كل تلك التبريرات قدمها حاتوسيلى بروح النوايا الحسنة والتعاون المشترك، على الأقل من جانبه هو.

ومضى حاتوسيلى إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد خاطب مثلقى رسالته ليس فقط بصفة الأخ والنظير، بل أيضنًا بصفة «ملك عظيم» وبذلك أدخله في زمرة عظماء الملوك الذين حكموا الشرق الأبنى القديم، أى أدخله إلى زمرة النخبة ونادى العظماء.. لا بد أنها كانت إشارة دباوماسية غير مسبوقة اتصفت بالكرم والإسراف في الوصف، ويغض النظر عن وضع ملك أحياوا في عالم الدول الإغريقية الميسينية - فريما كان ملكًا هامًا من ملوكها، بل ربعا أهم ملوك تلك المنطقة إلا أنه لم يكن يجروء على نسب نفسه إلى عظماء ملوك الشرق الأدنى - حتى لو كانوا يعون وجوده - في

إطار أنشطتهم العبارماسية والعسكرية والتحالفات المتبادلة،

وبإدراك الغيرة الشديدة التى كان يظهرها عظماء الملوك على تلك الصفة، وسرعتهم في نبذ أولئك الذين يسعون لنيلها دون أن تتوفر لهم أسباب العظمة، ولو كانوا قد أدركوا أن حاتوسيلي خاطب بتلك الصفة بلد غربية نائية لكانوا قد استهزأوا وسخروا من ذلك ولم يصدقوه.

الأقرب إلى الاحتمال أن حاتوسيلى برسالته تلك إلى ملك أحياوا، كان يسعى عن طريق إظهار الود الشديد إلى تأمين مناطق بالاده الغربية، بعد أن فشل في تحقيق ذلك بالقوة العسكرية، وكان التجالف مع مستقل يتطلب وجود مساواة دبلوماسية كاملة بين الطرفين. وقد أظهر حاتوسيلى ذلك للملك في الصفات التي خاطبه بها، في سياق توقه الشديد إلى الحصول على تعاونه معه، لقد ظهرت صفات المساواة والراوبط الشخصية التينة بين المفردات الدبلوماسية التي ميزت المعاهدة التي أبرمها حاتوسيلي مع الملك رمسيس الثاني، ومن بين التداعيات الكثيرة التي ترتبت على تلك الماهدة استتباب الأمن والاستقرار في منطقة سوريا وهي منطقة الحدود المشتركة بينهما، وأمل حاتوسيلي أن يحقق استقراراً مماثلاً في غرب الأناضول. ويجب أن ينظر إلى رسالة حاتوسيلي لنظيره ملك أحياوا من تلك الزاوية كخطوة أولى على طريق تحقيق تحالف ودي كامل، مع ضمان قيام تعاون مشترك، لإرساء استقرار ذائم في المنطقة التي تشكل حدوداً فاصلة بينهما.

هوية متلقى رسائل حاتوسيلى

سنعرض بعد ذلك ما ترتب على الرسالة السابقة، ولكن قبل ذلك علينا أن نبعث عن هوية مثلقى رسائل الملك الحثيثي في مملكة أحياوا، وسنبدأ بحثنا بعرض جانبين سلبيين لا يعينانا كثيراً ولا يعول عليهما، أولهما: المحدودية الشديدة المعلومات الواردة بالمسادر الوحيدة المتاحة لنا، من العالم الميسيني في تلك الفترة – وهي الألواح المكتوبة بالخط اللاتيني B ~

فهى لا تذكر أي أسماء لملوك ذلك العصر، والمصدر الوحيد المتاح لذا عن أسماء الملوك هو هوميروس، ويجب ألا نغفل أبداً أن هوميروس كان يكتب شعرًا لا تاريخًا، ثانيهما في حين تعزي كتابة تلك الرسائل بكل يقين إلى حاتوسيلي، إلا أنه لا يمكننا تحديد الوقت الذي كتبت فيه بدقة أثناء عهده، وبافتراض أنه اعتلى العرش الحثيني حوالي عام 1267 ومات حوالي 1237، يمكن القول إن تلك الرسائل قد كتبت في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد على وجه التقريب.

تلك التواريخ المحتملة لكتابة الرسائل يضعها في الفترة التي دمرت فيها مدينة طروادة، والتي ينسب إليها اسم طروادة بريام، أو طروادة حرب طروادة المعروفة – بالطبع – بافتراض أن الملحمة مستمدة من حقائق ووقائم تاريخية(14)، وبُدل قطع السيراميك المستخرجة من ذلك المُوقِع أنها تعرضت للدمار خلال السبعين عامًا الأولى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد(15)، والاحتمال الأقوى في منتصف القرن الثالث عشر، فهل يمكننا التوصل إلى أي نوع من الروابط بين وقائم ملحمة هوميروس وما ورد في رسائل المك الحثيثي هاتوسيلي، وهي الرسائل التي ترهبلنا إلى أنها كتبت إلى حاكم هام من حكام العالم اليسيني؟ هناك احتمال ضئيل في إمكان التوصل إلى ذلك، ذلك الاحتمال الضئيل يتمثل في عبارة عارضة، ذكر فيها حاتوسيلي أنه هو ونظيره ملك أحياوا كانا على شفا حرب شاملة، بسبب المبراع على مكان يدعى ويلوسا، وقال في تلك الفقرة : (والآن بعد أن توصلنا إلى انفاق حول مسألة ويلوسا والتي كننا تشتيك في حرب بسبيها – ٢٠٠٠) كان يعلم مقاطر تجيد الحرب التي يعبل بيامارادو على إثارتها، وحتى يتجنب ذلك، حث حاتوسيلي أخاه لللك أن يقول لبيامارادو: «لقد اتفقت مع ملك الحثيثيين على مشكلة ويلوسا التي أثارت عدارة بيننا وأصبحنا أصدقاء... المرب ان تكون قرارًا صائبًا لكليناء، ويحتمل أن ويلوسا هي الرابط بين التسجيلات التاريخية والمعلومات الهومرية، فاسمها وموقعها يوحيان بذلك، وترتب على اكتشاف نص مزدوج اللغة في ثمانينيات القرن العشرين(16)، وأمكن التعرف على المنطقة / المدينة التي تحمل هذا ألاسم في النصوص الحثينية، وتبين أنها نقع بشكل مؤكد في شمال غرب الأناضول، في منطقة يطلق عليها ترواد في الأزمنة القديمة(17)، والاسم ذاته قد يكون المقابل الحثيني لإليون الإغريقية، وهو الاسم الذي كان يستعمل بالتبادل في الفكر الكلاسيكي مع طروادة (18)، أي أن ويلوسا هي أصل طروادة الهوجرية.

ويبرز اسم ويلوسا في مناسبات عديدة في النصوص المثينية كاسم ولاية أو منطقة تابعة للنفوذ الحثيني. وبدا أنها تعرضت لاضطرابات كثيرة في منتصف القرن التالث عشر، تعرضت لغزو بيامارادو لها، وكانت سببًا رئيسيًا للحرب بين الحثينيين وملوك أحياواء وفي عهد ابن حاتوسيلي الملك تود حاليا أزيع ملك ويلوسا عن عرشه، ريما على أيدى أعداء من الغزاة واضطروه إلى القرار من بلاده، ويبدو من خلال السياق الذي ذكرت فيه منطقة ويلوسنا في الرسالة المعروفة باسم تاواجالاوا تورط احبوي/ ميسيني على الأقل في جوانب من المشكلة، بالرغم من أن العدوان قد وقع بشكل ظاهر من قبل حليف أو عميل لملكة أحياوا مثل بيامارادو، الذي كان يقوم بذلك بالنيابة عن ملك أحياوا أو على الأقل بدعمه، ويفسر ذلك لماذا دفع كاتوسيلي ملك أكياوا أن يخبر بيامارادو أنهما توصيلا إلى اتفاق يحلان به مشكلة ويلوسا، ومن الثابت أن الإغريق الميسينيين كان لهم علاقات تجارية قوية بطروادة، بسبب موقعها الفريد استراتيجيًا المشرف على المياه، التي يطلق عليها قدامي البونانيين المعبر الهيليني، ومن المفهوم أن ملك أهياوا - ميسينيا سعى إلى توسيع ومد مناطق ميمنته إلى منطقة شمال غرب الأناضول التي تضع مدينة طروادة، وتقدم تلك الحقيقة سيباً تاريخيًا معقولاً للصراعات التي نشيت غرب الأناضول. بين الإغريق الدخلاء، أو من قام بذلك بالنيابة عنده، والممالك المحلية

الخاضعة للنفوذ الحثيني،

وتتفق تلك الرؤية مع الأحداث التي تبرزها رسالة تاواجالاوا، وعبر الأجيال التالية حفظت الذاكرة الجمعية للشعوب تلك المدور من الصراع، ويبدو أن الأجيال المتتالية من الشعراء أضفت عليها لمسات عاطفية، وتجمعت في شكل ملحمي انتهي بارتباطه باسم هوميروس ككاتب لتلك الملحمة، النص الملحمي يجعل من اجاممنون ملكًا ميسينيًا وقائدًا للجيوش الإغريقية المهاجمة لطروادة.

فهل شخصية اجامعتون مجرد شخصية ابتدعها خيال الشعراء الخصب؟ ولو كان في الحقيقة تطور عن شخصية تاريخية حقيقية، لملك ميسيني ينتمي إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فإن متلقى رسائل حاتوسيلي يعد النموذج الأولى الأصلى الذي تطورت عنه شخصية أجامعنون الهومرية.

الاتسالات بين الحثينيين والعالم الميسينس

هناك سنؤال أخر لابد أن نضعه في اعتبارنا، وهو ما هي آليات التواصل الكتابي التي كانت تكتب بها الرسائل بين العثينيين وملوك أهياوا؟

لقد وجدت الرسالة التي قدمناها في موقع حفظ الرسائل مكتوبة باللغة المثينية، وهذا ما يمكن أن نتوقعه، لو كانت تلك الرسالة نسخة محفوظة للعودة إليها إذا استلزم الأمر بعد إرسال النسخة الأصلية، كانت النسخ الحثينية تنقل عن النسخ الأصلية التي كانت تكتب عادة باللغة الأكادية إذا كانت مرسلة لملوك الشرق الأدنى، ولكن ما هي اللغة التي استخدمت للكتابة إلى الملوك المسينيين الإغريق؛ لقد دخلت الكتابة إلى العالم المسيني على الأقل في القرن الرابع عشر قم، ولكن بقدر ما هو معروف كانت الحروف المستخدمة في الكتابة والتي يطلق عليها النمط الخطي B، والمستخدم من قبل الكتبة المسينيين مقصور على كتابة أسماء البضائع والمستخدم من قبل الكتبة المسينيين مقصور على كتابة أسماء البضائع

أو أعمال جرد البضائع، ولا يوجد أى دليل أنها كانت تستخدم فيما هو أكثر من ذلك، ومن الصعب أن نتخيل أن استخدام اللغة الأكادية كلغة أجنبية قد وصل إلى بلاد بعيدة جدًا عن الشرق الأدنى ولا تربطها به إلا علاقات وروابط واهية.

الأقرب للاحتمال أن أصل رسالة تاولجالاوا وكذلك النسخية التي حفظت عنها للاحتفاظ بها في حاتوسا قد كتبا بالحثيثية، فين كان إذن بقرأ الرسالة على متلقيها؟ لا يحتمل أبدًا أنه كان هناك كتبة ميسينيون يجبدون اللغة المسمارية المقدة، ويجيدون في الوقت ذاته لغة أخرى أو أكثر التي تكتب بها نصوص المراسلات، وتدل على ذلك قلة - إن لم تكن ندرة - المراسلات بين البلاطين الميسيني والعثيني، والغياب المطلق لأي مراسلات بين المسينيين وأية دولة من بول الشرق الأدني، لا يوجد شك أن ملوك مسيبنيا كانوا يحتفظون في خدمتهم بأشخاص بمكنهم قراءة الرسائل التي ترد من الفارج، وكذلك كتابة الردود على تلك الرسائل كما تملى عليهم وترجمتها إلى اللغة المطلوبة، ومن رسالة تاواجالاوا نعلم أن ملك أحياوا قد أرسل تعليمات مدونة إلى ملكه التابع له والمتحدث بالليوية، الملك أتبا الذي يحكم مباثواتا وأمره بتسليم بيامارانو إلى العثينيين، وكما عرفنا مما سبق، حث الملك الحثيني أذاه الملك المسيني على أن يكتب إلى بيامارانو باختيارات ثلاث، بختار واحدًا منها، والأقرب إلى الاحتمال أن أية مراسلات مبادرة عن ملك ميسيني كانت تكتب إما بالحثينية أو بالليوية، وهي لغة وثيقة الصلة بالمثينية، وكانت اللغة الأوسم انتشارًا في غرب الأناضول، وكانت المسلات الوثيقة التي تربط ملوك أهباوا بشعوب غرب الأناضول قد استلزمت وجود يعض أبناء تلك اللغة لدى ملوك أحياوا ، أيعملوا كمترجمين ومقسرين، بما فيهم بعضهم الذين تم تدريبهم ككتبة، ولا يوجد شك أنه كان هناك ميسينيون إغريق الذين اتقنوا اللغة الليوية، ويحتمل أيضًا الحثيثية، إلا أن عب، صياغة الرسائل كان يقم على عاتق كتبة مستقدمين من الأناضول، الذين يتقنون الليوية والحثينية تحدثًا وكتابة، ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كل مراسلات الملوك الحثينيين إلى الملوك الخاصعين لهم بغرب الأناضول كانت تكتب بالحثينية، كما كانت هي اللغة التي كتبوا بها إلى ملوك أحياوا.

ولا يوجد لدينا أى دليل إن كان حاتوسيلى قد تلقى أى رد على رسالته التى صبيغت بعناية فائقة إلى ملك أحياوا، وبالرغم من أننا لم نسمع بعد ذلك عن بيامارادو، إلا أن المحتمل جداً أنه داوم على شن الغارات على المناطق الخاضعة للملك الحثيني، كلما كان قادراً على ذلك.

وورث ابن حاتوسيلي وخليفته تودحاليا الرابع عن أبيه كثيراً من الشاكل للزمنة التي لم تحل في غرب الأناضول.

نَهَايَةُ التَّدِخُلُ الأَحْيُوسُ / المِيسِيْسُ فَي غَرِبِ الْأَنَاضُولُ

ظلت منطقة ومدينة ويلوسا تبرز في مراسلات تودهاليا الرابع، ابن هاتوسيلي، وكانت هذه المرة في رسالة مرسلة من تودهاليا إلى أحد الملك الفاضعين له بغرب الأناضول، ولاحتواء الرسالة على تحديد لحدود ميلاواتا وأرضها أطلق عليها اسم رسالة ميلاواتا، ولسوء الحظ عثر على تلك الرسالة في حالة سيئة جدًا، وبذلك قلت المعلومات التي يمكن استخراجها منها، إلا أن اكتشاف جزء أخر من الرسالة في بداية ثمانينيات القرن العشرين مكننا من إعادة تركيب بعض أجزائها (19)، والمعلومات الدقيقة ما تزال غير واضحة، ولكن يتضع منها أن الحثينيين كانوا في تلك الفترة قد استعادوا سيطرتهم على ميلاواتا، بدعم من الذي كانت الرسالة موجهة إليه، وأن كل منطقتها قد وضعت تحت سيطرة ملكها المحلي بتكليف من توبحاليا.

واسم ملك ميلاواتا مفقود، إلا أننا يمكننا أن نخمن هويت، اقترح الباهثون احتمالات شتى، أما أحدث الاحتمالات وأكثرها قبولاً أن ذلك للله يدعى تاركباسناوا، الذي يبرز في نقش منحوت يصبحب نص بالهيروغليفية في ممر جبلي اسمه كارابيل على مبعدة 28 كيلو متراً من

مدينة أزمير(20)، كان تاركاستاوا حاكمًا على مملكة ميرا التى كانت فى ذلك الوقت أكبر وأقوى الممالك الخاضعة للحكم الحثينى بغرب الأناضول، ويبدو من رسالة ميلاواتا أن توبحاليا كان قد عين متلقى الرسالة كملك بصلاحيات كبرى على كل غرب الأناضول، وكان تاركاسناوا أفضل من يسند إليه مثل ذلك المنصب ويمثل تلك الصلاحيات، ومن الأجزاء المجمعة للرسالة نعلم أن والمو ملك ويلوسا كان قد نحى عن عرشه وهرب من مملكته، إلا أنه كان فى ذلك الوقت فى حماية متلقى رسالة ميلاواتا، التى طلب توبحاليا فيها إرسال والمو إلى العاصمة حاتوسا، كخطوة تمهيدية لإرجاعه لاستعادة عرشه المفقود، كانت الرسالة قد أرسلت بصحبة المبعوث كيوالانازاتي، الذى اصطحب معه وثائق تثبت أحقية والمو بعرش ويلوسا.

لو كان تاركانساوا هو فعالاً متلقى رسالة ميلاواتا، فإن السلطات الواسعة التى أسندت إليه، بالإضافة إلى سلطاته كملك على ميرا كانت تخول له الاستحواذ على سلطات عظمى في غرب الأناضول، تعتد على مساحة من ميلاواتا حتى مملكة ويلوسا في أقصى الحدود الشمالية الغربية.

وهي سلطات غير مسبوقة لأى ملك خاضع، وكانت تعاثل سلطة نائب الملك، ويبدو أن تودهاليا كان قد غير السياسات السابقة تغييراً جذريا فيما يخص غرب الأناضول، وكان إسناده سلطات أوسع وأشمل إلى حاكم محلى، بغرض إحراز استقرار دائم في المنطقة، مع الاحتفاظ بها تحت الهيمنة الحثينية، بأقل تدخل من جانبه.

وتمتوى رسالة تودهاليا على أخر إشارة إلى ملك أهياوا أو مملكة أحياوا، ففي الوقت الذي كتبت فيه تلك الرسالة، كانت ميلاواتا تذكر على أنها خاضعة لأحياوا، أما في رسالة ميلاواتا ذاتها فإن الحال لم يعد كذلك، فالرسالة تتكلم عن قلاقل واضطرابات في المنطقة، وتأسيس سلطة جديدة بها مدعومة من قبل الحثينيين، ويبدو أن الاضطرابات كانت قد

بدأت بعد محاولة حاتوسيلى التوصل إلى حاول ودية مع ملك أحياوا حول السيادة على غرب الأناضول، وأدى ذلك إلى إصرار ابنه وخليفته تودحاليا إلى بذل جهود ناجحة، لتخليص المنطقة بحسم وللأبد من التدخل الإغريقي، ويبدو أن الجانب الأكبر من النجاح في تحقيق ذلك يعود إلى ذلك الرجل الذي كوفئ بمنحه سيادة أكبر على تلك المنطقة، وافترضنا أنه ملك مملكة ميراتاركاسناوا، الرجل الذي مازالت صورته محفورة على الممر المبلى في منطقة كارابيل.

وهناك هامش مثير لابد من إضافته، ففي نسخة مسودة معاهدة. تودحاليا التي عقدها مع شوشجاميوا، أحد الملوك الخاضعين في منطقة سوريا، هناك قائمة بأسماء الملوك الذين اعتبرهم تودحاليا على درجة مساوية لعظمته، وهم ملك مصر، وبابل، وأشور (21).

وكان اسم ملك أحياوا مذكوراً في المسودة، إلا أنه مشطوب عليه، فكيف نفسر ذلك؟ حقيقة أن اسمه قد كتب في القائمة يدل على أنه حتى كتابتها كان ملك أحياوا، يعتبر أحد عظماء الملوك في عالم العصر البرونزي المتأخر، على الأقل من قبل الحثينيين، وكانت تلك الصفة قد أصبغت عليه، ربما من قبيل العمل الديلوماسي، ولتأثيره البالغ على أمن منطقة غرب الأناضول، انطلاقًا من قاعدته القوية في مدينة ميلاواتا، ولكن بمجرد أن فقد تلك القاعدة لم يعد قوة يمكن الاعتداد بها، ولذلك تم شطب السمه، وبذلك أعلن عن خروجه المسامت من كل سجلات منطقة الشرق المدنى في المصر البرونزي المتأخر.

13

أورحي – تيشوب المراوغ

مات الملك الحثيني ميواتاللي الثاني، ولم يكن له وريث ذكر من زوجته الرسمية، ورسبب ذلك انتقل حق وراثة العرش إلى ابنه من زوجة ثانوية اسمها بابورزي بالحثينية، وبالرغم من أن الوريث لم يكن إلا ابناً من زوجة ثانوية، إلا أنه كان ملائمًا تمامًا لتبوأ العرش، طبقًا للقواعد التي تمكم ارتقاء العرش الحثيني، وقد صادفنا شخصيته في أجزاء سابقة من هذا الكتاب وكان اسمه أورجي – تيشوب، وبعد تبوئه سدة الملك، أسمى نفسه اسمًا ملكيًا هو مورسيلي، وهو من أعظم الأسماء في السلالة الحاكمة، وكان أخر من تسمّى به جده لأبيه الملك مورسيلي الثاني، كان ميواتاللي قد أعلن بوضوح قبل موته أن ابنه أورجي – تيشوب هو من يخلفه على عرش البلاد، في البداية، حظى الملك الشباب بمساندة عمه يخلفه على عرش البلاد، في البداية، حظى الملك الشباب بمساندة عمه عاتوسيلي، وكان في ذلك الوقت أقوى شخصية في الإمبراطورية الحثينية، وكان حاتوسيلي بعلم في قرارة نفسه أنه صاحب الفضل في اعتلاء ابن أخيه العرش(1).

الخلع والنغس

في البداية عمل ابن الأخ والعم في تناسق وتناغم، إلا أن قلق أورحى

- تيشوب بدأ يتزايد من السلطات والمسلاحيات الواسعة التي كان أبوه
قد أسندها إلى عمه، ريما رأى في ذلك تهديداً خطيراً لسلطته كملك.
وليس من المستبعد أيضًا أن يكون حاتوسيلي قد سعى لاستغلال صغر
سن ابن أخيه وعدم خبرته لزيادة سيطرته ونفوذه على الملكة.

وراح التوتر يزداد ويتصاعد بينهما، وعمد أورحى - تيشوب إلى إضعاف نفوذ عمه بإقصائه عن بعض المناصب، وظل حاتوسيلي وفيًا لابن

أخبه، أن تظاهر بذلك، احتراماً الأخبه الميت والتزاماً منه بالسلوك القويم. كان على أي حال مازال مسيطراً على النصف الشمالي للمملكة، والذي كان يحكمه حكماً فعليًا كملك عليه من معينة هاكبيس، كما كانت مدينة شربك، وهي من أقدس المدن الدينية لدى الحثينيين أيضاً تحت سيطرته.

وظل الحال على ذلك إلى أن حاول أورجى - تيسبوب أن ينزع منه المدينتين، فانفجر المسراع بينهما بشكل علني، أعلن حاتوسيلي الحرب على ابن أخيه، وقال إن الآلهة بيدها تحديد نتائج المسراع، وفي صبراع دموى لم يدم طويلاً ظلت فيه رعية أورجي - تيشبوب داخل البلاد وفي المناطق الخاضعة وفيّة للملك الشرعي، إلا أنه فقد تأبيد الممل الأكبر من النبلاء، وأدى ذلك بالإضافة إلى فشله في كسب تأبيد بعض المناطق العيوية إلى خسارته لعرشه ووجد نفسه محاصراً في أخر بقعة له الحيوية إلى خسارته لعرشه ووجد نفسه محاصراً في أخر بقعة له المهنزير في الزريبة»، في مدينة ساموحا المقدسة، عند المجرى الأعلى الهر مارسانتيا.

ومن هناك نقل مكبلاً بالأصنفاد إلى العاصمة حاتوسيا. تبوأ حاتوسيلي العرش المثيني، ويذلك انتقل الخط الوراثي إلى أسرته، في حين يحرم أبناء أورحى – تيشوب من حقهم الشرعي في وراثة العرش.

لم يكن لدى المطالبين والساعين إلى العرش أى غضاضة فى إقصاء شاغل العرش ولو باغتياله، إلا أنهم كانوا فى موقف أكثر حساسية تجاه أورحى – تيشوب بصفته الملك الشرعى من جهة، ولكونه أبن أخى الملك الجديد من جهة ثانية، وكان البديل العملى الوحيد نفيه وتقييد حرية انتقاله فى مكان بعيد عن العاصمة وعن مؤيديه؛ لتثبيط عزيمته عن مصاولة استرداد عرشه، واختار حاتوسيلى أن ينفيه إلى منطقة نوحاس فى سوريا، وعينه حاكمًا على بضع مدن فى تلك المنطقة، ورجح أنه بإسناد تلك الوظائف الإدارية إليه، سيجعل تحركاته واضحة، ويشتت تركيزه عن محاولة التفكير فى استعادة عرشه، كان اتعيينه حاكمًا على بضعة، مدن فى توحاس بسوريا فائدة أخرى إذ أن ذلك يجعله خاضعًا لملكين آخرين

بسوريا، خاصَعين للنفوذ الحثيني، وأوصاهما الملك بألا يغفلا عنه لحظة ولحدة، وبعراقبة أي أنشطة يقوم بها.

ومهما كانت وجهة نظر حاتوسيلي في اختيار تلك المنطقة لينفي ابن أخيه إليها، تبين أن ذلك الاختيار كان اختيارًا كارثيًّا. لم يكن لدى أورحى – تيشور، أقل نبة للإستسلام المبيرة، وكان يتحين أقل فرمية بنال فيها دعمًا لقضيته في استعادة حقه الشرعي في العرش، وأجرى مفاوضات سرية مع مفوضين بابليين عن ملكهم كالاشمان – تورجي، وأعدوا الترتيبات لزيارة يقوم بها أورحى - تيشوب إلى بابل(2)، وكتب إلى شالما نمس الأول الذي أمسح ملكًا على أشور بعد استبلاء هاتوسيلي على العرش المثيني بفترة قصبيرة(3)، ولم تتوفر لدينا أية معلومات عن الموضوعات التي فاوض حولها البابليين، ولا محتوى رسالته إلى شالمانمس، ولكنه بشكل يقيني كان بيحث عن دعم من كلا الملكين، كجزء من سعيه إلى نيل معونة خارجية في مساعيه لاستعادة عرشه(4). ويدل دخول البابليين في تلك المفاوضيات على أن ملك بابل لم يكن قد قرر حتى تلك اللحظة إن كان يعترف بماتوسيلي ملكًا على المثينيين أم لا، وكان أورحى - تيشوب برى أنه بإمكانه الاعتماد مبدئيًا على دعم الأشوريين وتأبيدهم، خاصة بعد رسالة شالما نصر الأشوري، المويخة لعاتوسيلي، والتي قال له فيها إنه ليس حتى تلك اللحظة من عظماء الملوك، وإنه مجرد بديل الك عظيم.

ولعسن عظ عاتوسيلى، نمى إلى علمه أن ابن أغيه يجرى معادثات سرية مع البابليين، ويعتمل أيضًا نبأ مراسلاته مع الملك الأشورى، وسرعان ما اتخذ قرارًا بنفيه إلى منطقة «على ساحل البحر» أو «ورا» البحر»، وكلا الترجعتين يعلمان النص الحثيني «تا – بو – سا»، فلو كانت الأولى هي الأصح، فلابد أنه نقله إلى منطقة على ساحل الأناضول خاضعة للحكم الحثيني، وأو كانت الثانية هي الأصح، فلا بد أنها كانت ألاسيا بقبرص، بالرغم من أنه من المؤكد أن الحثينيين لم يكن لهم أي

نفوذ على جزيرة قبرص في ذلك الوقت.

الفرار إلى مصر

ومهما كان الموضع الجديد الذي نفى إليه أورحى – تيشوب، لم يبق به طويلاً، فقد تمكن من الفرار فى أول فرصة سنحت له، وظهر فى مصر. أصبح الآن بعيداً عن متناول عمه، أو هذا ما أعتقده، وكتب حاتوسيلى إلى رمسيس يطلب منه إبعاده عن مصر وطرده منها، ولم يستجب رمسيس، فكتب حاتوسيلى إلى كاداشمان – تورجو ملك بابل بشتكى إليه عدم تعاون رمسيس، وأظهر كاداشمان – تورجو تعاطفاً مع حاتوسيلى، كن فى ذلك الوقت قد قرر أن يعترف بمغتصب العرش الحثيني، ووعده على الأقل بقطع علاقته الدبلوماسية مع الفرعون علامة على تضامنه، وهى معلومات مؤكدة توصلنا إليها من نص الرسالة الشهيرة، التي أرسلها ماتوسيلى بعد ذلك بأعوام طويلة إلى ابن كاداشمان – تورجو وخليفته كاداشمان – تورجو وخليفته كاداشمان – تورجو وخليفته

«عدوى الذى قر إلى بلدة آخرى لجاً إلى ملك مصر، ولما كتبت إلى ملك مصر: «ابعث بعدوى إلى»، لم يقعل ذلك، لذلك أصبحت أنا وملك مصر على عداء لبعضنا، وكتبت إلى أبيك: «ملك مصر يعاون عدوى»، لذلك منع أبوك مبعوثيه من التوجه إلى مصره(5).

وبالرغم من أن اسم «العدو» الذي لجا إلى مصد غير مذكور في تلك الرسالة، إلا أنه لا يوجد شك أنه كان أورحى - تيشوب.

إلى أى مدى ذهب حاتوسيلى في محاولاته استعادة ابن أخيه الهارب؟ إن كلمات رسالته التى قال فيها وأصبحت أنا وملك مصر على عداء لبعضناه، أدت ببابل إلى إدراك أن الموقف بين الحثينيين ومصر وصل إلى مرحلة حرجة تصل إلى حالة الحرب، وكتب كاداشمان تورجر في حينها إلى حاتوسيلى قائلاً له: وإذا توجهت جيوشك إلى مصر سوف أتوجه معك. إذا هاجمت مصر، سبيعث إليك بكل ما هو متاح عندى من مشاة

وراكبى عجائت (6)، لقد تكرر ذلك المشهد أكثر من مرة في ماضى نلك المنطقة في حالة رفض أي ملك أجنبي إعادة فارين من الحثينيين، إذ كان يؤدى دوماً إلى إعلان الحرب، إلا أنه يبدو أن كاداشمان - تورجو في تلك المرة كان يبالغ في رد فعله، فقد كان حاتوسيلي ملتزماً تمام الالتزام بما كتبه (7)، فبعد موقعة قادش، كانت احتمالات نشوب حرب عظمى بين الحثينيين ومصر احتمالات منعدمة (بالرغم من أن رمسيس بنفسه كان قد اتهم حاتوسيلي بالقيام ببعض التحرشات العسكرية أرجع إلى الفصل الرابع)، إلا أن حاتوسيلي وجد من الملائم له أن يذكّر كاداشمان - إنليل بدعم أبيه، وأن ذلك الدعم لابد أن يستمر من الابن الذي جلس على عرش بابل بعد وفاة أبيه.

على كل الأحوال لا يوجد أي شك في أن أورحي - تيشوب كان قد فر إلى منصير وأنه قنضني زمنًا بهنا، والسيؤال الذي يطرح تقسيه في هذا، الموضع من متى وقم هذا الفرار - قبل أو بعد المعاهدة الشبهيرة التي عقدها عمه مم رمسيس؟ اختلف الباحثون في تحديد ذلك، فلا يوجد دليل قطعي على تحديد وقوم الفرار إلى مصبر قبل المعاهدة أم بعدها، إلا أن الأقرب إلى الاهتمال أن أورهي - تيشوب لجأ إلى مصبر في فترة توتر. العلاقات بين الجثيئيين ومصر التي سبقت التوصل إلى معاهدة السلام، أي قبل عام 1259، خاصة أن الماهدة كانت تحتري على بنود تنص على تسليم وإعادة الفارين من كل طرف إلى الطرف الأخبر، لو كانت واقعة الفرار إلى مصر قد حدثت بعد ترقيم المعاهدة، لكان أورحى – تيشوب لم بجازف بالفرار إلى مصدر، مع علمه بأن هناك بنودًا تنص على إعادة اللاجشين السيباسيين إلى الطرف الذي فرَّ منه، أما وصول أورحي -تيشوب قبل توقيع الماهدة، فإنه كان يتيح ارمسيس فرصة التعلل بأن بنودها لا تنطبق على ما هو سابق عليها، وبافتراض أن الفرعون كانت لديه إرادة حقيقية في للحافظة على سيلام حقيقي ودائم مع الملك الحثيني، فمن الصعب جدًا الاعتقاد أنه كان يقبل بلجوء أورحى - تيشوب إلى

مصر بعد توقيع المعاهدة.

ويعيدًا عن الزمن الذي ومنل فيه أورجي - تيشوب إلى مصر، كان مجرد وجوده بها يسبب انزعاجًا شديدًا لعمه. لم يكن حاتوسيلي بشعر بأي أمان على عرشه في الوقت الذي يظل فيه من أزيح عن العرش حرًا. طليقًا بعيداً عن بده، ويثير ذلك بدوره سؤالاً عن للدة التي بقي فيها أورجي – تنشوب بمصر في ضِنافة فرعون مصر، الشيء المؤكد أنه بعد أنْ قضى زمنًا بمصر توجه بعد ذلك إلى مكان غير معروف، ولا يوجد شك أن الفرعون احتفظ به الزمن الكافي ليستخلص منه كل المعلومات التي أراد استفلاميها منه عن بلاده التي نفي منها، وعن الرجل الذي اغتمب عرشه وعن العائلة الملكية الحثيثية، لم يكن من المكن أن تتاح فرصية المصبول على مصدر استخباراتي أفضل من أورجي – تيشوب عن كل الشئون الحثينية، زود أورهي – تيشوب فرعون مصر بمعلومات غزيرة عن مملكة أخيه الملك المثيني، معاومات تم تخزينها للرجوع إليها عند الضرورة، ومن المعتمل جدًا أن أورحي - تيشوب هو الذي أعلم الفرعون بسن عمته – أخت حاتوسيلي – ماسانورزي، كما أبلغ مضيفه الممري بمعلومات مفصلة عن زوجة حاتوسيلي القوبة بودوحييا وقوة نفوذها في مملكة أخيه، ومن أهمية تلك المعلومات كان الفرعون يتراسل مع الملك وزوجته، لا مم الملك المثيني وحده.

رحيل أورحى – تيشوب عن مصر

جاء وقت انعدمت فيه أية فائدة من وجود أورحى - تيشوب بعصر، ووجد رمسيس أن مشاكل بقائه بعصر أكثر من الفوائد، كذلك، بدأ أورحى - تيشوب يوقن أن احتمالات دعم الفرعون له لاستعادة عرشه أصبحت معدومة لذلك قرر أن يغادر مصر في أقرب فرصة، بمعرفة ورضاء مضيفه أو بدونهما، فإلى أين توجه؟ هناك لغز يحيط بالأماكن التي توجه إليها بعد مغادرته أرض مصر، وتظهر الخطابات المتبادلة بين

البلاطين الملكيين حول أورحى – تيشوب مجرى الأحداث في ذلك الوقت، كان حاتوسيلي يطالب قبل ذلك بطرد أورحى – تيشوب من مصر، وكان رمسيس يرفض، بعد ذلك، بدا من الواضح أن أورحى – تيشوب لم يعد بمصر، وأصبح حاتوسيلي يطالب الفرعون بالبحث عنه وإرجاعه.

«يتوجب على الملك العظيم، ملك مصر، تكليف مشاتة وراكبى عجلاته ببذل كل جهد، وألا تضن بذهبك وقضنك ولا خيلك ولا نحاسك ولا أرسيك حتى تعيد أورجى – تيشوب إلى مصر، أن تسمح له أن يصير قويًا ليشن الحرب على بلاد العثينيين،(8).

كان يحث ملك مصر ألا يضن بجهد أو مال في العثور على أورهى -تيشوب والتحفظ عليه، ورشوة مؤيديه إن لزم الأمر(9)، كان حاتوسيلي
يوجه نداءً رسميًا الفرعون طالبًا منه تعاونه، وعلى ضوء التزاماته ببنود
المعاهدة، كان من المنتظر من رمسيس أن يتخذ موقفًا مضادًا لأورهى تيشوب، إذا أظهر تهديدًا عسكريًا على مملكة شريك المعاهدة، خاصة إذا
أظهر أورهى - تيشوب ذلك التهديد من مناطق خاضعة للنفوذ المصري.
لم يعد حاتوسيلي مصرًا على إعادته إليه، فقد أثبت أنه كان أشد خطرًا
أثناء تواجده في البلاد الحثينية أكثر مما كان عليه بعد هربه منها. ولم
يكن وادى النيل يعد مكانًا غير ملائم لبقائه هناك، وبعد أن اعترف
يكن وادى النيل يعد مكانًا غير ملائم لبقائه هناك، وبعد أن اعترف
رمسيس بشرعية حاتوسيلي كملك عظيم وارتباطهما بمعاهدة سلام، أدرك
العم أن هناك أماكن أخرى قد تكون أسوأ وأخطر من مصر في حال

كان أهم هدف اديه أن يلقى القيض على ابن أخيه قبل أى شيء آخر، ولم يكن ذلك هدفًا سهل التحقيق، وكتبت بودوحييا إلى رمسيس تذكره بما طلبه زوجها وتحرضه هى الأخرى ألا يدخر جهدًا ولا مالاً فى القبض على الهارب، وكان طلبها ذاك يتطلق من فرضية أن أورحى – تيشوب كان مازال فى أرض مصرية أو فى مناطق خاضعة للتقوذ المصرى، وربما فى جنوب سوريا، وإن كانت هى وزوجها يؤمنان بذلك فعلاً، فإن رد رمسيس

عليهما كان له وقع الصاعقة. قال لهما في رده أنه كان يتعنى أن يكون بقدرته تحقيق مطلبهما، إلا أن كل جهوده السوء الحظ لم تسفر عن شيء، والسبب أن أورحى – تيشوب لم يعد موجوداً بأرض مصدر ولا بالبلاد الخاضعة لنقوذه، وأنه عاد إلى بلاد حاتوسيلي، والأدهى من ذلك، كما قال لهما رمسيس، أنه كان قد قبض عليه على يد ابن الملك حاتوسيلي، إلا أنه تمكن من الفرار بعد أن رشا الحراس.

كان هذا ما ادعاه رمسيس في رسائل مزدوجة كتبها لحاتوسيلي وبودوحيبا (10)، ولسوء الحظ أصبح النصان في حالة سيئة عند نقاط هامة من حكاية الفرعون، إلا أنه يمكن إعادة تركيب تلك الأحداث المفقودة أو التالفة من النص في الشكل التالي: يبدو أن حاتوسيلي كان قد أمر ابنه الأمير نيريكايلي بالتعاون مع الفرعون في اقتفاء أثر أورحي تيشوب، وكان نيريكايلي متزوجاً من ابنة ملك عمورو، وكان ممثلاً لأبيه في سوريا. وضلل أورحي – تيشوب الباحثين عنه، وتوجه إلى مناطق خاضعة للحثينيين، وهناك سقط في أيدي ابن عمه نيريكايلي، ولكن لحسن حظ الأسير ، مات نيريكايلي هتي قبل أن يتمكن من إبلاغ والده بإلقائه القبض على أورحي – تيشوب، وتمكن أورحي – تيشوب من رشوة المراس فأطلقوا سراحه، ومرة أخرى أصبح الهارب مطلق السراح (11).

واحتج رمسيس قائلاً: «إنه سبق له إبلاغ البلاط العثيني بكل تلك التطورات، وأنه لم يدخر جهداً ولا مالاً في سعيه للقبض على أورحي تيشوب، استجابة لمطلب أخيه الملك الحثيني، ولكن الهارب خرج من البلاد ألتي يسيطر عليها الفرعون، ولذلك لم يتمكن رمسيس من إعادته إلى مصر»(12)، وأنه سبق أن شرح ذلك مرات كثيرة لأخيه الملك، وأن مصر مازالت مكاناً متاحاً لنفي أورحى – تيشوب، إلا أن ذلك يتوقف على قدرة حاتوسيلي في العثور على الهارب، وترتيب أمر نقله إلى مصر.

وذهب رمسيس إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد راح يقترح على حاتوسيلي الأماكن المتوقع أن يعثر على أورحى - تيشوب بها والخاضعة للنفوذ الحثيني، ربما كان في شمال سوريا، في حلب أوقادش، وربما كان في جنوب الأناضول، في منطقة كيزولينا.

ورفض حاتوسيلى كل تلك الافتراضات ورد فى تأكيد غاضب دمن غير المعقول أن يذهب إلى قادش، ولا أن يذهب إلى حلي، ولا إلى كيزوادنا»، وأكمل حاتوسيلى معلنًا أن الهارب لو كان قد تواجد فى أى من تلك المناطق لكان رعية الملك المخلصون قد سلموه إليه، وكانت إجابة الفرعون «لا تثق برعيتك» (13).

وبعد أن قام بكل ما في وسعه (أو أن هذا ما أظهره)، أحس رمسيس بالأسى لعدم تصديق أخيه الملك له، وتقمص دور الجريح البريء.

وكتب مرة أخرى إلى حاتوسيلى فى احتجاج؛ لأنه لا يعرف المكان الذى فر إليه أورحى -- تيشوب: «انظر، أنا لا أفهم ما تكتبه حول هذا الموضوع الخاص بأورحى -- تيشوب، وذلك الكلام الكثير الذى تكتبه لا يستحق مجرد الاستماع إليه، أنت تداوم على القول: «احضره إلى مصره، ولكنى لا أعرف فعلاً أين هو، لقد طار كما يطير المصفور (14).

لم يكن ما أثار غضب حاترسيلى يرجع إلى عدم معرفة رمسيس بمكان أورحى – تيشوب، بقدر ما أثار غيظه أن رمسيس أخبره بوجود أورحى – تيشوب داخل بلاده هو وأنه لا يعرف بذلك، أي أن من يبحث عنه أصبح في عقر داره وهو لا يدرى، وأن ذلك يعنى أن رعاياه كانوا يعاونون خصمه ويتسترون عليه، ويرفضون تسليمه للمك.

وكونه يعرف ذلك من ملك أجنبي، حتى لو كان أخًا ملكيًا يكن له الحب والود، فقد كان ذلك مدعاة لضيقه وحرجه، وكان رمسيس أيضًا يدرك ذلك، وكان تظاهره بالبراءة يخفي دهاءً ومكرًا.

لغز أماكن اختفاء أورجس تيشوب

مازال التاريخ المؤكد ابعض جوانب تلك الأحداث ينقصه الدليل الموثق، فلا نعرف بدقة متى فر أورحى تيشوب إلى مصر ولا متى رحل عنها. ادعت بودوحيبا زوجة حاتوسيلى في مسودة رسالتها الشهيرة إلى رمسيس أنه كان مازال ضيفًا على فرعون مصر، خلال كل الفترة التى جرت فيها مفاوضات زواج الفرعون بإحدى بنات حاتوسيلى ويودوحيبا، وحيث إن ذلك الزواج تم حين كان رمسيس في الرابعة والثلاثين من عمره (حوالي 1246)، فإن أورحى – تيشوب – طبقًا لهذا التاريخ – كان في مصر بعد إزاحته عن عرشه بعشرين عامًا، أو نحو ذلك هذا إذا صدق اتهام بودوحيبا، ولكن كما لاحظنا في الفصل السادس، يمكننا .عتبار أن ما كتبته لم يكن إلا من قبيل رد الفعل على ادعاء رمسيس المستمر أن أورحي – تيشوب لم يعد له وجود بمصر، وكانت أيضاً غاضبة من شكاوى الأخ الملكي (رمسيس) من طول زمن إعداد العروس للسفر إلى مصر.

لقد بررت تأخر العروس، وقالت للعريس المتعجل أن يتأكد من صدق الأسباب التي تذكرها من أورحي – تيشوب، الذي مازال يعيش عنده، وبالتأكيد كانت تسخر، وأو أخننا بعين الاعتبار السياق الذي ذكرت فيه تلك العبارة، لابد أن نكون على أشد العنر من استخدامها كمعلومة تاريخية مؤكدة. وبالفعل، هناك من الأسباب ما يجعلنا نؤكد أن رمسيس كان يذكر الحقيقة، وهي أن أورحي – تيشوب لم يعد موجودًا بمصر(15). فأين كان إذن؟ قليل من البحث والتحري قد يغضي بنا إلى إجابة ذلك

السؤال، فقد كشف في منطقة قونيا بجنوب تركيا عن مجموعة من النقوش النصية الهيروغليفية، في مقبرة على قمة جبل كاراداج، وفي موقع اسمه كيزيلداج عثر على بقايا مدينة قديمة (16)، والنصوص الهيروغليفية التي كتبت في الفترة التالية مباشرة لانهيار الإمبراطورية الحثينية، كتبها رجل يدعى حرتابو، والذي يصحب اسمه في النقش علاقة «ملك عظيم»، ذكر لنا حرتابو في ذلك النص اسم أبيه وكان مورسيلي الذي أردف اسمه هو الآخر بعلامة ملك عظيم، وظهر الأب والابن مرة أخرى في نصوص أخرى الكتشفت على تل اسمه بورونكايا (ويقع على بعد 18 كيلو متراً إلى

الشمال الشرقى من مدينة أكسراى الحالية)، وظهرا في هذه النصوص أيضًا بصغة ملوك عظماء (17)، واسم مورسيلي معروف لنا بالطبع، فهل للظهور، في تلك النقوش أي دلالة لانتماء عائلي بين حرابو والعائلة المالكة في حاتوسا؟ من المكن جداً بالطبع، لقد افترض أن حرابو وأباه كانا ينحدران من نسل كورونتا، وكان كورونتا شقيقًا لأورحي - تيشوب، والحاكم السابق لتارحونتاسا، وهي مملكة تأسست في جنوب الأناضول على أيدى الملك ميواتاللي في بدايات القرن الثالث عشر (18)، وبذلك يكون أبا حرثابو قد ورث عن العائلة المالكة السابقة أحد أهم أسمائها.

ملک فی الهنفی؟

وهناك اهتمال أشر، فكما لاحظنا، فقد نسبت نصوص هرتابو الهيروغليفية إلى زمن تال اسقوط الإمبراطورية العثينية في القرن الثاني عشر، ومبدئيًا على ضوء أنه لا يمكن لعاكم معلى في الأناضول أن يصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، في الوقت الذي كانت فيه العاصمة العثينية محتلة، يرد الباحث سنجر – بعكس ذلك – بأن تلك النصوص تنتمي بشكل أدق بأدلة زمنية ولغوية إلى زمن سابق على سقوط العاصمة حاتوسا في أيدى الغزاة (19).

وعلى ضوء ذلك، لو صبح اغتراض سنجر، فإن حرتابو وأباه ينتميان إلى العصر البرونزى المتأخر، ويعنى ذلك أن ملكين متتاليين كانا يتمتعان بصبغة ملك عظيم كانا موجودين بجنوب الأناضول، في الوقت نفسه الذي كان يوجد فيه ملك آخر عظيم في العاصمة حاتوسا على العرش الحثيني، فهل بعقل ذلك تاريخمًا؟

نعلم من خلال أختام الرسائل أن أورحى – تيشوب أطلق على نفسه اسم مورسيلي، بعجرد أن اعتلى العرش الحثيني قبل أن يطيح به عمه حاتوسيلي، وعلى وجه الدقة فإن اسمه أصبح مورسيلي الثالث، غير أن حاتوسيلي لم يسم ابن أخيه أبداً باسم التتويج على العرش، ومن الواضح

أن ذلك يعود إلى رفضه الاعتراف بالصفة الشرعية لابن أخيه بعد أن اغتمب عرشه، كان مغتصب العرش يطلق عليه اسمه الأول، أورحى -تيشوب، وكان آخرون يشيرون إليه باسمه الأول، ومنهم رمسيس بعد أن أطبح به عن العرش الحثيني، غير أن أورجي - تبشوب لم يتخل أبدًا عن طموحه لاستعادة عرشه، وكان لنبه من الأبناء ما بجعله مصراً على استمرار خط وراثة العرش في نسله(20). والنتيجة لما أسلفنا في شرحه قد تبدو واضحة الآن، وهي أن أبا حرتابو، مورسيلي الذكور في النقش الهيروغليفي، لم يكن إلا الملك الذي أطبح به عن عرشه، أي أورجي -تبشوب(21)، ،هي حقيقة لا تقبل الشك أنه لا بوجد ملك محلي في جميع أرجاء الإمبراطورية الجثينية كان يجرئ على وصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، في الوقت الذي يشغل فيه العرش الحثيني ملك عظيم أخر(22)، إلا أن ذلك لا ينطبق على من كان يؤمن أنه مساحب الحق الشرعى في العرش، والذي ظل مصراً! على استعادته، وفي الافتراضيات التي افترضيها. رمسيس على كاتوسيلي بالأماكن التي يحتمل تواجد أورحي – تيشوب بها بعد فراره من مصر، كان رمسيس أقرب كثيرًا إلى الحقيقة، فقد كان أورهم - تيشوب قد توجه فعلاً إلى داخل البلاد العثينية.

وبمجرد أن أصبح داخل البلاد، بدأ في جمع شمل مؤيديه من شمال سوريا وجنوب الأناضول، وأدت جمهوده إلى تكوين مملكة بالمنفي امتدت على مساحة معقولة من جنوب الأناضول، كانت مملكة تارحونتاسا جزءًا منها، وهي المملكة التي كان يحكمها كورونتا شقيق أورجي – تيشوب، وبمجرد أن استقر في تلك المملكة الوليدة، بدأ يستخدم السمه الملكي مورسيلي الثالث، ووصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، كتاكيد لحقه وكتحد لمغتصب عرشه في حانوسا، ذلك العرش الذي لم يغفل لحظة عن أحقيته به، ومشى حرتابو على خطى أبيه من بعده.

واجه آخر ملوك العثينيين تمرداً كبيراً من جنوب الأناضول، ووجد نفسه مضطراً التسيير حملات عسكرية إلى تلك المنطقة التي ظهرت كمنطقة قلاقل واضطرابات في آخر أعوام الملكة الحثينية، ومن المكن أن يكون أورحي – تيشوب وابنه حرتابو قد أشعلا نيران التمرد في جنوب الأناضول ضد الإمبراطورية المتداعية، لاستعادة حقهم في العرش، الذي لم يتمكنا من استعادته أبدًا. بل إن الملكة التي أسسها أورحي – تيشوب في جنوب الأناضول والتي ورثها عنه ابنه حرتابو كتب عليها هي الأخرى أن تختفي وتنهار بسرعة، فقد ابتلعتها هي الأخرى الأحداث العظمي التي أودت بالإمبراطورية العثينية الكبري ذاتها.

14

أدت موجات الجفاف الطويلة، والمجاعات، والزلازل، وانهيار الانساق الحاكمة، وانتشار وتقشى جماعات الغزو والنهب الجوالة، وانتفاض السكان المحليين في أماكن كثيرة وتمريهم على الإمبراطوريات العظمى، إلى انتشار الفوفسى، من بلاد اليونان القديمة حتى منطقة ما بين النهرين، ومن شمال الأناضول حتى سواحل مصر الشمائية والتي أدت إلى اضمحلال وانهيار مراكز عديدة من مراكز القوة، وانهيار مدن عظمى وممالك كبرى في العقود الأخيرة من العصر البروقري المتأخر.

لذلك لا يشير دهشتنا أن تكون مصادر المعلومات عن تلك العقود شحيحة ونادرة، بسبب الاضطرابات التي سادتها وندرة ما دون خلالها. فقد كانت البني الإدارية تنهار يومًا بعد أخر، كما كانت منظومة الممالك التابعة والخاضعة لنفوذ قوة كبرى ينفرط عقدها والإمبراطوريات تتداعي.

لذلك لا يوجد إلا القليل من التسجيلات عن أحداث تلك الأيام الأخيرة.

إلا أن تلك الأيام الأخيرة تركت لنا أيضًا تسجيلات عن الانتصارات على العسكرية لكبار الملوك، انتصارات على سواحل قبرص، وانتصارات على السواحل الجنربية لمنطقة الأناضول حتى غربها الأقصى: وهي انتصارات أعلن عنها بفضر المكام المشينيون في نهايات العصر البرونزي المتأخر(1). أحرز أولئك الحكام انتصارات بحرية وبرية على الأقوام الذين أطلق عليهم اسم شعوب البحر، وهم جمافل بشرية تنفقوا على أطراف الشرق الأدنى، حتى وصلوا إلى سواحل مصر الشمالية: وكان الانتصار المصريين، الملك رمسيس الثالث(2).

ولا يمكننا بالطبم التوصل إلى مدى الصدق التاريخي لتلك الإعلانات

الملكية عن انتصاراتها العظمى، ولا كم المبالغة الدعائية، وتشويه المقائق الذي لجأ إليه كبار الملوك، الذين أصبحت سيطرتهم على الأوضاع في الداخل وسمعتهم في الخارج في مهب الرياح، وينطبق ذلك على وجه التحديد على الملك سبيللوليوما الثاني، أخر سلالة أسرته الحاكمة ممن شغلوا العرش في حاتوسا، ولحسن الحظ توصل البحث إلى العثور على بضع رسائل تنتمي إلى تلك العقود الأخيرة من العصر البرونزي المتأخر، تصحح بعض مبالغات الدعايات الملكية والبيانات الرسمية البلاغية المسجلة على صخور وألواح سجلات المحقوظات الملكية، وتقدم تلك الرسائل التي عثر عليها أيضا بعض الملامح المثيرة عن الحياة والأحوال التي سادت تلك المرحلة، كما تكشف لنا عن بعض المواقف الشخصية، والمخاوف والأمال التي كانت تعتمل في نفوس من كتبوها في ظروف تزايدت فيها الاضطرابات، وغاب عنها الاستقرار والأمن.

رسائل أورجاريت

تبين أن موقع أوجاريت على وجه الضعموص من أغنى المواقع التي احتوت على كثير من نصوص مراسلات آخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الثاني عشر، وسوف نركز البعث على تلك المنطقة المحدودة، والتي تلقى الضوء رغم محدوديتها على كثير من مراسلات العصر البرونزي المتأخر.

فعنذ أن تصوات أوجاريت لتنضم إلى منظومة الدول الصدفرى الفاضعة لنفوذ المثينيين في عهد سبيلاوليوما الأول، أصبحت جوهرة التاج الحثيني ودرته الثمينة، وكانت من أكثر الولايات انتعاشاً لموقعها الاستراتيجي الهام على شمال الساحل الشرقي البحر المتوسط، وظلت على ولائها للإمبراطورية الحثينية على مدى قرن كامل.

ولما بدأت قبضة الإمبراطورية على ولاياتها التابعة لها في الضعف، كانت أوجاريت واحدة من تلك الممالك التي بدأ التزامها يقل تجاه سيدها الأعلى الجالس على عرش حاتوسا، وأول دليل على ذلك ظهر في عهد ثالث وأخر ملوك أوجاريت، وهو الملك ايبيرانو (1230 – 1210) الذي اعتلى عرش بلاده على وجه التقريب في عهد الملك الحثيني الثالث والأخير تودهاليا الرابع، فبعد الانتهاء من طقوس تتويجه ملكًا على أوجاريت، لم يقع أيبيرانو بمراعاة الإجراءات الواجب اتباعها تجاه سيده الأعلى الحثيني، واستدعى ذلك أن يرسل إليه «الأمير» الحثيني بيحاوالوي(3) رسالة تأنيب وتوبيخ: «مئذ أن توايت السلطة في أوجاريت، لماذا لم تمثل حتى الأن بين يدي جلالة الملك؛ ولماذا تتقاعس عن إرسال مبعوثيك بالتعلى بالتعلى سرعة، وأحرص على إرسال الهدايا إلى الملك ومعها الهدايا التي ترسلها الهدايا التي ترسلها

لقد كانت هناك أمدور على المحك أكشر من كدونه إهمالاً من ملك أوجاريت، تقاعس فيه عن اتباع الإجراءات المرعية في علاقته بسيده الأعلى، وعلى ضدوء أن معاهدات التبعية كانت معاهدات شخصية بين السيد الأعلى والحاكم المحلى، كان من الضرورى الاتفاق مجدداً على تلك الالتزامات بين الطرفين كلما تبوأ المرش حاكم جديد – سواء كان سيداً أعلى أو حاكماً محلياً – وأدى ذلك التقاعس بطبيعة الحال إلى إثارة مخاوف الإدارة الحثينية عن مستقبل ولاء أوجاريت.

وهناك أسباب معقولة تظهر أن تقاعس ايبيرانو لم يكن مجرد تقاعس دبلوماسى، كما تظهر ذلك رسائل سجل محقوظات أوجاريت تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ظهرت أثناء أعمال الحفر في أوجاريت عام 1973، وعثر على 120 لوحًا وبعض حطام الألواح، اثنى عشر منها مكتوبة باللغة الأوجاريتية، وألباقى باللغة الأكادية، وأمكن ترجمة الاثنى عشر رسالة ونشرها بعد العثور عليها، أما باقى الرسائل فلم تترجم وتنشر إلا عام 1980 (5)، وأظهرت أعمال الصفر التى بدأت من جديد عام 1980

ألواحًا أخرى وصلت إلى 300 اوح وكسور ألواح(6)، كان صاحب دار حفظ تلك المراسالات يدعى أورتينو، وهو من أحد كبار رجال بلاط أوجاريت في ذلك العصر(7).

بالإضافة إلى الوثائق الإدارية والدينية، احتوت الرسائل التي عثر عليها عام 1973 على رسائل واردة إلى ملك أوجاريت من نائب الملك الحثيني على قرقميش، وكان حاكم قرقميش هو المسئول المياشر عن شئون تبعية أوجاريت للحكم الحثيني(8)، ولو حكمنا من نصوص الرسائل التي عثر عليها عام 1973، يتضع أن العلاقة بين نائب الملك الحثيني على قرقميش وحاكم أوجاريت لم تكن على ما يرام، وتعكس الرسائل صورة حاكم محلى في أوجاريت لا يقوم بما يجب عليه من التزامات، أو على أفضل الأحوال يقوم بها بلا حماس ولا اقتناع.

كان أحد أسباب ازدياد التوتر نوعية الهدايا التي يرسلها الحاكم المحلى في أوجاريت إلى حاتوسا، وقد رأينا من خلال بعض مراسلات تل العمارنة أن نوعية الهدايا كان من أهم الوسائل التي تظهر تقدير المرسل إلى المرسل إليه بين كبار الملوك، كذلك أيضًا تظهر قدر ولاء الملك التابع السيده الأعلى، وكان ذلك أحد أسباب تأنيب وتوبيخ نائب الملك الحثيني على قرقميش لملك أوجاريت الجديد، بسبب تفاهة الهدايا التي أرسلها إلى كار رجال بلاط الملك العثيني في حاتوسا:

درسولك الذي أرسلته إلى الملكة، وهداياك التي أرسلتها إلى كبار رجال البلاط كلها دون المستوى اللائق... ألم أكتب إليك بالمطلوب وقلت:
دأرسل إلى كبير الكتبة هنية فاخرة؟ فلماذا لم تظهر له الامترام الذي يستحقه بإرسال هدية فاخرة؟ لماذا أقدمت على ذلك السلوك؟ (9)

وأنهى نائب الملك رسالته بتذكير ملك أوجاريت المتقاعس بالعقوبات التى أوقعت برسله في مناسبة سابقة، حين أرسلهم إلى الملك بهدايا أقل قيمة مما هو متوقع، وكان التحذير مباشراً وواضحاً: «لا تعاول أن تفكر في الإقدام على ذاك مرة أخرى».

وكان هناك سبب أكبر لعدم الرضى، وهو تقاعس الملك الخاضع عن أداء التزاماته العسكرية، لم تكن أوجاريت أبداً من المالك القوية عسكرياً، بالرغم من ثرائها المادى، وكانت تبحث عن أسباب تتعلل بها في مناسبات سابقة لتجنب إمداد جيش الملك الأكبر بقوات عسكرية، لذلك قام أبو البيرانو، الملك عميشتامرو الثاني (1260 – 1230) بدفع 50 جعلاً من المدهب إلى الملك الحثيني توبحاليا الرابع؛ لإعفائه من إمداد جيشه باقراد مقاتلين وعجلات حربية مساهمة في الحملة العسكرية الحثينية ضد أشور (10).

وفي عهد ايبيرانو، تلقى أمراً بإرسال قوات معاونة، وأدى تقاعس الملك المحديد عن إرسالها(11) إلى تفتيش عاجل على كل قواته المسكرية الدفاعية، قام به قادة عسكريون من قرقميش، وظهر ذلك من نص رسالة بعث بها إليه نائب الملك الأعظم على قرقميش(12).

وبعد ذلك بفترة، تلقي إيبيرانو طلبًا جديدًا لإرسال قوات من لدنه، فاستجاب، ولكن استجابته كانت في شكل رمزي هزيل، وكتب إليه نائب الملك وهو غاضب، واتهمه بتقديم معلومات زائفة وإرسال قوات من الدرجة الثانية وخيرل هزيلة للعجلات الحربية:

دادعيت في رسالتك أن قواتك المسكرية صوجودة في صوكيش، والمقيقة أنها ليست هناك، بل في مدينة ابسونا(13). أما بالنسبة للمجلات المربية التي أرسلتها فجنودها من الدرجة الثانية وغيولها هزياته(14).

ومضى نائب الملك في رسالته متهماً إياه بالإبقاء على أفضل القوات المسكرية لديه، وربما كانت اتهاماته مبررة، ولم تكن أوجاريت الملكة السورية الوحيدة التي تبقى أفضل قواتها العسكرية داخل المملكة، حفاظاً على أمنها المباشر، رغم طلبات الملك الأعظم بإرسال أفضل القوات، وربما يعكس تصرف ملك أوجاريت في الحفاظ على أفضل القوات العسكرية افتقاد الثقة منه ومن حكام الممالك السورية الأخرى في الملك الأعظم أو

فى نائبه فى المحافظة على تلك القوات والحرص عليها فى المعارك ضد الأعداء القادمين من الأرض والبحر، وحول ذلك الأمر تلقى ملك أوجاريت رسالة من الملك الأشورى تيكولتى – نينورتا الأول، يبلغه فيها بانتصارهم الساحق على الجيش الحثيني فى شمال منطقة ما بين النهرين(15)، ويبدو أن الغرض من تلك الرسمالة كان دفع أوجاريت على الانسلاخ عن الحثينيين، بعد أن أصبحت مملكة ضعيفة منهكة وتنضم إلى أشور، القوة الجديدة المتنامية فى المنطقة(16).

إلا أنه كان هناك رجه آخر للرسائل التي عثر عليها في أوجاريت، فعدد من تلك الرسائل لا يتعلق بالجوانب العسكرية ولا السياسية، ويظهر نشاطًا سلميًا من التبادل التجارى المنتظم بين المالك السررية المحلية، وهي أنشطة كانت تمتد أحيانًا حتى منطقة الأناضول، وهكذا، نجد في رسالة واردة إلى عمورابي، آخر ملك عرف لأوجاريت، يشير فيها مرسلها حاكم مملكة تارحونتاسا بجنوب الأناضول إلى بضائع أرسلها إلى أوجاريت، وطلب منه إرسال بضائع أخرى مقابلها (17). وفي رسالة أخرى نجد ملك عمورو يشتكي إلى نظيره ملك أوجاريت من تأخر تسليم شحنة من الحجر الصابوني بعد الاتفاق على ذلك:

«لماذا تؤخرون العجر الصابوني ولا تمكنون عدو – ماشير من استلامه؟ هل يتم نقله على عائق رجالكم؟ لن يقوم رجائي ولا مراكبي البعرية بنقله، والآن با سيدى اترك عدو ماشير بعضى: دعه يستلم العجر الصابوني، حتى يمكن ترميم بيوت أغيك اللك، والبيوت حتى الآن بدون العجر الصابوني، (18).

وتشهد الرسائل المتبادلة بين ملوك أوجاريت وصيدا وملك بيروت وكبار مسئولى أوجاريت على المالك الوثيقة التي ربطت بين الممالك الواقعة على الساحل الفينيقي، في العقود الأخيرة للعصر البرونزي(19).

كذلك ظهر أن أوجاريت كانت تربطها روابط تجارية قوية بمملكة إيمار الواقعة على نهر الفرات. فالتبادل التجاري النشط بين الولايتين المملكتين

أدى إلى وجود مكتب التصنيل التجارى الأوجاريت في مملكة إيمار في بدايات القرن الثاني عشر، كان داجان — بيلو يقوم فيه بوظيفة الممثل التجارى الأوجاريت، والمدير الأنشطتها التجارية، وقد كتب من إيمار إلى شيبتي بعل، وكيل أعمال وزوج ابنة ملك أوجاريت عمورابي، مطمئنًا إياه أن كل شيء يمضى على ما يرام، ويساله عن الأحوال في الوطن، كما أرفق مع رسائته بعض النباتات إلى شيبتي بعل، وفي المقابل طلب من شيبتي بعل إن كان هناك مبعوث سيأتي من قبله سيكون ممتنًا إذا أرسل له معه بعض الزيت ورداء كتانيًا واسع من أجود الأنواع الستعمال داجان — بيلو الشخصي (20). كما كتب داجان — بيلو أيضًا إلى أورتينو، وهو رجل بلاط أوجاريت المرموق، الذي كان بيته سجل الرسائل المعفوظة، وطلب منه في تلك الرسالة إيفاد ابنه عزيلتو إلى إيمار ومعه مواد أخرى من مواد الكتابة من حجر الألنبوم، والصوف الأزرق ورداء من الكتان من مواد الكتابة من حجر الألنبوم، والصوف الأزرق ورداء من الكتان

ويعلق الباعث بوردرويل قائلاً: «إن الرسائل تظهر بوضوح درجة دالعائمية» التي ميزت عالم أوجاريت وجيرانها في تلك العقود الأخيرة للعصر البرونزي. كانت هناك شبكة من العلاقات والأنشطة التجارية تربط بين جميع أرجاء مناطق سوريا – فاسطين، مع وجود طرق تجارية تمر بأسواق كثير من المن والمراكز المضرية الكبريء(22).

وفى الوقت الذى يعد فيه التعديم من المفاطر البحثية، إلا أن مستوى الأنشطة التجارية بدا على درجة عالية كما كان عليه في عقود سابقة، إن لم يكن أعلى، فضلاً عن ذلك، لا نقرأ في تلك الرسائل عن أية مخاطر تواجه انتقال التجار سواء كانت مخاطر بشرية أو طبيعية، ويثير ذلك الدهشة مقارنة بما يظهر في رسائل تل العمارنة السابقة على ذلك العصر، والتي تظهر أن تلك المخاطر كانت كثيرة ومتوطنة بتلك المنطقة. على أي حال، لا بد أننا كنا نتوقع زيادة في النشاط الإجرامي ضد الأنشطة التجارية في تلك المقترة المعصر البرونزي، والمرافقة

لضعف سيطرة القوى العظمى المتداعية على للنطقة الخاضعة لنفوذهم.

ما يستحق الملاحظة والذكر أيضًا غياب كلى في سجل محفوظات أورتينو لأية إشارة تدل على كوارث قادمة، ويعلق الباحث أرنود على ذلك قائلاً. وإنه لا يوجد بالرسائل ما يحثرنا بأتنا نقرأ رسائل عالم يقترب من فنائه (23). لا يطفى على النصوص إلا العمل والسعى للربح كالعادة، بالطريقة ذاتها التي تظهر من خلال الرسائل الميسينية المكتوبة بالحروف الخطية B في بايلوس، والتي تعطى انطباعًا به «أنه العمل كالمعتاد»، حتى أخر لحظة في حياة تلك القصور، بالكاد كانت تظهر في أحيان قليلة في نصوص الرسائل إشارة عابرة للتهديدات الخطيرة القادمة مع الأيام، ففي رسالة من الملك الحثيني لأحد ملوك أوجاريت، ويحتمل أنه كان عمورابي، يعرب فيها عن قلقه من جماعات أطلق عليها اسم «شعب شيكيلا الذي يعيش على مراكب بحرية».

ومواطن أوجاريتي اسمه عبداندوشو، وقع في أيدى أولئك الشيكيلا، وأطلق سراحه بعد ذلك أو تمكن من الفرار، وطلب الملك العشيني في رسالته أن يرسل عبداندوشو على الفور إلى العاصمة الحثينية؛ لاستجوابه حول ما عرفه وما رآه عن أولئك الناس، مع وعد بإعادته سالمًا إلى أوجاريت(24).

وبالتأكيد يمكن التعرف على أن الشيكيلا هم الشيكيل، وهم الجحافل البشرية الذين أشار إليهم رمسيس المثالث باسم شعوب البعر، ولو صبع ذلك، فإن تلك الرسالة تمدنا بأول إشارة إلى إحدى قوى الأعداء الذين هاجموا ودمروا مدن مملكة أرجاريت، وكانوا سببًا في انهيار تلك الملكة للأبد(25)، وكان قلق حاتوسا من ظهور قوارب شعوب الشيكيلا على سواحل شرق البحر المتوسط له ما يبرره، إلا أنه لم يكن لدى الملك الأعظم ولا نوابه على الولايات ما يقعلونه لمواجهة التهديدات والمخاطر لتى يمثلها اقتراب شعوب البحر على الممالك الخاضعة لنقوذهم، كان عمورابي يتلقى اقرير منذرة من مراقبي السواحل، تقيد أن مراكب كثيرة تظهر في

الأفق، وبلا شك بنوايا عدائية، فقام بإرسال رسالة عاجلة إلى نائب الملك الأعظم على قرقميش مناشدًا مساعدته لصد غزو بحرى هائل، ولم يكن لدى نائب الملك على قرقميش ما يقدمه إليه، إلا أنه نصحه قائلاً

دفيما يخص ما كتبته إلى: دسفن الأعداء ظهرت في البحره، حسنًا، يجب أن تظل مسامدًا، أين تعسكر قواتك وعجائك الحريبة؟ أليست متمركزة بالقرب منك؟ كلا؟ أم خلف العدر الضاغط عليك؟ أحط مدنك بالاستحكامات، اجعل قواتك وعجائك متمركزة بالمدن، وانتظر وصول العدر بغزيمة وتصميم (26).

وترك عمورابى وحده بعد أن أيقن أن عليه أنّ يعتمد على قواته وحدها لحماية مملكته، وقد كان يعى تلك الحقيقة من البداية، ويمكننا هنا فهم لماذا قررت أوجاريت الحفاظ على صغوة وخيرة قواتها العسكرية قبل ذلك بالرغم من تأنيب وتوبيخ نائب الملك الأعظم لملك أوجاريت حين تقاعس عن الوفاء بالتزاماته العسكرية تجاه سيده الأعظم. إلا أن ذلك لم يفده بشكل واضح، فلو صدقنا ادعاء عمورابى في رسالة منه إلى ملك الاسيا في قبرص. فإن الدفاع عن خليج أوجاريت قد أخل به وجود جزء كبير من قواتها في مكان آخر من المملكة المثينية، مما تركها بلا دفاع قوى لصد الأعداء وسرعان ما استغل الأعداء تلك الموقف، وهكذا حين كتب ملك الاسيا إلى عمورابى يرجوه مساندته حربيًا ضد شعوب البحر التي كانت تهاجم مملكته، لم يكن ملك أوجاريت في وضع يسمع له باستجابة أفضل، ورد قائلاً:

«أبي، أترى، جات سفن الأعداء (هنا) إلى مدنى (؟) وأصرقتها، وارتكبوا أفعالاً مشيئة ضد بالدى، ألا يظم أبى أن كل قواتى وعجلاتى (؟) في بلاد الحثينيين، وكل سفنى في منطقة لوكا؟... هكنت، تركت البلاد لنفسها، هل لأبى أن يطم أن : السبع مراكب البحرية التي أتى طيها العدر سببت دمارًا كثيرًا «(2)).

عشر على تلك الرسالة في بيت رابانو، أصبيح الموقف في ذاك الوقت

واضحًا، على كل مملكة أن تتولى شئون الدفاع عن نفسها من الممالك الصغرى الخاضعة لنفوذ المالك العظمى.

ومرت الممالك بأزمة نقص خطير في المواد الغذائية، إما بسبب حلول المفاف، أو بسبب نقص القوى البشرية التي تزرع الأرض، أو تدمير العدو للمحاصيل والأراضي المزروعة، وهكذائجد أن رسالة أخرى من سجلات رابانو تذكر:

«أبواب البيت مفلقة؛ لأن هناك مجاعة في بينك، سنجوع حتى الموت، لو لم تسرح بالمجيء سنجوع حتى الموت، أن ترى أبدًا بعد ذلك روحًا حية في بلادك:(28).

وضاعف من سوء الموقف طلبات الحثينيين، فقد كانت بلاد الحثينيين ذاتها في ذلك الوقت تعانى من مجاعة شديدة، ولم تجد أمامها إلا طلب شحنات من الحبوب من الولايات السورية الضاضعة لها، والأقرب إلى الاجتمال تعويضًا عن عدم وصول شحنات الحبوب المعتادة من مصر، بسبب نشاط الأعداء البحرى في شرق البحر المتوسط، وحملت رسالة من الملك الحثيني إلى ملك أوجاريت ملحوظة استعجال خاصة، وربما كان ملك أوجاريت الموجهة إليه تلك الرسالة نيكمادو الثالث أو عمورابي (فالاسم مفقود من الرسالة)، بطلب فيها إرسال سفينة بطاقمها البحرى لنقل

2000 وزنة من العبوب (حوالي 450 طنًا) من موكيش إلى أورا:

«وهكذا (المدينة) أورا (تصرفت(؟)) بهذه الطريقة.. وادخروا الطعام لجلالته، وأخبرهم جلالته عن 2000 وزنة من الميوب قادمة من موكيش، يجب أن تهيئ لهم سفينة بطاقمها، وأن ينقلوا نلك المبوب إلى بلادهم. سينقلونها في نقلة أو نقلتين يجب ألا تحجز تلك السفينة (29).

وأكدت الرسالة على ملك أوجاريت العمل بسرعة دون تأخير.

نهاية عصر

وتصل بنا آخر رسائل أوجاريت إلى نهاية بحثنا بين ثنايا مراسلات العصر البرونزى المتأخر، والصورة التي تقدمها تلك الرسائل تقدم لنا صورة مصغرة عن الأحوال التي سادت بوجه عام في مناطق عديدة من الشرق الأدنى، وعوالم بحر إيجه في نهايات القرن الثالث عشر إلى بدايات القرن الثاني عشر، وهي العوالم التي عائت من تداعى الأمن وزيادة الاضطرابات، أصبحت القصور العظمي والقمنور المحلية والمراكز الإدارية، وممالك بأجمعها كبيرها وصغيرها، والمجتمعات المدنية والزراعية عرضة بشكل متزايد لهجوم جحافل قوات معادية، بعضها قادم براً، وغيرها قادم من البحر،

وذهبت مناشدات طلب العرن والمساعدة التصدى الأولئك الأعداء سواء كانت تلك المناشدات موجهة للملك الأعظم، أو إلى الولايات والمسالك الصغرى المجاورة، ذهبت جميعًا أدراج الرياح، إما بتجاهلها أو برفضها، فلم يكن لديهم خيار آخر، إذ كانوا هم أنفسهم يتعرضون في الوقت ذاته لهجوم ذلك العبو وكانوا أيضًا من ضحاياه، وانقطعت طرق نقل الإمدادات، وتزايدت حدة نقص الطهام، وهام كل سكان تلك المبالك على وجوههم.

ومثل كل مراكز الحضارة التي تنتمي إلى العصر البرونزي المتاخر، لم تصمد أوجاريت أمام قوى الفوضي والدمار، التي لمحنا إشارات عابرة منذرة بحلولها في آخر رسائل الأرشيف، ونهيت عاصمتها وهجرت وكانت تقع في الموقع الذي توجد فيه مدينة راس شمرا الصالية، وكان ذلك «الخراب النهائي لأوجاريت، وتلاشي والمتفاء تركيبها الاجتماعي والسياسي ولم تعد توجد ولاية / مملكة في موضعها على الساحل السوري»(30).

وخنضفت مملكة الأناضول المركزية للقنوى ذاتها التي أدت إلى انهيارها. وهجرت العاصمة الحثينية ودمرت، وانهارت كل أرجاء

الإمبراطورية التي كانت تبسط نفوذها عليها، وفقدت مصر هي الأخرى إمبراطوريتها الآسيوية، وبالرغم من صمود مصر أمام الكوارث التي أدت إلى انهيار ودمار الممالك المعاصرة، فإن المملكة الفرعونية لم تستعد أبدًا بعد ذلك وضعها كقوة دولية عظمي، أما في سوريا فقد ظلت بقايا الإمبراطورية الحثيثية متواجدة بشكل آخر على مدى 500 عام، فيما أطلق عليه المالك الحثيثية الجديئة.

وصعد عدد آخر من ولايات الساحل الفينيقى ضد الدمر الشامل الذي لحق بالإمبراطوريات في نهاية العصد البرونزى المتأخر، وكان من تلك الولايات التي نجت الولايات الفينيقية في طرابلس وصور وصيدا، وبدأت في الانتعاش من جديد في بدايات العصر الحديدي المبكر، إلا أن الوجه السكاني السياسي (الچيوبولتيكي) لكل منطقة غرب الفرات قد تغير في عديد من الاواحى تغيراً جذرياً، في القرون التي تلت انهيار ممالك العصر البرونزي المتأخر.

أما شرق الفرات، فقد كانت هناك مملكتان تنتميان إلى العصر البرونزي، ولم يكن تاريخهما قد شق مجراه بعد، ونجيتا من الكوارث إلى حد كبير، هى الكوارث التى ابتاعت جيرانهما في غرب الفرات، فأشور سوف تنهض مرة أخرى من كبوتها لتصبح قوة عظمى في منطقة الشرق الأدني، وسوف تنهض بابل أيضنًا من جديد، وسوف تصل إلى أعلى مراتب وذرى العظمة والقوة في الشرق الأدني، بمجرد أن تصل الهيمنة الأشورية الذكية والقاسية على المنطقة إلى منتهاها، وتنهار فهأة وتسقط بلا عودة.

إلا أنْ تلك القمنة تنتمي إلى عصر أخر،

ملحق : رسائل العمارنة

أتاحت لنا فترة العمارنة معرفة القوى العظمى في أرجاء الشرق الأدنى بأجمعه لأول مرة، من البحر المتوسط حتى الخليج الفارسى، في تفاعلاتها فيما بينها، وفي علاقات أسرها الحاكمة وعلاقاتها الاستراتيجية والتجارية، وكانت أليات الإدارة السياسية في تلك الملاقات المتشابكة تتمحور حول دبلوماسية تل العمارنة، وهو نظام دبلوماسي له قواعده، وأعراف، وخطواته وإجراءاته، وقواعد تحكم التمثيل الدبلوماسي والتواصل والمفاوضات بين كبار الملوك(1).

يقع الموقع المعروف حاليًا باسم العمارية على الضفة الشرقية انهر النيل، على مبعدة حوالى 300 كيلو مترًا إلى الجنوب من مدينة القاهرة، وفي ذلك الموقع عثرت فلاحة على كمية من الألواح الطينية المنقوشة في عام 1887 بينما كانت تحفر بين انقاض تلك المنطقة التي تبين بعد ذلك أنها بقايا مدينة إختياتون التي بناها أخناتون، وأدى الحفر خلسة الذي قام به السكان المحليون إلى ظهور ألواح جديدة، مع ظهور مكتشفات عديدة بالمنطقة مع بدايات أعمال الكشف المنظم التي جرت في ذلك الموقع، والرقم الكلي للألواح التي عثر عليها بذلك الموقع مجهول بسبب بيع أعداد منها سرًا إلى هواة جمع التحف بعد العثور عليها مباشرة، والمعروف عاليًا سرًا إلى هواة جمع التحف بعد العثور عليها مباشرة، والمعروف ماليًا على أكبر عدد من الألواح حاليًا باسم المبنى 19، أما البقعة التي عثر بها على أكبر عدد من الألواح حاليًا باسم المبنى 19، أما الاسم الأصلى فقد كان أكثر إيجاء وهو: «دار رسائل الفرعون – حياة، انتعاش، صحة»، كانت تلك البقعة هي موقع دار حفظ مراسلات الملك الأحنية.

ومن بين تلك الألواح يوجد 350 منها تحتوي على رسائل، إما واردة

إلى الفرعون أو تسخًا من رسائل أملاها بالتعاون مع كبار مستشاريه(2)، كما تضم بضع قوائم عن هدايا مرسلة إلى آخرين(3)، والرسائل مقسمة إلى قسمين رئيسين:

الرسائل التي تبادلها الفرعون مع حكام أجانب، ملوك الحثينيين،
 وبابل، والمبتانيين، والأشوريين، وارزاوا، وألاسيا بقبرس.

الرسائل الواردة من (وأحيانًا أقل إلى) الحكام الخاضعين للنفوذ
 المصرى في سوريا - فلسطين، وهي الكم الأكبر من بين الرسائل.

ويصل عدد أوانك الحكام الذين تظهر أسماؤهم في الرسائل إلى أربعين، أما الاثنان وثلاثون رسالة الباقية فتتكون من مقاطع لفظية معجمية، وقوائم نحوية لغوية ونمعوم دينية، وتظهر خواصها الأدبية واللغوية أنه كانت توجد مدرسة متخصصة لتعليم اللغة المسمارية للكتبة المصريين (إيدوبا) في العاصمة الملكية(4).

وباستثناء لوحين من المراسلات، مكتوبان بالحثينية (EA 31-2)، يوجد واحد بالأشورية (EA 24)، وواحد باللغة الحورية (EA 24)، فإن باقى رسائل العمارنة مكتوبة بالأكادية (أو أحد أشكالها)،، بصفتها اللغة الأجنبية الدولية السائدة في العصر البرونزي المتأخر، ولسوء الحظ، كانت الرسائل مكتوبة بأحد الأشكال الصعبة للغة الأكادية، وعلق ريفراني على ذلك: بأن لغة الرسائل مليئة بالصور البلاغية، والكنايات وبقى الألوان البلاغية في الكتابة، والتي يمكن أن تؤدي إلى ترجمات متناقضة (5). وبعيداً عن تلك الإشكالية، فهناك المشاكل التي وقعت نتيجة ترجمة النصوص إلى لغات ليست لغة من قام بالترجمة، وقد يظهر غموض وحيرة في نصوص الرسائل، يعود ببساطة إلى أن الكاتب الذي كتبها في تلك العصور ليس من أبناء اللغة الأكادية (باستثناء واضح للرسائل الواردة من المالك التي تتحدث الأكادية (باستثناء واضح للرسائل الواردة من المالك التي تتحدث الأكادية مثل بابل وآشور) وكانت تظهر مصاعب أحياناً في نقل معاني دقيقة بتلك اللغة كما أملاها ملوكهم.

فنضبالاً عن ذلك، فناك صبحوبة في فنهم المراسبات السبورية -

الفلسطينية وترجمتها ترجمة صحيحة، وذلك للجوء الكتبة الذين كتبوها إلى استعمال مفردات مهجورة، ومفردات محلية، ومصطلحات محلية كنعائية.

لقد طور المكتبة للحليون في سوريا – فلسطين ما يمكن تسميته باللغة الهجيئة(7) التي يغلب عليها الكنعانية(7)، والتي طرحت تحديات أخرى من نوع خاص عدا التحديات التي تفرضها ترجمة اللغات المهجئة، ولا بد أن يظل كل ذلك ما ثلاً بأنهاننا في محاولاتنا إعادة بناء تاريخ مرحلة العمارنة من خلال نصوص الرسائل، هذا عدا أن كثير من المعلومات مبتسرة، بسبب تهشم أجزاء من الألواح.

وتغطى الرسائل المحفوظة في الحد الأقصى أحداث ثلاثين عامًا (8)، أو أقصر من ذلك اعتماداً على حدوث فترة حكم مشترك من عدمه بين امينحوتيب الثالث وابنه امينحوتيب الرابع – أخناتون وطول فترة ذلك الحكم المشترك، الخطابات المبكرة تعود إلى آخر أعوام حكم آمينحوتيب الثالث (أى من العام الثلاثين من حكمه حتى نهايته) ويفترض أن تلك الرسائل نقلت من طيبة إلى إخيتاتون بعد نقل مقر الحكم إليها، وآخر الرسائل يعود إلى الأعوام المبكرة لعكم توت عنخ آمون، ولا تزيد عن العام الثالث من حكمه، حين هجرت مدينة إختياتون وانتقل الفرعون الجديد إلى مدينة منف – ممفيس، ومن إجمالي 350 رسائة، كلها واردة إلى الفرعون المعنين من عشرة رسائة، من نظرائه الملوك، أو من الحكام الفاضعين النفوذ المصرى في سوريا فلسطين، أما الإحدى عشرة رسائة المادرة في عبارة عن رسالة موجهة إلى ملك ارزاوا في غرب الأناضول، ورسالتين وقائمة بالهدايا لملك بابل، وسبعة رسائل إلى مضتلف الحكام الملين في أرجاء سوريا – فلسطين.

ولابد أن نفترض أن كثير من الرسائل الواردة للفرعون من أشقائه الملوك، أو من الحكام الخاضعين لنفوذه هي النسخ الأصلية التي ترجمت إلى المصرية على أيدى الكتبة في البلاط الملكي، غير أن د، ريفز يرى أن

التحليل الحديث لتلك الألواح يثيت أن النسبة الغالبة من رسائل العمارنة ليست الأمسول، ولكنها نسخ صنعت في منصس للأغسراض الإدارية المحلية(9). ولايد أنه كانت توجد دار حفظ أخرى للترجمة المصربة (على الأقل للرسائل الهامة)؛ للرجوع النها عند الضرورة، وقد أشرنا الي المني رقم 19 باسم «دار رسائل الفرعون»، حيث وجدت أغلب رسائل العمارنة، ولابد أن ذلك المبنى لم يكن إلا جِزءًا منفيرًا من مبنى أكبر كثيرًا يضم هسئة الدولة الاستشارية، وهكذا، «كانت هناك لقاءات بومسة بين حضارتين، الكتابة المسرية من جانب، والكتابة السمارية الأكادية لمنطقة ما بين النهرين على الجانب الآخر»(10) يجب أيضًا أن نفسس وجود رسائل مبادرة من الفرعون بين رسائل العمارية إلى ملوك أجانب وحكام خاصْت بن النفوذ المدري، فلماذا ظلت ثلك الرسائل موجودة بمصر؟ وهناك ثلاثة احتمالات تفرض نفسها: أنها كانت مسودات للنسخ النهائية للرسائل، أو نسخًا من الرسائل التي تم إرسائها (مثل EA 162، وهي نسخة من الإنذار المرسل إلى الحاكم العموري عزيرو)، أو أنها أصول لم ترسل لسبب أو لآخر إلا أنه يتبقى أمامنا أكثر الأسطة إثارة للحيرة، لماذا حفظت تلك الرسائل بالذات التي عثر عليها يون غيرها بدار حفظ تل العمارية؟ وما الذي أضفى على تلك المجموعة من الرسائل من الأهمية ما جعلها تستحق الحفظ دون غيرها؟ من المؤكد أنها جزء بسيط من كم هائل من الرسائل المتبادلة بين الفيرعون وكبيار اللوك والحكام المطبيين الخاصَعين لنفوذه، في عهد نشط ديلوماسيًا مثل عهد العمارية.

ولا نجد إجابات على تلك التساؤلات من دار المفظ ذاتها، بعض تلك الرسائل الواردة من كبار الملوك الأجانب، ربما اعتبرت من المراسلات الهامة، مما أهلها لحفظها في دار الحفظ، إلا أن هناك رسائل كثيرة لا تقل أهمية عن ذلك، إلا أنها اختفت ولم تحفظ في دار حفظ الوثائق، وبعض الرسائل الواردة أيضاً من الحكام الخاضعين كانت تستحق أيضاً أن تحفظ، مبدئيًا، بسبب التقارير الاستخباراتية التي تضمها(11)، إلا أن

هناك رسائل غيرها وجدت بدار الحفظ ولا تحمل أية أهمية وبتعلق بأمور تافهة، كما لا توجد علاقة بين عدد الرسائل الواردة من حاكم محلى خاضع للنفوذ المصرى وأهمية الولاية التي يحكمها في المنطقة ككل، وحقيقة، فإن أهم رسائة صادرة من ريب – حدا، وهو حاكم مملكة جوبلا الضاضعة للنفوذ المصرى، الذي أسرف في إزعاج الفرعون بعطالب لا تنتهي وشكاوي متتابعة (12)، وأو حكمنا بما اعتقده ريب – حدا ذاته، فإنه رأى أن كل رسائل الفرعون قد تم تجاهلها، وأن الفرعون لم يستجب لأية مشكلة بعث بها إليه، غير أن تلك الرسائل قد حفظت في دار حفظ مراسلات الفرعون في أخيتاتون – بل إن عددها فاق باقي الرسائل المتبادلة بين الفرعون مع أشقائه الملوك، ولو كان أخناتون قد ضاق ذراعًا بشكاوي وطلبات ريب – حدا التي لا تنتهي، لماذا إذن اهتم بالاحتفاظ بكل الرسائل حين كان من الظاهر أنه لا ينوي إجابة أي طلب ورد بها ولا حتى الرد عليها، في الوقت الذي لم يحفظ فيه رسائل أخرى كثيرة وردت حتى الرد عليها، في الوقت الذي لم يحفظ فيه رسائل أخرى كثيرة وردت

يحتمل أن المكان الذي عثر به على تلك المجموعة من رسائل العمارنة كان مستودعًا مؤقتًا للرسائل الواردة من الخارج، حتى يتم ترجمتها إلى المسرية، ثم تنقل بعد ذلك إلى مخزن مستديم أكبر مع ترجمة كل منها جنبًا إلى جنب، وربما كانت بعض تلك الرسائل التي عثر عليها كانت بانتظار القيام بترجمتها(13).

كما أن تنوع وتفرق موضوعات تلك الرسائل ينفي أن تكون قد جمعت ممنًا بالقصد في تلك الدار، من الواضيح أنه لا يوجد نمط يجمع بينها، وربما يدفعنا ذلك إلى البحث عن سيناريو أخر يفسر ليس فقط بقاء تلك المجموعة وحدها حتى عصورنا الصالية بل أيضا اختلاف وتفرق مضامينها، والافتراض التخيلي التالي يتيح واحداً من الاحتمالات الصحيحة فكما لاحظنا، في العام الثالث من حكم توت عنخ آمون هجرت مدينة أخيتاتون للأبد، وفي آخر أيام حياة تلك المبينة وقع اجتياح لدار

محفوظات الفرعون، وكان ذلك الاجتياح من قبل موظفى تغنيش، معادين لأخناتون، وكان الغرض هو استخراج الرسائل التي ما زال لها علاقة بأحداث جارية لحفظها، خاصة الرسائل المتصلة بالعلاقات الدولية الخارجية، بعض الرسائل المتبادلة مع كبار ملوك منطقة الشرق الأدنى قد تم لاحتفاظ بها، مع نقلها إلى مدينة منق، بعد انتقال توت عنغ آمون إليها، وهي رسائل تعد مفقودة حتى الآن، كما تم انتقاء الرسائل الأخرى التي انتهت أية قيمة لها للتخلص منها، كذلك تم التعامل مع رسائل الملوك الخاضعين للنفوذ المصرى، وتم التخلص من كل ما لا قيمة له منها أو ما انتهى موضوعه، وعن طريق صدف بحتة، ظلت الرسائل المراد التخلص منها باقية في موقعها بالعمارنة، وهي الرسائل التي عثر عليها في عصرنا الحالي، وهي ما تمثل اليوم أهم مجموعة مراسلات دولية على الإطلاق من المصر البرونزي، والتي ظلت مخفية على مدى يزيد عن ألفي عام، حتى ظهرت للوجود على يد أكثر المكتشفين تواضعاً، فلاحة كانت تصفر مصادفة بين أنقاض ما كانت ذات يوم مدينة أتون العظيمة.

Notes

Introduction

- 1 For a more detailed discussion of the 'Great Powers club', see Liverani (2000)
- 2 Bryce (1998)
- 3 Bryce (2002)
- 4 See Gasche et al. (1998).

Part I Setting the scene

1 The main players: the five Great Kingdoms

- 1 For a relatively detailed account of these kingdoms, see Kuhrt (1995, vol. I). Roux (1980) is a still useful source of reference on the Mesopotamian kingdoms, though his treatment of them is fairly cursory and now somewhat out of date.
- 2 The Assyrian royal inscriptions of the second millennium provide the most important source material for Assyrian history in this period; see Grayson (1972).
- 5 For a still very useful treatment of the Assyrian colony period, see Lamen (1976)
- 4 Note that this and all other dates below are approximate. For the reigns of Shamshi-Adad and his sons, see also Villard (1995).
- 5 Thus Villard (1995: 875).
- 6 The letters have most recently been published in 3 vols by Durand (1997, 1998, 2000).
- 7 The document appears in Dussin (1938: 117). The translation given here is by Charpin (1995: 816).
- B EA 9: 31-5.
- 9 Which, as Kuhet (1995) 109) points out, gave him at one stroke control over Isin, Uruk, Ur and Nippur, as well as the sizable dominions of Larss.
- 10 Sealand territory was reincorporated into the Babylonian kingdom in the subsequent century under the Kassite dynasty.
- 11 For other suggested locations for their homeland, see Kulirt (1995: 333)
- 12 For accounts of the Kassire alynasty, see Outes (1986: 83-104), Kuhrt (1995: 332-48) and Sommerfeld (1995)
- 13 For the most secent compathensive treatment of Egyptian history, see Shaw (2000)
- 14 On the evidence indicating Asiatic sertlement in Egypt already during the Middle Kingdom, see Bournau (2000) 187–8).
- 15 Sec Tubb (1998 62)
- 16 'Hyksos' is a Greek vocalization (adopted by Manetho, Aegyptiana, frag. 42, 175-79.2, quoted by Josephus in the late 1st century CE) of the Egyptian term hikan khaini, which means 'rulers of foreign countries'. For a comprehensive treatment of the period of Hyksos rule in Egypt, see Redford (1992. 98-122).
- 17 The name by which Upper Nubia was commonly designated, and sometimes used in reference to Nubia as a whole
- 18 Its minerals included substantial deposits of gold, copper, amerbyst and diorite
- 19 He was the son of Isis, a secondary wife of Tuthmosis II

- 20 He was the son of Motentwiya, a secondary wife of Tuthmosis IV For an overview of his reign, see Berman (1998).
- 21 The likely dates of his sole reign, leaving uside the question of whether he had a period of co regency with his father, Amenhorep III.
- 22 See Murnane's summary of views (1995: 1-2). For general accounts of Akhenaten and his reign, see Redford (1984) and Reeves (2001).
- 23 For a survey of Egypt's relations with the Near Eastern world in general during the last century of the Lare Bronze Age, see Redford (2000).
- 24 For general accounts of the pharaoh Ramesses II, who will figure prominently in this book, see Kirchen (1982, 1995), Tyklesley (2001).
- 25 For the most recent edition of the treaty, see Edel (1997).
- 26 For the most recent comprehensive treatments of Hittite history, see Bryce (1998) and Klengel (1999).
- 27 CTH 19, most recently ed. Hoffmann (1984).
- 28 Scholars are still undereded as to whether he was preceded by one or two kings called Tudhaliya. To avoid confusion, the currention is to assume that there were two.
- 29 For more detailed treatments of the Hurrian kingdom of Mitanni, see Wilhelm (1989) and Kuhrt (1995) 289-300).
- 30 See Kuhrt (1995: 297).
- 31 A possible identification between the former and the site of mod. Tell Feherije has been suggested, see Klengel (1999, 96, a. 6) with refs could therein.
- 32 See Wilhelm (1989; 24).
- 33 EA 29: 16-18.

2 The interaction of the players: imperial administration and international relationships

- 1 Though, as we noted in Chapter 1, the ethnic origin of the Mitannian ruling elite is still open to debate
- For a representative collection of Hittite creaties, see Beckman (1996, 11-118).
- 3 Cf. the comments of Westbrook (2000: 38), Murnane (2000: 194-5), James (2000: 113), Na'aman (2000: 137-8)
- 4 The number suggested ranges from two to four; see Moran (1992) xxvi with n. 70). In general on Egypt's administration of its Syro-Palestinian territories, see Redford (1992) 192-213), Murnane (1998) 178-81), Weinstein (1998) 226-9).
- 5 In marked contrast to Egyptian rule in Nubia, where the old political structures were disbanded and the region was placed under the direct administration of an Egyptian viceroy; see below (pp. 46).
- 6 See Weinstein (1998: 226-7).
- 7 In general on the use of garrison troops and archers in the Syro-Palestinian territories, see Gálan (1994, 91-5).
- 8 EA 55, 10-13, trans. Moran.
- 9 See Redford (1984-25, 1992-198-9). But note Muchane (2000: 107), who comments that 'this figurarive description reflects only a partial truth, namely, the vassals' subordinate position under Egyptian control and not...their independence in most areas of community government (unlike the r Egyptian counterparts)' Cf. Na aman (2000: 131) 'Egypt and Canaan were separate entities and the vassals were never considered mayors in the full meaning of the term. The court administration reased them as Egyptian mayors in one important aspect: they held full responsibility for everything that happened in the town (or either city state) in their charge.'

10 Urk IV, 690, trans. Redford (1992: 198).

- 11 Most of our information about Idrimi comes from his well-known inscription, most recently trans. by Dietrich and Loretz (1985).
- 12 Further on the contrast between Egyptian administration in Nubia and western Asia, see Murnane (1998: 178–9).
- 13 There were, however, large parts of western Anatolia over which the Hittites never exercised more than tenuous authority, or any authority at all
- 14 As evidenced by the enormous force of 47,500 troops which Muwaralli allegedly put into the field at Kadesh.

Part II The letters and their themes

3 Letters and messengers

1 They may have been used for a variety of purposes, including brief, informal letters whose contents could be erased when the recipient had read them and a reply sent back on the same tablet. They perhaps also served as notebooks for temporary records of administrative details. (On both possibilities, see Bryce 2002. 69-70). And they apparently were also used for recording royal grants (see Houwink ten Cate 1994, 235). On the use of wooden tablets in general, see Symington (1991).

2 See Otten (1956).

- 3 For more detailed treatments of the scribal profession in Egypt, see Wente (1995); in Mesopotamia, see Pearce (1995), an Anatolia, see Bryce (2002: 56-71).
- 4 Babylonian is one of the two varieties in which the Aldradian language appears. The other is Assyrian. Of the 'provincial' features of the Babylonian used in the Amarca letters, see Mosan (1992: xix-soc).

5 EA 11: 16-17.

6 These letters have most recently been edited by Bdel (1994), and will be discusted at some length in subsequent chapters.

7 The name of the Late Bronze Age kingdom on the island of Cyprus.

B EA 39, 40.

- 9 ÄHK 105: 216-23, trans. Beckman (1996: 126-9). On the identities of the correspondents, see Beckman (1996: 125-6).
- 10 On messengers and 'ambassadors' in general, see Oller (1995), Liverani (2001: 71-6).
- 11 XHK 53 15'~16'- 138-9.

12 EA 1-1-9

13 Kuhrt (1995-343) remarks that, while it was usual for several envoys to be sent to a foreign court, apparently only one of their number had an audience with the king at the receiving court.

14 EA 32, 1-6

- 15 KUB XIV 3 (CTH 181) (the so-called "Tawagalawa Letter", to be discussed in Chapter 12) iv 46-50, after Gurney in Garstang and Gurney (1959-114)
- 16 Though a messenger of the Hittite queen, he was probably a native Egyptian, see most recently Singer (1988–331).
- AHK 43 obv. EL-18, 106-7, after Beckman (1996: 130).

18 ÄHK 48. 128-9.

- 19 Cohen (1996: 257-8) argues in favour of the possibility of resident embassies, against this, see Berndge (2000: 244-17).
- 20 EA 7 49-50
- 21 EA 3 13-14.
- 22 EA 59: 13-14. But as Moran in his commentary on this letter notes, the period of twenty years should be regarded as a round number rather than a precise figure, indicating a considerable passage of time.
- 23 EA 15 16-22 The addressee's identity is uncertain.
- 24 EA 17 46-9, trans. Moran.
- 25 EA 20 64-70 (candensed).
- 26 EA 28 16-22, trans. Moran.
- 27 EA 38, 7-12.
- 28 Extracts from KBo I IO and KUB III 72 (CTH 172), based on trans. by Beckman (1996–134)
- 29 The queen says. 'If you should say: "The King of Babylonia is not a Great King", then my brother does not know the rank of Babylonia' (trans. Beckman 1996, 128).
- 30 EA 16: 43-5 We are reminded of the experience suffered by the envoys sent from Babylon to Egypt during Ramesses II's reign, as reported to the Hittite queen Puduhepa by the Babylonian envoy Ellel-bel-nishe (referred to above, pp 61-2).
- 31 EA 16: 46-9. On the letter as a whole, see Artzi (1997).
- 32 Redford (1984: 235). Cf. Westbrook (2000 34).
- 33 XHK 39: 96-7.
- 34 EA 29: 173-81
- 35 EA 11 14-15.
- 36 EA 24: II 95-6.
- 37 EA 24 IV 54-7
- 38 EA 7: 53-4.
- 39 From a series of satisfical texts from ancient Egypt, trans J. A. Wilson in Pritchard (1969; 433).
- 40 See Liverani (2000: 22).
- 41 On the Habiro, see Chapter 9.
- 42 EA 7. 73-7. The mayor of Damascus seems to have been notorious for this kind of activity
- 43 See Oller (1995 1,467).
- 44 EA 29, 26
- 45 For the time-scales savolved, see Liveran (2000: 21-2)
- 46 E.g. EA 39 and 40.
- 47 EA 30, after Oppenheim (1967: no. 77: 134).

4 The club of royal brothers

- 1 Thus Moran (1992: antiv, n. 59), with tels.
- 2 In general on Amenhorep's relations with Mitanini, see Kitchen (1998)
- 3 Mimmureya and Naphotreya (and variations) are the prenomens, respectively, of Amenhosep III and Amenhosep IV/Akhenaten.
- 4 EA 26 25-9, after Moran.
- 5 EA 27 9-12, trans. Moran.
- 6 Another variant form of Amenhorep III's prenomen.
- 7 EA 29 55 9, after Moran.
- 8 KBa I 18 and KUB III 72 (CTH 172) obv. 7 ff., trans. Beckman (1996-153).

- 9 In fact, Akhenzten was the second son of Amenhotep III by his chief wife Tive The succession passed to him only after he was predeceased by an elder brother, Tuthmosis.
- 10 EA 29 61-4
- 11 Extracts from EA 7 8-32.
- 12 Jänsson (2000: 198-9).
- 13 Adapted from EA 15: 1-15, and based on trans, by Motan.
- 14 Kuhrt (1995-350).
- 15 EA 16
- 16 EA 16 14-18, after Moran
- 17 Ashur uballit also claims that his ancestor Ashur-nadin-alihe had received the substantial gift of 20 talents of gold (c. 600 kg) from Egypt. This, as Zaccagnini (2000-150) points out, can be discussed as a self-serving fairy tale. There is no evidence of contacts between Egypt and Assyria in the eagns of either Ashurnadin-alihe I (mid-fifteenth century) or II (early fourteenth century). Ashur-uballit hinself had already stated (EA 15) that none of his predecessors had corresponded with the Egyptian court.
- 18 Anzi (2000 211).
- 19 EA 9. 31-5.
- 20 As noted in Chapter 3, this was the name by which the remains of the old Mitantian kingdom was now generally known.
- 21 KUB XXIII 102 (CTH 171) (= Hagenbuchner 1989: 260-4 no. 192) 15-18, trans. Beckman (1996. 138). The identity of the fetter's author is still not entirely certain. For its attribution to Uthi-Teshub, see Fiagenbuchner (1989-263), supported by Beckman (1996: 138) and Bryce (1998-283). Liverani (2001. 42) still favours identifying the author with the Hittite king Tudhaliya IV and the addressee as Tukulti-Ninurra I.
- 22 In general on the ideology of brotherhood, see Zaccagnini (1987: 61-2). Liverani (2001, 135-8).
- 23 KBo I 14 (CTH 173), nov. 15'-16', trans. Beckman (1996, 140). The first few lines of the letter where the author's and the addresses's names would have appeared are missing. However, ets extribution to Hattusili is almost certain, and in that case the addresses must be Adad-nizati I. See Beckman (1996: 139). Klengel (1992: 125, n. 199, 1999, 269).
- 24 KBo I 14 rev 4'-10', after Beckman (1996: 140).
- 25 AHK 5 obv. 10': 24-5
- 26 EA 33-9.
- 27 Egypt also obtained copper from Byblos and countries in northern Syria, but Alsaya undoubtedly became its main supplier of the metal.
- 28 Egypt itself was lacking in silver deposits and obtained its supplies by way of tribute (amongst other means) from its Assatic termineres or by way of trade from Flatti (etc.). Zaccagnini (2000: 146) comments that in this context silver simply means 'orice' or 'teonivalent' value' of any item traded.
- 29 EA 3: 18-19, after Moran
- 30 EA 3 27-9, after Moran.
- 31 This and the following two passages are from ÄHK no. 4, 22-5
- 32 AHK 5 obv 8'-9': 24-5.
- 33 Cf Edel (1960: 20).
- 34 This and the following quiescions (to the end of the next paragraph) are from AIIK 24, 58–63.

35 This and the following quotations (to the end of the next paragraph) are compiled from passages in AHK 20 and 22: 50-1 and 53-6, respectively.

36 As in the case of all such treaties, Kupanta-Kurunta was obliged to pledge his allegiance not only to his treaty partner, but also after his death to his successors in the direct family line. This applied in the first instance to Muwatalli, Mursilis son and successor, and in the second inscance to Urhi Teshub, Muwatalli's son and successor. By the terms of his treaty agreement he was bound to support Urhi-Teshub over the usurper Harrisili.

37 AHK 28 abv. 9-13: 74-5.

38 Beckman (1996, 124)

39 Alternatively, Houwark ten Care (1974: 143) suggests that what Hattusili received was a copy of the letter, whose original was in fact sent directly to Kupanta-Kurunta by Ramesses.

5 Gift-exchanges

1 EA 14 Summerfeld (1995: 920) notes that the intensive relations with Egypt brought so much gold into Babylonia that for more than 100 years after Burnaburiash II gold replaced the tradictional silver as the usual stand and of equivalence (Weight equivalences: 1 ralent (c 30 kgs.) = 60 minas; 1 mina = 60 shekels.)

2 ÄHK54 abv. 8'-11': 140-1.

5 There were in fact two inventories of gifts: BA 22 and 25. Kitchen (1998: 258) comments that one set is clearly intended for the pharach himself, with chatiots, weapons, etc. (EA 22); the other set is a dowry fit for a princess (EA 25), with its earnings, toggle pins, baselets, mirrors, combs, necklaces, ointment vessels, etc.

4 EA 16: 32-3.

- 5 EA 11: rev. 19-20
- 6 See Oller (1995 1,469).
- 7 Further on the personal gifts sent by Ramesses and his family, see Cochavl-Ramey (1999 195-210).

B ÄHK 12, 40-1, crans. Beckman (1996: 123).

9 Cf Zaccagnini (1987: 60-1).

- 10 BA 16. 14-21 On the implausibility of Ashur-uballit's appeal to precedent on this occasion, see Chapter 4, n. 17.
- 11 BA 27, 32-3, after Moran.
- 12 Based on EA 20: 46-59.
- 13 EA 7, 71-2.
- 14 EA 7: 64-70
- 15 EA 1: 67-77
- 16 On the determination of the value of a gift item, see Zaccagnini (1987-58)
- 17 EA 7 33-8, after Moran. See also Liverani's comments (2001 155)
- 18 The pharaoh addressed in his fetters as actually unnumed, but is almost certainly Akhensten.
- 19 EA 35 19-26 For the surprising nature of the last of these requests, see Moran's comments (1992-109, n. 6).
- 20 EA 9 12-13
- 11 EA 19 54-8
- 22 EA 24 or 76-107.

- 23 Cf Zaccagnini (1987-59), Liverani (2001, 156-7). On the other hand, the Alasiyan king's demands to the pharaoh for 'silver' in exchange for copper (EA 35 and 37) seem to come close to straightforward metrantile transactions, cf. Avruch (2000: 155).
- 24 EA 4 47-50, after Moran.
- 23 EA 7 61-2
- 26 Cf Zaccagoini (2000: 151).
- 27 EA 35. 13-14, trans. Moran.
- 28 EA 7 53-60 We have discussed, in Chapter 4, another possible implication of this excuse.
- 29 For a comprehensive list of references to iron artefacts in Hittire texts, see Košak (1986).
- Hattusili's letter to Adad-nirari I (KBs I 14) obv. 20"-4", srans. Beckman (1996: 140)
- 31 EA 7 73-82
- 32 EA 161 41-6.
- 33 EA 8 26-9, after Moran.
- 34 EA 8. 30-4, after Moran.
- 35 On land and sea transport between Egypt and other Near Eastern lands, see Tyldesley (2001: 63). More generally on transport in the ancient Near East, see Astour (1995: 1,401-20)

6 The marriage market

- 1 EA 19: 21-2, after Moran.
- 2 EA 31: 11-14, trans. Moran. Meier (2000: 169) commence that there is no evidence that the accounting of a woman before marriage was an Egyptian custom. Rather, it indicates that Egyptian kings followed the practice of their Near Eastern neighbours in this respect.
- 3 Bryan (2000: 82) sees the probabition by the eighteenth dynasty pharaohs as a means of protecting chemiselves against the claims of families nutside the dynastic line. Cf. Kitchen (1998: 255). It was not in fact until the period of the twenty-first dynasty that an Egyptian princess was sent abroad to marry a foreign king, in this case the Israeliie king Solomon.
- 4 EA 4 11-13 The letter almost certainly belongs to the correspondence exchanged between Amenhotep III and Kadashman-Enlit, though the opening lines of the letter which contained the author's and addresses a names are now lost.
- 5 The quotations in this and the previous paragraph are based on EA 1: 10-35.
- 6 See Bryce (1998: 331).
- 7 See Klengel (1992 141-2), Bryce (1998: 345-7).
- 8 EA 11.
- 9 EA 11, 19-22.
- 10 EA 1 61-2, crans. Moran. As indicated by Moran, the translation is not altogether certain.
- 11 Information provided by an Egyptian scarab commemorating het attival in Egypt, see Tyldesley (1999: 28).
- 12 EA 29 16-18.
- 13 See Helck (1984: 159-60)
- 14 Murnane (1995-9).

15 ÄHK 105 (KUB XXI 38) obv 8'-11'; 216-17, adapted from trans. by Beckman (1996-126). We should remember, as discussed earlier, that this particular document is a draft letter from Puduhena. We cannot be sure how much of what appears in the draft was incorporated into the final version sent to Ramesses.

16 Houwink ten Cate (1994: 238) thinks in terms of 'an economic or administrative institution, presumably situated in the capital, but not necessarily forming

part of the Palace on the citadel."

17 AHK 105 obv. 15' 16' 216-17, after Beckman (1996, 127). 18 AHK 105 obv. 12' 13' 216-17, trans. Beckman (1996, 126-7).

19 Almost certainly, Puduhepa was not Hattusile's first chief wife, though we have no information about an earlier queen who may have filled this position.

20 AHK 49 obv. 14-16; 130-1.

21 AHK 51 obv. 17-20: 136-7.

22 AHK 56: 146-7.

23 AHK 54: 142-3.

24 ÄHK 57: 148-9.

25 Trans, Tyldesley (2001 138).

26 It has even been suggested that Nefertiti may for a shore time have been her husband's co-regent and successor, that she was in fact Smenkhkare. It is interesting to note, as Tyldesley (1999: 80) points out, that Nefertiti is never specifically mentioned in the Amarna letters, and or would seem that to Akhenaten's correspondents she was of negligible significance. Her curious exclusion from the Amazna letters does seem to suggest that her influence at home did not extend into the international arena.

27 Sec Tyldesley (2001, 129).

28 Tyldesley (2001: 134).

29 E.g. this was a condition stipulated by Muwatalli in marrying his daughter Massanguzzi to the western Anatolian vassal ruler Masturi, and by Huttusili III in marrying his daughter Gassuliyawiya to the Amuente king Benteshina.

30 AHK 106 obv. 5'-9" 224-5, after trans. in Meier (2000: 171-2)

31 Extract from Ramessus' 'marriage-stele', trans. Kitchen (1982: 86, 1996: 86-96).

32 AHK 110 rev. 4'-6': 230-1.

33 However, in a personal communication Professor Kirchen has commented that the length of time Mast-Hor-Neferure lived at Fayum is wholly unknown; the fragment mencioning her there could be of any date in the mid to late years of Ramesses' reign.

7 Sending for the doctor

AHK 75, 178-81. The letter is trans. by Beckman (1996-131-2).

KUB XIX 5 (CTH 191) and KB₀ XIX 79.

3 Lines 5-6 of the above. For a templation of the surviving portions of the text, see Houwink ten Cate (1983-4: 39-40).

4 This is the the Egyptian name for Massanauzzi.

5 AHK 75 obv 16-rev 13, 178-9.

- 6 He was one of the signatures to the treaty inscribed on the bronze tablet between Tudhaliya and his cousin Kurumta. The tent of the treaty is edited by Otten (1988) For a recept English translation, see Hoffner (2000).
- 7 This information is provided by KUB XXII 13 (CTH 2114), a text recording offences committed by the Seha River Land and dating to the reign of Tudhaliya IV

8 Odyuny4 231-2

9 Herodotos 3 L

10 ÄHK 2 rev 2' 9'- 18 19.

- 11 ÄHK 30 obv. 12"-14" 80-1.
- 12 AHK 45 tev. [19-20]. 114-15.
- 13 AHK 46 rev. 12" 13": 122-3.
- 14 ÅHK 71 abv 12'-tev 12: 170-1. This is one of two pacallel letters referring to Kurunta's illness, the other is ÅHK 72: 170-3. Further on these letters, see Edel (1976 46-50, 82-91), van den Hour (1995-91-4). On the dating of the letters to the period between the 42nd and 56th year of Ramesses' reign (i.e. 1237-23), see Edel (1976: 20, 29-30). It is just possible, but unfikely, that Hattusili still occupied the Hittie throne when the letters were wratten.

15 Archives royales de Mari, 4-65, trans. Oppenheim (1967-108, no. 51)

- 16 EA 49: 24-5 Zaccagnini (1987- 60) doubts the truth of this, noring that Niqmaddu's request also included an order for two black servines ('attendants from Kush') In Zaccagnini's opinion, the purpose of the request was simply to enable the Ugarttic king to show off foreign peoples as anteresting farities at his court.
- KBo I 10 and KUB III 72, rev. 42 ff., after Beckman (1996: 137).

18 Op. cst., after Beckman.

19 Cf. Zaccagnini (1987, 59-60).

- 20 This and the following passages cited in this paragraph are from rev. 34-41 of Hartusiti's letter, and are adapted from Beckman's translation (1996: 136).
- 21 Rev. 58-61

Part III Historical episodes

8 The Syrian principalities

For a comprehensive, well-documented treatment of Syria and the control exercised over it by the Great Kingdoms in the Late Bronse Age, see Klengel (1992: 100-80).

Goecze (1975. 1).

- 3 The term 'Syria' is used here as elsewhere in this book in the very broad sense of the region lying between the Euphrates river and the Mediterranean Sea. This usage, which goes back to antiquity, thus covers a much more extensive region than modern Syria.
- 4 It should be noted that the term 'principality' as used here is one of variable extension. In some cases at applies essentially to a single city and its immediate surrounding territory. In other cases at covers a broader region, which often includes a number of smaller towas and vallages and farming estates.

5 EA 132. 1-7, trans Moran

- 6 Complaints by vassals against Egyptian officials appear, e.g., in EA 234 270, 285, 289, 292
- 7 In general on the relationship between Egypt and her Syro-Palestinian vassals, see James (2000).

8 We noted in Chapter 2 that there is no clear evidence for such agreements.

9 Weinstein (1998: 228) suggests that it was the economic benefits that Egypt derived from the region that caused a series of pharaohs to show a remarkable tolerance for disorder among the polities of the northern empire.

- 10 See also Klengel (1992, 175-8).
- 11 EA 141 3
- L2 EA 146-55
- 13 EA 147 66-71
- 14 In EA 151 64-8, Abi-Milku reported that Zimredda had assembled troops and ships from the cities of Aziru against him.
- 15 EA 149 54-63
- 16 For a more detailed treatment of Late Bronze Age Ugant, see Klengel (1992 130–51).
- 17 EA 46-8; See Moran (1992: 118, n. 1).
- 18 See Bryce (1998, 177-9).
- 19 Also the sest of a local king, appointed by the pharnoh, who received envoys from Egypt and sent gifts and tribute to the pharnoh.
- 20 Sec EA 254-6.
- 21 EA 189 obv. 12
- 22 EA 189 rev. 9-12 For the Habiru, see Chapter 9.
- 23 EA 195, 24-32.
- 24 EA 7: 73-5.
- 25 EA 195, 16-23, trans. Moran. EA 194 and 196 contain similar protestations of loyalty.
- 26 The earlier settlement has yet to be discovered.
- 27 EA 53: 42.
- 28 EA 59: 25-8.
- 29 For a more detailed treatment of Niya and the Nuhante Lands, see Klengel (1992, 151-6).
- 30 EA 53-5. 31 EA 59: 13-20.
- 32 Its history is treated at some length by Klengel (1992, 157-60).
- 33 EA 189. His initial nominal allegiance to the pharaoh perhaps had the agreement of the Hittires, who, Klengel (1992: 138) suggests, did not want to offend the Egyptian overloads of Kadesh. But where EA 189 belongs in the chronology of events of the Amarton period remains uncertain. It is possible that the letter was written by Aicaldama prior to the Hittire attack on Kadesh, and the removal of the royal family from it, if we accept the suggestion that Airaldama already at that time ruled as co-region with his father (cf. Klengel (1992: 157)).

9 The warlords of Amurna

- 1 On Amurru and its rulers, see also Singer (1990, 1991), Klengel (1992-160-74)
- Z EA 144: 22-6, after Oppenheim (1967: 126).
- 3 Scholars disagree on the time-relationship between the careers of the Amurite leader Abdi-Ashirta and subsequently his son Aziru, on the one hand, and the reigns of the pharsoh Amenhorep III and his son Amenhorep IV/Akhenaten on the other Abdi-Ashirta and Aziru both figure prominently in the letters of Rib-Hadda, king of Gubla, discussed beliew (pp. 147). Sanger (1991–148) believes that all of Abdi-Ashirta's recorded activities fell within the reign of Akhenaten, after the transfer of the capital to Akhetaten in Year 5, while noting that his career in Amurru may have started long before his first appearance in the Amartia cottespondence Comma Singer, Freu (2002b. 90) believes that Abdi-Ashirta's activities, at least those recorded in the first series' of Rib-Hadda's letters, belong within the reign of Amenhorep III. The matter is further compli-

cated by the question of whether or not, or for how long, there was a co-regency between Amenhotep III and his son. We shall slott found these problems here by simply using the term 'phaenoli to refer to the occupant of the Egyptian throne while Amineru was under Abdi-Ashirta's control. We can confidently assign the activities of his sun Azuru, as recorded in the 'second series' of Rib-Hadda's letters, as well as in Aziru's own correspondence with Egypt, to the reign of Akhenasen.

- 4 Greek Simyra. It lay at the mouth of the Night el-Kabir river.
- 5 EA 71 16
- 6 EA 84 11-14
- 7 Based on Moran's restoration of the fragmentacy opening lines of EA 62. This 13 a letter from Abdi-Ashirta ro Pahlianate, in which Abdi-Ashirta apparently quotes Pahlianate's words of denunciation.
- 8 EA 60 19-29, trans Moran.
- 9 Cf. Singer (1991, 144), who suggests that his letters to Egypt were probably written from there.
- EA 85 51-5, see also EA 95 27-33. In this context note also the claim made by R.b-Hadda in EA 90: 19-20 that Abdi-Ashirra had visited Mitanni.
 Liveran (1998: 391-2).
- 12 Sec Singer (1991 146-8), who opposes any notion of collaboration between Abdi-Ashirta and either Mitanni or Hatti.
- 13 EA 74: 15-19.
- 14 EA 76: 11-16.
- 15 Thus Aduns, king of legeta (EA 75: 25-6).
- 16 EA 74: 23-30, after Moran.
- 17 EA 73 17-25, after Moran.
- 18 EA 88 16
- 19 EA 92 35-7, truns. Moran.
- 20 To judge from Zemredde's letter to the pharaoh, EA 144: 22-30
- 21 EA 83: 21-7.
- 22 EA 89: L5-29.
- 23 EA 85. 6-15.
- 24 This and the following quotations in this paragraph are from EA 74 31-53, and are adapted from the trans. by Moran.
- 25 EA 81, 12-14, after Moran
- 26 Adapted from EA 81, 15-16 and 82: 38-9
- Adapted and condensed from EA 83, 23-51.
- 28 EA 91 16-19, after Moran For the insertion of 'shekels' in the text, see Moran (1992; 165, n. 4).
- 29 Singer (1991-146); he argues against the suggestion that the pluraoh had finally caken action against Abdi-Ashirra for his alleged collaboration with Micanni or Hatti
- 30 EA 117 21-8, trans. Moran Cf EA 108 25-33, where the reading is less certain.
- 31 EA 101 All that survives is the second of a two-tablet letter which does not preserve its authors name.
- 32 EA 101 29-30
- 33 Note the alternative interpretation proposed by Altman (1977), cited also by Moran (1992–174, n. 4). More recently Liverani (1998: 389, 393-4) has proposed they will defeat Abdi-Ashiria?
- 34 EA 103 8-11, after Moran.

- 35 EA 104 6-13 Singer (1991, 149) notes that all these places lay in the southern part of Amurru, in the zone bordering the domain of Guida.
- 36 EA 102-15-16.
- 37 EA 102, 17-19, after Moran
- 38 EA 104: 49-54
- 39 Biblical Arvad, mod Ruad
- 40 EA 105, 11-17
- 41 EA 105: 83-5, after Moran.
- 42 EA 105 11-13
- 43 EA 103 20-2, after Muran.
- 44 EA 103 23-9, rrans Moran.
- 45 EA 104 31-6, trens. Moran.
- 46 EA 106 10-11
- 47 EA 157: 9-19
- 48 EA 156: 10-12 He did so apparently at the pharach's request Singer (1990, 135) comments that this may be regarded as a first sign of the pharach's willingness to accept Aziru's submission, despite the opposition of some Egyptian officials in Sumur.
- 49 See the comments of Singer (1991: 150) on the difficult question of whether Aziru's letters with his diplomatic overtures to Egypt were dispatched before or after his takeover of Sumus.
- 50 EA 171: 12-13.
- 51 EA 158: 14-19
- 52 Later perhaps he was looked upon as one who anight represent the Amurrite cause in a more favourable highr before the pharaolt.
- 53 EA 157: 28-33.
- 54 EA 157: 37-41.
- 55 I follow here the chronology of Aziru's career proposed by Singer (1990: 134-44).
- 56 EA 140 20-5. Cf. Singer (1990: 136) It is difficult to see how he could have done this without the phacaoh's knowledge, given the mechanics of the messenger system, and we must remember that the letter comes from a highly biased stoof dealings likely, the episode it refers to belongs within the latter context of dealings between Aitakkama and Aziru after the latter's return to his homeland.
- 57 EA 169: 16-21
- 58 EA 170.
- 59 The Bequ' valley between Lebanon and Antilebanon.
- 60 Even if the assumption that the letter was captured by the Egyptian authorities is correct (see Singer 1990-133-4, n. 1), almost certainly it was intended to fall into their hands. Cohen (2000-93) speaks of EA 170 conjuring up a picture of an Amucru skilfully manacuving herween the Great Powers on the pass of sound intelligence.
- 61 For a concise summary of Hittite accessly in the region at this time, see James (2000: 118)
- 62 As indicated, for example, in the pharaoh's letter to him, EA 162, where Aziru is addressed as 'ruler (hazanni) of Amorro' (bite 1)
- 63 EA . 61 28-9.
- 64 EA 160 and 16]
- 65 EA 161, 35-40, after Moran.
- 66 EA 161 12-16

- 67 EA 59 43-6.
- 68 EA 165 28 41. Singer (1991: 153) sees this reference as a valuable chronological clue which can probably be related to Suppilohumus one-year Synan campaign (c. 1340).
- 69 EA 124 9-16, after Moran.
- 70 EA 131 10-14.
- 71 EA 106 13-15, trans. Moran.
- 72 EA 124 36-7
- 73 EA 136 8-15.
- 74 EA 136 24-32
- 75 EA 142 15-24.
- 76 EA 137 27-30
- 77 EA .62- 2-12
- 78 EA 162
- 79 lzre'e, (1991; §2.3.2 1).
- 80 Singer (1990: 141, n. 1).
- 81 EA 162 19-20
- 82 EA 162: 22-5, trans Muran.
- 83 Thus Westbrook (2000: 38).
- 84 EA 162: 35-8 trans. Moran.
- 85 Following Singer's chronology, this would have been his second visit to Egypt
- 86 EA 162: 50-3.
- 87 Probably soon after the one-year Syrian war. Cf. Singer (1991: 154).
- 88 See Chapter 30, and also Singer (1990: 164-5, 1991-155).

10 Hittite frontier correspondence

- 1 This is clear from the fact that the majority of the correspondence found in the archives consisted of letters addressed to the Great King.
- For a summary of the site and its finds, see Suel (2002).
- 3 For a summary of the site and its finds, see Müller-Karpe (2002).
- 4 On the identification, see Alp (1991a, 42-3).
- 5 For a comprehensive general account of the letters, see Klinger (1995).
- 6 Two tablets discovered in the third level of the sice bear seal impressions with the name of Tudhaliya, father of Suppiluliuma. See Alp (1991a: 48-50, 109-12) The father-son relationship was proved by a billia found in the (later) level II of the size bearing the impression 'Suppiluliuma, son of Tudhaliya' (Alp (1991a: Abb. 3 and Tafel 3).
 - 7 HKM 2-1-9
- 8 According to Octen (1956; cited also by Beckman 1995; 25, n. 38), Hittite bureaucrats' practice of addressing each other as 'my brother or by a similar term of family selationship probably goes back to the days when they were school students together.
- 9 Thus Alp (1991s, 71), who observes that from letter 71 we can conclude that he bore the title UGULA NIMGIR ERÍN MES, 'Chief Military Inspector', See also Beckman (1995) 23).
- 10 See Beal (1992; 406-7).
- 11 HKM 3
- 12 HKM 10 17-22
- 13 HKM 102
- 14 Hoffner (2002: 68).

- 15 HKM 58 5-14, after Hoffner (2002; 68-9).
- 16 HKM 59 Cf Alp (1991a: 336).
- 17 Adapted from HKM 10: 42-52.
- 18 See Bryce (2002: 16-17).
- 19 HKM 48 31-2, HKM 49: 4-5
- 20 HKM 52 We shall discuss below the complaint lodged by Tachunmiya against the local authorities in Tapikka.
- 21 HKM3, referred to above.
- 22 Adapted from HKM 3: 17 ff.
- 23 HKM 31 20-30.
- 24 HKM 53: 20-3.
- 25 HKM 56: 7-19 Alp (1991a: 63) concludes that Himuili was back in Harrusa at the time since the same tabler contains a letter from the Harrusa-based scribe Tarbunmiya to Walwanu, a scribe in Tapikka.
- 26 HKM 58, 29-31.
- 27 HKM 68.
- 28 Suggested by Alp (1991s. 83).
- 29 HKM 55: 30-3, trans. Beckman (1995: 24).
- 30 HKM 74.
- 31 See Singer (2002: 309-10), Freu (2002c: 71-2).
- 32 HKM 52.
- 33 At least, in earlier versions of the Laws. The number of those who were exempt may have been considerably reduced in later versions.
- 34 Based upon HKM 52: 25-39.
- 35 See also HKM 27: 17-25.
- 36 HKM 52: 10-18, after Beckman (1995: 26).
- 37 A man called Palluwa. On the possible identification of this man with a Hittite prince of that name, see Singer (1999: 69-70).
- 38 It is possible that Zu-Ba'al presented his case to person before the Great King, though his appeal might just as well have been conveyed by a messenger. Cf. Singer (1999: 68).
- 39 Probably the local Hittite commander (Singer 1999: 68).
- 40 MiK 73, 1097 = Laroche (1982 no. 1), transcribed and trans. by Singer (1999: 66-7). (The translation here is adapted from Singer's) CF Laroche (1982: 54).
- Transcribed and cosns by Singer (1999: 66–7).
- 42 Singer (1999, 70) It should, however, he said that Zu-Ba'al was clearly a person of some eminence within Emar's religious establishment, as his title 'LU-HAL' indicates, as well as having an important role in the affairs of the city in general: see also Westenhoiz (2000: 78-80).
- 43 HKM 30, 1-10
- 44 HKM 46: 3-4.
- 45 HKM 17.
- 46 HKM 25: 6-10.
- 47 HKM 50
- 48 HKM 15.
- 49 HKM 16. 50 HKM 35
- 51 HKM 20
- 52 KBoVI 28 (CTH 88), obv 6-15, adapted from trans. by Goetze (1940-21-2)
- 53 As is fuscrated by the instructions issued to the BEL MADGALTI, see von Schuler (1957: 41–59).

54 R5 20 33 (Ugaritua V, No. 20).

- 55 From the fact that two other letters in the archive are addressed to a man called Rapanu and another bears his signature, and from the lexicographical rexts and other texts of an educative nature which the archive concains, the conclusion has been drawn that Rapanu was the owner of the house, that he was a stribe and otherwise a person of considerable distinction in the city (see lize el and Singer 1990-9).
- 56 The last pare of his name is missing. For a review of suggestions as to how it might be completed, see Singer (1990: 174-8).
- 57 This and the following passages from the letter are taken or adapted from the trans by Izre el in Izre el and Singer (1990: 23-7).
- 58 In a first battle at Kadesh, resulting in a victory for Sett; see Bryce (1998: 250-1).
- 59 Discussed at length by Izre'el (1990), with summary of conclusions (pp. 110-11).
- 60 For possible reasons why the letter, if addressed to Suppituliums, was actually located in a private residence in Ugarit, see Singer (1990-172-3). On the other, lexical, text which has been dated to no earlier than the first half of the thirteenth century, see lare'el and Singer (1990: 11) (with refs cited therein).
- See Freu (2002a: 37).
- 62 This possibility is discussed by Singer (1990: 171-2), who notes that the lesser title 'king' in the letter's introductory formula is suggestive of a viceroy, as distinct from a 'Great King', who is normally either addressed as such or by the title 'My Sun'. Because of other considerations, however, this is not Singer's prefetted option.
- 63 Most likely to the Carchemish vicercy Sharri-Kushuh, who seems to have had particular responsibility for the defence of the Mittute subject states in Syria; see Bryce (1998: 203-4).

11 An extraordinary request

- 1 Ed Gürerbock (1956), cited as DS All the passages in this chapter quoted from the biography are taken or adapted from Güterbock's translation.
- 2 DS, p 94, frag. 28, A sii 11-15.
- 3 See Bryce (1990).
- 4 The case for identifying Niphururiya with Alchenaten has been presented at some length by Knuss (1978 esp. 9-19), and recently argued afresh, e.g. by Helck (1994: 16-22), Reeves (2001: 176-7).
- 5 Note that Kitchen (1998: 253, n. 137) emphatically reasserts the identity of Niphururiya with Turankhamun. Cf. van den Hout (1994-85)
- 6 Carter and Mace (1927: 196),
- So too the Greek historian Herodoros reported, many centuries later, in his account of Egyptian embalming procedures (2.86).
- 8 A period of 272 days elapsed between the death and burial of the fourth dynasty queen Meresankh (III); Urk 1, 156-7 (98).
- 9 We have no evidence that foul play was involved, despite a great deal of speculation to this effect.
- 10 DS, pp. 96-7, frag. 28, A in 50-A av 12
- LL ÄHK I: 14-15
- 12 D5, pp. 97, frag. 28, E3 iv 8-12
- 13 DS, pp 97-8, frag. 28, A iv 13-15.

14 DS, pp. 108, frag 31, 7'-11

15 KLB XIX 20 (CTH 154), ed. Hagenbuchner (1989: no. 208, pp. 304–9) For a suggested reconstruction of the letter's contents, see Murnane (1990. 25–7)

12 Letter to a Mycenaean king

1 For recent treatments of the material evidence for Minoan sectlement at Mileton, see Niemeier and Niemeier (1997), Niemeier (1998, 27-9)

2 See Mee (1978), Niemeier (1998, 40-1).

3 For a recent treatment of the evidence for this in the light of ongoing excavations on the site, see Niemeier (1998: 34-40).

4 Cf. Hawkins (1998, 2).

5 Some decades prior to this, a 'man of Ahhiya' called Accarssiya was militarily active both in western Arasolia and on the island of Cyprus However, his designation man of 'suggests that he was an individual Ahhiyawan who had established a base in western Anatolia rather than an officially recognized king; see Bryce (1998: 140)

6 See Bryce (1998 209-10)

7 KUB XIV 3 (CTH 181), ed Sommer (1932, 2-194), and trans, in part

by Gurney in Garatang and Gurney (1959, 111-14)

- See refs in Bryce (1998, 321, n. 89). Gurney (2002) has now argued for an earlier attribution to Hattusili's father, Muwatalti. However, I believe that the weight of evidence still favours Hattusili.
- 9 Sallapa's location is unknown, but it must have been situated about halfway along one of the routes between the Hittite capital and Pivamaradu's base in western Anatolia
- 10 This and the following passages are extracts from the Tawagalawa letter, translated by Gurney or adapted from his translation.
- 11 The distinction, if any, between tubkantiand tartens is uncertain. On the apparent interchangeability of the terms, see Gutney (1983, 97-8).
- 12 It had probably come under Abbiyawan control some time during the reign of Miswatalli; see Bryce (1998, 244)

13 Page (1976: 15)

- 14 On the possible historicity of the Trojan War, see Bryce (1998: 392-407).
- 15 fe during the LHIIIb period Cf Mee (1978-146, 1984-45), Mellink (1986, 94).
- 16 The join is to the so-called Manapa-Tarhunda letter, and the augmented letter (KUB XIX 5 and KBs XIX 79) is edited and discussed by Houwink ten Cate (1983-4 38-64)

17 See Bryce (1998: 395).

18 See Guerbock (1986: 35), who proposes Wilusa>*Wilusa>*Wilusa> Wilios, the initial w equating with an original Greek digamma.

19 See Hoffner (1982)

20 Hawkins (1998-19).

21 Tudhaliya Shanshgamuwa treaty (KUB XXIII 1 (CTH 105) IV 1-7 The treaty is edited by Kühne and Otten (1971).

13 The clusive Urbi-Teshub

1 The following account of the deteriorating relations and eventual conflict between uncle and nephew is based upon the so-called Apology of Hattusili (CTH 81), ed Otten (1981).

2 Apology §11, IV 34-5

- We know of his letter to Shalmaneser from the fact that the Assyrian king's son and successor Tukulri-Ninntra subsequently tenuned it to Tudhaliya IV, as indicated in Tudhaliya's letter to Tukulti-Ningira, KUB XXVI 70 (CTH 209 21). See Hagenbuchner (1989, 265-7 no. 194).
- 4 He may also have accempted, unsuccessfully, to gain the support of the king of Ahhiyawa, see Klengel (1999: 223-4 (for refs), 232)

KBs I 10 and KUB III 72 (CTH 172) obv. 67-9.

6 This response (trans. Beckman 1996: 135) allegedly made by Kadashman-Turgu is also reported by Harrussli in his letter to Kadashman-Enlil Though it occurs shortly before the reference to Harrussli's enemy's flight to Egypt, I have taken it as belonging to the same context

7 It is possible that for his own ends Haccusils trakered with the truth in teporting to Kadashman-Enlif the offer allegedly made by his father and

predecessor.

- 8 Passage from a letter by Hattusili to Ramesses, quoted by Ramesses in his letter to Kupanta-Kurunta, ÄHK 28 obv. 15-19, 74-5, trans. after Beckman (1996–124)
- 9 ÄHK 27 obv. 1'-11', 72-3

10 ÄHK 26: 70-3 and ÄHK 27: 72-5, respectively.

11 This largely follows the reconstruction of events proposed by Edel (AHK II 123-4)

12 AHK 28, obv 21-7: 76-7

13 AHK 29, esp. obv. 17-21: 78-9.

14 AHK 24 rev 23-5 62-3.

15 We must of course remember that Puduhepa's letter is only a draft. Parts of what she said may well have been modified or deleted as her final version.

16 Two from the former, five from the latter, published by Alp (1974). See Hawkins (2000:433-41).

17 Alp (1974: 20), Hawkins (2000: 437-8, 442).

18 Hawkins (1992: 270).

19 Singer (1996: 68-73)

20 This is evident from an oracle enquiry text, KUB XVI 32 (CTH 582), in which Hactusili III's son and successor Tudhaliya considered the question of territorial compensation for Urhi-Teshub's sons.

21 As suggested snitistly by Mellagre (1974 514-16). See, more recently,

Singer (1996: 70), Hawkins (1998: 20-1).

22 Unless we take up Singer's suggestion (1996, 64-5) that there was a period of peaceful co-existence and co-operation between two Anatolian Great Kings at the end of the Late Broaze Age.

14 Last days

L See Bryce (1998: 355-6, 363-4, 364-6), with refs.

2 See Bryce (1998, 370-1), with refs

- 3 He was in fact one of the high-ranking officials of Elacti appointed by the Hittie king as a 'surrogate son' See Beckman (1992: 47), Bryce (2002 27-8)
- 4 RS 17 247 = PRI/ IV 191. Also trans. Beckman (1996, 121 no. 21) See further on this episode Klengel (1992, 145).

Bordreuil (1991).

6 Prior to the 1994 find, twenty-two cablets had been unearthed during the

course of three excavations conducted between 1986 and 1992. For preliminary notes on these, see Bordreuil and Pardee (1995). See also Singer (2000: 21-4). The post-1973 material has yet to be published.

7 See Bordreuil and Pardee (1995: 31, 32).

8 See Beckman (1992: 46).

9 RS 34.136 (Malbran-Labat 1991, no. 7: 29-30), 5-21.

10 RS 17.059 - PRU IV: 150-1

11 RS 20.237; see Nougayrol et al. (1968: 102-4).

12 RS 17.289 = PRU IV 192.

13 A city on Ugarit's northern frontier, and thus still under the Ugaritic king's immediate control, rather than in Mukish, which lay to Ugarit's north.

14 RS 34.143 (Malbran-Labat 1991, no. 6: 27-8) 5-13.

15 RS 34.165, ed. Lackenbacher (1982; 1991: 90-100). See Singer (1985), Bryce (1998: 350-2).

16 Cf. Singer (2000: 22).

- 17 RS 34.139 (Maibran-Labat 1991, no. 14: 41-2).
- 18 RS 34.135 (Malbran-Labet 1991, no. 17: 46-8, 8-19).
- 19 RS 34.149 and RS 34.137 (Arnaud 1991b, nos. 38 and 37, respectively, pp. 79-81).
- 20 RS [Varia 26] (Arnaud 1991a, no. 30: 66-7).
- 21 RS 34.134 (Arnaud 1991a, no. 30: 68-70).

22 Bordreuil (1991: 14).

23 Arnaud (1991a: 65).

24 RS 34.129 (Malbran-Labar 1991, no. 12: 38-40). See also Dietrich and Loretz (1978).

25 Thus Singer (2000: 24).

26 RS L1 8-28 = Nougayrol et al. (1968: 85-6, no. 23).

27 RS 20.238 = Nougayrol et al. (1968: 87-9, no. 24), trans. Astour (1965: 255).

28 RS 34.152, 9-14, trans. Singer (2000: 24).

29 RS 20.212, 17'-26', adapted from trans. by Heltzer (1977: 209). For the full text, see Nougayrol et al. (1968, no. 3): 105-7). Cf. RS 20.141 B (op. cit., no. 34, 107-8), RS 26.158 (op. cic., no. 171, 323-4).

30 Yon (1992: 111). For evidence of fighting throughout the city, see Yon (1992: 117).

Appendix: the Amarna letters Notes

Cohen and Westbrook (2000: 4).

The most authorizative edition of the America letters is that of Moran (1992). For a recent detailed commentary on the letters, see Giles (1997), with translations of selected letters supplied by A. B. Knapp.

3 EA 14, 22, 25.

4 See Artzi (1990: 140). These cexts are the subject of a study by lare'el (1997).

5 Liverani (1998: 387), with examples. 6 See Albright (1975: 99), who points disk that the would be interpreter of the texts must be a specialist in Hebrew and Ugaritic as well as in Akkadian.

7 See Rainey (1995: 109-10).

- 8 On the chronology of the letters and the means of determining it, see Albright (1975: 99-100).
- 9 Reeves (2001: 62-3).

10 Artzi (1990: 140). Moran (1992: xvi) suggests that the name 'House of the Letters of the Pharaph' might in fact refer not merely to a storage place for letters from abroad, but to a larger complex, the more extensive part of which was devoted to affairs of state conducted in the Egyptian language.

11 For a detailed treatment of the references in the Amarna letters to intelligence reports, especially from the pharaob's Syro-Palestinian vassals, see Cohen (2000). who notes (p. 97) that at least thirty-eight out of the 329 documents in the vastal corpus, and two items in the Great King file, contain intelligence refer-

- 12 Some sixty-seven or sixty-eight letters were written either by (the great majority) or to Rib-Hadda.
- 13 Cf. Moran (1992: xvii-xviii).

المحتوس

٥.	······
10	الجيزء الأول: إعبادة بتاء المشبهد
11	1 اللاعبون الرئيسيون
	2 التفاعلات المتبادلة بين القوى:
۷۱	الإدارة الإمبريالية والعلاقات الدولية
44	الجزء الثَّاني: الرامسانات ومضمونها
40	3 الرسيائل والرسل 3
17	4 نادى الإخـــوة الملوك٧
١٥	5 تبادل الهدايا٧٠
۱۷	6 ســوق الزواج ه/
11	7 استدعاء الأطباء
41	المِن الثَّالَث: أحداث تاريخية
	8 الإمسارات المسسورية ٣
**	9 ملوك الحــرب في عــمــورو ٥٠
۲۷	10 مراسلات الججهة المثية١٠
44	11 طلب عــ جــ پپه۱
۲۱	12 رسالة إلى ملك مسيحسينيا
	13 أورحى تيــشــوب المراوغ ٥٠
٣٥	14 تخــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
٣٦	ملحق : رسمائل العمارنة ها
	الهــوامش

هذه الدراسة الشيقة تضم دراسات عن خمس مماك في عالم الشرق الأدنى القسوم، خلال العصر البرونزى المتأخر، وهي تلقى الضوء على سؤال جوهرى دى أهدية وحيوية قصوى: إلى أى حديمكن الدبلوماسية أن تحقيق سلاماً دائماً واستقراراً في تلك المنطقة بديلاً عن الحسرب والعنف.

من خلال رسائل كثيرة قارمت الفاه حستى عصرنا نظم أن عظماه ملوك الشرق الأننى الفنيم كنوا يكتبسون وير اساون بعضهم بشكل منتظم، ويبسنو الملوك من خلال نلك الرسائل مغرورين وعنينين، في معاسلاتهم لبعضهم البعض، إلا أن مر اسلاتهم لعبت بوراً مهماً على مسستوى النبلوملسية التولية في تلك المرحلة، وأسهمت في إرساء كثير من التحالفات التي تمت بينهم.

ارتكل البرواوسور برايس على تلك المراسات في المنطقة دائمة التغير والتبدل المدالسي، في المملك التي المنطقة دائمة التغير والتبدل المدالسي، في المملك التي التعشت من 3500 عام مصت. ويحسنوي الكتاب على مادة غزيرة منتوعة، من زواج التحافات، إلى تبادل الهدايا، إلى مراسلات الملوك مع كبسار موظفهم في مناطق الحسنود الحساسسة من مملكتهم، والسعى إلى حل المشلكل بالوسائل الدبلوماسية في أن أن تتفاهم وتقضى إلى حروب عظمى شاملة.

كما يتضمن الكتاب رؤية جديدة الأحداث فاتقهة الأهمية، والزوندا الرسائل بلمصات حسميمة ومهمة الشخصيات من كتبوها، وردود أفعالهم على الأهداث التي وقعت في عصرهم.

